العَالم ليسَ عقلاً 3

عبد الله القصيمي

أيها العقل من رآك



العَالم ليسَ عقْلاً
3

عبدالله القصيمي

أيها العقل من رآك



أيها العقل من رآك

عبدالله القصيمي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
WWW.alintishar.vom
بيروت ـ لبنان
هاتف: 1659148 - 961 فاكس: 1659150 - 961

ISBN 978-614-404-568-8

الطبعة الأولى 2002

فهرست

الخروج على العقيدة التي لا نستطيع الالتزام بها، أسلوب من أساليب الاعتذار إليها

عبد الله القصيمي

أنا أوجد لكي أتحول إلى مشكلة؛ لكي يصبح كل نضالي مقاومة لهذه المشكلة التي هي وجودي، أو حلاً لها، أو محاولة لحلها.

أنا أوجد لكي تصبح كل عبقريتي أسلوباً من أساليب المقاومة لوجودي.. إن أعدائي جميعاً لا يساوون أكثر من وجودي..

أنا أوجد لكي أصبح أنا كل أعدائي.. إن كل أعدائي لم يستطيعوا أن يكونوا أعدائي إلا لأني موجود، لأني أحيا..

إن وجودي كإنسان، ورطة فيها كل معاني العقاب والصدمة؛ وليس تمييزاً فيه شيء من معاني التفضيل أو التكريم. ولهذا فجميع أنواع نشاطاتي ليست إلا مواجهة لهذه الورطة، أو علاجاً لها..

إذن فكل أعمالي ليست إلا مداواة لحالة يصنعها وجودي.

انت لا تستطيع ان تكون ملحداً

إن العربي يتلوث ولكنه لا يلحد، لأن التلوث مستوى أعضاء، أما الالحاد فمستوى عقل وأخلاق..

كم هو مستوى صعب أن تصبح كافراً، بعقلك وأخلاقك واستجاباتك. إن ذلك لون من ألوان المعاناة الباسلة، وليس ذنباً من الذنوب..

أتمنى للإنسان أخلاق النجوم، كافرة بكل الآلهة. وأرفض له أخلاق الحشرات مؤمنة بكل الآلهة..

إن الكفر عملية شاقة معقدة، وليس كلاماً..

إنه موقف فكري ونفسي وأخلاقي.. والكلام ليس موقفاً..

*

إن إيماني ليس موضوع خلاف بيني وبين نفسي، ليس موضوع خلاف بيني وبين تفكيري. وإنه لا ينبغي أن يكون موضوع خلاف بيني وبين قرّائي.

إني لو أردت من نفسي وعقلي أن يشكا لما استطاعا، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت.

إني لو أعلنت عن نفسي بكل وسائل الإعلان أنفي إيماني، لما استطعت أن أصدق أني كذلك..

إن إيماني ذات.. إنه كينونة.. إنه ليس تصرفاً، ليس سلوكاً أمارسه.

إن إيماني هو ذاتي.. إنه كينونتي.

إنني لا أستطيع نفي إيماني لأني لا أستطيع نفي ذاتي، نفي كينونتي.

ماذا لو أن إنساناً ما، قال إنه لا يحب نفسه، لو قال إنه لا يحب الحياة؛ فهل نصدقه.. هل نعاقبه بكلامه.. هل يصدق هو كلامه..؟

هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو إحساسنا بها، بأية وسيلة إعلامية..؟

إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ. والإيمان من الحقائق التي لا يمكن أن تضعفها، أو تشكك فيها الكلمات التي قد تجيء غامضة، أو عاجزة، أو حادة، لأن فورة من الحماس قد أطلقتها. كما أنها أي الكلمات، لا تستطيع أن تثبتها.. أي تثبت تلك الحقائق.

إن إيماني يساوي: أنا أنام، إذن أنا مؤمن.. أنا أجوع، إذن أنا مؤمن.. أنا تعب، إذن أنا مؤمن.. أنا عربي، إذن أنا مؤمن.

مستوى راق

إن في كل مجتمع حقائق معينة أو علامات لا تخفى. إن من هذه الحقائق أو العلامات في المجتمعات العربية، قوة الإيمان.

إنه لا يخشى على العربي أن يكفر. إنه لا يخشى عليه أن يطغى فيه التفكير إلى أن يضعف الإيمان أو يزيله، أو حتى ينافسه.. إن هذا هو آخر ما يمكن أن يخشى عليه.

ولكن يخشى على العربي أن يبالغ في إيمانه، حتى ينهزم تفكيره أو يموت.. وحتى يؤمن بالخرافة، ويقاوم الإصلاح والعدالة والتطور، باسم الخوف على الإيمان والمحافظة عليه، وحينما يبلغ العربي أن يصبح تفكيره تهديداً لإيمانه يصبح العربي شيئاً كبيراً نتمناه له.

إن العربي يتلوث ولكنه لا يلحد، لأن التلوث مستوى أعضاء، أما الإلحاد فمستوى عقل وأخلاق.

ولو أن عربياً ألّف أشرس كتاب ينكر فيه الإيمان، ويطالب الناس فيه بوقاحة أو ضراعة، أن يحكموا عليه بالزندقة، وأن يصدقوا أنه خرج من كل أبواب الإيمان؛ لما استطعت أن أصدق ذلك، لما استطعت أن أثق بأنه قد أصبح كذلك.

لقد علمني ألا أثق بأنه يستطيع أن يكون ذلك؛ ولظللت مصراً على أنه مؤمن، مؤمن بأعماق تاريخه، وبكل مستوياته النفسية والفكرية والأخلاقية. بل لاعتقدت أن هذا الكاتب وهذا الكتاب، ظاهرة من ظواهر الإيمان المتوتر.. لاعتقدت أنهما إثبات للشيء بأسلوب نفيه، وهو أقوى أساليب الاثبات.. ولاعتقدت أن هذا المؤلف لا يعني إلا ما يعنيه الطفل حينما يقول لأمه: «لست أمي» أو ما تعنيه الأم حينما تقول لوليدها: «لست ولدي»، إنه تعبير عن الاحتجاج المحب الحاني، أو عن الحب العصبي، أو التدلل والثقة التي لا نخشى عليها التكذيب. وهو لا يكون أبداً أسلوباً من أساليب الإنكار.

إن أي عربي يحاول أن يقنعنا بأنه قد أصبح كافراً فلن يستطيع. إنه لا يستطيع، لأنه لن

يستطيع أن يكفر، لأن الكفر عملية عقلية شاقة معقدة، وليس كلاماً. إن الكفر موقف فكري ونفسي وأخلاقي، والكلام ليس موقفاً.

ما أصعب أن يكون المرء كافراً. إن أصعب من ذلك أن يصبح العربي كافراً. إن العربي لم يعودنا أن يقف المواقف العقلية المعقدة الشاقة. إننا عاجزون عن امتداح العقل العربي إلى مرحلة الاقتناع بأنه قد يصبح كافراً.

إن الإنسان لا يكون مؤمناً قديساً، إذا قال أنا مؤمن قديس. وإنه لا يكون كافراً رديئاً، لو قال أنا كافر رديء. إنه لا يكون بالنفي والإثبات.. لا يكون صادقاً، أو فاضلاً، أو عالماً، إذا قال عن نفسه إنه كذلك. ولا يكون عكس هذا إذا قال العكس.

إن الإنسان، فاضلاً ورديئاً، لا يساوي أدوات النفي ولا أدوات الاثبات.. إن الإنسان أكثر مشقة وتعقيداً من ذلك.. إنه أكبر وأكثر من أدوات النفي والاثبات..

الإنسان كفضائل وكرذائل، وجود لا كلام.. وهكذا جميع الحقائق.

أي إله أعني..

سيجد القارىء في هذا الكتاب أمثال كلمات: إله، آلهة، دين، أديان، نبي، أنبياء.

وقد يشعر أحياناً أنها كلمات لا تحمل الاحترام الواجب لهذه الأسماء، أو أن فيها شيئاً من التهوين والمساس. لهذا ظننت أني ملزم بوضع تصحيح صغير لهذا الذي قد يعد لدى فريق من القراء التباساً.

إني لا يمكن أن أعني بالإله أو الآلهة، إله الكون وخالقه، واهبنا القدرة على الإيمان به، والعجز عن طاعته، واهبنا الصبر عليه والصبر عنه..

وإنما أعني بذلك الطغاة أو الأصنام، أو عبث الطبيعة وحماقاتها الغبية، المزعومة من إبداع الإله، أو أعني به الأوهام أو النظم الاجتماعية المتأخرة الظالمة، المحروسة بأشرس الآلهة وأقواها.

.. وكذلك أعني بالأنبياء والأديان حيثما جاءت في كلامي، غير أديان الله وأنبيائه الذين جاؤوا ليطهروا الناس من الأهواء والشهوات، فاتخذ منهم الناس محللاً للشهوات والأهواء.

إن إيماني لا حدود له، ولشدة اطمئناني إلى إيماني لم أخف عليه من بعض التعبيرات التي قد تجيء متبرمة غاضبة.

لقد عرفت مكانة الإله والأديان والأنبياء في نفسي، وفي نفوس الناس من حولي، فلم أخف على الله ولا على الأنبياء والأديان من الألفاظ. ولو أني خفت هذا الخوف، لاتهمت الإله

والأنبياء والأديان بالضعف، فالذين يخافون على إيمانهم من الكلام، قوم لا يثقون بمن يؤمنون به.

إن العالم العربي يجب أن يثق بقوة عقائده، بقوة آلهته وطغاته، فلا يخاف عليها وعليهم من أي مبشر أو مفكر ضدها. إنها قوية قوية، وإنه هو ضعيف ضعيف.

إنه لا يخشى على الإيمان من الصدق مهما كان، وإنما يخشى عليه من النفاق والادعاء، والحديث عنه بلا فضيلة سلوكية أو نفسية أو عقلية. إنه حينئذٍ لا يعني غير مقاومة فضائل الدين، تحت شعار حماية الدين.

إذا كان ما نقول صدقاً، وجب أن نقوله حتى ولو كان ضد الدين، وهل الدين إلا الصدق..؟

وإذا لم يكن ما يقال صدقاً فكيف نخشاه على الدين.. وهل الكذب أقوى من الدين الصدق..؟

مزية يجب اكتسابها

إن على الموهبة العربية أن تثبت قدرتها على التسامح والشجاعة أمام كل التحديات والأفكار والصدمات. إن عليها أن تثبت أنها لا تخاف أي تحد.

لقد تسامح العقل العربي أمام وثبات أبي العلاء، وأبي نواس، وبشار بن برد، وابن رشد، وابن خلدون، وابن سينا، وإخوان الصفاء، وكثيرين غيرهم. لقد تسامح أمام بعض العقول والآداب التي نقدت، أو رفضت، أو تجرأت، أو فسقت، أو تكلمت بغير لغة الصلاة ولغة التقوى؛ فكان هذا التسامح تمجيداً للعقل العربي لا طعناً. وقد تعصب وضاق بمفكرين ومتمردين آخرين في أوقات أخرى، فأصبح ذلك طعناً فيه لا تمجيداً.

ونحن نفاخر اليوم بتلك المعاملة المتسامحة، ونخجل من تلك المعاملة المتعصبة، ونحاول إخفاءها أو إنكارها. ولن تطعن الموهبة العربية ومزاياها العقلية والثقافية، بمثل اتهامها بمقاومة التفكير، ومعاقبة الذين يفكرون بمنطق لم يكن الآباء يعرفونه أو يغفرونه.

إن أي حاكم أو زعيم أو كاتب أو داعية دين، يرفض اطلاق الأفكار ويتحول إلى إرهاب لأي مفكر عربي؛ لهو عدو في ثياب صديق، بل لهو عدو في ثياب عدو، إنه غبي في ثياب غيور.

إن الكفر العقلي ليس رذيلة أو ذنباً، أو ضعفاً يجب أن ننفيه عن العرب. إنه مزية وقوة يجب التماسهما أو ادعاؤهما للعرب.

إن حرية النقد للأديان والقيم لن تضعفها، وإن تحريم نقدها لن يهبها القوة والبقاء.

ولننظر إلى الفروق الأخلاقية والدينية والحضارية، بين بلد يمارس كل الحريات مثل بريطانيا مثلاً، وبلد آخر يعاف كل الحريات مثل اسبانيا أو البرتغال؛ وحينئذٍ لن يصعب علينا أن نختار مكاننا مع هؤلاء أو مع هؤلاء، لو لم يكن بد من الاختيار.

إن الآلهة والأديان والقيم التعليمية، لا تموت بالحرية. إن الحرية عاجزة عن قتلها. إن الإنسان لا يستطيع أن يقتل إرادته، بمناقشتها؛ وكذلك لا يستطيع أن يقتل أربابه.

*

في العالم العربي، وأحياناً في غيره، يشاهد دائماً الحكام والزعماء ورجال الدين والكتاب، وكل الطوائف الأخرى من تجار وعمال وباعة وغيرهم، يتحدون بسلوكهم كل الأديان والمثل والنظريات والعدالة، وجميع القيم المتقرر احترامها.. يتحدونها بالعلن والديمومة دون أن يجبنوا.. يتحدونها بأسلوب أكثر من السباب والهجاء لها، وأكثر من الكفر بها وأكثر من إعلان السخرية بها، دون أن يغضب المجتمع، أو يغار، أو يعاقب.

ولكن لا يوجد في مثل هذه المجتمعات من يتحدونها بالرأي والنظرية ولو بالهمس، ولو بكل الرفق والتهذيب.

وهل فخر لأي مجتمع أن يكون كل من فيه يتحدون أديانه، وأنبياءه، وتعاليمه، وقوانينه بكل ضروب الفحش والعصيان؛ ثم لا يوجد من يتحدى جموده، أو حتى يخاطب جموده بالتفكير..؟

ولو وجد من يتحداه بذلك لما غفر له، كما غفر ويغفر لجميع الملوثة أديانهم وأخلاقهم بكل ما عرفت الأرض من تراب وظلام ووحشية..؟

هل اللصوص، والفاسدون العصاة، والطغاة القاهرون للشعوب، أجرأ على التحدي بالسلوك من التفكير بالكلمة..؟

هل البشر ضالون وأغبياء إلى أن يجمعوا على الخروج على الله بالمعصية، ويرفضوا من تقواهم فهمه أو حتى الخروج عليه بالرأي..؟

أليس الذي يجحد الله بعمله، أشد عدواناً عليه من الذي يجحده برأيه.. كما أن من يقتل ولدك، أو يهدم بيتك، أشد عدواناً عليك، وتحدياً لك ممن ينقدك أو ينكرك، أو حتى يلعنك..؟

أليس الذي يتعرى أمامنا، يصدم رؤيتنا وأخلاقنا أكثر ممن يتحدث عن العري أو عن العراة بالنظرية..؟

إني لا أشك في الله كما قلت، ولكني كذلك لا أشك في أن من يؤمن به ثم يلوث إيمانه بكل الآثام ذات الأحجام والمستويات المختلفة، هو أشد كفراً من إنسان لا يؤمن به، ويتنزه عن هذه الآثام.. ولو قلت غير هذا لكنت هاجياً للإله.

أتمنى أن يؤمن العرب بإله يبارك الحرية والذكاء، ولو تحولا إلى خروج عليه، ويمقت الاستسلام والعجز، ولو تحولا إلى إيمان به..

أتمنى أن يطور العرب صورة الإله في أذهانهم، بقدر ما تطورت صور الحياة أمام أبصارهم..

أتمنى للإنسان أخلاق النجوم كافرة بكل الآلهة.. وأرفض له أخلاق الحشرات مؤمنة بكل الآلهة.

أكبر التحديات لعبقرية الوجود

إن ما يصنعه الإنسان هو أعظم من الإنسان. إن أفكاره ومثله وعقائده، هي دائماً وفي كل التاريخ أكبر وأنظف وأذكى منه، مع أنه هو خالقها..

إن مصانعه ومدائنه، وجيوشه وحضاراته، متغيرة وكبيرة جداً.. أما هو فيظل صغيراً.. يظل صغيراً مثلما كان، حينما كان بلا حضارة، ولا ثقافة، ولا لغة..

إنه يظل صغيراً في حوافزه وأهدافه، في مخاوفه وضعفه، في هوانه وجبنه، في حبه وبغضه..

إنه يظل صغيراً كلما مارس نفسه.. إنه يظل صغيراً مهما صنع الأشياء الكبيرة.. إنه يصنع أشياءه دون أن يصنع ذاته..

كم هو غير منطقي أن يكون المخلوق أعظم من الخالق، ثم لا يستطيع هذا المخلوق الكبير أن يغير خالقه الصغير..

*

علامة تقدير

الطبيعة تغير نفسها دون أن تستطيع نقد نفسها. إن الإنسان وحده هو الذي ينقد نفسه، لأنه أرقى.

إن نقد الذات هو أعلى مراحل الوجود.. إنه هو الوجود الإنساني، ولعله أسمى فضائله. إن تغيير الطبيعة لنفسها نوع من النقد الذاتي، ولكنه نقد سلوكي. إنها تفعل ما لا تستطيع أن تقول.

إن الذين يرفضون نقد أنفسهم، يرفضون شيئاً يصنعه الجماد، والنبات، والحيوان بنفسه، ونفعله أيضاً حياتهم بهم كبشر وكطبيعة..

إنهم يفعلونه كسلوك، وينكرونه كلغة وتفكير، إنهم كمنطق، أقل من الطبيعة كحركة. إنهم كمنطق، أقل من أنفسهم كحياة. إنهم ينقدون أنفسهم بحياتهم، ويرفضون نقدها بتفكيرهم.. إنهم لهذا يحيون دائماً غير ما يفكرون، وأرقى مما يفكرون.

إن الإنسان يستطيع ويصير أفضل مما يفكر ويريد، ولو كان لا يصير إلا كما يفكر ويريد لما تحضر.

إن نقد الذات هو أحد الفروق الكبيرة بين البشر، فالأقوياء يدركون نقائصهم، ويركزون عليها نظراتهم بغضب، ويدركون أن الحياة حركة، وأن الحركة تغيير، والتغيير نقد.. إذن النقد هو الحياة.

الأقوياء يجرؤون على نقد أنفسهم لأنهم يريدون تغييرها، لأنهم يقدرون على تغييرها، ويريدون أن يدفعوا الثمن.

أما الضعفاء والمتخلفون، فلا يريدون أن يسمعوا غير المديح والتدليل. إنهم يخافون النقد. يخافون النقد لأنهم يخافون التغيير، لأن التغيير تعب ومعاناة وخطر.

إن الذي يقول: أنا كامل ومنزه، كأنما يقول: أنا لا أريد أن أتغير، لأن التغيير يرهقني ويخيفني.

إن الذي يقول: أنا ناقص كأنما يعترف بأنه في حاجة إلى مزايا كبرى، إنه يدلل على أنه متواضع، وعلى أنه شجاع وقوي لا يهاب أن يحاول ويجرب، ويكون من جديد، يكون صوراً جديدة.

إن مستوياتنا الأخلاقية والثقافية والتاريخية، هي التي تجعلنا ننقد أنفسنا أو نرفض نقدها. إنه كلما ارتقت الحياة أسرعت في نقدها لنفسها. إن الفرق بين أدنى كائن وأعلى كائن يساوي الفرق بين قدرة كل منهما على تغيير نفسه.

إن إرادة النقد مرتبطة بإرادة التغيير. إن الخوف من التغيير ليس فكرة إنه عجز؛ فالذين يرفضون أن ينقدوا أنفسهم أو يتغيروا ليسوا فضلاء.. إنهم قوم عاجزون.

ولكن هل إرادة النقد مرتبطة حتماً بإرادة التغيير.. أليس في المسألة تفسيرات أخرى.. ألا يكون النقد أحياناً تعباً، أو غضباً، أو كرهاً أو مزاجاً نفسياً.. أليس النقد أحياناً سباباً أو بكاء..؟

أعرف أن كثيراً من القراء سوف يلعنون ما يجدون هنا، سيرون أنه هدم وتخريب للإيمان بالقيم وبالإنسان، وإفساد لآرائه الجميلة المتفائلة عن نفسه. ولكن لا، فالإنسان لا يعتقد ولا يفعل ما يقال له أو فيه، بل ما يريد ويستطيع. إن نفس تعظيمه لذاته أو تحقيره لها ليس تعليماً،

إنه إيحاء من الذات إلى الذات. إن البشر لا يتحركون بالإيمان ولا يؤمنون بالبرهان. إن الإيمان وفقده قدرة وعجز، لا تعليم، كذلك النبوغ والغباء.

إن أعظم الأشياء هي أكثر الأشياء إغراء للهجوم عليها والاتهام لها. لقد نقدت الفلسفات والأديان الإنسان أكثر مما نقدت الحشرات. إن الكبار ينقدون ويحاول هدمهم أكثر مما يصيب الصغار.

نحن ننقد الشيء بقدر شعورنا نحوه، بقدر ما له من تأثير علينا، فالنقد دائماً علامة تقدير. وكم هم صغار أولئك الذين لا يجدون من ينقدونهم، ولا من يسددون إليهم الحملات القاسية الغاضبة. رثائي لأولئك الذين لا يملكون مزايا من أي نوع تتحدى الآخرين، فتجعلهم غاضبين، تجعلهم ناقدين، تجعلهم متهمين، تجعلهم لاعنين.. رثائي لأولئك الصغار المنسيين.

إنك إذا نقدت أو لعنت شيئاً أو إنساناً فقد أهديت إليه وساماً، وكلما قسوت في نقدك ولعنك كان الوسام أعلى..

إن الطعن في الشيء نوع من الثناء عليه. قد يكون الذم أكثر علامة على الامتداح من الامتداح. لقد كان الذم يعني الامتداح.. هو أصدق أساليب الامتداح.

إنه ليس الفرق بين الأقوياء والضعفاء مساوياً للفرق بين الرضا عن النفس والسخط عليها. ليس الأقوياء هم الذين يرضون عن أنفسهم، وليس الضعفاء هم الذين يتهمونها.

إنه لو كان ذلك كذلك لوجب علينا أن نشيد الهياكل لعبادة أنفسنا، وأن نحول جميع الموهوبين فينا إلى شعراء يطوفون في الأسواق لامتداح نقائصنا، ولكانت الأديان هي شر أعدائنا، لأنها مصدر هائل من مصادر التحقير للإنسان..

إنه لم يوجه للبشر من الهجاء والاهانات المذلة في كل التاريخ، مثلما وجهت إليهم الكتب السماوية.. إن أساليب العبادة المفروضة في كل دين هي أقوى أساليب هذه الإهانات.

إنه لولا اتهام البشر للشيطان، لولا مهاجمتهم الدائمة له، لما قام مجده التاريخي العظيم، لما قام مجده الذي جعل جميع الآلهة وجميع المعلمين السماويين، وجعل أغلب البشر في طول التاريخ، يحولون كل قدراتهم ومواهبهم إلى غضب، وصياح ونصائح، وحروب للانتصار عليه أو للنيل منه، أو لإضعاف غزواته التي لا تقهر.. ثم يبقى مجده الأقوى الأذكى في الأرض.

إن الذين يصفون المرض وأعراضه لا يصنعون المرض ولا يقتلونه؛ ولكنهم يصفونه فقط.

إن النقد لا يهدم أحداً، إنه لا يمرضه ولا يفقده شهية الطعام، كما أن الامتداح والغرور لا يشيدان أحداً. ولو كان في طبيعة النقد أن يهدم، لما استطاع نقدي أن يصنع ذلك.

ماذا يمكن أن يفعل ما أكتبه هنا.. ماذا يمكن أن يصنع ما أكتبه هنا متخفياً مرتجفاً..؟

إنه صوت خافت مغمور في دنيا كلها ادعاء وكبرياء، وصياح متواصل بالتحدث الدائم، بكل الأصوات عن تفوقنا الساحق، وعن العبقرية التي أذلت جميع العبقريات.

هل يمكن أن يعلو هذا الصوت الخافت الخائف فوق هذه الصيحات الهائلة المضادة، المسموعة دائماً في كل مكان، من كل شفة.. المقروءة في كل كتاب كتبه الأولون والمحدثون.. المنطلقة بكل أسلوب، بكل غرور، بكل إلحاح، بكل اقتناع..؟

هل يمكن أن يعلو، أن يسمع هذا الصوت الخائف الخافت.. هل يمكن..؟

ليت نقد الناس يهدمهم، إذن لكان تملق ضعفهم يشيدهم..

ليت الغرور، ليت امتداح النفس يصنعان الشعوب، إذن لصنعنا أنفسنا أفضل وأقوى وأسعد قوم تصورتهم الآلهة السكرى..

ليت الحقد والبغضاء يقتلان الأعداء، إذن لما بقي لنا عدو واحد في هذه الدنيا. ولكن كلا، إذ لو كان ذلك لقتلنا كل الذكاء، كل العبقرية، كل التفوق كل النظافة في العالم. إن كل ذلك يعادينا، يتحدانا.

*

إن نقد الذات ليس هو فقط أن ننقد أنفسنا بل وأن نحترم نقد الآخرين لنا..

إننا نتصرف دائماً، وكأننا نرى أن أفضل ما يجب علينا عمله إذا ما نقدنا، أن نثور ونفقد وقارنا، ونؤلف الكتب، ونصوغ البراهين الغاضبة في الهجاء للناقدين، وتكذيب ما زعموا، وأن نقابل نقدهم بهجوم أقوى.. أن نحول المسألة إلى معركة من السباب والمفاخرة والمبارزة. ثم نذهب نضاعف الثناء على أنفسنا وعلى مذاهبنا وأربابنا، بمبالغات تضعنا في مكان المرثي له، المشفق عليه.

إنه ليس في سلوكنا أن نفترض النقد احتمالاً من احتمالات الحقيقة، أو تحية من خصم ليس حتماً أن تكون كاذبة.

إننا حينما نثور بمن ينقدوننا لا نقصد الغضب للحقيقة، فكم هي الحقائق التي تهان أمامنا دون أن نغضب لها، كذلك لا ننوي أن ندافع عن أنفسنا، لأن النقد ليس قاتلاً لأحد. ولكننا نثور لأننا لا نستطيع ضبط أعصابنا أو احترام تصرفاتنا..

إن الغضب من النقد حركة انفعالية لا وعي فيها. إن أعقل تصرف إزاء أي نقد هو أن هذا النقد إما أن يكون صحيحاً أو غير صحيح، إن كان صحيحاً فعلينا أن نقبله حتى ولو تحشماً

وتوقراً، وإما إن كان غير صحيح فماذا يضيرنا..؟ بل إنه حينئذٍ قد يكون عامل تحذير وتقويم، أو على الأقل قد يكون أسلوباً من أساليب التكريم والدعاية لنا أو الإعلان عنا، أو عن مزية من مزايانا.

إنه لا يوجد في التاريخ كله من ماتوا، أو مرضوا، أو تشوهت وجوههم من النقد. إن الذين بدا لنا أنهم ماتوا من النقد، إنما ماتوا من أخطائهم أو ضعفهم، إنما ماتوا كما تموت الدودة في حضيض التراب.

إننا نقول شيئاً أكثر من القول بأن النقد لا يقتل. إننا نقول بأن الفساد نفسه لا يقتل، كما نقول إن الاستقامة لا تعصم. لقد شاهد البشر في جميع العصور عهوداً وحكاماً يسقطون لينهض مكانهم آخرون، وقد فسروا ذلك بأن أسبابه الفساد والاستقامة، فالفاسدون سقطوا، والمستقيمون صمدوا..

ولكن لا؛ فالحاكم لا يسقط لأنه فاسد، فالفساد ليس جيشاً من الأنبياء لإسقاط الفاسدين.. الفساد ليس ضميراً ينتحر خجلاً من نفسه، أو رفضاً لها. إنه ليس نبياً يقتل نفسه لأنه يجب أن يموت؛ بل يسقط لأنه ضعيف، أو لأنه وجد له منافس أقوى منه..

وهو لا يبقى أو ينتصر لأنه صالح، بل لأنه قوي. فالصلاح ليس حرساً كونياً لحماية الصالحين. ولهذا فقد يسقط الطيبون والرديئون كما قد ينتصرون. وإذا سقط الفاسد فليس لأنه فاسد، وإذا انتصر الصالح فليس لأنه صالح. إن المنتصر قد يكون فاسداً جداً، وإن المنهزم قد يكون صالحاً جداً. لقد عاش الفاسدون أطول مدة في التاريخ، وإنهم لا يزالون يعيشون.. إن ذنوبهم الكبيرة لم تسقطهم.

والرجال الذين يصنعون ثورة فيسقطون عهداً أو حكماً ليسوا فضلاء، بل مغامرون قادرون. وقد يكونون فاجرين جداً حتى ولو حققوا أنبل الأعمال. إن الحافز لهم هو روح المغامرة والقوة، لا حب الفضيلة أو الغضب على الفساد.

إن الذي يثور بالحاكم الشرير ليحل مكانه، ليثور أيضاً بالحاكم الصالح إذا وجد الفرصة وقدر عليها. إنه يثور في الحالتين لأنه مغامر، لا لأنه فاضل.

إن احتمالات ثورة المغامر ضد الحاكم الفاضل، لأقوى من احتمالات ثورته ضد الحاكم الشرير. إننا قد نجرؤ على اصطياد الحيوان الفاضل، أكثر من جرأتنا على اصطياد الحيوان المفترس..

لعل جميع الذين ثاروا وانتصروا في التاريخ كانوا أضخم فجوراً وفساداً، بل ورجعية، ممن

ثاروا عليهم وأسقطوهم. وإذا وجدت روح الثورة فلن تحتاج إلى الأسباب التي تبررها. وإذا لم توجد فلن تكفي جميع الأسباب المثيرة لوجودها..

إن المغامر يبحث عن نفس المغامرة، لا عن العدل أو الحق والخير.. إن المغامر لا يبحث عن العدل، أو الخير، أو الحق، إلا بقدر ما يبحث ممارس العلاقات الجنسية عن العدل، والخير، والحق..

إن الحياة ليست صراعاً بين الخير والشر، أو بين الأفكار والأفكار، إنها صراع بين الناس أنفسهم.. إنها صراع بين الإرادة والإرادة، بين الضربة والضربة، بين الحجر والحجر، بين السفينة والموجة. إنها صراع بين الأشياء لا بين مثل الأشياء أو مذاهب الأشياء، أو آلهة الأشياء.

إنه لا مقياس لرضا الناس وسخطهم، ولا لثورتهم وخضوعهم، ولا لما يريدون أو يكرهون.

إن أية ثورة تعطي المجتمع شيئاً، لا تفعل ذلك لأنها فاضلة أكثر من الوضع الذي كان قبلها والذي ثارت به. إنما تعطيه إذا أعطته، لأنها تغيير.

إن الحياة تتطور بالقوة مهما كانت شريرة. إن القوة والتطور ليسا عملين أخلاقيين. إذن فقيمة الثورات - إن كان لها قيمة - في حتمية حركتها، وحتمية ظروفها الجديدة، لا في مستوى أخلاقها.

إذن، إذا كان الفساد لا يقتل فكيف يقتل النقد..؟

لقد ظلت الأشياء التي كانت كل المجتمعات تنقدها دائماً وتلعنها، هي أقوى الأشياء وأكثرها خلوداً. إن الكذب، والنفاق، والغدر، والأنانية، وغيرها من الرذائل لم يقتلها أو يضعفها نقدها الدائم. ولقد ظل كذلك فاعلوها هم الأقوياء الخالدين المنتصرين، مع ضخامة النقد الذي ظل دائماً يوجه إليهم في كل المجتمعات، في كل الأوقات، من كل الأفواه، وبكل اللغات، من كل المعلمين..

لقد مات كل المعلمين من الغضب والتعليم، دون أن تموت أو تضعف الخطايا والذنوب التي غضبوا عليها.. التي جاؤوا للغضب عليها والتعليم ضدها.

ومع أن النقد لا يكون صادراً عن حوافز الحب للفضيلة، أو للزهور، أو للنور، أو للحقيقة التي نتعامل عليها، فإنه ليس شيئاً رديئاً ولا شريراً. إن النقد لا يساوي حوافزه، إنه لا يساوي الناقد.

إن النقد هو دائماً موقف نفسي للناقد، حتى حينما يكون صحيحاً، ولكنه مع ذلك ليس خادماً للشيطان دائماً..

إننا حينما ننقد الشيء الرديء، لا ننقده لأنه رديء، بل لأننا لا نتلاءم معه، أو لأنه ضدنا، أو لأننا محتاجون من الناحية النفسية إلى أن ننقد..

إن إرادة الخير ليست جزءاً من عمل الخير، ولا شرطاً فيه. إن النيات الطيبة ليست هي التي أجرت الأنهار، ليست هي التي صاغت الشموس، ليست هي التي ساقت الإنسان في مجراه الحضاري. إن النتائج لا تصممها النيات، إنما تصممها احتمالات الشيء، قدرته، ظروفه. إن النتائج التي تجيء مخالفة لما نويناه أكثر جداً من التي تجيء موافقة. إن البشر يتوصلون دائماً إلى غير ما يريدون. إنه لو كانت الأعمال بالنيات، لمات الإنسان بنياته غير الصالحة، لقتل كل الناس، كل الكون بنياته غير الصالحة.

إنه ليست إرادة البناء أقدر على البناء من إرادة الهدم. إنه ليست إحدى الإرادتين غير الأخرى.

فرق في التعبير

إني أطلب إلى المؤمن ألا يرضى عن نفسه بأناقة، ألا يحتقر من يخالفونه بجلافة.

إني أطلب إلى المؤمن أن يعرف أنه لا فرق بينه وبين الزنديق، أن يعرف أن كليهما لا يفعل إلا إرادته..

إنه ليس المؤمن فاضلاً، أو عاقلاً، أو مخلصاً، أو خادماً للإله أكثر من الملحد..

إن الذين ينكرون الآلهة يفهمونها ويحترمونها دون الذين يؤمنون بها. إن الذين يؤمنون بها لا ينزهونها عن شيء.. إنهم يتهمونها بكل أخطائهم ونقائصهم.. إنهم يتهمونها بكل ما في الكون من أخطاء ونقائص.. إنهم يلقون عليها بمتاعبهم وعجزهم.. إنهم يؤمنون بها ليلوثوها لا ليطهروها.. إنهم يؤمنون بها ليستخدموها، لا ليكونوا لها عبيداً.

إن المؤمن هو إنسان يلقي على الله بكل غباره، بحجة الرغبة في تنظيفه..

إن المؤمن إنسان أراد فسمى إرادته إلهاً، أو صورها بصورة إله، فذهب يؤمن بها، ويصلي لها، ويقاتل الآخرين ويعاديهم من أجلها. إن دفاعه عن الآلهة أو عن الدين، ليس إلا دفاعاً عن إرادته..

لقد أراد الملحد كما أراد المؤمن، ولكنه عبر عن إرادته تعبيراً مختلفاً..

رجل افتتح متجراً لبيع اللحوم، ورجل آخر افتتح متجراً لبيع الخبز. إن أحدهما ليس أفضل أو أتقى من الآخر بسبب اختياره لنوع تجارته.. إن كليهما قد افتتح متجراً لإرادته، لا لبيع الخبز أو اللحوم.

إن الذين يبيعون الآلهة، والذين يبيعون الأفكار المضادة للآلهة، لا يتعاملون لا بهذا ولا بهذا. إنهم في حساباتهم الخاصة لا يبيعون الآلهة ولا الأفكار المضادة للآلهة، وإنما يتعاملون بإرادتهم.

إنه لا يحق للمؤمن أن يفخر على الذين لا يؤمنون بإيمانه أو بنوع آلهته، أو أن يعاديهم، لأنهم لا يصلون للآلهة التي يصلي لها هو؛ إلا إذا جاز له أن يفخر على الناس أو أن يقاتلهم لأنه استجاب لشهوته بأسلوب غير الأسلوب الذي استجابوا هم به لشهواتهم.

إن الذي يؤمن بالله ويصلي له لا يكون فاضلاً، إلا بقدر ما يكون من يحب المرأة أو المال أو الطعام، أو يخاف الأقوياء، وينافقهم، فاضلاً.

إنك إذا غضبت على من ينكرون آلهتك أو عقائدك، فلست تغضب عليهم لأنك تريد لهم الحق، أو لأنك تحترم الحق في نفسك، أو لأنك تحترم الآلهة والعقائد؛ بل لأنهم خالفوك. إن في خلافهم لك إزعاجاً لك، وخطراً عليك، وتحدياً لوضعك، ولمكاسبك الاجتماعية المتقررة. إنك تخشاهم كما يخشى صاحب السلطان من ينازعونه السلطان.

إن البشر لا يختلفون أو يتقاتلون في سبيل الآلهة والمبادىء. إن الآلهة والمبادىء ليست شيئاً في حياة البشر، في حسابهم، ولكنهم يسمون ظروفهم وأهواءهم آلهة ومبادىء..

ليست المذاهب والأرباب في كل صورها في كل التاريخ، إلا عملية إخراج وتوزيع لحالات النفس. إن الذين يتحمسون لعقائدهم أو آلهتهم أو مذاهبهم، هم في الواقع يتحمسون لظروفهم. إن الاستقامة - حيث وجدت - ليست حالة دينية، إنها دائماً نفسية. إن المتدين أو الفاضل ليس متديناً ولا فاضلاً؛ وإنما هو مختار لموقف. والذي يختار المواقف الطيبة التي تباركها الأديان والأخلاق، سيختارها حتى ولو كان بلا دين ولا أخلاق..

زنادقة بدون مزايا

إن التدين ضد الأخلاقية، بل إنه ضد التدين نفسه. إن المتدينين خارجون على الأخلاق، خارجون على الدين. إن الإنسان يحول حالته إلى دين، إذا كان متديناً. إنه يبرر حالته مهما كانت ضد الدين، بالدين. إنه يستعمل الدين، وكذلك المبادىء والمثل، شهوداً لشهواته ودلائل بكتبها الله وأنبياؤه، لتكون تشريعاً وامتداحاً لما يريد ويفعل. إنه لا يصنع العكس، إنه لا يستطيع أن يصنعه.

إنه إذا كان حاكماً متديناً، أو يحكم في مجتمع متدين، فإنه سوف يصنع جميع ما يشتهي ويستطيع، ثم يدلل بالدين وبرجال الدين، وبكل التفاسير الدينية على أن ما يشتهيه ويفعله هو الدين.

إنه إذا كان ملكاً فسيكون الدين ملكياً.. إنه إذا كان قيصراً فسيكون الدين قيصرياً.. إنه إذا كان اشتراكياً أو رأسمالياً فسيكون الدين كذلك، وهكذا دائماً. إن الدين تابع لنا. إننا لسنا أتباعاً له في كل الأوقات والظروف والناس المتدينون البسطاء كلهم أيضاً يحولون دينهم إلى الحالة التي هم فيها. إنهم يلزمون دينهم بأن يكون تفسيراً لوضعهم وشهادة لهم. إنهم إذا كانوا مرضى، ضعفاء، وجبناء، وخونة، وغير ذلك، أصبح الدين بنصوصه، وروحه وعباداته، تسويغاً وتشريعاً لفضيلة المرض والضعف، والجبن والخيانة، وكل الرذائل التي يعيشونها.

ولو أن نبياً مصاباً بالبرص، بعث إلى قوم من البرص، لكانت الإصابة بهذا الداء شرطاً من شروط الإيمان بالله. إن المتدينين، لا يتدينون، وإنما يستدلون بالدين على ما يشتهون أو يفعلون. أي إنهم يجعلون الله متهماً وحده بكل ذنوبهم.

إنهم لا يفعلون ما لا يريد، وإنما يلزمونه بأن يريد ما يفعلون. بل وأن يكون داعية لشهواتهم ونقائصهم، ملتزماً بها، مفسراً لها.

إننا بهذا نحول الدين إلى محلل مذنب لشهوات المؤمنين، ولتصرفاتهم كيفما كانت خارجة على الدين، ونجعله مزكياً لنقائصهم.

إن الدين لا يستطيع أن يحكم الناس، ولا أن يفسرهم لمصلحته أو بمنطقه. إنه لا يحدث أبداً أن يخضع المؤمنون حالتهم للدين؛ إنهم دائماً يخضعون الدين لحالتهم. لقد كانت النظريات في جميع الظروف مفسرة لحالة، لا خالقة لها. إن كل المذاهب والأديان.. إن كل النصوص تفسر بالظروف التي تعيش فيها.. إنها تفسر بإرادة المجتمع، بإرادة الأقوياء الذين يحكمونه.

إذن فالمتدينون لا يفعلون شهواتهم وأخطاءهم فقط. هذا شيء أقل ذنباً؛ بل يفعلونها ويزيدون على ذلك بأن يدللوا عليها بالدين، بأن يضعوه خادماً لها. أما غير المؤمنين، غير المتدينين فأبعد ما يذهبون إليه أن يفعلوا الشهوات والأخطاء التي يفعلها المتدينون المؤمنون، ولكن بدون أن يأتوا بالله، وملائكته، وكتبه، وأنبيائه، ليكونوا مزكين لما يفعلون.

إذن غير المؤمنين، غير المتدينين أقرب إلى الدين والإيمان، من المتدينين المؤمنين. وإذن فالتدين ليس خروجاً على الدين فحسب، إنه خروج عليه وسبّ له، لأنك إذا كنت متديناً فسوف تفعل جميع ذنوبك ونقائصك، ثم تسب الدين باتهامك إياه بأنه يبررها لك، بأنه يدعوك إليها ويلزمك بها.

إن جميع الناس يتكلمون بلغة السماء ولكنهم جميعاً يعيشون بقانون الجنس وهوان

الديدان. إنهم جميعاً يهونون تحت إملاء وظائف أعضائهم، كما تهون الديدان، مهما ارتفعوا بلغاتهم وبلاغتهم فوق الأرض، فوق دروبهم الطويلة المحفورة تحت أقدام الأرض.

إنك إذا كنت رجلاً كبيراً من رجال الدين، وقد اخترت لنفسك أن تكون منافقاً، فإنك لن تنافق وتستغفر الله.. إنك حينئذٍ لا بد أن تنافق وتزعم أن الرسول كان ينافق ويأمر بالنفاق، بل وأن جميع الأنبياء كانوا منافقين ـ وإن كان محتوماً أن نسمي الأشياء بغير أسمائها ـ أي أن تخفي دمامتك تحت اسم آخر..

إنك إذا كنت حاكماً متديناً، أو نبياً مرسلاً، وكنت شهوانياً وضعيفاً أمام جسم المرأة، وكنت تريد أن تجرب منهن أكبر عدد، فسوف تستجيب لشهواتك زاعماً أن الله قد شرع لك ذلك بالزواج، وبالامتلاك، وبالمتعة، وبالهبة، وبغير ذلك.. وزاعماً أن الله سوف يغدق لك الجزاء على ما تفعل، لأنك تحقق أهدافه الحكيمة البعيدة المدى.

لقد زنى الأتقياء تحت راية الدين أبشع مما زنى العصاة تحت راية المعصية. وإن الذي يفعل عيوبه وذنوبه تحت توقيعه هو، لأفضل معصية وديناً من الذي يفعلها تحت توقيع السماء..

ما أكثر اللصوص والقتلة الذين قتلوا وسرقوا لحسابهم الخاص، ثم وقعوا على ما فعلوا بقلم ليس فيه طبيعة الأرض..

إذن أيها المؤمنون الأتقياء اتركوا الدين، اتركوا الله لتكونوا أقرب إلى الله، إلى الدين.. أو فخففوا من صلفكم وحقدكم على من يخالفونكم. إنكم لستم أفضل منهم لا في تقويم الأديان، ولا في تقويم الأخلاق..

إن المؤمنين بالله والأديان يصنعون ما قاله نهرو عن الهند: «إنهم يعبدون البقر ولا يفعلون له ما يجب؛ ولو أنهم أعطوا البقرة ما تريد ولم يعبدوها، لكان احترامهم لها أفضل».

إن الله ليس لوحة جميلة يضعها المؤمنون داخل صدورهم. إن المفروض أن الله قوة حية. إن المفروض أنه عبقرية وذكاء وسلوك، فالمؤمنون بالله إذا لم يحولوا إيمانهم إلى مزية وقوة، فهم زنادقة ولكن بدون مزايا الزنادقة..

إن المؤمنين في جميع الحالات، هم قوم يضعون الله في أفواههم والشيطان في رغباتهم..

إن البشر دائماً يتعصبون لاعتقادات لا يستطيعون العمل بها، بل يحاربونها.. إن الفضيلة عندهم تعصب لا سلوك.

وهؤلاء الذين يمجدون الله حينما يتحدثون، ويشتمونه حينما يعملون.. هل هم مؤمنون..؟

إذا رأينا أن هؤلاء الذين يؤمنون بالله كنظرية، ويكفرون به كأخلاق.. هؤلاء الذين يقاومون

الله بالله، يقاومونه كنشاط ويقبلونه كاعتقاد.. هؤلاء الذين يقبلونه كمبرر لآثامهم، ويرفضونه كقوة مانعة لهم من الظلم، والسرقة، والطغيان والتأخر، والدنس.. هؤلاء الذين يرفضونه كملزم لأخلاقهم؛ إذا رأينا أن هؤلاء مؤمنون أو متدينون، فقد ذهبنا في تفسير الله إلى أدنى المستويات العقلية والأخلاقية.

إنه ليس المنكرون بأفكارهم هم الملاحدة. إن الملاحدة هم المؤمنون بالله، أو يزعمون ذلك؛ ثم لا يصنعون له بإيمانهم سوى أن يتهموه بكل ما فيهم.. أن يزعموا أنهم هم التفسير الشامل لأخلاقه، ولتعاليمه المنزلة.. بل ثم يستبد بهم الشبق والأنانية، والجهل، فيذهبون يفجرون ويسرقون، ويظلمون ويكذبون، ثم ينهضون يستغفرون الله ويصلون له، ببذاءة، راجين أن يصافحهم، أو يقابلهم، أو يغفر لهم..

إن الذين يفعلون ذلك أو يعتقدونه، يلعنون الله بلغات كل الأغبياء، بأخلاق كل الأغبياء.. إنهم يتصورون الله قيصراً أو زعيماً ضالاً ينشرح صدره للنفاق وقصائد الامتداح، ويفقد وقاره عند ذلك.

إن الدعاء والصلاة اتهام لله بليد.. إنك إذا دعوت الله، فقد طلبت منه أن يكون أو ألا يكون.. إنك تطلب منه حينئذٍ أن يغير سلوكه، ومنطقه، وانفعالاته.. إنك إذا صليت لله فقد رشوته لتؤثر في أخلاقه، ليفعل لك طبق هواك. فالمؤمنون العابدون قوم يريدون أن يؤثروا في ذات الله، أن يصوغوا سلوكه.

إن الصلاة والدعاء ليسا إهانة لله فقط، إنهما أيضاً إفساد للداعي والمصلي؛ لأنهما تعويد له على الرشوة وعلى نفي القانون والعدالة. والذي يتعلم رشوة الله وينكر قوانين الأشياء، هل يمكن أن يكون في سلوكه أو تفكيره فاضلاً أو ذكياً..؟ إن الذي يصلي لله لا يريد أن يتصدق على الله بصلاته.. إذن هو يرشوه. إنه يريد منه أن يغير سلوكه وإرادته.. أن يفعل ما ليس فاعلاً...أن يفعل إرادة المصلي ثمناً لصلاته.

إن الله في حوافزه وغاياته ليس اعتقاداً؛ إنه كينونة..

إن الله يوجد في الذين يعملون ولا يعتقدون، دون الذين يعتقدون ولا يعملون..

إن الله ليس حاكماً طاغياً غبياً، يجعل الإيمان به هو الحد العازل بين الأخيار والأشرار..

إن الإيمان بالأشخاص ليس شيئاً في حساب الفضيلة والرذيلة، والخير والشر.. إنه لا توجد ذات هي جزء من السلوك الإنساني أو السلوك الكوني، أو السلوك الإلهي.. إنه ليس إنكار الأشخاص أو الإيمان بهم سلوكاً..

إن الذي لا يعلم بوجودي لا يعد مسيئاً إليّ، ولكن المسيء هو الذي يعلم بوجودي، ويعلن اعترافه بي، ثم ينسب إليّ الشرور والنقائص..

إن الكفرة هم الذين يخرجون على الله في سلوكهم، وليسوا الذين يبحثون عنه بأفكارهم حتى ولو لم يهتدوا إليه. إن إنكار الله بالتفكير هو أعلى أساليب الإيمان به والصلوات له.. إنه تصور له، على أعلى المستويات الفكرية والأخلاقية.

إن الشيخ الذي يملأ لسانه بالله وبتسابيحه، ويملأ تصوراته بالخوف منه ومن جحيمه، ثم يملأ أعضاءه وشهواته بالكذب والخيانة، وبالصغائر وبعبادة الأقوياء، لهو أكفر من أي زنديق في هذا العالم..

إن أقل فرق بين الشيخ الفاسق والملحد الفاسق، أن الأول كالذي يأتي الفاحشة مع أمه في الكعبة، وأن الثاني كالذي يأتيها مع أجنبية في بيته. إن الأول كالذي يراك ويلعنك، ويتعرى أمامك متجرئاً عليك؛ وأن الثاني كالذي لا يراك ولا يحترمك، أو لا يحتاج إلى احترامك لأنه لا يراك.

معركة لا تعطي تفسيراً

إن الله شروط غير موجودة. إن الذين لا يشترطون لله أية شروط، لا عقلية ولا خلقية ولا فنية.. إن الذين يرون أن وجوده يعني وجود الذبابة والطاغية والمجنون.. إن الذين لا ينزهونه عن أي وجود تحت أية ظروف، لأنهم يرون كل وجود يساوي كل إله، فلا إله زائد عن أي وجود، ولاوجود زائد عن أي إله.. إن هؤلاء الذين لا يشترطون لله أية شروط، لا يعرفون أنهم بذلك لا يثبتونه، وأنهم أيضاً لا يحترمونه.

إن الإله في كل افتراضاته هو سلوك، لا ذات فقط. فإذا لم يوجد سلوك إله، فلن توجد ذات إله.

ما أبشع صورة الإله في عقيدة من يتصورون أن وجود الحشرة والمرض والظلم، يفسر وجود الإله ويبرره، أو أن وجود الإنسان يفسر وجود الإله ويبرره، بل ويساويه. هذا الإنسان الذي غاية أمانيه وأشواطه، أن يموت شهخاً فانياً من الشيخوخة.. أن يعيش وأن يتحدث بإعجاب عن الآلهة والمثل، وأن يخرج عليها.. أن يخرق التعاليم التي هو صانعها.. أن يبكي بلا شجاعة، أو يضحك بلا وقار.. أن يدخل مع الطبيعة في معارك لا هدف لها غير نفسه، ونفسه لا هدف لها، لم يموت بلا تفسير عقلي أو أخلاقي..

نعم، إنه يموت بالطبيعة! ولكن لماذا تجيء الطبيعة محكوماً عليها بالموت..؟

إن لكل خطوة منفردة نخطوها تفسيراً وهدفاً، ولكن مجموع خطواتنا لا هدف لها ولا تفسير.

إن إرادة الإنسان لنفسه هي انعكاس وجوده، وليست انعكاس منطق أعلى. إن جميع الكائنات الحية، إن جميع الكائنات الجمادية تريد وجودها بضرورة الوجود، لا لقيمة الوجود. إنه بالسبب الذي يريد به الإنسان نفسه، تريد أضعف حشرة نفسها دون أن توجد أية قيمة ذاتية، أو أخلاقية، أو منطقية، أو كونية، لوجود أي منهما.

لقد وجدنا فأردنا وجودنا، ثم وضعنا له تفسيراً عقلياً وأدبياً. ونحن لم نر وجودنا فكرة مثالية سابقة، نحن لم نرده أو نعجب به كمشروع علمي مخطط مدروس. ولهذا فإن الأفكار المضادة لا تستطيع أن تغير من حبنا لأنفسنا وحياتنا..

إننا نحب حياتنا وأنفسنا بقدر ما نستطيع، لا بقدر ما نعرف.. إننا لم نعرف شيئاً..

إن إرادتنا وأفكارنا لا تقيدان حياتنا..

إننا نكون لأننا قادرون على أن نكون، لا لأننا نريد ذلك، أو ندعو إليه بعقائدنا ونظرياتنا..

ونحن ندعو إليه بعقائدنا ونظرياتنا لأننا نريده..

ونحن نريده، لأننا كناه دون أن نريده..

وكناه، لأننا قادرون عليه، لا لأننا نفهمه أو نريده..

إن إرادة الشيء لذاته لا تعني الثناء على ذلك الشيء؛ إنما تعني كون الشيء هو ذاته. إن كون الحجر هو ذاته، لا يعني ثناء الحجر على الحجر. فإذا أراد الإنسان نفسه، لم يكن معنى ذلك أن يضع لوجوده تقويماً فكرياً أو دينياً؛ وإنما معناه أن الإنسان هو نفسه، وإذا حول هذه الإرادة إلى إيمان أو إعجاب عقلي، فقد فسر الإرادة تفسيراً لاهوتياً.. فقد فسّر كون الشيء هو الشيء، بكون الشيء غير الشيء.

إن الموجود أو الوجود يريد نفسه، وهذا يساوي: أن الشيء لا يستطيع أن يتخلص من نفسه، أو أن يكون غير نفسه..

لماذا يريد الشيء نفسه..؟

إنه السؤال الوقح الدائم دون أي جواب.

إن قيمة الإنسان كلها ليست سوى قيمة حربية، أي في حربه ضد الطبيعة. إنها حرب لا تحمل أي مغزى أخلاقي أو فكري أو كوني. إنها معركة لا تعطي تفسيراً، إنها كالمعركة الأبدية بين الموج وصخور الشاطىء..

إن حرب الإنسان ضد الطبيعة لا تساوي إلا كونه هو نفسه. إن كل معنى الانتصار للإنسان أنه يعطيه بعض احتياجاته، ولكنها احتياجات دفاعية أو سلبية. إنها انتصارات لا تعني شيئاً لولا وجوده. إنه من أجل أن يكون لانتصارات الإنسان على الطبيعة معنى بالنسبة له، يجب أن يوجد.. أن يكون محتاجاً..

ولكن لماذا يوجد لكي يكون محتاجاً..؟

هل يوجد أي تفسير أدبي لخلق الإنسان محتاجاً، باحثاً عن الانتصار، أي عن تسديد الاحتياج..؟

وهل من المنطق أن توجد المشكلة من أجل أن تنتصر عليها..؟

أليس المعقول ألا توجد المشاكل لئلا تكون محتاجاً إلى هذا الانتصار البائس..؟

إنه لا يوجد منطق في أن نخلق المرض لكي نتعالج منه.. أن نسقط في البئر لكي نناضل للخروج منها. وليست حياة الإنسان في كل أساليبها ومستوياتها، سوى سقوط في البئر، ثم محاولة للخروج منها.

*

إن الإنسان مهما كان مبدعاً وقوياً، فلن توجد فيه أية آثار لبصمات إله، أو رسول، أو تدبير كوني. إن فيه بصمات كونية، إنه ليس سوى بصمات كونية. ولكن ليس فيه تدبير كوني.. إنه الكون بلا تدبير.

وما له من دلالة أكثر مما لأية ظاهرة طبيعية أليمة حزينة، أو سخيفة عقيمة، كالزلازل والبراكين، أو الأنهار الكبيرة العظيمة.

إنه إذا تفوق على الطبيعة، فليس لتفوقه أية إشارة قادمة من السماء أو الغيب، بل كتفوق الشمس على ما هو أصغر منها.. بل كتفوق شجرة على شجرة.. بل كتفوق حيوان راق على حشرة ضئيلة..

إن جميع ما يفعله البشر ليس إلا علاجاً لغلطة وجودهم.. إنهم لا يفعلون لئلا يكون وجودهم عبثاً، لئلا يكون الله أو الكون بلا تفسير.

أسباب الفناء أسباب للطعن

ووجود الإنسان لا يمكن أن يكون مفيداً للآلهة أو دالاً عليها، أو على تدبيرها. إن وجوده

مضاد لوجودها ولمصلحتها. إن وجود الإنسان هو في معناه وسلوكه، مناف لوجود الآلهة، وسلوكها، ومعناها. إن عليها ألا تسمح بوجوده إذا كانت تريد إثبات نفسها والدفاع عن فضائلها..

إن احتمالات وجود الآلهة، وكونها طيبة ومفهومة بدون وجود الإنسان، أكثر من احتمالات وجودها وفهمها مع وجوده. أعني لو وجد عقل ثالث محايد يشاهد الموقف من خارجه. إني لو كنت إلهاً لما خلقت الإنسان، ولقاومت أي إله آخر يحاول أن يخلقه، لكي أظل محتفظاً بتفوقي، وكرامتي، ووقاري، واحتمالات صدقي، ورضاي عن نفسي. إني بدون الإنسان قد أفهم نفسي وأرضى عنها أكثر.

إن الإنسان هو وحده الذي تحدث عن الآلهة، ودعا إلى الإيمان بها. إنه هو وحده الذي شاد لها أضخم المعابد، إلا أن كل شيء فيه ينافيها، يقيم في وجهها المعارضة. إن كل شيء فيه يشتم الآلهة..

لقد خلق الإله الإنسان ليعبده ويطيعه، ولكنه يعلم قبل أن يفعل أنه لن يعبده، ولن يطيعه.. فهل كانت رغبته في عبادة الإنسان له غير ناضجة، أم كانت خطته لتحقيق رغبته غير كافية..؟

يا لها من قضية معقدة، تحتاج إلى ذكاء أكثر من ذكاء الآلهة. لقد جرب الكون والإنسان ذكاء الآلهة.. لقد تعذبا في تجربتهما لذكاء الآلهة..

إن الإنسان هو أبشع تحد علمي وفني وأخلاقي للإله، حتى في أزهى عصور الورع والإيمان..

أوليس الذين يؤمنون بالله يشتمونه بإيمانهم..؟

ما هي صورة الإله في عقيدة من يتصورون هذا الإنسان..؟ إنه أعلى ما وصل إليه ذكاء الله وقدرته، إنه أقوى الأدلة على وحدانيته، وحكمته، إنه أقوى السباب له، إنه يسبه بعاهاته وبتفاهاته، وبأخلاقه بكل مستوياته، بل وبمنطقه.. إنه يسبه بأحزانه ومسراته، بمجيئه، بذهابه.. إنه يسبه دائماً، يسبه ناطقاً وصامتاً.

إنك إذا اشترطت لله شروطاً فإنك لن تمجده، إنك إذا لم تشترط له أية شروط فإنك من جهة تحتقره، وإنك من جهة أخرى لا تستطيع أن تثبته. إن الله مشروطاً محال. وأن الله غير مشروط محال وخطيئة.

إن العقيدة الدائمة أن براهين وجود الإله هي دائماً براهين نفيه. إن أسباب الثناء عليه، هي

أسباب الطعن فيه. إن الذين يثبتون الله، ويثنون عليه إنما يفعلون ذلك بنفس المشاعر والأسباب التي ينفيه وينقده بها الآخرون.

*

إنه كذلك ليس الذين ينقدون الناس ويدعونهم إلى أن يتغيروا، هم الذين يهدمونهم أو يطعنون فيهم. ليس هؤلاء هم أعداءهم أو محقريهم، ولكن أعداءهم المحقرين لهم، الطاعنين فيهم، هم الذين يسرقونهم، ويفقرونهم، ويستبدون بهم.. هم الذين يحولونهم إلى حروب وخصومات، إلى وقود لطموحهم، إلى إعلان ودعاية إرضاء لجنونهم. إنهم هم الذين يخدعونهم، ويكذبون عليهم، ويحاربون فيهم الحرية والذكاء والتطور، ثم يخطبون فوق منابرهم هاتفين لمجد الإنسان، منشدين أبلغ الأناشيد في عبقريته، أو مصلين لمجد الإله خالق الذباب والطاعون، والجوع والموت والطاغية.

إن عدونا هو الذي يضعفنا، إنه ليس هو الذي يقول لنا أنتم ضعفاء..

إن الإنسان المتلوث الفاسد المنافق البليد، لهو أشد طعناً في البشر من جميع الطاعنين..

إن الحاكم أو الكاتب الكذاب، الذي ينهض ليتملق الناس ويقول لهم: أنتم التفسير الكامل العبقري لصفات الله، ولجمال الوجود، ولنبل القضاء والقدر، لهو الخصم المدمر المتآمر؛ دون من يدعوهم إلى أن يعرفوا عيوبهم.. إلى أن يكرهوا عيوبهم..

إن عند الناس مثلاً قديماً يقول: «مبكياتك لا مضحكاتك» ويعنون بهذا أن صديقك الذي عليك أن تحترمه، وتستمع إليه، هو الذي يقول لك الحق فيؤلمك إلى أن تبكي، وليس صديقك هو من يكذبك ويقول لك الباطل ليجلب إليك الضحك والسرور والرضاء الكاذب. إنه ليس صديقاً ذلك الذي يذهب يمجد لك أربابك وأوثانك وأوهامك، ذلك الذي يذهب يخدع عقلك، يعلمه كيف يعجز عن الرؤية، عن الحركة، عن التجدد، عن الاغتسال.. يعلمه كيف يهون كيف ينهزم، كيف يستسلم، كيف يظل مقبرة لكل الجثث، لكل العفن.

رجعية التفكير.. لا نظافة السلوك

إن الذين يتحاشون الأفكار الخطرة يقعون في السلوك الخطر. إن الناس يخافون أفكاراً معينة لأنهم يخافون ما تعني هذه الأفكار من احتمالات سلوكية. إن الأفكار لا تخاف لأنها أفكار، إنها تخاف لأنها قد تؤدي إلى سلوك ما، إلى سلوك لا يراد.

إن رجل الدين، وصاحب المذهب، والحاكم والزعيم.. إن كل هؤلاء لا يقاومون الأفكار المخالفة لأفكارهم، إلا لأنهم يخشون أن يكون معناها الخروج على الأساليب والنظم، والحياة

التي ألفوها وعاشوها، واستفادوا منها، وشيدوا مصالحهم وامتيازاتهم عليها. ولو أنهم علموا أن هذه الأفكار المخالفة ستظل دائماً أفكاراً فقط لما قاوموها أو خافوها. إن الأفكار لا تخيف، إن الأفكار التي لا تتحول إلى سلوك لا تخيف أحداً، مهما كانت رديئة أو مخالفة. إن أحداً ما، لن يعادي الأفكار لو علم أنها سوف تظل أفكاراً فقط.

إننا إذن حينما نبحث عن الأفكار المستقيمة، ونستنكر المتمردة أو الملحدة أو الجديدة؛ إنما نعني ما تنطوي عليه هذه الأفكار من سلوك. إن الغرض هو دائماً الحالة السلوكية. إن الأفكار ليست شيئاً في ذاتها، وحتى الأفكار الثورية لا تعني شيئاً لولا احتمالات الثورة التي تسقط رجالاً لتضع مكانهم آخرين.

نحن نريد الأفكار المؤمنة، لأننا نعتقد أنها تمنحنا سلوكاً مؤمناً. نحن نرفض الأفكار الكافرة، لاعتقادنا أنها تجعلنا كافرين في تصرفاتنا. إننا في الحالتين نبحث عن سلوك، ونهرب من سلوك.

ولكن هل هذا صحيح.. هل صحيح أن المؤمنين بأفكارهم مؤمنون بأخلاقهم.. وهل العكس صحيح..؟

ليست الاستقامة إيماناً أو كفراً. إنها تلاؤم بين الناس وظروفهم.. إنها تعبير عن علاقاتهم بالظروف الخارجية. إن كل إنسان، إن كل مجتمع، محتاج إلى أن يعبر عن ذاته. إن أساليب التعبير مختلفة. إن التفكير وإطلاق التفكير نوعان من التعبير. إن التطاول الفكري على الأشياء المفروضة مقدسة وعلى التاريخ أسلوب ما، أسلوب من أساليب التعبير. إن للبشر نوافذ كثيرة يطلقون منها أنفسهم في شتى التعبيرات، في شتى الاتجاهات، في قذائف مختلفة الأحجام والمرامي، وقطع المسافات..

*

إنه إذا حرم على الفرد أو على المجتمع أن يفهم ويفكر، ويحول فهمه وتفكيره إلى أصوات، إلى طلقات مدوية، فلا بد أن يوجه نفسه إلى التعبير بالأسلوب الآخر.. بالانحراف السلوكي. ولهذا فحيث لا تفكير، حيث لا خروج عقلي، حيث الإيمان والخوف من الآلهة ومن العقائد المقدسة، حيث الاحترام لها.. حيث يوجد هذا، توجد الانحرافات السلوكية الوبيلة. إن هذا مشهود دائماً في المجتمعات المستقيمة العقائد، المتعصبة العقائد.

إن من أسوأ ما في المتدينين أنهم يتسامحون مع الفاسدين، ثم لا يتسامحون مع المفكرين، بل ثم يتعصبون جداً ضد المفكرين. إنه قد يثيرهم مفكر واحد يتحدث مع نفسه همساً، ثم لا يحركهم أن يخرج كل من في الدنيا على فضائل الدين والأخلاق. إن المطلوب عندهم هو

المحافظة على رجعية التفكير، لا على نظافة السلوك. إنهم قد يغفرون للشيطان كل ذنوبه لو أنه أصبح رجعي التفكير.

إن الذين لا يستطيعون أن يكونوا متحررين، يكونون متحللين. إن الإنسان لا بد أن يفرغ نفسه، أن يصطدم بالناس والأشياء حوله، إنه لا يستطيع أن يبقى نصوصاً مقدسة غير مفسرة. إن الفسوق السلوكي، بديل صحيح عن التفكير المحارب.

وإذا كان فاسق الفكر فاسق الأعضاء أيضاً، فإن مستقيم الفكر قد يكون أشد فسقاً اجتماعياً، وأخلاقياً، ونفسياً.

إن الذين يدعون إلى الورع الفكري، هم يدعون في نفس الوقت إلى الفسوق الأخلاقي. إن الاستقامة الفكرية تعطي عكس الغرض الذي ينشده المعتقدون، أو الغرض الذي يدعونه. إنه من أجل البحث عن الفضيلة، يجب علينا ألا نبحث عن الإيمان الفكري. إن حاجة البشر إلى الأعمال الكبيرة، لا إلى العقائد القوية، أو المذاهب المتوترة، المصممة، العدوانية.

إنه لا يصح الافتراض بأن عقائدنا القوية هي التي تصنع أعمالنا الكبيرة. إن حوافز الإنسان لا عقائده هي التي تصوغ كل نشاطاته. بل إن بين العقائد والحوافز عداوة وتناقضاً. إن الحوافز تضعف العقائد، إن العقائد تحاول إضعاف الحوافز، ولكن أليست العقائد عطاء الحوافز..؟

بلى، إذا لم تكن العقائد وراثية.

لغة لا وجود

والذين أبدعوا التاريخ لم يكونوا ذوي عقائد قوية، لقد كانوا ذوي حياة قوية. إن ما ندعوه بالعقائد ليس إلا عملية تشريع لشهوات غير معتقدة. إن العقيدة هي دائماً شعار فقط لشيء آخر ليس عقيدة.. إنها دائماً شعار لشيء هو ضد العقيدة.

ليست العقيدة والوطنية، إلا تفسيرات مثالية لمشاعر وتصرفات ذاتية غير مثالية. إن البشر يحولون إرادتهم الخاصة إلى لغات وشعارات عامة. إن الحياة لا تخضع للقيم الأدبية، بل لا توجد فيها هذه القيم. إن القيمة الأدبية تعني أن الشيء مطلق، ولكن الشيء الموجود لا يكون مطلقاً..

إن الأديان والأوطان، وكل الموضوعات الأخرى المماثلة التي تبدو كحقائق أدبية أو عقلية، ليست قيماً ولا سماويات؛ إنها لا تعني غير ارتباطنا بالشيء وتأثرنا به. إن علاقتنا بأي دين أو أرض أو قوم أو فكرة، هي علاقة شخصية مادية مثل علاقتنا بالطعام، وبالملابس، وبالجنس.

نحن لا نحترم الأشياء، لا نحترم شيئاً. ولكننا نحترم توافقنا معها أو التزامنا بها. إن المعنى الأدبي لأي شيء، ليس سوى إرادتنا له، سوى حاجتنا إليه ولو شعورياً.

إن القيم والمطلقات لغة إنسانية لا وجود كوني، بل ولا وجود إنساني.

إن الإنسان يتحدث غير ما يفكر، إنه يفكر غير ما يحيا، إنه يحيا غير ما يريد..

إن العقائد والمثل لا تعني شيئاً في حياة البشر ولا في نظام الكون. إنها لغة اخترعها الإنسان دون أن يجدها، أو يتقيد بها، أو يحترمها، أو يتعامل عليها.

لقد كانت كل قفزة حضارية تشير إلى انهيار عقائدي في العصر الذي سبق، في العصر الذي كان موجوداً، في عقائد العصر الذي كان موجوداً.

إنه لا ينبغي أن نبكي على ما يموت من عقائدنا أو أفكارنا، إنه ليس بصالح ولا ممكن أن نحيا بشعار واحد، أو داخل طراز واحد من البناء أو الأزياء كل الحياة، كل الزمن، كل التاريخ. إنه لا يوجد طراز واحد من البشر، من العقائد، من الآلهة، من المنازل. إن الطراز الواحد من الآلهة هو أعجب طراز، هو أقبح طراز، إنه أقبح وأسخف من الطراز الواحد في البيوت والأزياء، والأدوات الطبية والعلمية.

•

إن طبيعة الحركة المتناقضة في الحياة، لا تترك أي احتمال لاحترام الالتزامات الاعتقادية أو الأدبية. إن الالتزام العقلي، لا يمكن أن يعيش إلا في فراغ لأنه سكون، والحركة تناقض. إن الموجود لا يكون ملتزماً إلا بقدر ما يكون عاجزاً عن الحركة، عن الاستجابة لها. إن الجالس يكون أكثر قدرة على الالتزام من السائر ركضاً. إن جميع الناس في جميع العصور، يصنعون مواهبهم، واحتمالاتهم، وظروفهم المتناقضة، غير متقيدين بأي التزام فكري أو أخلاقي.

إن المؤمنين وغير المؤمنين، يخضعون بدرجة متساوية لقانون الحركة. إنهم لا يخضعون للإيمان، ولا للثورة ضد الإيمان، وإذا فعلوا ما يوافق اعتقاداتهم، فهم لا يفعلون اعتقاداتهم، وإنما يفعلون حياتهم.

إن الالتزامات المذهبية ليست سوى أحاديث مكررة. إن المحافظين، أو من يسمون محافظين، لا يختلفون عن أشد المتمردين خروجاً على الالتزامات العقائدية، لا يختلفون عنهم استجابة للظروف المضادة للالتزامات؛ ولكن يختلفون في اللغة وفي حركة الظروف. فالفريقان يفعلان أهواءهما وواقعهما، لا التزاماتهما. ولكن تختلط الأهواء والواقع أحياناً بالالتزامات، أو تبدو في اتجاه واحد، وأحياناً أخرى، وهذا هو الأكثر، نخرج بكل قوتنا وشهوتنا على التزاماتنا من حيث الرغبة والسلوك، ثم نذهب مع هذا نبالغ في امتداح هذه الالتزامات.

إن المحافظين هم أناس محافظون في لغتهم أو ظروفهم، لا في أخلاقهم ولا في التزاماتهم العقلية ولا مشاعرهم. ولهذا فقد يكون المحافظ في تفكيره من أفسق الناس في سلوكه، وإذا كان من أتقاهم في سلوكه فليس لأنه محافظ في تفكيره.

إذن لا يوجد ملتزمون وغير ملتزمين؛ إذ لم يأت من يستطيع أن يكون ملتزماً. إن الالتزام كلمة تقال كثيراً.. إنها كلمة تهان ويكذب عليها، ويكذب بها.. إنها كلمة بدون تفسير، بدون أن تطالب بأن يكون لها تفسير.

والذين يزهون بما عندهم من عقائد ونظريات، إنما يزهون بما لا يمكن التزامه وبما لا تأثير له عليهم، بل بما لا يريدون. والمعتقدون جداً كاذبون جداً، لأن اعتقادهم ينافي حياتهم. إنهم كلما زعموا أنهم ملتزمون كانوا كاذبين أكثر. إنهم كلما حاولوا أن يحيوا عقائدهم، احتاجوا إلى مزيد من الكذب، والنفاق، والتناقض.

إنه لا يستطيع أحد أن يتمسك بتعاليمه، إلا إذا استطاع أن يرى الشمس، ويحس بالطقس، والألم، والحب، والسرور، بمذهبه.. لا ببصره ولا بأعصابه؛ إلا إذا استطاع أن يحس بروعة الجنس بمقدار حبه لأربابه؛ أو إلا إذا استطعنا أن نتوقف عن الرغبة، وتتوقف ظروفنا عن الحركة والتغير، وتتوقف الحركة والتغير عن التناقض معنا ومع نفسيهما.

لقد كانت محاولة الإنسان الدائمة أن يكون معتقداً غير ملتزم.. لقد كان في محاولته هذه يبحث عن الراحة، لا عن الفضيلة أو الصواب.. لقد كان من الصعب أن يكون ملتزماً، فوجد أن من السهل أن يكون معتقداً.

*

إنه لما كان الفصل بين النظرية والسلوك ممكناً بهذه السهولة، صنع البشر لأنفسهم كل هذه العقائد والتعاليم المثالية الشاقة التي يستحيل تطبيقها، وخرج فيهم الدعاة والأنبياء، والمعلمون القساة الذين أثقلوا الإنسانية بفداحة وروعة ما يعلمون، وفضحوا السماء ببشاعة وقسوة ودمامة ما يذكرون؛ دون أن يخشوا إلزامهم بما يقولون، أو الحكم عليهم بما يعتقدون، أو اتهامهم بالقسوة والمناداة بالمحال..

إن أفجر الناس وأطغاهم، ليرحبون بتوقيع وتشريع أفضل القوانين في العدل، والحرية، والاستقامة، بلا شعور بالخوف أو التناقض، لأنهم يعلمون أنهم لن يكونوا ملزمين بها، لا أمام أنفسهم ولا أمام الآخرين..

لعل أكثر الناس خروجاً على التعاليم هم أقوى من وضعوا التعاليم. لعل أفسق الحكام والمعلمين هم أقوى الناس دعوة إلى الأديان والأخلاق، مع أن الأديان والأخلاق تحرمان عليهم

كل ما هم فيه من مجد وسرقات، وكبرياء ومنافع كثيرة، وتحرمهم من ذلك لو انتصرت، كما أنها لا بد أن تزيلهم، بل مع أن هذه الأديان والأخلاق تعاقبهم لو انتصرت بالصلب وبكل أساليب العقاب الأخرى.. بل مع أنها تتأنق في إعداد الجحيم تحية للقائهم..

ولكنهم يعلمون أن الدعوة إلى الشيء لا تعني وجود الشيء أو تقريبه، وأن النظرية التي لا تتحول إلى سلوك، ليست شيئاً مخيفاً. ولو وجد الحكام الأتقياء ورجال الدين، والمعلمون الموصوفون بكل أمراض الغيرة، أن الأديان والأخلاق التي يمتدحون ويحلون قتل من يفسرونها بغير تفسيراتهم هم، تريد أن تحكم، أن تنتصر، لجندوا جميع الأشياء لحربها وهزيمتها؛ لأن انتصارها هزيمة لمصالحهم، قتل لهم..

إن كل الناس أصدقاء للفضائل المضادة لمصالحهم إذا كانت هذه الفضائل ستبقى دائماً أملاً خلاباً بعيداً، ستبقى حديثاً يتلى من فوق المنابر، دون أن تنزل إلى الأرض لتكون سلوكاً وقيداً أخلاقياً، تدين له أعضاؤهم وشهواتهم، أو لتكون عقاباً لعاهاتهم وآثامهم.

وقد كان الناس جميعاً يخالفون الأديان والفضائل النظرية، كانوا يدعون إليها برهبانية وإصرار، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لن يكونوا مقيدين بها في حياتهم، وأنهم يستطيعون أن يجمعوا بين العقيدة والعمل بلا عقيدة، بين العقيدة الورعة جداً أو القاسية جداً، وبين الأخلاق الفاجرة المنحلة جداً..

لقد تعلمنا الإيمان، وتعلمنا الخروج عليه.. كلنا، في كل تاريخنا، بأسلوب جعلنا لا نلتفت إلى فداحة التناقض.. إلى وقاحة التناقض.

إنه لو كانت الفكرة تعني التقيد بها، لما ابتكر الناس الأديان والمواعظ والأخلاق المكتوبة. ولما أمكن أن يؤمنوا بها، لأنه لا يوجد من يستطيعون العمل بها. لقد استطاع الناس والمعلمون أن يضعوا أقسى التعاليم وأن يضعوا للإيمان أقسى الشروط، ولم يجدوا في ذلك قسوة أو تعذيباً لأنفسهم، أو للآخرين، لأنهم يعلمون أن وضع ذلك لا يعني التزامه..

قل أي شيء إذا كان سيبقى كلاماً..

إنه لو كان الإيمان ملزماً، لكان مستحيلاً أن يوجد في التاريخ كله مؤمن واحد.

تعبير عن الهرب

لقد كان البشر يحلمون ويتمنون حينما دعوا إلى الإيمان بما لا يستطيعون..

إن الاحتلام والتمني نوعان من الاحتجاج على الواقع..

إن حياة الإنسان هي احتجاج دائم، هي حالة احتجاج دائم..

إن هذا هو التفسير لسير المجتمعات وراء الذين يصنعون لها الأحلام والأماني، ووراء الذين يصنعون لها الاحتجاجات الصارخة، حتى ولو كان هؤلاء الصانعون منافقين وكاذبين في احتجاجاتهم، حتى ولو كانوا خارجين في سلوكهم على أحلام الجماعة وأمانيها. فالبشر يريدون من يحدثونهم ويحلمون لهم بعصبية ضاجة، ولا يريدون الفضلاء المتوقرين المتوازنين، أو الصادقين مع أنفسهم ومع رؤيتهم للواقع..

إن الواقع وحده، هو العذاب والعقاب، والدمامة والبذاءة..

إن أفضل وأتقى الأنبياء والمعلمين، هم الذين يستطيعون الهرب بالسوق من الواقع.

إن حضارات الإنسان وجميع فنونه وأديانه، ليست سوى تعبيرات مختلفة عن أساليب الهرب.. عن حالات الهرب، إن وجود الحياة نفسها ليست إلا عملية هرب. ولولا أن الإنسان هارب دائماً لما أوجد أو طوّر حياته، أو علومه، أو أخلاقه. إن أية كينونة إنسانية هي محاولة للفرار من واقع ما، ولو من واقع نفسي. إن الفرار من واقع ما، يصنع واقعاً آخر.

إن الإنسان فاضل، أو عبقري، أو بطل، أو متدين، أو صديق محب للآخرين، لأنه هارب. إن الطبيعة هاربة أيضاً؛ ولكن الإنسان وحده، هو الذي يعبر عن هربه باللغة والتفكير، والفن والبكاء، والتدين.

إن كبار أطباء العالم الذين قدموا إلينا من فوق النجوم، ليذرفوا الدموع في الطرقات حزناً على خطايا الإنسان وآلامه، أو ليتلقوا الألواح لمعالجة أمراض الأرض، وتجفيف المستنقعات في أخلاق أهلها، لم يكونوا أطهر نفوساً أو أنبل أخلاقاً؛ وإنما كانوا أعنف إحساساً بالحاجة إلى الهرب، وأعنف تعبيراً عنه. إنهم لم يجدوا أسلوباً آخر يعبرون به عن هربهم. إن الأساليب في التعبير عن الهرب يعوض بعضها عن بعض، كما يشغل بعضها عن بعض.

إن الكتاب والزعماء الذين يخلبوننا بدموعهم وأحزانهم، ليسوا إلا هاربين من واقع أو ذكرى، أو حالة نفسية قائمة قد حولوها إلى بكاء على الناس وعذاب من أجلهم. إن طلب المجد الذي يحرك هؤلاء، إنما يعني الهرب من شيء ما. إن طالب المجد هارب، ليس إلا هارباً. والذي لا يكون هارباً لا يمكن أن يطلب مجداً، لأن المستقر لا يطلب شيئاً. إنه فرار، إنه حالة فرار. ولو أن أي إنسان فقد كل أسباب الرغبة في الهرب، لما أمكن أن يفكر أو يريد، لما أمكن أن يفعل شيئاً.. أنت هارب، إذن أنت فاعل.

إن الفضيلة في جميع صورها، ليست سوى أساليبنا في التعبير عن هربنا من واقعنا الذاتي وواقعنا الخارجي.. إن الرذيلة ليست إلا ذلك.

تيه يحرسه المفترسون

إن التعب ضريبة على الوجود الإنساني..

إن الإنسان موجود.. إذن هو متعب..

إن الإنسان لا يكون، لو لم يكن متعباً، لو لم يشعر بالتعب..

إن المتعبين لا بد أن يصرخوا، لا بد أن يتطرفوا، لا بد أن يحطموا المصابيح ويناقشوا في الفضائل التي لا يفعلونها ولا يستطيعونها ولا يحترمونها؛ إنهم لا بد أن يلعنوا شيئاً ما.. وهنا توجد فرصة أكيدة كثيرة الاحتمالات لظهور الفضائل المتعصبة الغبية، لظهور القادة المتهوسين الكاذبين، لتعاظم الإيمان بالدعاة الذين يجيئون بالتعاليم المهيجة..

إن التعب يصنع ذلك ويعد للترحيب به، إن التعب يصنع المعلمين والقادة.. إنه يصنع مزاياهم.. إنه يصنع الاقتناع بهم.. إنه يغطي ذنوبهم، ودماماتهم، وغباءهم..

إن التعب مزور، مهرج.. إنه أقوى أنبياء السوق.

إنه لولا التعب لما وجد من يهتفون لأي زعيم أو إله أو مذهب. إنه لولا التعب لما وجد من ينتحرون تحت أقدام الطغاة والأرباب، والأديان والمذاهب البليدة، في تتابع تاريخي مذل مذهل.. لما وجد من يكون حزناً على الضعفاء والمتألمين، وعلى الأخلاق والأوطان الضائعة..

إن أكثر الزعماء والآلهة احتياجاً إلى التطرف والصياح، وإلقاء الخطب في الطرقات، هم زعماء وآلهة أكثر المجتمعات تعباً. إن الزعيم المثالي في الشعب المتعب هو الزعيم المهيج، وإن الإله المثالي هو من كان كذلك..

إن الجماعات لا تؤمن بالزعماء، أو المعلمين، أو الآلهة، لأن لهم قوة خارقة، أو مزايا لا يمكن الاعتراض عليها.. ولا لأنهم ضرورة إنسانية أو كونية. إنها تؤمن بهم، لأنهم يتحولون إلى تعبيرات قيادية جماعية غوغائية، وإلى احتجاج عام على ما لا نستطيع، أو على ما لا نريد..

إن الجماعات تفضل أن تعبر عن تعبها وأزماتها بالصراخ والجنون، والتطرف والإيمان بغير المعقول بأسلوب جماعي حاشد ضاج. إن ممارسة الجنون تحت قيادة قائد يحسن فن الجنون، هي أبشع وأقوى أنواع الجنون في التاريخ. إنها أقواها في تفجير الحماس والعدوان، والبطولات الكثيبة البذيئة..

إن الناس يبكون ويرقصون ويفعلون الغباء وينتحرون جماعات، أكثر مما يفعلون ذلك آحاداً..

إن سلوك الجماعة لا يحتاج إلى مبررات أخلاقية أو عقلية.. إنها تستمع إلى أية مبررات. إن

المبرر الواحد في حسابها ووعيها يبرر الشيء ونقيضه.. إن أي مبرر يقنعها بأي شيء، وإن أي شيء يقنع به أي مبرر.

إن ما تطلبه الجماعات ليس هو الحق، ولا هو العدل، أو العقل أو الحرية إن الجماعات تطلب اللعب بمشاعرها. ولعل الأصح أنها لا تطلب شيئاً تعرفه، ولكنها تنتظر أي شيء يعرض أو يفرض عليها، في مواكب من الزعامات والعبوديات، لهذا نجح في غزو الجماعات جميع الفاتحين..

إنه لا توجد نماذج متحددة لما تريده الجماعات أو لما تطلبه، إنها تعيش في تيه مفتوح على كل الجهات.. في تيه يحرسه ويحكمه الأدلاء الضالون المفترسون. إن الحقائق عندها ليست موجودات، بل تعبيرات.

. لقد هتفت الجماعات في جميع العصور، لجميع الحكام والزعماء، والعقائد والنظم المتناقضة على مستوى واحد من الحماس. لقد هتفت للإيمان بالله.. للإيمان بالإلحاد.. للملكية والجمهورية.. للديمقراطية والدكتاتورية.. للرأسمالية والشيوعية..

لقد هتفت للعدل والظلم.. للقاتل والمقتول..

لقد عبدت آلهة قاتلة، وآلهة لا تفعل شيئاً.. لقد عبدت جميع الآلهة في جميع الصور، في جميع المستويات، دون أن تفهم الفرق بين صورة وصورة، أو بين مستوى ومستوى.

إن النظم والمعلمين والقادة الذين خلبوا ألباب الشعوب، وقادوها إلى الهزائم والانتصارات، والذين استعبدوا أرواحها لإرادتهم وتعاليمهم أطول مدة بأقسى أسلوب.. إن هؤلاء لم يكن لوجودهم أو انتصارهم أي مسوغ، أكثر من أنهم كانوا يعبرون بالصياح والتطرف، والخطب والتعاليم المحقرة للمنطق، عن متاعب هذه الشعوب تعبيراً استنفد منها أعظم شحناتها الانفعالية المتعبة.

إن فضائل السوق لا تكون متوفرة ولا صامتة. إن الفضيلة الصامتة ليس لها مستمعون ولا قراء. إن المنطق الذكي الوقور لا يستطيع أن يدخل في مبارزة متعادلة مع الأصوات العالية المتوترة في ميدان عام. إن المنطق الهادىء ضياع في السوق. إن إيمان الجماهير ليس لأفضل النظم والزعماء والمعلمين؛ بل لأبرعهم في إثارتها. إننا إذا وجدنا قائداً قوياً أو معبوداً في السوق، لم يكن من الصواب البحث عن مزاياه، بل عن رذائله القادرة على التلاؤم مع آلام السوق، وتطرفها، وحاجتها إلى الإيمان بالأنبياء المهيجين.

إن الناس لا يؤمنون بالأفضل أو بالأصدق، بل بالأكثر صخباً وتجاوباً مع الأعصاب المتعبة..

إن الأعصاب المتعبة تبحث دائماً عن شيء غير الذكاء، والصدق، والوقار.. إنها تبحث عن شيء غير الحقيقة..

ما أقبحك أيتها الحقيقة المتوقرة الصامتة، أمام الأعصاب المتوترة المتعبة..

افتضاح رفضه البشر

إن العدل، والحرية، والخير، والحب، والإخلاص.. إن هذه الألفاظ السحرية وأمثالها، كلما جاءت في كلام الإنسان، إنما تعني في سلوكه الجوع، والجنس، والافتراس، والخبز، والنوم، زورت تزويراً لغوياً..

إنه يسمي ذاته الجائعة الآكلة للضفادع بأسماء الآلهة والملكوت، بأسماء الأنبياء والقديسين.. إنه يضع السماء بكل ما فيها من آلهة، وملكوت، وشموس، وارتفاع، غطاء لذاته بكل ما فيها من تفاهات، وضعف، وانخفاض.. إنه يهبط بآلهة السماء ليضعها في أوحاله.

وقد اخترع لغة قادرة على تزييف وتغطية حوافزه وأهدافه، قادرة على تغطية وتزييف ذاته. لقد كان اختراعه للمجاز والمبالغة والكذب، وتسميته للأشياء المكروهة بأسماء طيبة، نوعاً من عمليات التزييف والتغطية.

لقد سمى سلوكه ورغباته الجارحة بأسماء مثالية. لقد أصبحت اللغة مسؤولة عن الكثير من أخطاء الإنسان، وتوتراته العقلية والأخلاقية. إنه ليست الآلهة والأديان والفضائل الإنسانية أوهاماً عقلية فقط؛ بل وإنها لأوهام لغوية، فالجماهير تتلقى أوهامها المقدسة لغة من السوق، فتغطي حقيقتها غير الجميلة وغير السارة بحجاب كثيف جميل سار من التسميات والشعارات.

إنه لو كان الإنسان بلا لغة، لكان بلا حضارة. ولكان أيضاً بلا آلهة، ولا أحقاد، ولا أكاذيب، ولا أوهام كبيرة، فأيهما أفضل.. أن يكون الإنسان هذا أو هذا..؟

إن اللغة تصنع حالة نفسية، كما أنها نتيجة لمثل هذه الحالة. إن الحافز على صياغة اللغة حافز نفسي لا بلاغي. إن الحافز البلاغي هو حافز نفسي. إن الذين يعبرون تعبيرات مجازية لا يقصدون جمال الأسلوب أو الارتفاع بالفن اللفظي، بل هم مندفعون أمام ضغط نفسي في داخلهم من داخلهم، أو وراء هدف خارجي يرومون تحقيقه. إن الأساليب البلاغية الفنية هي أساليب نفسية ومنطقية، لا بلاغية ولا فنية. إن اللغة ليست مفسرة لعقائدنا وعواطفنا فحسب، ولكنها واضعة لها أيضاً. إن الخطأ في اللغة يصنع خطأ في التفكير. إن اللغة هي التي تصنع أفكار السوق وأخطاء السوق.

إنه لا يوجد من يريدون أن تكون لغتهم أو لغة من يتعاملون معهم، وسيلة صادقة وأمينة

للتعبير عن أنفسهم، عن حقيقتهم. إن هذا النوع من التعري الفاضح والسباب البذيء لا تطيقه حياة الإنسان.

إن التعبير باللغة عن الإنسان، وإلى الإنسان بلا أغطية، بلا كذب، هو سباب وافتضاح رفضهما البشر في كل العصور. إن البشر جميعاً يريدون من اللغة أن تكون جهاز تزوير، يزوّرون به كل شيء ليكون كما يشتهون. إن اللغة هي جهاز نضال ضد الصدق والرؤية، إنها وسيلة هرب، إنها بحث عن الأقنعة..

أنت تتكلم.. إذن أنت تحاول أن تقول غير ما تقول.. أن تقول غير نفسك، غير الأشياء التي تتحدث عنها.

إن الناس لا يتحدثون عن الأشياء كما هي، بل كما يريدونها. إنهم يحاولون أن تخضع لهم الحقيقة، لا أن يخضعوا هم للحقيقة. إن كلام الناس لا يمكن أن يكون تفسيراً لعقائدهم أو أخلاقهم. إن الكلام ليس وسيلة بيانية. إن الذي يتحدث عن أغراضه إنما يحاول أن يغطيها بكل وسائل التغطية.. بالكذب، والصراخ، والتهاويل اللفظية والبلاغية؛ بل وبالصدق أحياناً. إنك حينما تصدق أحياناً، إنما تريد الهرب من الصدق.

ضرورة لا رسالة

إن اللغة مثل الغناء والبكاء. إنها ليست تعبيراً عن الواقع. إنها تعبير عن الإنسان. إنها تعبير عن أسلوب الإنسان لا عن واقعه. إن أية لغة أو توكيدات لغوية لا يمكن أن تكون وسيلة تعارف، لا يمكن أن تكون ذات دلالة مباشرة على نية القائل، على أهداف القائل. إن اللغة أداة توصيل كاذبة دائماً.

إن اللغة تعني دائماً الفرار من معنى اللغة..

إن أكثر الناس بعداً عن الصدق اللغوي، هم أصحاب المثل والدعوات المذهبية. إن المعلمين والدعاة والكتّاب لا يريدون بدعوتهم أن يقولوا الحق، أو أن يتصوروه. إنهم يريدون أن يقولوا ما يلائمهم ويربحهم، أو ما يعتقدون أنه يؤثر في الآخرين. إنه ليس في قصدهم أن يتحروا الصدق، إنهم إذا صدقوا فلن يكون الصدق هدفهم، ولكنه وسيلتهم إلى هدفهم؛ فالصدق ضرورة لا رسالة. إن الذي يصدق في كلامه ليس صادقاً في قصده. إن الكلام بحث عما نحن، لا عما هو واجب، أو عما هو أخلاقي..

إنه إذا نطق أي قاض في أية محكمة بكلمات الحق، أو بما يراه حقاً، فلا ينبغي أن يختلط علينا الأمر. إن هذا القاضي حينما حكم، لم ينظر إلى الحق ولا إلى من يستحقونه، إنه لم يخطر ذلك على باله؛ وإنما نظر إلى نفسه.. لقد كان يعبر عن ذاته ووضعه، لا عن القانون أو

الأخلاق، وكان هذا هو شعوره. إنه يقول في أسباب حكمه: «هذا هو العدل». ولو قال الحقيقة بلغتها لقال: «هذا هو أنا، أو هذا ما لا بد منه بالنسبة لمن هو في مكاني». فالإنسان لا يمكن أن يكون معبراً إلا عن نفسه، عن نفسه أينما كان، حتى وهو يحكم بين الناس.

إن المفكر أو المصلح الداعية حينما يصر على أن حبه للإنسانية هو الذي جعله يفكر لها ويخلق من ذاته رسولاً يموت تحت أقدامها، ليس كاذباً فقط. بل ومخطىء خطأً عقلياً قام عليه خطأً لغوي، وقد عبّر عن خطئه وكذبه باللغة.. إنه بالاستمرار اقتنع الناس واقتنع هو على نحو ما بتفسيره لنفسه وسلوكه.

لقد ابتكر الإنسان الكلمة ليهاجم ويقاوم، لا ليتفاهم. لقد كان حافز القتال أقوى من حافز التفاهم في ابتكار الكلام. إن اللغة وسيلة قتال نفسي وعقلي. إن المتكلم لا يريد أن يكون مفهوماً أو فاهماً، إنه يريد أن يكون هارباً أو متخفياً أو مفترساً. إن الكلام هو أكثر الأسلحة التي يتقاتل بها البشر انتشاراً. إن كل البشر يتقاتلون بالكلام كل الوقت على كل المستويات. إنهم لا يتقاتلون بأي سلاح مثلما يتقاتلون بالكلام.

إن المتكلم لو استطاع أن يعبر عن حقيقته تعبيراً لغوياً صحيحاً، لقال إنه حينما يفكر ويصنع من نفسه رسولاً ومعلماً، لا يقصد هداية الناس ولكن يقصد أن يتعالج بهم من همومه، من عاهاته، من ضياعه، من نفسه، إنه هارب من داخله إلى الآخرين، إنه هارب بوسيلة كلامية، إن النتيجة ليست مقصودة في حسابه، إنه ليس رحيماً ولا صديقاً ولا محباً أو إنساناً أكثر من الذين يشبون الحروب ويقتلون الملايين..

إن الداعية لو قال الحقيقة المطوية في نفسه، لما اختلف الوضع.. لما اختلفت النتيجة. فالناس لا يرحبون بالداعية أو الرسول لأنه صادق أو لأنه طاهر النية؛ بل لأنهم محتاجون إلى الإيمان والاتباع، وإلى المنشدين المتوترين..

إن الناس لا يرحبون بالداعية، أو يتبعونه، كما لا يؤمنون بالنبي ويرون معجزاته احتراماً أو اقتناعاً أو رحمة؛ بل احتياجاً وبحثاً عن صارخ يتألم ليصرخوا وراءه.. ليصرخ لهم.. ليصرخ عنهم.. ليصرخوا به..

إذن فآلهة الإنسان وعقائده ومثله وأخلاقه، هي مجموعة أخطائه اللغوية..

نعم، إن له سلوكاً وأفكاراً وعواطف موضوعية؛ ولكن التعبير عنها، والحكم عليها، هما الخطأ اللغوي.

إن البشر يضعون لغتهم ليكونوا لها عبيداً.. ليكونوا ضحايا لها.

كم هزت المجتمعات، وساقتها إلى المذابح، وإلى الانتصارات الشريرة، كلمات لاهوتية

غامضة مثل الخير والشر، والعقيدة والوطنية، والخيانة والشرف، والعدل والظلم، والحق والباطل؛ مع أن ذلك لا يعني في معناه غير تناقض الإنسان مع نفسه وظروفه، ومع الآخرين..

اختلاف حركة، لا تفكير

إن الفرق بين الشيء ونقيضه يساوي الفرق بين رغبتنا فيه، ورغبتنا ضده.

إن معنى ما تقدم، أن جميع أنواع السلوك والعقائد والمثل، بل والابتكارات الحضارية، هي حاصل عمليات إخراج الإنسان لنفسه وظروفه، وتوزيعه وتفسيره لها..

إن هذا يعني أن أعمالنا السلوكية والفكرية والنفسية، لا تنقسم من حيث الحافز والهدف والطبيعة، إلى طيبة ورديئة.. إلى إيمان وكفر؛ إلا بقدر ما تنقسم تحركات الصرصار وحوافزه ونياته، إلى أخلاقية وغير أخلاقية، إلى مؤمنة وخارجة على الإيمان..

إنها عملية واحدة تختلف علاقات الآخرين بها، فيختلف شعورهم نحوها، ثم يختلف حكمهم عليها لذلك.

إن قتلي لعدوي عدل، إن قتل عدوي لي ظلم.. إن رأيي وديني صواب، إن رأي المخالفين ودينهم خطأ. إن هذا هو منطق كل الأذكياء وكل الأغبياء.. إنهم هكذا يتعاملون باسم الآلهة والأوطان، وباسم الحق المطلق الأبدي.

إننا لا نعادي المخالفين لنا لأنهم ضد الفضيلة أو ضد الإيمان والحق، ولكن لأنهم ضدنا. إنهم مخطئون لأن إرادتهم ومصالحهم تناقض إرادتنا ومصالحنا..

إننا دائماً نحن الوحدة القياسية للآلهة، والمذاهب، والناس، ولكل الأشياء..

إن كل شيء يجب أن يفسر بنا، حتى الآخرون الذين هم مثلنا يجب أن يفسروا بنا، وإلا فهم خونة ضالون..

إن الآخرين يرون في أنفسهم مثل رأينا في أنفسنا..

كم نحن إذن أذكياء..

إذن؛ نحن البشر، كم نحن عادلون وأذكياء.

إن جميع عقائد البشر وأهدافهم تنبع من التراب لتصب في التراب، لتتحول إلى تراب..

إن البشر ليسوا حكمة تتحول إلى أرض.. إنهم أرض تتحدث عن الحكمة. إن كل ما عندهم من تفكير يعبر عنهم، ولكنهم هم لا يعبرون عن أي تفكير..

إن الأفكار لا تتحول إلى وجود، ولكن الوجود هو الذي يتحول إلى أفكار. إنه إذا حدثت

ثورة اجتماعية فليس لأنها قد كانت فكرة؛ بل لأن احتمالات حدوثها قد تكاملت. إن الفكرة عن الشيء هي تعبير عن حالة ما، عن حالة فينا، في ظروفنا، وهذه الحالة هي التي تحركنا دائماً لا أفكارنا. إن الخلاف بين الشعوب والأفراد ليس على المذهب أو التفكير، ولكن على الكينونة والإرادة.

إن الناس يتحدثون عن المبادىء، ولكن يتحركون بالشهوات. إنهم يتعاهدون على القوانين ولكن يتعاملون بالمؤامرات. إنه إذا اختلفت كينونة قوم أو إرادتهم اختلف تفكيرهم. إن الاختلاف الفكري هو دائماً في أسبابه وطبيعته اختلاف غير فكري.

إن الاختلاف بين آراء الناس يشبه اختلاف تناقضات الطبيعة.. إنه اختلاف حركة وتصادم؛ لا اختلاف تفكير.

إن الكينونة والإرادة هما دائماً الحالة الأولى والأسباب الفاعلة.

إن المذاهب لا تغيرنا ولا تحركنا، ولكن نحن الذين نغيرها ونحركها. إن مذهب الإنسان غير الإنسان، لأن المذهب موقف فكري عام؛ أما الإنسان فرغبة متغيرة خاصة.

إن الخلاف بين الشيوعية والرأسمالية خلاف فكري مذهبي في لغته وفي ملابسه الخارجية. أما في تكوينه الذاتي والنفسي فإنه خلاف كينونة. إنه خلاف مستويات.. إنه خلاف انتصارات وهزائم.. إنه خلاف تاريخ وبلاد وأحقاد وشهوات.. إنه خلاف قوة وضعف وحركات لا منطق لها.

إنه لا تأثير لأي منطق أو مذهب ما لم يكن تعبيراً عن حالة. إن هذه الحالة لا يخلقها المنطق أو المذهب.. إنه لا يحرضها.

إن الأفكار والمذاهب لا يأتيها نشاطها من ذاتها، بل إن وجودها نفسه يجيء من خارجها. إنه إذا أمرتنا أو نهتنا مذاهبنا وأفكارنا، كان المعنى أنها هي نفسها واقعة تحت ضغط أوامر ونواه خارجية. ولعل الصحيح أن مذاهبنا وأفكارنا لا تأمرنا ولا تنهانا؛ وإنما تتلقى الأمر والنهي لتبعث بهما إلينا، إلى الغرائز والاحتياجات المحتقرة فينا، أي منها وإليها..

إن العالم لم يزل يزدحم بالنظريات والمذاهب المتقاتلة، ولكن المذاهب والنظريات في المجتمع هي الأسماء للقوى المحركة الحقيقية التي لا تحترم غير نفسها.. التي لا تستطيع أن تكون ملتزمة أو تابعة.

إنه بقدر ما يصدق القول بأن الجمال ليس نظرية وإنما هو مستوى ذات، كذلك يصدق القول بأن النظام ليس نظرية، ولكنه اكتمال حالة، ولكنه مستوى حالة.

بلا بحث عن شيء

إن البشر في ابتكارهم للنظم والمذاهب المختلفة الدائمة، لا يفعلون ذلك بحثاً عن المنطق أو الصواب، ولكن خضوعاً لقانون السير الدائم في التيه المجهول. إنهم كالأسلوب الذي تتحرك به الطبيعة فتصوغ حركاتها المتناقضة العقيمة بلا بحث عن شيء، ولا حاجة إلى شيء.

إن البشر يسيرون ويظلون يسيرون، فيبدعون الحياة والحضارات كما تبدع الرياح الضالة جبال الرمال. إنه يحدث دائماً أن الحركات العشوائية التي تأتي عن الإنسان والطبيعة، تصنع الحالة التي ندعوها مجتمعاً، ونظاماً، وعقلاً كونياً، أو عقلاً إلهياً يحكم الكون، كما تصنع حركات البخار غير العاقلة أنهاراً كبيرة عاقلة..

إن الأشياء المنظمة العاقلة، هي دائماً هبة أشياء ليست منظمة ولا عاقلة..

إن عقولنا، إن عقولنا نفسها، هي نتاج وجود غير عاقل..

إن الإنسان نفسه قد خلق عن شيء ليس إنساناً..

إن فاقد الشيء يعطيه، إنه دائماً يعطيه؛ لهذا وجدت الحياة والكون، وتطور.. لهذا استمرا يتطوران. ولو كان فاقد الشيء لا يعطيه كما تقول الفلسفة القديمة، لكان مستحيلاً وجود أي شيء وتغير أي شيء. إن وجود الكون، والحياة، والإنسان، والعلم، والحضارة، يعني أن فاقد الشيء يعطيه. لقد كان الإنسان بلا لغات، ولا فنون، ولا حضارات، ولا فلسفات.. لقد كان فاقداً كل ذلك فأعطاه..

إن كل نضال البشر إنما يعني أن يعطوا ما يفقدون. إن كل عمليات الطبيعة والمجتمعات أن تعطي أشياء تفقدها.

أليس الله نفسه يعطي الأشياء التي هو فاقد لها..

أليس يعطي الموت، والمرض، والشيخوخة، والفقر، والهوان، والضعف..

أليس يعطي الأولاد، والجنس، والجوع.. أليس يعطي المخلوقات وهو ليس مخلوقاً..؟

الذات خالدة

إن أبشع التناقضات أننا نصنع الأشياء بإرادتنا، ثم لا نستطيع أن نصنع الإنسان كذلك. إن كل الأشياء، إن كل المذاهب والنظم، والأفكار والحضارات المتغيرة، لا تستطيع أن تغير الإنسان. إن الإنسان هو دائماً روح واحدة تعيش وراء الحضارات. نعم، إنه دائماً يغير حياته ونظمه، وأفكاره وحضاراته، لأن هذه كلها صناعة يكتسبها ويتقنها ويتفاوت فيها. إنها أساليب وتعبيرات عن ذاته الخالدة التي لا تتغير، لأنها لا تكتسب ولا تصنع.

حتى الأخلاق، إنها في تغير دائم. ولكن الذي يتغير فيها ليس هو الإنسان، إنه الأسلوب والتعبير. إن المستوى الإنساني الذي تنطلق عنه أقوى الأخلاق والمواقف، هو نفس المستوى الذي تنطلق عنه أضعف المواقف والأخلاق. إن البشر تحت جميع التغيرات الكبيرة التي يدخلونها على حياتهم وأدواتها، يظلون كما هم بلا أي تغيير. إن كل التغيرات هي تغيرات زي ولغة، لا تغيرات ذات. نحن نستطيع أن نغير زينا، أي نغير وسائل تعبيرنا عن أنفسنا، دون أن نستطيع تغيير أنفسنا. إننا نتكلم كل اللغات لنعبر عن معنى واحد لا يتغير.

إن ما يصنعه الإنسان هو أعظم من الإنسان. إن أفكاره ومثله وعقائده، هي دائماً وفي كل التاريخ أكبر وأنظف وأذكى منه، مع أنه هو خالقها.

إن مصانعه ومدائنه، وجيوشه وحضاراته، متغيرة وكبيرة جداً.. أما هو فيظل صغيراً..

يظل صغيراً مثلما كان، حينما كان بلا حضارة، ولا ثقافة، ولا لغة..

إنه يظل صغيراً في حوافزه وأهدافه، في مخاوفه وضعفه، في هوانه وجبنه، في حبه وبغضه..

يظل صغيراً كلما مارس نفسه.. إنه يظل صغيراً مهما صنع الأشياء الكبيرة.. إنه يصنع أشياءه دون أن يصنع ذاته..

كم هو غير منطقي أن يكون المخلوق أعظم من الخالق؛ ثم لا يستطيع هذا المخلوق الكبير أن يغير خالقه الصغير.

إنه منظر مثير أن تشاهد حشرة دقيقة تحمل فوق نفسها من الأزياء والأحجار الثمينة، والأدوات الحضارية المختلفة، شيئاً هائلاً في الضخامة والتنوع والجمال..

إن تلك هي صورة الإنسان تحت حضارته الكبيرة المتنوعة. إن الإنسان أمام حضارته العظيمة ليبدو مثل حشرة، أضعف من حشرة، أقل نظافة وسمواً من أية حشرة. إنه ليبدو كائناً غريباً، غريباً، بعيداً، بعيداً، عن حضارته.

ما أعظم الفرق بين مدينة متحضرة كبيرة، بين ما في هذه المدينة من فن وشموخ وضخامة، وما في مبدعها الإنسان من تفاهة وضعف وبكاء.

لقد كان العدل والمنطق أن نصنع إنساناً كبيراً حينما استطعنا أن نصنع حضارة كبيرة.

ولو أن الإنسان توصل إلى أن يصوغ ذاته بالأسلوب الذي يصوغ به المعادن والأرض والأجهزة العلمية، لتغيرت كل حقائق التاريخ، ولكان ذلك أعظم من جميع انتصاراته الفنية والعلمية. فهل يستطيع أن يفعل هذا في أيامه المقبلة.. هل يستطيع..؟

ما أعظم أن يصنع الإنسان نفسه بالأسلوب الذي يصنع به حضارته وأدواتها. وحينئذٍ ما أخطر، أو ما أعظم ما يمكن أن يحدث.. قد يعجز خيالنا أن يتصور ما الذي يمكن أن يكون.

لقد كانت أفكار الناس ومحاولاتهم مصروفة لتغيير أشيائهم لا لتغيير ذواتهم. ولكن لا بد أن نعلم أن التعليم، والتهذيب، والتفكير، وجميع أساليب الحياة هي أشياء لا ذوات. فالذين يغيرون أفكارهم، وأخلاقهم، أو أية صورة من صور حياتهم، إنما يغيرون أشياءهم لا ذواتهم.

إن النقائص والشهوات، والحوافز والأهداف التي تحرك أعظم إنسان، هي التي تحرك أصغر إنسان في مستواها ونوعها. إن كل الفرق بين الكبار والصغار، هو مقدار الفرق بينهم في القدرة على إخراج وتوزيع ذواتهم، وظروفهم وشهواتهم الخاصة في شتى الصور والتعبيرات. إن عبقرية البشر وأعمالهم موهوبة كلها لخدمة هذا المستوى، لخدمة هذا النوع النفسي للإنسان، لا لرفعهما، لا لتغييرهما.

لقد كانت جميع مساعي الإنسان، ويخشى أن تظل كذلك في المستقبل، موضوعة للاستجابة لذاته، لا للاستبدال بها..

لقد كانت عبقريته أن يخلق الأشياء على نموذج نقائصه، لا أن يخلق نفسه على نموذج نظرية مثالية ليصبح بلا نقائص؛ ليصبح شيئاً فوق نفسه.

لقد كانت المأساة دائماً، أن كل الآلهة في كل التاريخ، تريد أن تخلق الأشياء على مثالها. لقد كان الأفضل، لقد كان المفروض، أن تخلق نفسها على مثال فكري كبير..

إن كل الآلهة في كل التاريخ، كانت تعاقب الأشياء إذا هي خرجت على نموذجها هي. لقد كان الأروع.. كان العدل.. كان المنطق أن تعاقب نفسها إذا خرجت هي على نموذج الأشياء.

الثنائية المتناقضة

ما أسخف المحاولة لو وضعنا رغبات الإنسان ونياته وسلوكه في صورة، ثم وضعنا مثله وشعاراته في صورة أخرى، ثم حاولنا المقارنة بين الصورتين..

ما أسخف المحاولة.. ما أسخفها..

ما أعظم الفرق بين أخلاق البشر النظرية، وأخلاقهم السلوكية والنفسية..

ما أطول المسافة الممتدة بين الإنسان ونفسه.. ما أطول المسافة بين الإنسان كنظرية، والإنسان كسلوك، وحياة، ونيات..

لقد كان الجمع بين الإيمان بالنظرية أو المناداة بها، والخروج عليها ميثاقاً عاماً وقعته جميع

الشعوب في كل التاريخ، حتى أصبح ذلك شيئاً مألوفاً لا يثير حيرة أحد ولا تساؤله..

إنه لا يوجد من يفعل نظريته. إن كل الناس يظلمون نظرياتهم لأنهم يفعلون رغباتهم وضعفهم تحت اسمها. إن النظريات في جميع المجتمعات لا تستطيع أن تعيش نفسها، لا تستطيع أن تعيش في الناس أو في الحياة..

إنه لم يكن ممكناً أن يحيا الإنسان بنظرية، لأن الحياة حركة، وتناقض، واحتمال، وتوتر، وخطر، وشهوة. والنظرية ليست كذلك، بل هي ضد ذلك.

إن جميع الناس حتى أفضلهم، حتى أفضلهم حكمة وأخلاقاً محكوم عليهم بالخروج على نظرياتهم. وهم سواء في الحاجة إلى هذا الخروج. وليس الخروج على النظرية دليلاً على الضعف، بل على التناقض الطبيعي بين النظرية والحياة. إن المثاليين ليسوا هم الذين يطيعون النظريات، ولكنهم هم الذين ينظمون خروجهم عليها، ليكونوا متوافقين معنا في خروجهم عليها، لأنه ليس في البشر من يستطيعون أن يخضعوا لنظرياتهم مهما أرادوا ذلك.

إن أعظم الحكماء والمعلمين لعاجز عن التوافق مع نظرياته، كعجز البرغوث عن أن يفهم لماذا يرفض البشر المتوحشون أن تتغذى البراغيث الجائعة، بالقليل من دمائهم الرخيصة المبذولة بكل سخاء في كل التاريخ، لكل الطغاة، لتتغذى بها كل حماقاتهم وأحقادهم، مع الهتاف لهم..

وإنه كذلك لم يكن ممكناً أن يحيا الإنسان بلا نظرية، لأنه مفكر.. لأنه لا بد أن يفكر.. ولأن المفكر لا بد أن يحول أفكاره إلى نظريات، إلى نظريات ما.

إن الإنسان محكوم عليه بأن تكون له نظريات، وبأن يخرج في حياته ونياته وإرادته على هذه النظريات..

إنه ككائن حي لا نظرية له، وإنه كمفكر لا بد أن يكون صاحب نظرية. وقد ظل البشر منذ كان لهم تاريخ، يحيون هذه الثنائية المتناقضة. إنهم جميعاً يتعانقون ويتصافحون، ويرتبطون بالمعاهدات والمواثيق والاتفاقات، ويتبادلون التحيات والابتسامات، والخطب والتوقيعات الرسمية، ويتحدثون ببكاء عن خضوع شهواتهم ومصالحهم المهزومة أمام شرفهم القهار. إنهم يفعلون كل ذلك وكأنهم خاضعون لنوع قاتل من النظريات، بينما يتعاملون ويتقاتلون بالمشاعر بلا أية نظرية. إنهم يتقاتلون كما تتقاتل الديدان في حضيض التراب..

وقد اضطروا إلى قبول هذا التناقض والازدواج والتكاذب العالمي.

ولكن أليس الناس يتعاملون ويحيون بالنظريات..؟

إذا لم يكونوا كذلك، فما معنى حياتهم الخاضعة للقانون والتخطيط..؟

ما معنى اتفاقهم على السلوك العام..؟

ما معنى سيرهم في الطريق المرسوم، وعملهم بالفكرة الواحدة..؟

إنهم لو كانوا يعيشون بلا نظرية، لما أمكن أن يوجد ما يسمى مجتمعاً. إن المجتمع ليس إلا نظريات قد تحولت إلى صور متحركة.

ولكن كل هذا ليس إلا صورة. فالحقيقة أن الناس والمجتمعات تحيا بالتكيف والعادة، والتقليد والشهوة، والتجمع والتلاؤم.. بالذكاء والخوف، والرغبة والغريزة؛ كما يتقون الأخطار، كما يفعلون احتياجاتهم اليومية وسلوكهم العادي، كما يسيرون متتابعين في الطريق الواحد، كما تصنع الحيوانات في حياتها وتجمعها..

إن الناس لا يعيشون نظرياتهم إلا بقدر ما يعيشونها في رغباتهم الجنسية، وفي أساليب ممارساتهم لهذه الرغبات.

إن الذين يخضعون للنظام الذي يحيون تحته، هم كالذين يذهبون إلى ميدان القتال ليموتوا ويقتلوا الآخرين. هم كالذين يدخلون في معركة جماعية ضد اللصوص، ضد الحشرات. إنهم لا يفعلون ذلك بالنظرية، بل بالإرادة والضرورة والتتابع. إنهم لهذا يؤدون أعمالهم هذه حينما تكون ضد نظرياتهم، كما لو كانت تؤيدها.

إن الذي يعيش تحت نظام شيوعي أو رأسمالي، أو جمهوري، أو ملكي، لا يطيع ذلك النظام أو يحترمه لأنه نظرية، بل لأنه حالة.

إن النظرية تتغير كلما تغيرت الحالة. إن الذي يخضع لحكم طاغية لا يفعل بحافز النظرية، ولكن بحافز الخوف والاتباع، والسير مع الآخرين في طريق الجنون والعبودية.

إن أشد الناس إيماناً بالنظريات يتعايشون ويتلاءمون مع النظم المخالفة لنظرياتهم، مثل أصحاب النظريات الموافقة أو أشد. إن معايشتنا لأي نظام، لا تعني على أي احتمال إيماننا مذهبياً بذلك النظام. إننا عبيد نسير في موكب العبيد بلا نظرية، بل ضد كل نظرية.

إن النظرية هي تحويل الواقع إلى صورة فكرية، ولا يمكن تحويل النظرية إلى صورة مادية.

إن البشر يحولون إمكانياتهم المادية وإراداتهم ـ لا نظرياتهم ـ إلى حالات مادية جديدة، ثم يحولون الحالات الجديدة بما فيها من إرادات واحتمالات، إلى نظريات.

والنظريات ليست حافزة ولا خالقة ولا هدفاً. إنها تفسير، إنها مفسرة.

إن الاختلاف بين الناس ليس مساوياً للاختلاف بين نظرياتهم، بل للاختلاف بينهم هم. إن النظريات كما لا تستطيع أن تصنع الناس، فإنها لا تستطيع أن تهدمهم. إن النظريات هي دائماً

بحث عن الحياة، وعن السلوك والشهوة؛ ولكن السلوك والشهوة والحياة لا تكون بحثاً عن النظريات.

وفي كل المجتمعات تعيش غريزة القطيع الذي يطيع، ويتجمع، ويكون فاضلاً أو شريراً، بلا أية نظريات.

إن الذين يتجمعون في المعبد ليصلوا للإله بأصوات عالية.. إن الذين يهتفون للبطل والطاغية.. إن الذين يهجمون على المخالفين لهم بوحشية.. إن جميع هؤلاء يصنعون سلوكهم بلا نظرية، لأنهم لا يحتاجون إلى نظرية لكي يخضعوا لأهوائهم واحتياجاتهم..

إن الحشرة والوحش لا يحتاجان إلى أية نظرية، ولا إلى أي نبي أو معلم، لكي يصبحا حشرة ووحشاً.

*

إنه لا توجد أية وسيلة تستطيع أن تجعل الإنسان أخلاقياً من داخله..

إن البشر لا يصنعون انفعالاتهم.. إذن هم لا يصنعون أخلاقهم، لأن الأخلاق ليست سوى انفعالات قد حولناها إلى تعبيرات أخلاقية..

إن البشر ينفعلون، يتحمسون للأشياء أو ضدها بلا مشورة منهم أو من تعاليمهم الأخلاقية، أو من مستواهم الحضاري والثقافي. إنهم ينفعلون ضد هذا أو معه كما يجوعون، ويمرضون، وترتفع الحرارة في أجسامهم إذا مرضوا؛ بل كما يسقطون على الأرض إذا ارتفعوا عنها، بلا نظريات أو تعاليم أخلاقية..

إن أخلاق الإنسان النفسية لا يمكن استحداثها أو الرفع من طاقتها بالفلسفة أو الدين، أو بالرغبة والثقافة، أو بالإيمان بالفضيلة والحق، والنظريات الشاملة القوية.. حتى الحضارة والتعليم، لا يستطيعان أن يفعلا ذلك.

نعم؛ إنهما قد يغيران من أساليبنا في التعبير عن أخلاقنا، ولكنهما لا يستطيعان أن يغيرا أخلاقنا. إن الأخلاق ليست موضوعاً من موضوعات الحضارة، وإنها لا يمكن أن تكون كذلك. ولكن التعبيرات الأخلاقية هي أحد الموضوعات الحضارية، لأن الأخلاق أسلوب لا محبة، إنها تصافح أو تضارب بالحجارة لا تقبيل لجبين النبوة.

ولقد ذهبت جميع المحاولات التي بذلها الدين والحضارة والفلسفات لإنماء فضائل النفس عبثاً إنسانياً حزيناً دون أن تحدث أي تغيير في نفوس الأفراد أو في نفوس الجماعات. إن الحالات النفسية، وهي الأخلاق من الداخل، تحدث بأسبابها حدوثاً لا خيار ولا حرية فيه، كما

تحدث الظواهر الطبيعية، كما تجيء ألوان جلودنا. إنها طاقات تستجيب لمثيراتها، لموضوعاتها، استجابة غير أخلاقية، استجابة ضد الأخلاقية.

إن الناس يتفاوتون في قدرتهم الانفعالية، كما يتفاوتون في قدرتهم العضلية والفكرية. إنهم يتفاوتون في خروجهم على الأخلاق النفسية من حيث القدرة، وفي التعبير عن هذا الخروج. ولا تستطيع وحدة الظروف، كما لا يستطيع التعليم أن يسوي بينهم في ذلك، وقد يستطيع العلم ذلك في المستقبل بوسائله المادية. وكما أن قدرة الإنسان المادية لا يمكن تغييرها أو تقويتها بغير وسائل مادية، فكذلك قدرته الانفعالية.

ولو أن البشر جمعوا كل الكتب التي تحوي أقوى التعاليم والأخلاق النظرية، تلك التعاليم والأخلاق التي جاء بها أصدق وأعظم المعلمين والمفكرين في التاريخ، ثم حولوها إلى أروع حريق، إلى أكبر حريق في العالم، لما نقص ذلك من فضائلهم النفسية شيئاً..

كما أن هذه الكتب، التي ظلت كل المحاريب تعلم بها أنياب الوحش الجائع كيف يفقد اشتهاء الفريسة والقدرة على افتراسها، وتعلم النهر كيف يجري كما يريد مَنْ حوله لا كما يريد هو، والتي لم يوجد من يجرؤ أو من يقدر على إحراقها أو يفكر فيه؛ لم تستطع أن تزيد من حبهم للحق أو للناس، ولا من طاقتهم على أن يكونوا مغتسلين من داخلهم.. إنه مستحيل أن تستطيع ذلك.

إن الناس يستطيعون أن يغيروا من مسببات حالتهم النفسية، وإذا تغيرت هذه المسببات تغيرت حالتهم هذه، مهما كرهوا تغيرها أو قاوموه، فالحالة النفسية تتغير ولكنها لا تعلّم، ولا تؤمر. وإنهم يستطيعون أيضاً أن يعبروا عن انفعالاتهم غير الأخلاقية بتعبيرات أخلاقية؛ وإن معنى هذا أن يكذبوا، وينافقوا، ويخدعوا، ويتكلفوا أخلاقاً لا يتعاملون بها من داخلهم. فالفاضل جداً في المجتمع، هو الذي يستطيع أن يكون منافقاً وقادراً جداً على تدليس مشاعره، والخروج عليها، وليس هو الفاضل من داخله، إذ لا يوجد مثل هذا الإنسان. إن الإنسان لا يستطيع الاغتسال من داخله مهما اغتسل من خارجه.

إن كل تربية البشر الأخلاقية والاجتماعية الصالحة، تعني تعليمهم نوعاً من السلوك، لا نوعاً من الشعور أو الحب، لأن الشعور والحب لا يُعلّمان..

إن التربية الأخلاقية في كل المجتمعات، معناها تعليم الكذب على الآخرين، لا تعليم الشعور النظيف الصديق نحوهم..

إننا إذا أحببنا الآخرين فكما نبغضهم.. إننا لسنا فضلاء، وإنما نحن خاضعون لحالتنا النفسية. إن حبنا للشيء كبغضنا له، ليس أخلاقية.. إنه افتراس واعتداء. إن من يحبون الناس والحقائق لا

يفعلون ذلك بحافز الأخلاق، ولكن بحافز المصلحة والتلاؤم. إن البحث عن التلاؤم في صياغة الأخلاق، قد يكون أقوى من البحث عن المصلحة.

إن الذين يقولون لنا أحبوا الناس، أو أحبوا أعداءكم وإخوانكم كما تحبون أنفسكم، أو أحبوا العدل والحق والصدق، هم خطباء مغنون، هم واعظون لا يفهمون، ولا يعنون ما يقولون، إلا إذا كانوا يريدون أن يقولوا لنا كونوا منافقين، كونوا كذابين، كونوا مخادعين..

إن الأخلاق في كل العصور، هي إتقان فن التكلف، هي إتقان الأكاذيب والتزوير، والأساليب الكاذبة المخادعة.. حتى الإحسان إلى الآخرين.. حتى الاشفاق عليهم، هو عطف على الذات لا على الآخرين.

إنك إذا ساعدت إنساناً ما، أو أحسنت إلى ضعيف، فإن ذلك الإنسان أو الضعيف هو الذي أحسن إليك. لقد أعطاك الفرصة لكي تعرض نفسك عرض المتفوق النافع للآخرين.. إن لك إذن، لنفعاً وعملاً في هذا العالم. إن من تعاون يدفع لك الثمن الأكبر.. إنك تأخذ أكثر مما تعطي.

إن مشاعر الإنسان لا تبحث عن الواجب أو الحق، إننا لا نحب أو نكره بإحساس أخلاقي؛ بل لأننا محتاجون، أو مضطرون إلى الحب والكراهة. ولهذا فليس من المحتوم أن يكون من نحب أو من نكره، يستحق حبنا أو كرهنا..

إننا لا بد أن نحب وأن نكره. إن أسباب شعورنا نحو الأشياء والناس هي فينا لا في الأشياء ولا في الناس، هي فينا حتى ولو كانت في الأشياء والناس..

إن المشاعر الراضية والغاضبة، ليست عقوبة ولا مكافأة.. إنها احتياج.

لقد ظل البشر دائماً محتاجين إلى آلهة وشياطين، وقديسين وفسقة، ليكونوا شيئاً يطلقون عليه مشاعرهم المتناقضة المتوترة..

إنهم محتاجون إلى أن يحبوا ويبغضوا، إلى أن يستهلكوا طاقتهم النفسية استهلاكاً موجهاً إلى الخارج. ولو كان الإنسان يعيش وحده، دون أن يوجد من يصنعون له الحب والبغض، لظل أيضاً محتاجاً إلى أن يحب ويبغض. ولو فقد الناس من يستحقون عبادتهم وغضبهم، لشقوا بمشاعرهم التي لا بد من توزيعها توزيعاً خارجياً.. بل لكان محتوماً حينئذٍ، أن يعتقدوا وجود مثل هؤلاء وهؤلاء، ليعبدوهم ويغضبوا عليهم.. لينالوا إعجابهم واستنكارهم. فالحالة النفسية لا بد من تحويلها إلى موضوعات خارجية، لا بد من تحويلها إلى آلهة وأبالسة.

*

إن الفضيلة في جميع مستوياتها، هي إما شهوة، أو ملاءمة، أو جبن، أو تجارة..

إن الذي يفعل الفضيلة لأنه يشتهيها، لا يكون فاضلاً إلا إذا كان فاضلاً من يفعل الحق إذا كان يشتهيه.. إذا كان في مصلحته..

إن من فعل الحق الذي في مصلحته، أو الفضيلة التي تلائمه، كان كفاعل الباطل والرذيلة.. إنه في الحالتين لا يفعل إلا المصلحة والملاءمة.

إن الفرق بين الفاضل والرديء، هو اختلافهما في تلاؤمهما مع الأشياء، لاختلاف المستويات والظروف التي تواجههما.. التي يعيشان فيها.

خصاء دولي للإنسان

ما أشد ضلال من يلتمسون الفضيلة النفسية والأخلاقية بالجمود العقلي..

إن المتأخر فكراً في المتأخرين أفكاراً، لا بد أن يسرف في تناول اللذات المحرمة لأنه هو متأخر، ولأن المجتمع الذي يعيش فيه متأخر كذلك..

والمتأخر في المجتمع المتأخر لا يمكن أن يكون فاضلاً في سلوكه، ولا في خصائصه النفسية، لأنه لن توجد في مثل هذه الظروف حصانة من أي نوع ولا على أي مستوى..

وإذا أسرف القوي المتأخر في تناول المحرمات على حساب مجتمعه، فسوف يضطر إلى محاولة تغطية نفسه وجرائرها، بأن ينتصر لخرافات المجتمع الذي تمكن من خديعته واستغلاله.. ثم يرى على وجه آخر أنه لولا تأخرهم لما انتصر عليهم، فيذهب يعتقد أن من الخير له أن يظل قومه في عمايتهم المباركة، فيصر على تأييد هذه العماية وتقويتها..

ومعنى هذا أن يصبح أكبر زعماء الرجعية في العالم، هم أفسق فساق العالم.

*

ليس في قوانين الحياة حلال وحرام.. جائز وممنوع؛ وإنما فيها ممكن وغير ممكن.. فيها قاتل وواهب للحياة.

إن الفضيلة هي أن يتوافق الإنسان مع الطبيعة، لا أن يتجنبها، أو يخافها، أو يعجز عنها، أو يحرمها، أو يعبدها.

أما الرذيلة فهي في جميع أساليبها، أن يصطدم الإنسان بالطبيعة.

ليست الطبيعة إلهاً يكون حلالاً وحراماً، أو معبوداً.

ليست الطبيعة إلهاً تقاس فضائلنا ورذائلنا وأخلاقنا، بنوع معاملتنا له.. ولكن الطبيعة عمل نتناوله بالقدرة والعجز، بالرغبة والكره، بالذكاء والغباء.

إن تحليل الطبيعة وتحريمها، واتخاذ نوع التعامل معها مقياساً للاستقامة والضلال، ضرب من التأليه لها. إن الذين يحللون الأشياء ويحرمونها هم في الواقع مؤلهون لها. إن جميع التشريعات التي شرعها الإنسان لنفسه، وقسم فيها الحياة إلى محللات ومحرمات، وإلى أوامر ونواه بأسلوب الأخلاقية.. إن جميع هذه التشريعات، تعبير عن إحساس التأليه والعبادة للأشياء.

إن التحليل والتحريم ليسا تعبيراً عن فضائلنا ورذائلنا، بل عن خوفنا وعجزنا. إن احتياجنا إلى التحريم هو الذي صنع لنا الآلهة والأنبياء، صنع لنا الشرائع والكتب المقدسة..

لقد أوجدنا الآلهة المحرمة لأننا نريد أن نحرم. إننا لم نحرم لوجود هذه الآلهة التي تريد أن تحرم، أو التي صورناها محرمة.

إننا لم نحرم خوفاً من اصطدامنا بالطبيعة أو استجابة لضرورات طبيعية. لقد حرمنا خوفاً من أنفسنا وفراراً من التصادم بمشاعرنا.

في حياة الإنسان الأولى كانت آلهته وشرائعه كثيرة، كثيرة، مفترسة، مفترسة. كانت آلهته وشرائعه تملأ عليه كل الآفاق.. كانت تسد كل الطرق التي تتحرك فيها رغباته وأفكاره.. كانت المحرمات تحيط به وتحيط حتى ليكاد يفقد الرؤية، حتى ليكاد يعجز عن الحركة..

كانت الطبيعة رهيبة وقوية وغاشمة وبلا حدود.. كانت آلهة تأكل أعصاب البشر، وأفكارهم، وكل حياتهم.. كانت تحصي عليهم كل خطراتهم وشهواتهم.. كانت تراهم في الظلام أقوى مما كانت تراهم في النور.

كان اهتمام الإنسان كله مصروفاً إلى أن يعبد هذه الآلهة ويسترضيها.. كانت وسيلته في هذه العبادة وهذا الاسترضاء أن يحول الحياة كلها إلى محرمات.. كان يحرم الفكر، والفهم، والتغير، والحرية، مثلما كان يحرم اللذة، والسعادة، والقوة.

لقد كان تحريم العقل أشنع أنواع التحريم.. إن كل تحريم إنما كان تحريماً عقلياً أي تحريماً للعقل. كان تحريم التفكير والشك والمناقشة التي لا تعني إلا الحرية العقلية، معنى جميع الشرائع المحرمة، حتى التحريمات الأخلاقية والنفسية والسلوكية، لم تكن إلا تحريمات فكرية.

إن العبادة في فكرتها تحريم. إن الإنسان يعبد لأنه يحرم، أو يريد أن يحرم، إنه لا يحرم لأنه يريد أن يعبد.. إنه لا عبادة بلا تحريم.

والأخلاق.. أليست مجموعة محرمات، مجموعة من النواهي.. «لا تفعل».. «ومن الحرام

أن تفعل»؛ وإذا جاءت بأسلوب الأمر كان المعنى نهياً.. إذا جاء فيها آمنوا بالآلهة وصلوا لها، وأطيعوا الأوامر والتقاليد والطغاة، فالمعنى «لا تفكروا، لا تفهموا، لا تشكوا، لا تقاوموا، لا تكونوا أحراراً».

هرب من النفس

إن الشيء المحرم غير الشيء الضار، أو الصعب، أو الذي لا يكون. فالتحريم فيه معنى الاملاء الخارجي، والتأييد، والتقديس الفكري.. فيه معنى الاعتقاد؛ وليس كذلك الضار، والمستحيل، والصعب.

إن الشيء الذي نتركه لأنه ضار، ليس مثل الشيء الذي نتركه لأنه محرم. إن في الأخير معاني الرهبة والعبادة، والزجر عن الفهم والمراجعة، وليس كذلك الأول. إن العلاقة بين الإنسان والأشياء يجب أن تفهم على أنها كالعلاقة بين الحركة والمجال، على أنها علاقة قائمة على القدرة والعجز عن القدرة..

إن الفرق لا يخفى بين العجز عن الصعود إلى الشمس، وبين تحريم هذا الصعود؛ وكذلك الفرق بين تحريم الربا والزنى، وبين ترك ذلك لضرره وإيلامه كما يترك المشي فوق النار والشوك والمتفجرات.

الشيء الذي نحرمه إله يجب أن نصلي ونخضع له، ونفاخر بعجزنا عنه، ونعتقد أن هذا العجز من أفضل فضائلنا، وأسمى أهدافنا. أما الشيء الذي لا نستطيعه، أو الذي يحدث لنا ضرراً وألماً، فخصم أو عميل عنيد، علينا أن نحاول قهره والسيطرة عليه دون أن نحمل له أية فكرة تقديسية..

الشيء الذي نحرمه، مطلوب منا ألا نحاول السيطرة عليه، أما الذي لا نستطيعه، فأنبل نضالنا أن نستطيع هذه السيطرة.

إن التحريم بمعناه الروحي ليس تحريماً على الإنسان، إنه تحريم للإنسان نفسه..

إن الإنسان يحرم الإنسان حينما يحرم شيئاً.. إنه يحرم حركته، أو رغبته، أو تفكيره.. إنه يحرم نفسه على نفسه حيثما يحرم عليه. إن الإنسان حينما يحرم اعتقاداً ما، أو تفكيراً ما، أو مذهباً ما، أو خصومة أو حرباً ما، أو شعوراً ما، أو رؤية لشيء ما، فهو لا يحرم هذه الأشياء؛ وإنما يحرم أن يكون هو على نحو ما، أي إنما يحرم نفسه.. يحرم كينونة من كينوناته، أو موقفاً من مواقفه.

إن الحياة حركة لا تشريع، إنها لا تتعلّم بل تخرق التعاليم.

إن الإنسان آلة وحافز..

هو لا يستطيع أن يعمل حياته إلا باجتماعهما، كما لا يمكن أن يكمل إلا باكتمال هذه الآلة وهذا الحافز.. الآلة هي الذات، والحافز خليط من الشهوة، والإرادة، والغريزة، وغيرها من الدوافع الأولى في وجود الإنسان.

أما العقل فهو القوة الثالثة المراقبة على العمليات.

والمجتمعات العظيمة هي مجتمعات عظمت فيها القوى الثلاث، آلاتها، وحوافزها، وعقولها..

إن الشهوات القوية تطلق احتمالات قوية، أما الذين تخمل شهواتهم أو تضيق، أو تعلم القناعة والتحريم؛ فلن يستطيعوا الانتصار في موقف دولي كبير، أو في أي صراع مع الطبيعة.

إن الشهوات تكبر حينما تكبر الذات والحياة، وحينما تكبر المطالب. إن المطالب تكبر بالعلم والتدريب والثقافة، وبالخيال، وبالحياة الكبيرة، وبالموهبة، وبإطلاق قوى الذات الطبيعية؛ كما أن هذه المطالب تصغر إذا حوصرت، إذا ضيق عليها.

إنه يصيب بعض الأمم أحياناً طور تحريم؛ إن هذا الطور يكون طور إجداب، وعجز. ورغبة أي مجتمع من المجتمعات في التحريم ليست سوى إعلان عام عن حالة انهزامية. إن حالة الانهزام إنما يمليها انحراف عميق في وضع الجماعة الاجتماعي، أو في جهاز حكمها، أو في تربيتها الروحية، أو في ظروفها النفسية أو الجغرافية، أو في تصميمها الجثماني والتاريخي والإنساني.

إن الرغبة في التحريم تكشف عن رغبة في الهرب..

إن الذين ينزعون إلى تقييد حياتهم بالمحرمات تديناً أو تغنياً بالفضيلة؛ إنما يكشفون بذلك عما في أنفسهم من استعداد للهرب من الحياة، ومن المواقف القوية الصعبة، ومن المشاكل التي تتركب منها الحياة. إن الذي يشتهي ويفعل شهواته بتحقيق وسائلها هو شجاع مقتحم؛ أما المحرم التارك فليس إلا عاجزاً وجباناً. إن الحياة اقتحام. إنها في اقتحامها لا تبحث عن الفضيلة ولا عن الرذيلة.. إنها تبحث عن ذاتها، إنها تبحث عن القوة.

إن الذين يحرمون إنما هم أسلوب من أساليب الموتى الذين لم يدفنوا. إنهم لهذا لا يفعلون الحياة.. إنهم إنما يفعلون الموت بتعاليمهم وثقافتهم، ومشاعرهم وسلوكهم. إن التحريم هو دائماً علامة على شيء.

كم هم كثيرون أولئك الرجال الذين جاؤوا بصناعة القيود المضروبة على العقل، والروح، والحركة، كأعظم رسالة إنسانية..

كم هم كثيرون أولئك الذين جاؤوا إلى الإنسان كأفضل الأصدقاء، ليحرموا عليه الفكر، والموهبة، والحماس، والشوق إلى الأشياء.

كم هم كثيرون أصدقاء الإنسان الذين لم تكن صداقتهم تعني غير التحريم لذكائه وإرادته، والتخويف منهما..

والذين يحرمون على البشر سلوكاً أو شيئاً ما، إنما يعنون أن يحرموا عليهم الذكاء، والحرية، والمقاومة.

إن كل الخوف ـ خوف المحرمين ـ من ذكاء وحرية ومقاومة من يحرمون عليهم..

إن التحريم يعني أنه يوجد شيء فوق البشر.. إن التحريم هو دائماً دلالة أليمة على أن الإنسان محكوم من بعيد..

إن الآلهة، والطغاة، والمعلمين، هم الذين يحرمون على الإنسان؛ لأنهم هم الذين يريدون أن يكونوا فوقه.

لقد اخترعت كلمات السماء والأرض، والوحي والنبوة، والعبيد والآلهة، مع اختراع التحريم، أو اخترع التحريم مع اختراع هذه..

إن هؤلاء الهداة الذين تتجمع تعاليمهم في تعديد المحرمات والكشف عنها، إنما يعبرون عن الجانب المنحرف المنهزم في الإنسان.

والأصحاء الأقوياء لا يؤمنون برسالات التحريم؛ وإنما يؤمن بها قوم قد انسكبت في تركيبهم المادي والمعنوي، نقائص وهزائم مجتمعات وقرون حافلة بالضعف والآلام. إن المريض المحروم المعذب ليحول النقائص والآلام والعجز، إلى إيمان وصلوات وفضائل. إنه لولا رجال أصحاء جاؤوا يبشرون بالحياة، ويصنعونها ويمارسونها، جاؤوا يدعون إلى مجد الأرض.. جاؤوا يشهدون بعبقرية الشهوة والغريزة بسلوكهم ومنطقهم؛ لما استطاعت الإنسانية أن تعبر الصحراء الرهيبة الفاصلة بين البداوة والحضارة.

لقد كانت رسالة هؤلاء الرجال أن ينقلوا إرادة الإنسان من خوف الشيء إلى حبه واقتحامه.. ويحولوا الإنسان من همجي معتقد إلى متحضر فنان، يعشق النجوم ويغازلها بدل أن يؤلهها ويخافها، ويصوغ الطبيعة بدل أن تبهره بما فيها من أسرار غيبية، ويحاسب السماء

على ذنوبها وتشوهاتها، بدل أن يبحث فيها عن طلعة إله، يعرض مجده بكبرياء فوق آلام وأحزان ودموع البشر، أو فوق فضائحهم ومباهجهم الهمجية..

إن هؤلاء الرجال هم المخترعون، والمكتشفون، والفلاسفة، والمفكرون، والشعراء، وجميع الفنانين.. إن هؤلاء كانوا جميعاً من أعداء التحريم.. كانوا جميعاً من صانعي المجد للحرام. كانوا بناة بينما كان المحرمون هدامين..

لقد كان الاختراع، والفن، والتفكير، أفضل أساليب التحدي للأخلاق وللتحريم.. إن شاعراً أو موسيقياً واحداً فاجراً انطلاقياً، يفعل الحرام ويعلمه الناس، لأفضل هدية للحياة من جميع الفقهاء والمعلمين الذين أثقلوا المجتمعات بما ألقوا فوقها من كتب في تعديد المحرمات والتخويف منها.

إن التحريم عملية هدم.. هدم للرغبة والعمل، والإبداع والحياة؛ لأن الحياة ليست إلا مجموعة رغبات. وإن التحليل عملية بناء، لأن الحلال هو عمل تعمله وتوجده أيضاً، وتدفع به رغبتك إلى الاحتيال والإبداع. إن البناء هو محللات تفعل، لا محرمات تخاف..

إن الشهوة الحرة المحققة لنفسها، لهي التعبير الأعلى عن معنى الإله المبدع الذي صاغه خيال الإنسان، وأمله، وتاريخه.

الفضيلة قدرة.. لا فكرة

كان الناس في الماضي - في الماضي القريب، يحرمون كل شهوة ورغبة وسرور.. كانوا يحرمون كل ما يدعو إلى ذلك أو يجلبه. لقد كانت الحياة في اعتقادهم حرماناً، وعقوبة، وألماً وأحزاناً، وامتحاناً. كانت الأحزان صلوات ترفع إلى السماء وإلى هياكل الأرض.. كان المجد والشهوة حراماً، لأنهما يصنعان سروراً نفسياً وفكرياً.. كان كل سرور حراماً. أما الخمول وهبوط المكانة، فهما فضيلتان لأنهما ضد رغبات النفس.

وقد وضعوا قاعدة ذكية لمعرفة الحرام من الحلال عند اللبس؛ قالوا إذا اختلفتم في أمرين أيهما الخير وأيهما الشر، أو أيهما الحلال وأيهما الحرام، فاتركوا ما تهواه أنفسكم فإنه هو الحرام والشر. وقالوا إذا شككتم في أمر فانظروا، فإن كان يوافق رغبة في النفس فاعلموا أنه الحرام. وتحت هذا القانون حرموا الجمال المادي في كل صوره.. حرموه في المسكن، والملبس، والمأكل، وفي كل شيء، وكانوا إلى عهد قريب يحرمون كل الآداب، والفنون، والشعر، والغناء والتفكير، والذكاء، والعبقرية، وكل معاني الحرية. إنهم اليوم لا يحرمون أكثر هذه الأشياء ولكنهم عاجزون عن إبداعها. وإنهم ليستعملونها في استهلاكهم، مشوهة ومشوهين، ولكن بلا موهبة وبلا قدرة عليها. كانوا يحرمونها، وحين حللوها صاروا غير متكافئين معها. لقد

انتقل التحريم من الاعتقاد إلى القدرة والموهبة.. كانوا محرمين وعاجزين، فأصبحوا عاجزين فقط.

هذا في الظاهر، أما في الحقيقة فإنهم لا يزالون كما كانوا عاجزين ومحرمين، لأن الحلال هو الذي نصنعه، لا الذي يصنعه غيرنا. وما دمنا عاجزين عن فعل العبقرية والحرية، والجمال والقوة، فلسنا نراها حلالاً مهما تحدثنا عن إيماننا بها وعن مزاياها؛ فرأي الإنسان في فعله لا في قوله، وفضيلته قدرة لا فكرة.. بل إنهم ليطاردون ذلك مهما حلّلوه أو مدحوه، ودعوا إليه. والمطاردة أشد عداء للشيء من تحريمه.

إن معاقبة المفكر لا تعني تحريم التفكير فقط بل ومعاقبته، كما تعني تحريم أشياء أخرى ومعاقبتها.

إنهم ليسوا عاجزين فقط عن ذلك، بل إنهم يحرمونه ويلعنونه، إنهم يحاكمونه ويعاقبونه.

هل يسمحون للحرية، والتفكير، والذكاء، والفنون..؟

هل يسمحون لشيء من ذلك أن يكون كما يستطيع ويريد أن يكون..؟

إنهم لا يسمحون إلا بما يجيء على مقاسهم.. إذن هم يحرمون الذكاء، والتفكير، والحرية، والفنون، ويعاقبون عليها. إن تحريم التفكير والرأي يساوي في منطقيته تحريم لون الجلد، أو طول الجسم، أو مستوى كينونته.

خصاء البشر

لقد كان الإنسان في التاريخ معبداً تتجمع فيه كل الأرباب، والطغاة، والأشباح، لتتآمر على سحقه..

كانوا يريدون أن يوجدوا إنساناً بلا شهوات، بلا غرائز، بلا تفكير، بلا حرية..

كان وجود هذا الإنسان الخرافي هو أمل جميع التعاليم القديمة المقدسة، كان أمل جميع المسيطرين الأقوياء الذين تعاقبوا على البشر يسحقون عقولهم، وكبرياءهم، وشهواتهم..

لقد حرموا عليهم الضحك، وشجاعة القلب والفكر..

كانت الآلهة تغضب على الذين يضحكون، ويفرحون.. كانت لا ترضى إلا على من يحزنون ويبكون..

كان البكاء، والانهيار النفسي، عبادة ومزية وخلقاً..

كانوا يريدون أن يحولوا التاريخ كله إلى مبكى.. إنه لا يكفي أن حولوه إلى معبد..

حاولوا أن يميتوا في الإنسان كل أسباب الذكاء والقوة.. جربوا كل وسيلة وحشية وغبية لذلك.. كان من بعض هذه الوسائل أن ابتكروا خصاء الرجال.. لم يكونوا يريدون أن يخصوا فيهم القوة الجنسية فقط، بل لقد أرادوا أن يخصوا فيهم قوة العقل والرغبة، والحرية والشجاعة.. كان اهتمامهم أن يوجدوا مجتمعات من الخصيان.. لقد وجدوا أن الخصيان يفقدون كل طموح إلى الحرية، والتمرد، والاستقلال، والمقاومة..

إن الذين يمارسون عملية الخصاء للمجتمعات موجودون في كل زمان، كما يوجد الخصيان أيضاً في كل زمان.. إنه ما من دكتاتور أو زعيم أناني، أو دجال روحاني، إلا وعمله أن يخصي شعبه.. أن يسلبه ذكورته وفحولته..

إن أعظم اهتمامات الطغاة والمعلمين في كل التاريخ كانت لخصاء البشر، لقد أنفقوا من نضالهم ونضال مجتمعاتهم لخصاء الناس، أعظم مما أنفقوا لقهر الطبيعة، أو لصنع الرخاء أو لصنع السلام والمحبة في الأرض.

إن الخصيان يفقدون حوافز المجد، والغضب، للكرامة.. إنهم يرضون بكل هوان ووضع ذليل، بقدر ما يفقدون الرغبة الجنسية أو القدرة عليها.. إنهم إذا فقدوا أي شيء سألوا: وماذا خسرنا.. بل لعل هذا السؤال لا يوجد في حياتهم.

إن جميع التعاليم الأخلاقية، وأنواع التربية النفسية التي وضعها الأقوياء والزعماء الروحيون، أو مارسوها في المجتمعات، ليست إلا عملية خصاء جماعية رهيبة.. عملية خصاء عقلي وروحي..

إنه لم يوجد ولا يوجد مجتمع لا تجري عليه عمليات خصاء للروح والعقل.

إن خصاء الروح والعقل نضال دولي تمارسه كل المذاهب، والنظم، والأديان في كل المجتمعات..

إن التحدي، والعبقرية، والابداع، والقوة المتفوقة، شهوات لم يستطع الطغاة، ولا التقاليد، ولا المعلمون، أن يخضعوها بالخصاء..

إنه ليس ذنب خمول الشهوات الناتج عن عملية الخصاء إنه يسلب خصائص التغلب والإيجاد؛ بل إنه يسلب أيضاً الذكاء، وصفاء النفس، والمرونة، والتسامح، والتهذيب، وشموخ الخلق.

إنه لا بد أن يكون للمرء مآرب قوية في حياته، لتكون له شهوات قوية، لتكون له فضائل وأخلاق قوية، ليكون له ذكاء وعقل متجدد..

إن الشهوات هي التي تغير الأفكار، هي التي تخلقها..

ليست العقول منفصلة عن العواطف لا في نشأتها، ولا في صياغتها، ولا في عملها.. إن العقول هي الطور الأسمى من أطوار الشهوة.. إنه ليس في المسألة غير احتمالين: إما أن الشهوة هي التي خلقت العقل، وإما أنها هي التي طورت العقل. ومن أجل هذا التداخل بين شهواتنا وأفكارنا، لم يكن ممكناً أن تجيء أحكامنا العقلية ثابتة ولا متوحدة. إنه لو كان البشر بلا شهوات، لو كانوا بلا عواطف، لكان محتوماً أن يكونوا بلا عقول، بلا أخلاق، بلا فضائل نفسية..

إن عواطف الإنسان التي معناها الشهوة والحاجة، قد راحت في تطورها الطويل المتتابع، تجرد من نفسها جزءاً ممتازاً لتتسلح به ضد نفسها، ضد ظروفها غير المواتية، فكان هذا الجو الممتاز هو ما سمى نفسه بالعقل.. فعواطفنا إذن، هي التي تحكم عواطفنا، وشهواتنا هي التي تحمينا من شهواتنا..

نحن نفكر، ونعقل، ونكون فضلاء ومستقيمين، لأننا نشتهي ونخضع للانفعالات، ولسنا نكون كذلك لأننا نحتقر الشهوات، أو لأننا بلا شهوات، أو لأن شهواتنا خاملة. إنه في الظروف التي تفقد فيها شهواتنا حماسها، تفقد فيها عقولنا كذلك نشاطها..

إن التعاليم الخاطئة تحاول دائماً أن تهدم الشهوات لتسلم في زعمها الأرواح، والأخلاق والعقول.

إن الاتجاهات العقلية خاضعة دائماً لاتجاهات غير عقلية، إن الأهداف العامة لا تعني سوى أهداف خاصة.

ماذا نجد لو أننا درسنا العوامل التي تجعل الناس يركعون للألم والهوان، بصبر يتحدى صبر الطبيعة..؟

سنجد حينئذٍ عاملين: ضعف الحوافز، وفقدان الوسائل. أما فقدان الوسائل فراجع إلى ضعف الحوافز، وأما ضعف الحوافز فمعناه ضعف الشهوة.. شهوة الحياة، والمجد، والانتصار، والانتقام، شهوة العبقرية والحرية..

ستار للعجز

إن ضعف هذه الشهوات راجع إلى فقد المحرضات والمنبهات، إلى التدريب والتحريم الطويلين.

إن أي شعب من الشعوب إذا اكتملت حوافزه، فلا بد أن ينتهي به ذلك إلى اكتمال

وسائله، إلى أن يحاول ذلك.. إن كل إبداع وقوة في هذه الحياة، ليس إلا نتاج اجتماع الحوافز والوسائل.

ولكن ماذا يصنع التحريم والنهي في الطبيعة البشرية..؟

إن الناس يشتهون ويفعلون بقدر ما يستطيعون، لا بقدر ما يؤمرون وينهون، ويحلل لهم ويحرم عليهم..

إن التعاليم، والمعلمين، والآلهة، معزولون عزلاً أليماً، بل مهزومون هزيمة مذلة جارحة أبدية، أمام الحياة وشهواتها، وإملاءاتها وإغراءاتها المنتصرة..

إن الحياة تتحرك دون أن تشعر بوجود هذا الموكب من الضعفاء المهزومين. وإذن فمهما حرم عليهم فلا بد أن يفعلوا طبيعتهم، وإذا عجزوا فلأنهم عاجزون؛ لا لأنهم منهيون أو ورعون يطيعون الأوامر.

إذن؛ ليس صحيحاً ما ذكر من أن التحريم يعوق الشعوب عن النمو والتطور. لقد حرمت جميع الرذائل على الناس، وفرضت عليهم الفضائل، فهل أطاعوا.. هل احترموا التحريم أو الالزام الأخلاقي..؟

ليت للتعاليم والتشريع والنصائح تأثيراً.. إذن، ما كان أعظم النتائج وأرخص الاستقامة. إنه لو كان الأمر كذلك لكان الأشرار هم أغلى ما في هذه الحياة لأنهم حينئذٍ لن يوجدوا، إن الأشرار حينئذٍ سوف يصبحون مظهراً جمالياً رائعاً.. إذ لا وجود لهم. ولكن لا، إنهم حينئذٍ سوف يوجدون كثيراً، لأن التعاليم والنصائح سوف تجيء آمرة ومطالبة بوجودهم. وقد افترضت النصائح والتعاليم موجدة وخالقة للنموذج المطلوب.

نعم إن التحريم لا يغير الطبيعة، ولكنه قد يكون مبرراً للعجز، ودالاً عليه، فإذا كان ما نريده ونحتاج إليه، لا يكون إلا بالنضال، والتعب والعبقرية؛ فقد نختار الكسل، والراحة، ونحتج بالمبرر الأدبي، ونقول لنقنع أنفسنا ونقنع الآخرين بقيمة كسلنا وعجزنا.

إننا نترك الحرام ونبحث عن الحلال، إننا نحترم الفضيلة، إن هذا لأفضل من كل إبداع وحضارة. وفي سلوكنا هذا ما يعوضنا نفسياً أقوى تعويض عما سبقنا إليه الآخرون. فإذا كانوا قد تفوقوا علينا بقوتهم، وحضارتهم، وبمزاياهم العلمية والمادية التي لا تحترم السلف ولا فضائلهم، فلقد تفوقنا نحن عليهم بالفضائل النفسية والأخلاقية والتاريخية؛ وحينئذٍ لا نشعر بمرارة التخلف، بل نجد في وضعنا الأليم ما يجعلنا نحرز على مباهاة الدنيا به. وهنا نذهب نتناقض تناقضاً سخيفاً، إذ نستجيب لرغباتنا السهلة التي لا تكلفنا عناء ولو كانت حراماً وبلادة، ونعصي الرغبات الشاقة، الباهظة الثمن، بحجة أنها حرام حتى ولو لم تكن حراماً.. فلا

نفعل الشاق بحجة أنه حرام، ونفعل السهل سواء أكان حلالاً أم حراماً، خاضعين لقانون الرغبة السهلة.

إن النهي المستمر مع الحرمان المستمر، يصنعان في النهاية حالة انصراف، أو رغبة في الانصراف، أو ضعفاً في الرغبة، أو رغبة في الكسل، أو مبرراً له، أو اعتياداً للحرمان والعجز، والاستسلام والهزيمة. إن هذا مشهود في الجماعات التي يطول صدها، وتخويفها من نفسها واندفاعاتها الطبيعية، حتى ليبدو أحياناً أنها قد فقدت حوافزها وصفاتها الفاعلة. إن التحريم الروحي المستديم، المحروس بأقوى المخاوف والتهاويل الوحشية، قد يفسد الشوق إلى الشيء، قد يفسد العلاقات به.. قد يضلل الرغبة، وإن كان لا يقتلها. إنه لا يحرم الشهوة تحريماً مطلقاً ولكن يحول اتجاهها، فإذا حرّم على المؤمنين لذائذ الحياة الدنيا ومجدها، فإنه يرتفع بهم إلى السماء في مواكب من السحر والتهاويل الفائقة للعيون.

إن الاقتناع بتحريم الشهوة قد يكون نوعاً من الشهوة. إن الشرائع المحرمة قد تضعف القدرة دون أن تضعف الرغبة. إن هذا أسوأ ما يحدث للبشر.

وقد كان الذين يعيشون تحت سطوة التحريم الغيبي يشوهون تشويهاً باهظاً.. إنهم يملكون نفس الرغبات والأشواق المحرمة، ولكنهم لا يملكون مزايا الإقدام والاقتحام.. هم يشتهون كأفجر الناس، ولكن لا يستطيعون إلا كأضعف الناس.

جمود فكري وفسوق سلوكي

والناس في العادة ينافق بعضهم بعضاً، لأن بعضهم يخشى ويرجو بعضاً، فإذا كان هناك تحريم عام فقد يأخذون به ويتناهون عنه مجتمعين ولو بالنظرية، فيصبح التحريم ظاهرة اجتماعية لها لوازمها، ثم يبقى القادرون على العصيان، وهؤلاء يعرفون كيف يفسقون بأنفسهم، وكيف يستمتعون وحدهم بمغانم المحرمات سراً وجهراً. والناس قد يفعلون منفردين ما لا يجرؤون على فعله مجتمعين. إنهم يتعرون في الخفاء أسهل مما يتعرون في العلن. إن الانفراد بالمعصية شهوة مضاعفة.

والخروج على محرمات المجتمع بمثل هذا الأسلوب يعطي أضراراً فقط.. إنه محض خسران لا تعويض فيه.. إنه لا يعطي نمناً إنسانياً أو اجتماعياً؛ لأن الشيء الذي يفعل على أنه معصية، وبانفراد، وسرية، مع ثلب فاعليه، لا يمكن أن يكون فضيلة، ولا رغبة جماعية تظفر بمسيرة جماعية تحقق أعمالاً كبيرة أو عبقرية سلوكية.

إن الذين يأتون أموراً محرمة في شريعة قومهم، أو في تقاليدهم وعقائدهم هم، يصابون بالانقسام على أنفسهم.. إنهم يسيرون في اتجاهين متعارضين.. إنهم لا بد أن يضطروا تحت

الشعور بالنقد الذي يضمره لهم قومهم، أن يفعلوا في الجانب الآخر أفعالاً مضادة يريدون بها تغطية سلوكهم المنكر. إن هذه الأفعال المضادة هي أن يصبحوا رجعيين، أن يتظاهروا بتأييد الرجعية. فتجتمع على المجتمع حينئذٍ آفتان: المعصية الحمقاء المتحررة من كل احتشام وخلق وفهم، والرجعية الفكرية التي لا بد أن تكون غبية متعصبة، لتغطي العصيان السلوكي الفاضح. فمن الناحية الفكرية، لا إيمان بفكر، ومن الناحية الأخلاقية لا استمساك بفضيلة، فكيف اجتمعا.. جمود فكري لا مثيل له، وفسوق سلوكي لا حياء ولا وقار ولا اتزان فيه، فكيف يحدث مثل هذا..؟

والفضيلة.. شهوة

والذين يرون التضييق على الشهوات، يرون أنهم بذلك يخدمون الإنسان، ويحمونه من الآلام التي يوقعها بنفسه. إن في رأيهم أن الشهوة هي التي تصنع الفساد والعدوان بين الناس، هي التي تصد عن الفضيلة الروحية، وقد تصرف عن العمل المفيد. إنهم من أجل هذا يرون أن الخير كله في إخماد رغبات النفس بالتحريم، والتنفير، والصد، وبكل الوسائل. والفضائل الروحية التي يتحدثون عنها هي الغاية النهائية من وجود الإنسان، بها يسعد أو يشقى أبدياً.. بل بها تسعد أو تشقى الآلهة فسعادة الآلهة في أن يكون الإنسان مالكاً للفضائل الروحية، وشقاء الآلهة في أن يفقد الإنسان هذه الفضائل..

إن الإله لم يخلق هذا الكون كله إلا بحثاً لنفسه عن هذه السعادة.. إنه أشد من الإله حزناً وضياعاً حينما يكون الإنسان غير فاضل.. إنه لن يجد حينئذٍ شيئاً يهبه العزاء.

ولكن ما هي الفضائل وما وسائل الظفر بها..؟

إن الفضيلة ليست شيئاً غير الشهوة. إن الفضيلة في كل تعبيراتها ليست إلا شهوة. إن محاولة الحصول على الفضائل بإضعاف الشهوات كمحاولة الحصول على الشيء بإعدامه، كمحاولة تقوية الرؤية بفقء العينين.

ليس الإنسان الفاضل هو إنسان بلا شهوة أو ضعيف الشهوة؛ كما أن الرجل العبقري، أو الشجاع، أو الشاعر، أو الفنان، ليس هو الملاك الذي يقتات بالسجود، وحب الآلهة، وصداقة المساكين.. بل ليس النبي الأكثر نبوة هو الذي يحب الآلهة والقداسة أكثر..

إن الاستقامة الأخلاقية نوع من الفن.. إنها شهوة، وقدرة، وإرادة، وموهبة، وذكاء، وظروف تتلقى ذلك وتتعامل معه، وتلونه بلا نبوة أو قداسة..

الأخلاق معركة ينتصر فيها أقوى الأسلحة الضاربة، والمعارك إنما تصنعها وتفصل فيها الشهوات، فالأخلاق شهوات تلاءمت مع ظروفها..

إننا كما نكون مقاتلين وأقوياء بالشهوات؛ كذلك نكون ذوي أخلاق قوية. إن الفرق بين الفضيلة والرذيلة فرق تفسيري تقريري، لا مادي ولا فكري.. إن الشهوات القوية أقدر على تحقيق حالة الملاءمة، لهذا كانت أقدر على إيجاد الحالة الأخلاقية المنشودة..

إن الفضيلة والرذيلة هما تعبير الناس عن ظروفهم الخاصة. إن الظروف التي تفسر الأخلاق، هي في طبيعتها كسائر الظروف التي تحكم كل أعمال الحياة. وإذا كانت الظروف التي تخضع لها الصناعة، والزراعة، والتجارة، وغيرها من الشؤون الإنسانية والطبيعية، ليست شيئاً متحدداً، وليست قوة فوق الشهوات والرذائل، فكذلك الأخلاق وظروفها..

إن أخلاق الإنسان وفضائله السماوية تنبع من صميم الأرض وكهوفها وظلامها، كما تنبع من صميمها ملابسه، ومآكله، وقوته، وإبداعه المادي.. إن أخلاق الإنسان لا تتساقط من أشعة الشمس، ولا من أحزان الآلهة، إن أخلاق الإنسان ليست إلا تراباً جاء بأسلوب ما، وبصيغة ما.

إن أخلاق الإنسان، إن حكمه على الأخلاق يتبدلان حين يتبدل وضعه الاجتماعي، أو حالته النفسية، أو صحته. إن أي اختلال في إحدى غدده، أو في كبده مثلاً، ليغير شعوره، وتصوره، وتفكيره، واستجاباته الأخلاقية.. إن الضعفاء يتصورون الأخلاق على غير ما يتصورها الأقوياء. إن الغني والفقير يختلفان في تقدير الفضيلة والرذيلة. إن الناس بهذا يختلفون في أحكامهم على الأمور لاختلافهم في الملاءمة، إنهم يختلفون كذلك في وضع القوانين الأخلاقية.

إن تصور الخير والشر، والحكم على الفضيلة والرذيلة، خاضعان دائماً لانفعالات البشر الخاصة..

إن الأخلاق هي حصيلة الشعور بالحاجة، والحاجات تختلف، فالشعور إذن بها يختلف، فلا بد حينئذٍ أن تختلف هي. إن الذين يريدون أن يخضعوا كل العصور لأخلاق وعقائد عصر معين ـ وقد يكون عصراً بدوياً أو همجياً جداً ـ هم كالذين يحاولون أن يخضعوا بالنسبة نفسها، كل العصور لعلوم عصر من العصور، ولصناعته، وزراعته، وتفكيره، وذكائه، ولكل مستوياته.

ماذا لو فرض طب الأولين وحده على جميع كليات الطب في العالم، وعلى جميع دارسي الأمراض، ووسائل العلاج، وألزموا بألا يتخطوا ذلك..؟

إن الذين يفرضون آلهة الأولين، وأخلاقهم، وعقائدهم، وفضائلهم علينا، هم مثل هؤلاء المجانين الذين لا وجود لهم اليوم.. هم مثل من يفرضون طب عصر من العصور، أو علوم عصر من العصور، أو صناعات عصر من العصور على جميع العصور.

والأخلاق أليست نوعاً من الطب لأن موضوعها هو صحة سلوك الإنسان ومرضه؛ كما أن موضوع الطب هو صحة جسم الإنسان واعتلاله..؟

قداسة التعب..

ما هي الفضائل التي وصلت إلينا مع التاريخ، وما بواعثها..؟

إن هذه الفضائل منبعثة عن الألم، عن الظروف القاسية، عن الأزمات النفسية والمادية، عن كل أسباب الاجهاد والشقاء. فالمتضايقون والمتعبون وغير السعداء يلهمون نوعاً عنيفاً ومتعصباً من الفضائل. إن هذه هي فضائل المجهدين في التاريخ.. إنها فضائل تنكرها فضائل الأصحاء السعداء. إن أكثر فضائل التاريخ هي فضائل المجهدين، إنها كذلك هي أقواها.

إن الذين يحرمون من شيء ما، قد يجدون في أنفسهم ملائكة تلهمهم تحريم ذلك الشيء، تلهمهم اعتقاد منافاته للأخلاق التي يتصورون. إن الذي لا يجدون الابتسام قد ينتهون إلى تشريع البكاء والدعوة إليه كعبادة، ولو حسداً للمبتسمين. إن الذي لا يستطيع أن يكون بلبلاً يغني، أو لا يستطيع أن يجد بلبلاً يغني له، قد يجد قداسة في فن الغراب الناعب.. فالمتعبون المتألمون هم أعظم المنابع للأخلاق المثالية النظرية، لأن النفوس المحرومة المتألمة المظلمة، لا بد أن تطلق ما فيها على ما حولها..

إننا نتصور الأخلاق والفضائل ونحن سعداء، ومبتهجون، ومحبون للحياة وللناس ولأنفسنا، غير تصورنا لها حينما نكون أشقياء، مكتئبين، كارهين للعالم ولحياتنا. إن الانتقال من حالة إلى حالة، يغير شعورنا نحو الأشياء واستجابتنا الأخلاقية. إن فضائل الشعوب السعيدة المترفة، غير فضائل الشعوب المعذبة الضعيفة المحرومة.. وهل من الخير أو الممكن، أن تحكم التاريخ دائماً أحزانه ومتاعبه، أو أن تحكم أطوار ضعفه أطوار قوته..؟

إن أحاسيس المريض ليست هي أحاسيس السليم، ولا أحاسيس الحياة الدائمة..

هل الأخلاقية عند المرضى هي الأخلاقية عند الأصحاء..؟

إن الإنسان كما يحس الأشياء من خلال ذاته، كذلك يراها من خلال ذاته، كذلك يحكم عليها من خلال ذاته..

إن صفات آلهة الإنسان، موجودة في ذات الإنسان.. لا في ذات الآلهة.

إن التعب والألم والحرمان، هي الينابيع الثلاثة لتعاليمنا العنيفة..

إن أخلاقنا هي انطباعات انفعالاتنا.. إن انفعالاتنا هي انطباعات ظروفنا الخاصة والعامة.. إن ظروفنا ليس لها دوام ولا وجود محدد، إنها متطورة دائماً إلى ما هو أسهل وأفضل، أو إلى ما

هو أصعب وأعظم. إن ظروف واضعي الأخلاق القدماء كانت قاسية، لهذا جاءت انطباعاتهم وانفعالاتهم الأخلاقية قاسية كذلك، تتعبد بالتحريم، والإيلام، والذل، والبكاء، والحزن، والتعصب، وبملء الحياة بالواجبات العنيفة، دون أن تترك فيها أي مكان للضحك والمسرات، والانطلاق والتحليل، والتسامح والحب.

إن الأخلاق في حوافزها، ذاتية.. إنها استجابة لذوات ومشاعر واضعيها، لا لذوات أو احتياجات أو مشاعر المجتمع. إن واضعي الأخلاق لا يضعونها لأنهم طيبون يبحثون عن الخير أو الحق، ولا لأنهم محبون للناس مهتمون بسعادتهم؛ وإنما يفعلون ذلك لأنهم متألمون ومحتاجون ومنفعلون، أو لأنهم غاضبون وحاقدون ومعاقبون.

إن الأخلاق ليست حباً أو احتراماً للآخرين، إنها قتال لهم. إن حوافز من يضعون الأخلاق هي حوافز مقاتلة.. إننا نقاتل الناس ـ في حوافزنا ـ حينما نضع لهم أخلاقاً، وحينما نلزمهم بأخلاق.. إننا نريد أن نهزمهم، أو أن نهزم فيهم شيئاً..

إن التعاليم الأخلاقية سلاح من نوع ما.. إن التدين القوي نوع من الشهوة الافتراسية.. إن المتدينين جداً شهوانيون جداً.. إن من يفقدون الشهوة ـ لو كان مثل هذا يحدث ـ يفقدون الرغبة في التدين..

إن الفرق بين الفضيلة والرذيلة، فرق بين موقفين لا بين موضوعين.. إنه فرق بينك وبيني أنا، لا بين فضيلتك ورذيلة جارك. إن أدياننا وأفكارنا وأخلاقنا، هي صنع شهواتنا وأهوائنا.

إننا لا نستطيع أن نخرج من عبودية شهوة، أو أن نرد طغيان شهوة، إلا بشهوة أقوى..

إن أكثر الناس عصياناً للشهوات والأهواء من عظماء الرجال وقديسيهم، هم في الواقع أكثر طاعة لها، ولكن هؤلاء الرجال يعقدون مقارنة بينها فيطيعون أقواها، أو أخفاها، أو أكثرها ملاءمة لهم..

واللذين يعصون شهوة ليطيعوا شهوة أخرى، لا يكونون فضلاء إلا بقدر ما يكون المرء فاضلاً لأنه ترك المتاجرة بتوابيت الموتى، ليتاجر بأكفان الموتى.. أو بقدر ما يكون اللص فاضلاً لأنه ترك سرقة البنوك المحصنة بالحراسة القوية، ليسرق متاجر الضعفاء المجاورة للمعابد، أو ليسرق شموع المعابد أو أحذية المصلين.

إن الوهم القديم القائل: إن حب الحياة والجاه والمال، هو سبب الانحرافات السلوكية والنفسية، وأن السبيل إلى الاستقامة هي كراهة كل ذلك..

إن هذا الوهم، وهمٌ لا يوجد من يعطف عليه، أو من يستمع إليه باهتمام، مهما وجد من يكررونه ويخطبون به..

إن حب هذه الأشياء هو معنى الحياة نفسها.. إنه لا بد أن يحبها الكائن الحي.. إنه لا يمكن أن يعجز عن حبها إلا إذا مات.. إن النهي عن حبها لن يجعلنا نكرهها، وإنما يجعلنا ـ على احتمال ما ـ نتراخى في طلبها وتحصيلها إذا كان الطريق إليها شاقاً..

إن حب هذه المكروهات المذمومات، هو وحده السبيل إلى الصحة الأخلاقية والنفسية. إن حب الرذيلة هو الطريق إلى اكتساب الفضيلة، كما أن حب النفس هو الطريق إلى حب الآخرين.. إنك لن تحب هذا، وهذه، وهؤلاء، إلا لأنك تحب نفسك.. إلا إذا كنت تحب نفسك.. إلا بقدر ما تحب نفسك.

إن المجتمع الذي يحب الحياة والمال والمجد واللذة، سوف يطلبها وينافس عليها ويقاوم من يحاولون حرمانه منها، وحينئذٍ يقوم تكافؤ قوي بين قوى الجماعات والأفراد ومطالبهم المادية. إن هذا التكافؤ هو ميزان النظم الاجتماعية، والعافية الأخلاقية والنفسية. إن الفساد والطغيان إنما يعنيان أن المجتمعات غير متكافئة في قواها وتعبيراتها المادية والمعنوية. إنه إذا وجد حكام وسادة يحبون اللذات ويعملون لاحتكارها بين شعوب تتغنى بفضائل الزهد، وبكراهة كل نعيم زائل، كان معنى هذا أن يتلاقى الضعف والقوة، وإذا التقت القوة بالضعف تلاقحا بالرذيلة والعدوان، وأثمرا كل الشرور الموجودة في المجتمعات المتخلفة. إننا لهذا نجد الشعوب المتدينة اللاعنة للدنيا وشهواتها، هي أحفل الشعوب بالمظالم الاجتماعية، والفساد الأخلاقي. وكما أن قوة أي شعب من الشعوب تجعل الشعوب المجاورة له شعوباً صديقة، ومؤمنة بمزية السلام، وحقوق الجوار، فكذلك قوة الشهوات في الجماعات والأفراد، تجعل من الآخرين قوماً عادلين، وأصدقاء، وشرفاء، ومستقيمين، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك.. إنهم لو لم يكونوا كذلك، لأدبتهم الشهوات الأخرى المعارضة لشهواتهم.

ما الذي يجعل الناس عادلين وشرفاء وفاعلين للفضيلة، إذا كرهوا الجاه والمال واللذائذ المادية الأخرى..؟

أهو الحب.. للحب..؟

ليت البشر يجدون شيئاً من ذلك في أخلاق الكون..

أم هو حب الجزاء في الحياة الأخرى..؟

ولكن ليس كل الناس يؤمنون بالحياة الأخرى، وليس كل المؤمنين ملتزمين بما يفرضه عليهم إيمانهم..

هل يوجد بين المؤمنين بالحياة الأخرى من يرفض بيعها بكل ما فيها من آلهة، وتهاويل

سعيدة، بأقل وأسوأ ثمن، هو هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من ألم، وتفاهة، وضياع، وافتضاح، وعبث، ومرض، وشيخوخة..؟

ما أكثر المؤمنين الذين يعملون جميع ما يستطيعون عمله من المعاصي معتمدين على التوبة في آخر المطاف، في آخر الجولة، أو معتمدين على سعة المغفرة.. أو معتمدين على نبل قلب الله، وما فيه من موهبة النسيان.. أو على أنه لا يرى لأن أحداً لا يراه. إنه لا يرى لأنه لا يفعل فعل من يرى.. أو معتمدين على أن الإيمان يمحو كل الخطايا.. أو منطلقين في موكب الشيطان المهيب بلا تفكير، ولا محاسبة للنفس، أو استئذان للعقيدة.

إن الاعتقاد ينافي العمل. إن العقيدة تحول الطاقة الإنسانية كلها إلى نشاط عاطفي فارغ. إن العقيدة اتكالية حتى في جوانبها الأخلاقية. إن أية عقيدة لا تأثير لها على سلوكنا إلا بقدر ما هي استجابة لشهواتنا.

إن الذين يحبون شهوات الحياة الدنيا كثيراً، هم الذين يحبون شهوات الحياة الأخرى كذلك، إذا كانوا يؤمنون بها. والذين لا يحبون اللذة العاجلة لن يحبوا اللذة الآجلة.. وأننا بالغريزة نحب الدنيا، وبها نحب الآخرة، فإذا فقدت غرائزنا أو ضعفت فستفقد أو تضعف رغبتنا في كل الأشياء العاجلة والآجلة. إذن لا يمكن أن نزهد في الدنيا ثم نرغب في الآخرة، بل إن حب إحداهما معناه حب الأخرى.

وقد كان أقوى الناس شهوات للدنيا، هم الذين أبدعوا أقوى الأوصاف وأكثرها تعرياً وافتضاحاً لشهوات الآخرة، وجاؤوا بأبذأ الأساليب في التشويق إلى اللذات المنتظرة هناك. والذين كانوا شعراء في وصفهم لنساء الآخرة، كانوا حتماً شهوانيين جداً في أشواقهم نحو نساء الدنيا.. لقد اشتهوا ما هنا فوصفوا كشعراء ما هنالك.

إن البشر لا يحبون أو يعشقون بشهوات غائبة، إنهم لا يحبون أو يعشقون بشهوات سوف توجد بعد الموت أو في يوم من الأيام. لقد كان المعلمون العظام الذين تحولوا إلى شعراء بلا وقار في أوصافهم لمفاتن الحياة الأخرى، وإغراءاتها، وغواياتها المختلفة؛ يعبرون عن افتتانهم بما في هذه الحياة الدنيا.. إنهم لم يكونوا يعبرون عن زهد، بل عن غواية وافتتان.. لقد كانوا شعراء مفتونين، لا عباداً.. إنهم لم يكونوا عباداً في غزلهم المفتضح، لقد كانوا افتضاحاً.

وأما إن كان الذي سيجعلنا فضلاء إذا زهدنا في ملذات الحياة هو حبنا للجزاء الأدبي، ورغبتنا في أن نرضى عن أنفسنا، ويرضى الآخرون عنا، فقد رجعنا من طريق آخر إلى الاقتناع بأن الشهوة هي الطريق إلى الفضيلة.

وقود الحياة

ولكن كيف تقودنا الشهوة إلى الفضيلة..؟

نعم، نشتهي المجد والمال ونحب أن نرضى عن أنفسنا، ونشتهي اللذات الكثيرة المختلفة، فنفكر في الوصول إليها ونحاول؛ فنجد أن وسائلها هي الفضيلة الاجتماعية، والتوافق الأخلاقي مع الذين نريد رضاهم، والانتفاع بهم، أو التوافق مع مثلهم الأخلاقية ـ أعني إذا كنا في مجتمع قوي ـ وهي أيضاً الذكاء والقوة، فنسعى حينئذٍ لنكون كذلك، كما يحاول التاجر الذي يبحث عن الربح، وعن رضا الآخرين، أن يكون عميلاً مرضياً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً..

إننا مادة تعشق مادة. إن جميع الحضارات والفضائل، هي ما يكون وما كان، من محاولات للوصال والمغازلة بين المادة العاشقة والمادة المعشوقة، أو بين وحدات المادة العاشقة المعشوقة..

إن الشهوات هي الجياد الأصيلة التي رفعت جميع العظماء على صهواتها، ليحتلوا أكبر مكان في التاريخ.. وقد كانت شهوات النساء، والطعام، والمجد، والطموح، هي النار العالية التي صلى لها النبوغ الإنساني في كل عهوده، وكتبت تحت لهبها أخلاق السلوك والنفس قوانينها، منقحة لها على التوالي كما تهذب ضربات الموج أسنة الصخور..

إن الشعوب المتحضرة أقل تعادياً فيما بينها كأفراد، من الشعوب الأخرى المتأخرة، مع أنها أخضع منها للشهوات، وأقدر منها عليها..

إنه لا بد أن تنتهي شهوات الأمم للحياة والسلام والترف، إلى القضاء على الحروب وعلى مسبباتها.. سوف يبلغ الناس هذه الغاية حين تبلغ شهواتهم لهذه الأمور مداها النهائي..

إن دعاة السلام يحاولون أن يصلوا إلى هدفهم الكبير بتقوية شهوات الحياة في نفوس الشعوب. إنهم لم يفكروا في أن يصنعوا السلام بقتل الشهوات أو إضعافها.. إنهم لم يفكروا في أن يطفئوا الشمس لكي يجدوا النور والدفء.

إن الشهوة تشب الحرب ـ لا ينكر هذا ـ ولكنها أيضاً هي التي تمنع الحرب.. إنها هي الأمل في أن تزيلها من حياة الإنسان..

وفقد الشهوة أو ضعفها، ليس فضيلة ولا قوة بل مرض..

إن الشيخوخة تفقد فضائلها وقواها لأنها تفقد شهواتها الحاسمة..

هل للنفط، أو الفحم، أو الغذاء، أو أي شيء فضيلة أو فائدة لو فقد طاقاته..؟

هل للإنسان فضيلة أو قدرة، لو فقد شهواته..؟

إن تسليح الأفراد بالشهوات القوية، كتسليح الجيوش بالأسلحة القوية، ليس لأي منهما فضيلة أو معنى إلا بذلك.

إن الحياة هي الحماس للأشياء، وهل يكون حماس من غير شهوات..؟

إن كل إنسان وشعب يفقد الحماس تصاب مواهبه كلها بالعجز.

إن الأفراد والشعوب المبدعة والمتحضرة، تملك طاقات هائلة من الحماس؛ أما المتأخرون فلا يتحمسون لشيء.. إنهم متبلدون في مواجهة الأشياء والحقائق العظيمة. إنهم لا يمكن أن تثيرهم الأحداث، ولا الابتكارات، ولا الأفكار الجديدة، ولا الأشياء المثيرة، ولا الخصوم الأقوياء، ولا تفوّق الآخرين عليهم، ولا تهديدهم لهم بالفناء.. إنهم لا تتحرك أفكارهم ولا أشواقهم إعجاباً، ولا حباً، ولا لهفة، ولا استنكاراً. إن الحماس هو الحد الفاصل بين الابداع والعجز.. إن الحماس هو نبي العبقرية، هو خالقها، هو شاعرها، هو مغنيها؛ ولكنها هي لا تستطيع أن تصنعه ولا أن ترفع من طاقته.. إن الحماس هو التعامل مع الناس والأشياء، بالرؤية، واللهفة، والتفكير، والقبول، والرفض، والإعجاب، والاشمئزاز، وبالبكاء، وبالغناء بكل عمق، وشوق، وارتجاف. والذين يفقدون الحماس يصبحون أشياء أمام أشياء.. إنهم حينئذٍ ليسوا أناساً أمام أشياء.. إنهم لا يرون، ولا ينفعلون، ولا يرتجفون مهما شاهت وتناقضت أمامهم الصور والمرائي.

ولكن لماذا يوجد الحماس عند قوم ولا يوجد عند آخرين..؟

ما أيسر الأمر إن كان الحماس يملك بالتعليم، وما أصعب الأمر إن كان يملك بالموهبة والطبيعة..

إن الحماس طاقة مجهولة من طاقات الحياة، إن هذه الطاقة هي التي تخلق فينا الاصرار والتحدي، والنشوة والشوق إلى الكون، وإلى الحقائق وإلى المجهول.

إن الضرب في التيه، وإن التفكير والتجديد، والتحدي الدائم هي الوسائل الدائمة التي يعبّر بها الحماس عن أقوى وأفضل ما في الإنسان.. ليس لأي شيء نجاح بدون هذا التعبير الذي هو شهوة الحياة الكبرى.. لن يكون ممكناً أن ينتفع الإنسان بإمكانياته الفكرية أو النفسية، أو الزمنية، أو الذاتية من غير حماس.

إن مواهب البشر بلا حماس، كالأسلحة بلا أجهزة تفجير. إن عقلي خامد، وإن مواهبي، وأخلاقي، وحياتي، وكل شيء فيّ، خامدٌ وبليد إذا لم أكن أملك هذا الجهاز المفجّر لطاقات الإنسان.. إذا لم أكن أملك هذا الحماس، الذي يحول البلادة إلى شوق، والسكون إلى حركة، والحركة إلى إبداع.

إن أعظم شيء يتفوق به الإنسان على كل ما في هذا الوجود موهبة التحدي. إن الطبيعة وجميع الكائنات الأخرى لا تتحدى، إنها تعيش ظروفها وطبيعتها المحددة المحكومة بالقوانين باستسلام. إن الشمس وهي أضخم موجود يواجهنا، لا تستطيع أن تتحدى.. إنها لا تستطيع أن تتحدى ظرفاً من الظروف، ولا حيواناً، أو نباتاً، أو قانوناً صغيراً.. إنها تسير في طريقها بطاعة وأخلاقية ذليلة، أمسها كيومها، كغدها، كدهرها..

أما الإنسان فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدى كل شيء.. يتحدى كل الظروف، والقوانين، والأفكار، والنظم، والآلام، والعيوب، والعقبات.. إنه يحولها ويتغلب عليها، فيجعلها كما يريد لا كما هي، أو يحاول ذلك. إن التحدي هو الذي يحول الشيء من «كما هو» إلى «كما يريد»..

إن حضارات البشر كلها مجموعة عمليات التحدي.. هذا الشعب أو هذا الرجل أعظم الشعوب أو أعظم الرجال، لأنه أعظمها وأقواها تحدياً..

إن موهبة التحدي لا يمكن أن تكون بغير موهبة الحماس..

إن الأخلاق الموضوعة التي يحكم بها الآلهة والقادرون الشعوب، قائمة على إرهاب موهبة الحماس وإضعافها؛ فهي أخلاق تكبح وتذل وتحرم.. إنها في عملها هذا لا تخضع لاحتياجات الجماعة أو مصلحتها، بل لإرادة الآلهة والمسيطرين.. إنه لا يراد من التعاليم الأخلاقية أن تكون تهذيباً للبشر، بل أن تكون إذلالاً وإخضاعاً لهم.. إنها جيوش يراد بها أن تقمع وتخضع.. إنها جيوش يحكم بها الأقوياء الضعفاء.. إنها أسلحة تصنعها وتطلقها المنابر والمحاريب، وحناجر الطغاة والمعلمين وكل الماكرين، تطلقها على بيوت الجماهير، ومتاجرهم، ومعابدهم، وعلى كل أماكن تجمعهم.

إن الإرادة المتحفزة إذا طال قمعها وإذلالها، تأتي على طاقة الأعصاب وعلى سدودها المنيعة التي تحتجز وراءها كل طاقات الإنسان الانفعالية والفكرية. وإذا انهارت الأعصاب، وطال إذلال الانفعالات وتحريمها؛ فلن يوجد ما يعصم صاحبها من الإصابة بلوثة التفكير، والاعتقاد والشعور، والخيال.. بل من الإصابة بالعجز واليأس والانهزام..

إن تحريم الانفعالات، وإذلال الحماس، طريقان جيدان إلى الشيخوخة العقلية والعاطفية وإلى هوان الشخصية..

إن الذي تحكمه إرادة الانطلاق وإرادة القمع - وإرادة القمع ليست طبيعية، بل تعليمية أو اضطرارية - يقع بين عامل الدفع وعامل الجذب، فيذهب يستنفد قواه شر استنفاد في غير عمل

كصاعد هابط بدون انتقال، وهذا يرمي الشخصية بالانشطار، والوهن، والارهاق الذي يفسد إرادة الحياة وإرادة المحاولة..

إن الشخصية الطبيعية التي تنتفع بالحياة وتصدمها، هي التي تتكامل قواها، وتنصب كلها في مجرى واحد.. إنها بهذا تسلم من النضال ضد ذاتها، وإنها من ناحية أخرى، تجد قواها كلها معبأة للنضال مع الحياة وضد الحياة، للسيطرة على الحياة وإبداع الحياة.

*

يا شعوباً تخلت عنها شياطينها العبقرية..

اخلقي لك شياطين.. فإن الحياة بلا شياطين بلادة، وذهول، وخمول، وهوان..

يا شعوباً أنهكها البحث عن الفضيلة..

جربي البحث عن الرذيلة.. فقد تجدين فيها ما تفقدين من فضائل..

يا شعوباً ضللها البحث عن الإيمان..

حاولي أن تفقدي إيمانك.. فقد تجدين حينئذٍ مزايا الإيمان الذي تبحثين عنه..

يا شعوباً تتعلم الأخلاق والإيمان..

تعلمي ضد الأخلاق وضد الإيمان.. فقد تجدين حينئذٍ الله والأخلاق في حياتك لا في تعاليمك..

يا هذه الشعوب..

إن الله لم يرد أن نكون وحدنا المؤمنين ويكون غيرنا الكافرين، يفعلون هم الشهوات والعبقرية المحرمة، والإبداع والحياة؛ ونفعل نحن فضائل الموت والطاعة والخوف.. يفعلون هم الحضارة، ونفعل نحن المواعظ.. يفعلون هم العباقرة والعلماء، ونفعل نحن الأنبياء.

الإله في تصور الذئاب

من الذين وضعوا الأخلاق..؟

من الممكن القول بأن الضعفاء والمغلوبين هم الذين وضعوها. وحجة هذا القول أن هؤلاء هم المحتاجون إلى حماية الأخلاق دون السادة والأقوياء؛ لأن في قوة هؤلاء ما يعطيهم الحماية المنشودة. وهذا الرأي يعني أن القوانين الأخلاقية ـ وكذا الفضائل ـ ما هي إلا حاجات العاجزين والضعفاء لأنهم لا يستطيعون البقاء بدونها.

ولو كانت الدنيا بلا قوانين ولا أخلاق، فهل من الممكن افتراض بقاء هؤلاء..؟

وأي شيء حينئذٍ يحميهم من الفناء..؟

إن الحاجة إذن إلى الأخلاق، إنما تنبع من شعور العاجزين ومن عجزهم. وقد تبع هذا الشعور الحقيقي بالحاجة، التفكير في وضع ما يسدها، فكان أن دعوا إلى الفضائل التي تطورت فصارت قوانين وشرائع.

إن الأقوياء والسادة، وإن كانوا هم الذين ينفذون القوانين والشرائع، فهم ليسوا واضعيها؛ إذ لا يضع الشيء إلا من احتاج إلى وضعه، وهم ينفذونها على غيرهم لكي يخضعوهم؛ فهم إذن خارجون عليها وعنها، من حيث وضعها والالتزام بها. وتنفيذها يفيدهم لأنهم بها يخدعون ويحكمون المجتمع فيخضع لهم، وخضوع المجتمع معناه سوقه في طريق واحد ليصنع قوة السادة ومجدهم، كما يصنع صاحب القطيع حينما يحافظ على قطيعه، ويحمي بعضه من بعض، ومن الذئاب. ولو أن الأقوياء هم الذين وضعوا القوانين الأخلاقية لمجدوا القسوة والقتل، والاغتصاب وهتك الأعراض، ولأنكروا الرحمة والمغفرة، والعفو والسلام، والإحسان والصدقة، والعدل وغير ذلك من الأخلاق التي يستفيد منها الضعفاء والعاجزون، وقد حدث بعض هذا في بعض الظروف، وكان تعبيراً عن رغبة الأقوياء وعن تشريعهم.

إنه لا يمكن أن يكون شعور الحيوان المسالم نحو الفضيلة مثل شعور الحيوان المفترس..

إن الحيوان الضعيف يرى ـ لو كان يرى ـ أن الفضيلة هي ألا يوجد حيوان مفترس، ولا إنسان آكل للحوم.. بل ألا يوجد حيوان أقوى منه يهدده بالموت..

أما السباع والحيوانات القوية المفترسة، فإن الفضيلة والأخلاق النبيلة في تشريعها، أن تطول أنيابها وأظافرها، وأن تأكل جميع الحيوانات الأخرى الضعيفة، بل وأن تكفى عناء الطلب والسعي فتتقدم إليها تلك الحيوانات الطيبة طائعة مختارة لتلتهمها في راحة ويسر..

إن أي ذئب لو كان نبياً أو مشرعاً، لما حرم في أخلاقه وقوانينه، أن يفترس الحيوان الأقوى الحيوان الأضعف، أو على الأقل لما حرم في كتابه المقدس أن تكون الأرانب والحملان طعاماً محللاً للذئاب.

إن الذئب لو تصور الله لما رآه في الصورة التي سوف يراه بها الحمل لو أنه أيضاً تصور الله..

ولو أن الوحش المفترس القوي أراد واستطاع أن يتحدث عن أفضل صفات الإله، لقال إنها الافتراس، وقوة الأنياب، والأظفار..

أما الحيوان الضعيف فإنه سيرى عكس ذلك في وصف الإله لو أنه وصفه.

وقد رأى آلهة البشر أن الدين والنظام هما أن يذل لهم الجميع، وأن يأكلوا لحوم الشعوب

وأخلاقها، وكرامتها، وذكاءها دون عصيان أو احتجاج.. كما رأوا أن من الأخلاق والشرائع المنزلة، تسخير الحيوانات وأكلها، وعبادة الآلهة بدمها المسفوح. إنه لا فرق بين شرائع الإنسان إزاء الحيوانات، وبين ما يفعله الحيوان القوي بالحيوان الضعيف، وقد شرع الحيوان المفترس لنفسه أكل الإنسان والاعتداء عليه، كما شرع الإنسان لنفسه أكل الحيوان، والتقرب إلى الأرباب والمعابد، بذبحه فداء لذنوبه. والفرق أن الحيوان شرع لنفسه بلا لغة، ولا أنبياء، ولا كتب منزلة، أما الإنسان فقد فعل ذلك، وحوّله إلى نبوات، وشرائع، وإلى أخلاق متكبرة.

لقد مارس الحيوان ذلك ممارسة بلا أكاذيب ولا دعاوى، أما الإنسان فقد مارس، وادعى، وكذب..

الإنسان حوّل ذنوبه وافتراسه إلى نبوة.. أما الحيوان، فلم يرتفع بافتراسه عن الافتراس.

*

قد يرى أن الأقوياء هم الذين وضعوا الأخلاق ليحكموا بها الضعفاء..

إن المفروض والمشاهد كثيراً أو دائماً، أن المستمسكين بالأخلاق السلفية قوم مسالمون، وصابرون، ومطيعون، وأوفياء لظالميهم. إنه قليل أن يرفضوا أو ينازعوا الأقوياء السلطان، أو يطلبوا لأنفسهم شيئاً كبيراً، ولو حاولوا أن يصنعوا شيئاً من ذلك، لما استطاعوا أن ينتصروا.

إن الإنسان لو استطاع لصنع للحيوانات أفضل الأخلاق، ولأرسل لها أفضل الأنبياء ليعلموها التمسك بها. إنه لو كان ذلك ممكناً لأنشأ البشر المعابد للوحوش لتتعلم فن الطاعة وحب الأعداء.

إنه لمفروض دائماً أن الحيوانات القوية تفكر في أن تبتكر للحيوانات الضعيفة تعاليم ومعلمين، كما ابتكر الإنسان القوي للإنسان الضعيف..

إن الطغاة في كل العصور، هم من أنصار الأخلاق السلفية، مع أنهم من أعدائها في سلوكهم؛ وإذا لم يكونوا من أنصار هذه الأخلاق فمعنى هذا أنهم قد وضعوا مكانها أخلاقاً أقوى منها وأحدث لبلوغ ما يريدون..

إن كل طاغية محتاج إلى نوع من الأخلاق ليفرضه على رعاياه ويقنعهم به، لكي يصنع منهم قطيعاً أخلاقياً، تصدر إليه الأوامر والمناهي بالجملة، فيتحرك ويطيع بالجملة وبالكلمة المنزلة..

ماذا لو كان البشر بلا أخلاق.. لو كانوا بلا طاعة.. بلا استسلام.. بلا تصديق.. بلا فداء.. بلا موت، دفاعاً عن حماقات الطغاة وتشييداً لأمجادهم..؟

إنه لا يوجد أحوج من الطاغية والحاكم الفاسد إلى الأخلاق في مجتمعه.. إنه هو أحرص الناس على توكيد هذه الأخلاق، وإخضاع الجماهير لها، وإيمانهم بها.. وإنه محتاج إليها كحاجة صاحب القطيع إلى أن يكون قطيعه فاضلاً وكريماً في طاعته وتكاثره، ونمو لحمه وألبانه.. وكحاجة صاحب الأرض إلى أن تجود أرضه بكل ما يريد من ثمار وخيرات، وإلى أن يكون عبيده فيها مخلصين أمناء.

لعل الأمانة لم تتحول إلى فضيلة أخلاقية لأنها حاجة من حاجات الإنسان، بل لأنها حاجة من حاجات الطغاة واللصوص.

والأخلاق التي يريدها الطاغية، ويعمل على إنمائها وترسيخها هي ضد الأخلاق.

إن الأخلاق عند الطاغية هي التعصب، والإيمان، والطاعة العمياء، والبذاءة، والغباء، وكراهة الآخرين، وكراهة الجيران، والخوف من كل الناس.. هي الانفعالات الغبية، والغرور، وتصديق المحال.. هي التضحية بالنفس والكرامة، وبكل شيء في سبيل الطاغية ومغامراته وطموحه.. في تشييد القبور والأهرامات.

قد يكون من الحقائق القوية أن المستبدين والمتألهين في التاريخ، هم الذين صنعوا أخلاق البشر الثقيلة المرهقة التي ظلت تحكمهم وتخضعهم من وراء القبور.. لقد أصبحت حاجة هؤلاء إلى هذه الأخلاق مفهومة جداً الآن، وإن لم تكن مفهومة في وعي أولئك الذين فرضت عليهم، فركعوا لها.. لقد كان نوع الأخلاق الذين يدعون إليه متناسباً مع ما يريدون، ومع نوع النظام الذي يفرضونه على جماهيرهم.

وليس في طبيعة النظام الديمقراطي أن يحتاج إلى الإيمان الأخلاقي كاحتياج النظام الاستبدادي.

إن النظام المستبد قائم على الحشد، والتسخير، والتعبئة النفسية، وعلى التوتر. ومثل هذه الحالة محتاجة دائماً إلى إثارة أخلاقية. ولهذا فإن الأخلاق في عهد الاستبداد يجب أن تكون صائحة عدوانية.

ولما كان العقل المفكر خصماً لأمثال هذه الأخلاق، أصبحت مطاردة التفكير والاتزان العقلي جزءاً من الطبيعة الأخلاقية التي يصنعها الطغاة ويبشرون بها. إن الطغاة ليعادون دائماً الوقار والاتزان.. إنهم يجدون فيهما كل معاني الخيانة، والغدر، والتآمر والتحدي لهم. إنهم ليتصورونهما هتافاً بسقوطهم، وسباً لأخلاقهم..

أما العهد الديمقراطي فإنه لا يحتاج إلى العدوان، لهذا لا يحتاج إلى الهياج.. لهذا لا يحتاج إلى الأخلاق، وإنما حاجته أن يكون مستقراً يعمل نفسه وفضيلته، بهدوء واتزان كأنه قانون

كوني. وكما أن الطبيعة تؤدي أخلاقها بلا تعاليم أخلاقية، فكذلك الإنسان في النظام الديمقراطي.

إن المرضى والمنحرفين والفاسدين هم الذين يحتاجون إلى الأخلاق، ويهتمون بها، ويعولون عليها؛ ولكن الأصحاء والفضلاء والمستقيمين، لا يحتاجون إلى ذلك لأنهم يتوازنون مع ظروفهم توازناً ذاتياً بدون محرضات أخلاقية أو معاناة.. إن القادرين على الأخلاق، محتوم أن يكونوا أخلاقيين، وإن العاجزين لن يكونوا كذلك بالمحرضات الأخلاقية. إن الأخلاق حالة نفسية ومادية متوازنة، والملاّك لهذه الحالة لا يحتاجون إلى الأخلاق، والفاقدون لها ينفعلون، وينحرفون، ويصرخون، ويقلقون، ويعجزون عن أن يكونوا أخلاقيين. وهذه هي الأخلاق.. فالأخلاق التعليمية لا توجد إلا حيث تفقد الأخلاق السلوكية والذاتية.

أتدبير أم إحساس..؟

ولكن أليس من الممكن القول بأن الأخلاق مهما كانت سلفية، ليست دائماً انتصاراً أو تسليماً للأقوياء الظالمين.. وأنها ليست كذلك، لا في أهدافها ولا في طبيعتها ولا في تاريخها، بل إنها دائماً ذات احتمالين أو طبيعتين.. إنها قد تكون للأقوياء، وإنها قد تكون ضدهم.. إنها قد تكون للضعفاء، فالشجاعة والإباء، والصبر والمثالية النفسية، قد توجد ضد الطغاة والأقوياء الفاسدين فتدمرهم، وقد يستغلونها فتكون تأييداً لسلطانهم، وعوناً لهم على الضعفاء الأغبياء.

غير أن هذا الرأي الذاهب إلى أن الأخلاق من وضع الأقوياء لاحتكار الضعفاء، لا يكون صدقه محتملاً إلا إذا افترض أن الأخلاق في نشأتها تدبير لا إحساس. والمحتمل جداً أن التدبير الأخلاقي متأخر كثيراً عن الاحساس الأخلاقي.

وإذا كانت الأخلاق في نشأتها إحساساً لا تدبير، كان الواضعون لها هم من أحسوها وأحسوا الحاجة إليها أولاً، فمن هم هؤلاء.. هل هم الأقوياء.. هل هم الضعفاء.. هل هم الأقوياء والضعفاء معاً.. هل هم كائنات أخرى ليست الأقوياء ولا الضعفاء..؟

إذا أردنا أن نعرّف الإحساس الأخلاقي قلنا إنه هو الإحساس باللذة والألم، وإذا أردنا أن نعرّف الأخلاق قلنا إنها هي اللذة والألم والسرور والحزن. فلا يمكن أن ينفك الإحساس باللذة والألم عن الإحساس الأخلاقي، كما لا يمكن أن تتألف أخلاق من غير لذة وألم. إن الطفل حينما يتألم فيبكي ويصرخ، إنما يحس إحساساً أخلاقياً، ويطالب بمعاملة هي صورة أخلاقية، ويشارك في تكوين الأخلاق بألمه وبكائه وتعبيراته الحركية.

ولو افترضنا كائناً لا يتلذذ، ولا يتألم، لافترضناه بلا أخلاق، ولا أحاسيس أخلاقية. ومن المحتوم كذلك أن نفترض أشد الناس إحساساً أشدهم إحساساً أخلاقياً. وإذن فمن هم الذين

ليست لهم أحاسيس، ولا آلام، ولا لذات، لنفترضهم غير مشاركين في خلق الأحاسيس الأخلاقية.. هل نقول إنهم الأقوياء.. هل نقول إنهم الضعفاء..؟

هذا عن طور الاحساس الأخلاقي، أما بعد أن توضع الأخلاق وتتقرر، فمن الذين يستمسكون بها، ومن الذين يتحللون منها.. ما صفات هؤلاء، وما صفات أولئك؟

من الممكن أن يقال إن الضعفاء أحوج إلى الاستمساك بالأخلاق، لأن الأخلاق التزام والضعفاء أخضع للالتزامات. وقد يكون المرض، والهوان، والفقر أسباباً مجدية في أخلاق مهذبة فاضلة ـ أو على الأقل ـ في أخلاق مهذبة.. كما قد تكون الصحة، والغنى، والمجد، والقوة، من مسببات النشوز الأخلاقي..

قد يقال إن الفضيلة عجز، وأن الرذيلة قدرة. وهذا القول يكون تارة حقاً وتارة خطأ. ومن الممكن القول بأن الضعفاء أبعد عن الأخلاقية لأنهم أعجز عن القيام بالالتزام، وقد يكون المرضى، والفقراء، والأذلاء، عاهات أخلاقية في حياة البشر؛ إذ من المفروض أن الأخلاق اتزان، وقوة، وضبط، وراحة، وتكامل ذاتي.. وأين الضعفاء من كل هذا..؟

إذن، قد يقال إن الضعفاء أقرب إلى الأخلاق لأنهم أعجز عن عصيانها، وقد يقال إنهم أبعد عن الأخلاق لأنهم أعجز عن تحصيلها.

ومن جهة أخرى يمكن أن يقال إن الأقوياء أميل إلى الاستمساك بالالتزامات الأخلاقية لأنهم أقدر على القيام بالالتزامات. ويمكن أيضاً القول بأنهم أبعد عن الأخلاق لأنهم أقدر وأجرأ على التحلل منها.. ولنضرب الصدق والنزاهة مثلاً، فالضعيف قد يكون صادقاً ونزيهاً لأنه يخشى أو لا يستطيع أن يفعل غير ذلك، وقد يكون غير صادق وغير نزيه، لأنه محتاج إلى الكذب وإلى خرق النزاهة..

أما القوي فقد يكذب ويخون، لأنه قادر على ذلك ولا يخشى التبعة إذا فعل، ولا يبحث عن الفضيلة إلا الذين لا يجدون الرذيلة.. كما قد يرتفع القوي عن هذا لأنه غير محتاج إليه أو لأن حاجته إليه غير قاتلة.

إذن، قد يكون معنى هذا أن الضعفاء أحوج إلى الأخلاقية، ولكنهم أعجز عن القيام بها، وإن الأقوياء أقدر عليها، ولكنهم أقل حاجة إليها.

وقد يقال أيضاً العكس، فقد يكون الضعفاء أقل احتياجاً إلى الأخلاق المقررة، لأنهم أقل تبعات والتزامات في المجتمع، وأقل كينونة، وأبعد عن اهتمامات الحياة.. كما يكون الأقوياء أحوج إلى تلك الأخلاق، لأنهم أوسع مصالح وحاجات وحياة، والحياة، والمصالح، والحاجات، تصنع الارتباطات الكبرى التي تحتاج دائماً إلى قدر ملائم من المحللات الأخلاقية.

إن المصالح والارتباطات في حاجة دائمة إلى الأخلاق، بل إنها تتحول إلى أخلاق.. إننا لا يمكن أن نأخذ من المجتمع الذي نعيش فيه شيئاً إلا بثمن وأسلوب.. ولا يمكن أيضاً أن نحافظ على ذلك الشيء، إلا بأسلوب وثمن. وقد كانت المبررات الأخلاقية هي إحدى تعاويذ التاريخ السحرية، التي كان المستفيدون يحصنون بها منافعهم وآثامهم الكبرى.. كانت الأخلاق دائماً تشريعاً للخروج على الأخلاق.. كان المعلمون الكبار يشيدون بالتعاليم الأخلاقية، لكي يستطيعوا أن يعيشوا غير أخلاقيين.

إذن ليس في هذه القضية قانون متأكد. والمتأكد أن الأخلاق حاجة، ومحاولة، واختيار.. إنها قدرة، وعجز، وتفكير..

إن من كان قادراً قدرة مطلقة فلن يكون أخلاقياً، لهذا تصورنا الآلهة بلا أخلاق لأننا تصورناها مطلقة القدرة..

ومن كان عاجزاً عجزاً مطلقاً فلن يكون أخلاقياً..

ومن كان قادراً وعاجزاً بلا تفكير، فلن يكون أيضاً أخلاقياً.. والتفاوت بين الناس في هذه الأمور الثلاثة، في القدرة، والعجز، والتفكير، وتسلط بعضها على بعض، هو الذي يصنع تفاوتهم الأخلاقي.. وتغير النسب بين الأمور الثلاثة، واختلافها، هو الذي يغير أخلاقنا، ويوجد الفروق الأخلاقية بيننا. ولو أن قوماً تساووا في قدرتهم وعجزهم وتفكيرهم، ثم لم تتغير نسب هذا التساوي، لما تغيرت أخلاقهم، أو تفاوتت أو اختلفت.

إن الأخلاق ضرورة نعالجها، لا نور تشعه ذواتنا. هي عمل وتوافق مع الأشياء الأخرى المزاحمة لنا، كتوافق الحركة مع الحركة والآلة مع الآلة.

ليس في الأخلاق معنى خارجي أكثر من المعاني التي بين الأحجار والأحجار، والموجة والسفينة في تصادمهما وتوافقهما، ولهذا فالناس جميعاً، أقوياؤهم وضعفاؤهم أخلاقيون على نحو ما، على نحو غير أخلاقي.

إن الأخلاق لا تختلف في بواعثها وأهدافها، وإنما تختلف في وسائلها والتعبير عنها، وهذا هو كل الفرق بين الأقوياء والضعفاء، وبين المتحضرين والمتوحشين.

إن حوافز الأخلاقية هي دائماً حوافز غير أخلاقية.

إن الأخلاق تنافي الأخلاق، لأن المفروض في الأخلاق أن تكون عطاء مع أنها في حقيقتها أخذ..

كان المفروض أن يكون الأخلاقيون إيثاراً، فإذا بهم استئثار..

إن أفضل الناس أخلاقاً، لم يرد أن يكون فاضلاً، وإنما أراد أن يكون ناجحاً ومحبوباً، لو راضياً عن نفسه.. إنه لم يرد أن يرضي الآخرين أو يحبهم أو ينفعهم، ولكن أراد أن يخدعهم وينتصر عليهم، ويأخذ منهم ويرضى عن نفسه..

إن أي طبيب ونبي في العالم، إنهما لم يريدا أن يشفيا المرضى أو يهديا الضالين، إنما أرادا أن يكونا منتصرين، وناجحين، ومحققين لذاتيهما.. إنما أرادا أن يكونا طبيباً ونبياً.

إن الطبيب إنما أراد أن يكون طبيباً، وإن النبي إنما أراد أن يكون نبياً، أو إنهما قد اضطرا إلى أن يكونا ذلك اضطراراً.. إن هذا هو كل القضية.

إن الناس لا يستطيعون أن يهتموا بالناس ولا بمصالحهم، وإنما يتعاملون معهم ويتعاملون بهم، كما يتعاملون بالأشياء..

إن المحسن الذي يتصدق على الفقراء.. وإن الكاتب والواعظ اللذين يذرفان الدموع رحمة بالمتألمين.. وإن الذي يقود ثورة مسلحة لنصرة الضعفاء والمظلومين.. إن هؤلاء لا يتعاملون مع الآخرين بواسطة أنفسهم، ولكن يتعاملون مع أنفسهم بواسطة الآخرين..

إذن لا توجد أخلاق، وإنما توجد معاملات كالمعاملات التي توجد بين وحدات الطبيعة.

الإنسان كأخلاق، وفكرة، وقيمة، وتفسير، لا وجود له.. وإنما هو موجود كقوة فقط..

ليس للإنسان أية مزية غير مزية واحدة، تلك هي القوة.. فالقوة هي المزية الإنسانية الفريدة، وكل ما سواها ليس إلا تعبيراً عنها، وأسلوباً من أساليبها.

الإنسان قوة ولكنه قوة بلا صورة، بلا تفسير، هو قوة كقوة الزلازل والبراكين، والمتفجرات، والقوانين الطبيعية.

الإنسان يكون في ذاته، لا من أجل ذاته، ولا من أجل شيء آخر.. إن الحجر والحشرة موجودان، ولكنهما موجودان في ذاتيهما لذاتيهما.. وكذلك الإنسان. ولهذا فهو ليس أخلاقياً، ووجوده ليس أخلاقياً، ولا يمكن أن يكون أخلاقياً..

ليس في الوجود الإنساني، أو الحياة، أو التصرفات الإنسانية، ما يمكن تعليله أو تفسيره، إلا بقدر ما يمكن تفسير وجود الحشرة وتصرفاتها، أو وجود الموت والوباء..

إن للموت أخلاقاً كأخلاق الإنسان..

نعم، إن للموت أخلاقاً، إن له أخلاقاً مثل أخلاق الإنسان، أو كما أن للإنسان أخلاقاً، إن للموت أخلاقاً أفضل من أخلاق الإنسان.. فهل نصدق ذلك.. هل نجرؤ على تصديقه..!

الإنسان قد يصدق، ويبتكر، ويناضل، ويعمل أعمالاً كبيرة وكثيرة، ومفهومة الأهداف والدلالات، ولكن لماذا يفعل..؟

إنه يتحرك من ذاته إلى ذاته.. فلماذا تكون ذاته وما دلالتها وتفسيرها..؟

هو ينطلق في فراغ، منتهياً إلى فراغ، باحثاً عن فراغ.. هو لا يمكن تفسيره بشيء ولا تفسير شيء به. إنه يكون لأنه يكون، لا لأنه يجب أن يكون..

إذا رأينا أنه يعمل ليكون، وجدنا أننا لا بد أن نسأل: ولماذا يكون..؟

أعماله معللة بالكينونة، ولكن الكينونة معللة بماذا..؟

إنه الشيء بذاته.. إنه الشيء الذي لا معنى له غير ذاته.

إن العلم والحياة لا يصنعان الأخلاق، وإنما يصنعان القوة. إن القوة دائماً هي ضد الأخلاق؛ إنه لهذا لا ينتظر في المستقبل ازدهار الأخلاق الإنسانية، بل نمو القوة الإنسانية.

والعلاقات بين البشر ليست قائمة على الأخلاق بل على القوة، كالعلاقات التي بين البشر والطبيعة، وبين الطبيعة والطبيعة.. إن حاجة الحياة والإنسان إلى القوة، لا إلى الأخلاق.

كل الناس يتحدثون عن الأخلاق، كلهم يمتدحونها، وكلهم يخرجون عليها بدم بارد..

كلهم يريدون أن يعاملهم بها الآخرون، ولكن ليس فيهم من يريد أو يستطيع أن يعامل بها الآخرين..

كلهم يكفرون الآخرين ويحلون صلبهم، بل يتمنون صلبهم إذا عاملهم الآخرون بنفس الأخلاق التي يعاملون هم بها أولئك الآخرين.

إن كل الناس يحاسبون الآخرين بكل ورع الأنبياء، ويغفرون لأنفسهم بكل أنانية الأطفال.. حتى الأنبياء، إنهم يحاسبون الناس كما يعاملونهم بتعاليمهم، ويغفرون لأنفسهم كما يعاملونها بشهواتهم..

إن الناس جميعاً أنبياء وأطفال..

إنهم جميعاً تعاليم وشهوات.

من الوحشية أن تكون أخلاقياً

إنه لم يكن ابتكار العقائد والنظريات الأخلاقية التي كان الإنسان يحابي بها ضعفه، إلا اعتذاراً يقدمه إلى نفسه، لتغفر له شدة هوانه وشقائه وغبائه، وقدرته الخارقة على قبول كل ذلك بالصبر الجميل الطويل..

لقد تحمل الإنسان في تاريخه الطويل أقسى الآلام والإهانات..

لقد كان يقتات الأطعمة التي تقدم إليه بتواضع وشهية..

إنه لم يكن يشترط فيما يوضع بين يديه أية شروط، لا أخلاقية ولا منطقية ولا أي شيء.. إنه لم يكن يعرف أي ذلك أحسن مذاقاً، أو أجود صنفاً..

إنه لم يكن يعاف شيئاً.. إنه لم يكن يعاف.. إنه لم يكن يعاف..

لقد كان يحيا تحت كل الظروف والمناخات.. لقد كان ينمو ويعطي نفسه وطاقته كذلك، بلا كبرياء ولا عصيان..

إنه لا حدّ لما يمكن أن يجرب البشر، ويستسيغوا من تحقير، وقسوة، وغباء..

لقد أخجلوا الآلهة، والطغاة، والدجالين، من طول ما آمنوا، وأطاعوا، وتعذبوا، وصبروا.

•

شهوة، لا معاناة

أنا لا أحب الحقيقة ولا أكرهها، أنا محايد منها دائماً كموقفي من الحجر الذي ليس في طريقي.

إني أحب ما يلائمني، وأكره ما سواه. لست أحترم شيئاً أو أدافع عن شيء لأنه عدل أو حق، ولكن لأني أهواه، أو لأني أستفيد منه، أو أعيش فيه، أو أدافع عن نفسي، وأثني عليها بالدفاع عنه والثناء عليه.. أو لأني عاجز نفسياً أو اجتماعياً عن الخروج عليه، وعن التلاؤم مع

نقيضه. إني لهذا لن أعاني أية صراعات نفسية أو أخلاقية، لكي أختار موقفي حينما تكو
نظرياتي وعقائدي، وتعاليمي في طريق غير طريق مصالحي وأهوائي.

إن أتقى إنسان لن يجد أية معاناة لكي يطيع ذاته ويعصي مثله، لكي يطيع أهواءه ويعص
تعاليمه.

إذا اتبعت الحق أو احترمته فليس لأني فاضل، وإذا اتبعت الباطل أو أحببته فليس لأني شرير،
ولكن لأني في الحالتين إنسان.

إني أفعل الخطأ بالاصرار والحماس اللذين أفعل بهما الصواب. إني في الحقيقة لا أفعل هذ
ولا هذا، إني أفعلُ دائماً ذاتي.

إن مجموع أنانيات البشر الفردية يساوي مجموع فضائلهم الاجتماعية. إن الحقيقة لا يمكن
أن تكون هدفاً، ولكنها قد تكون الطريق إلى الهدف.

أنا أفكر وأتكلم كشريعة، ولكني أحيا وأنفعل وأخطئ كطبيعة.

إني أتهم قائل الحق بقدر ما أتهم قائل الباطل. إن هذا يسير إلى هواه فوق الحق، وإن ذلك
يسير إلى هواه فوق الباطل، فأيهما الفاضل..؟

بل هذا يسير بأسلوب، وذلك يسير بأسلوب آخر، وهذا هو الفرق بين الحق والباطل. إن
الفرق بينهما فرق بين أسلوبين.. إنه فرق بين رجلين.. إنه فرق بين مكانين، بين زمانين.

إذا علمنا الناس الدين والأخلاق، صنعنا منهم منافقين كذابين متناقضين، ولم نصنع منهم
متدينين ولا أخلاقيين. إن الحياة لا يمكن أن تكون متدينة ولا أخلاقية، مهما سلكت سلوك
المتدين الأخلاقي.

إنهم من الناحية النفسية والسلوكية، سيكونون خاضعين حتماً لاحتياجاتهم وطبيعتهم، ومن
الناحية النظرية سيكونون ملزمين بالتوافق مع ما تعلموا. إن معنى هذا أن يكونوا على أحسن
الاحتمالات، ملوثي الذوات، نظيفي الثياب. إن معناه أن يجمعوا بين الرياء والخطيئة، بين قتل
النبي والاحتفاظ بدمه، بين قتل الإله وتشييد أضخم مقبرة حوله للدعاء والزيارة.

ولم تستطع جميع التعاليم الدينية والأخلاقية، أن ترفع من مستوى الاستقامة عند الإنسان
في أي عصر من العصور، ولم يشعر الشيطان في أية فترة من فترات التاريخ، أن تعليم الدين أو
الأخلاق قد يهدد سلطانه بالزوال أو النقصان، أو بأية أزمة من الأزمات. إنه لم تهدد التعاليم
مصالح الشيطان في أي وقت من الأوقات. لم يشعر الشيطان في أي وقت، أن مجده في خطر
لأنه يواجه تعاليم قوية أو مخلصة. ولن يوجد أي فرق أخلاقي بين أكبر الدعاة إلى الإيمان

وأكبر الدعاة إلى الالحاد. إن الفروق بينهما هي دائماً فروق غير أخلاقية وغير دينية. إن الناس لا يمكن أن يتفاوتوا في تدينهم وأخلاقهم، مهما تفاوتوا في حياتهم.

إن رجل الدين ضعيف أمام أوامر ذاته ورغباتها، وإحساسها بقيمة المعصية وبضغطها وحتميتها، كضعف الخارج على الدين أو أشد.

إنه قد يختلف نوع المخالفة والطاعة التي يأتيها كل منهما لاختلاف الظروف والأوضاع والخصائص، ولكنهما لا يختلفان في أن كلاً منهما لا بد أن يعصي وأن يطيع. إن الطاعة والمعصية لا تعنيان الاستمساك بالدين والأخلاق، ولا الخروج عليهما، بل تعنيان التوافق وعدم التوافق، فهما إذن ليستا خضوعاً للتعاليم، ولا تمرداً عليها.

إنه إذا فعل المؤمن ما يأمر به الدين، أو ما تأمر به الأخلاق؛ فهو لا يفعل ذلك لأنه مؤمن متدين، ولا لأنه أخلاقي؛ وإنما يفعله لأنه إنسان يتحرك في كل الجهات، ويقتات بكل البقول، ويخضع لكل أنواع الإغراء. إنه يخضع لإغراء الطاعة، كما يخضع لإغراء المعصية. وقد يجد هوى نفسه أحياناً في العبادة، أكثر مما يجده في التمرد. وقد يكون عاصياً فاسقاً إذا أطاع الأوامر، أكثر من كونه كذلك إذا عصاها.

قد تكون الطاعة بحثاً عن معنى المعصية أو تحقيقاً لهدفها.. قد تكون المعصية بحثاً عن معنى الطاعة أو تحقيقاً لهدفها. قد يكون موقف العصيان موقف بطولة.. قد يكون موقف الطاعة موقف نذالة.

وهل تعني الصلاة غير ما يعنيه الرقص في تعبير الإنسان عن حاجته إلى الحركة، وإلى تحويل شحنته النفسية إلى أسلوب تعبيري..؟

أليست الفضيلة أحياناً شهوة، لا معاناة.. وإذا أصبحت معاناة فهل يوجد من يلتزمها..؟

وأية مزية دينية أو أخلاقية لمن يفعل الطاعة لأنه يشتهيها..؟

إن اختيار الإنسان لمواقفه الطيبة والرديئة، ليس موضوعاً دينياً ولا أخلاقياً إلا في الأسلوب واللغة.. أليس الذي يموت دفاعاً عن الحرية والعدل، كالذي يموت دفاعاً عن الطغيان والكذب، كلاهما إنما يستجيب ويخضع لهواه لا لظروفه والتزاماته، لا لمثله الأعلى..؟

ولهذا فإن موضوعات أخلاقنا هي دائماً مواقفنا، لا حوافزنا ولا أهدافنا. إن الحوافز والأهداف لا يمكن كما لا يصح نقدها ولا توجيهها؛ لأنها لا تخضع لأي توجيه أو تعليم. إنه لا تجوز المحاسبة عليها ولا مجازاتها، إذ هي لا تتأثر بالترغيب أو الترهيب.

إن الرجل الأخلاقي المتدين بالنسبة لك ولي، هو من يقف منا موقفاً يتلاءم مع رغباتنا أو مع نظرياتنا، وليس هو من له طبيعة مثالية.

وعاجز جميع ما لدى البشر من أديان، وقوانين، وعقوبات عن أن يصوغ طبيعتهم النفسية أو الأخلاقية صياغة جديدة. إن كل ما يحدث إنما هو تأثير على الموقف والأسلوب لا على الطبيعة.

حينما نتحول إلى رسل وكتاب ومصلحين، ندعو الناس إلى أن يكونوا سماء في نياتهم وحوافزهم، هل ندرك أننا ندعو إلى محال..؟

وإذن لماذا نفعل..؟

إن الداعية الذي يذهب يزعم أن حبه للبشر هو الذي خلق منه كاتباً، أو مصلحاً، أو نبياً، يموت فداء وحباً للبشرية، هو إنسان يبالغ في مجاملة نفسه والثناء عليها. وقد أصبحت مبالغة الدعاة في مجاملة أنفسهم، شيئاً معتاداً ومتكرراً. إنه شيء لا يثير دهشة أحد، ولا نقد أحد أو احتجاجه.

إنه من الغباء الشائع، أو الكذب الشائع، أن الدعاة والكتّاب كانوا في كل العصور والظروف، يطلبون إلى الناس أن يتمردوا على مصالحهم وأهوائهم؛ احتراماً للحق، والعدل، والفضيلة، والمنطق. كأن مثل هذا التمرد يمكن أن يحدث.. كأنه شيء غير مستحيل.. كأن الإنسان يستطيع أن يكون ذئباً أو حملاً، أو ما شاء بالإرادة أو بالأمر.. كأن الذئب يستطيع أن يكون حملاً.. كأن الحمل يستطيع أن يكون ذئباً..

وكم يكون الأمر مذهلاً إن كان هؤلاء الكتّاب والدعاة يصدقون أنفسهم فيما يزعمونه من جدوى محاولاتهم لإصلاح الأخلاق وتطهير النفوس..

إن جميع ما عند البشر من ذكاء، وعلم، وتعاليم، وتاريخ، وجنة، ونار، وآلهة، وأنبياء لا يستطيع أن يجعلهم يحبون العدل أو الحق أو الناس، حباً دينياً أو أخلاقياً يرتفع عن الخضوع للهوى والأنانية..

احتمال، لا ولادة..

نحن أنانيون فقط، ولكن أنانيتنا لا تتحقق أحياناً إلا بأن نكون فضلاء، إلا بأن نعمل للحق وللآخرين ونؤثرهم، ونناضل لإسعادهم، وقد نموت دفاعاً عنهم توكيداً لأنانيتنا.. إن هذا هو معنى الحضارة وقيام المجتمعات.. إن هذا هو معنى الأخلاق والتدين.

لا يولد موقف الإنسان معه.. كل إنسان يولد بلا موقف.. كل إنسان يصنع موقفه تحت عدد لا حصر له من الاحتمالات الحمقاء.

إنه ما من إنسان إلا ويمكن أن يكون فاضلاً، بقدر ما يمكن أن يكون رديئاً.. أي بموقفه.

إنه لا يوجد إنسان محتوم الموقف؛ فالبطولة، ومثلها النذالة، احتمال لا ولادة. ولعلنا نحن البشر نسمي بطلاً كل من لم يجد الفرصة لكي يكون نذلاً، كل من لم يستطع ذلك..

ليس في الناس من يساوي ذاته فقط. إن كل شيء يساوي ذاته واحتمالاته معاً. ولما كان البشر غير متحددين في أية صورة من صور الكينونة؛ كان ممكناً أن يأخذوا بأي نظام، وأن يتخلوا عنه بنفس السهولة، والاقتناع، والحماسة.

إنه ما من نظام تحياه أية جماعة إنسانية، إلا ويمكن أن تحياه كل الجماعات الإنسانية الأخرى؛ ولكن على مستويات مختلفة.

إنه إذا رفض قوم ما، نظاماً يحياه أقوام آخرون، فلن يكون السبب في النظام نفسه.. لن يكون السبب أن ذلك النظام لا يتناسب مع الذين رفضوه، ولكن السبب هو أسلوب فرضه.. إن السبب هو أنه لم يفرض عليهم بالأسلوب الذي فرض به على الذين قبلوه.. إنه لهذا يمكن أن يقبله الذين رفضوه، وأن يرفضه الذين قبلوه لو اختلفت الوسائل.

ليس الذين يقبلون شكلاً من أشكال الحياة، متناسبين معه أكثر من الذين يرفضونه. وإذا قال قوم إن نظاماً معيناً غير صالح لهم، كان المعنى أنهم لا يريدونه؛ لا أنه حقاً بطبيعته أو طبيعتهم لا يصلح لهم، أو أن النظام الذي عندهم يصلح لهم أكثر. إن الفرق بين نظام يقبل ونظام يرفض يساوي الفرق في أسلوب الفرض لهذا أو الفرض لذاك.

إن البشر باحتمالاتهم يقبلون كل نظام، ثم يختلفون في القدرة على القيام به، لاختلاف خصائصهم وظروفهم؛ كما يقبلون كل خرافة، وكل دين، وكل مذهب، وكل عذاب، وكل هوان.

لقد صنعوا الحضارة والعبقرية، والفنون والرخاء، تحت كل الشعارات، والنظم، والعقائد. لقد صنعوا كل ذلك تحت الدكتاتورية والديمقراطية، تحت الجمهورية والملكية، تحت الرأسمالية والاشتراكية، تحت الإلحاد والإيمان؛ حتى لقد أصبح من الأخطاء المشهورة القول بأن بعض المذاهب أو العقائد أو النظم أصلح من بعض، لنمو موهبة الإنسان في مناخه، ولقدرته على التلاؤم معه.

لقد استطاعت كل العقائد والنظم المتناقضة، وكل الآلهة والطغاة، وكل الحكام الصالحين أيضاً، أن يتعاقبوا على المجتمعات، يذلونها ويسرقونها ويجلدونها؛ فتحني لهم كرامتها في بلادة

وهوان، غير مختارة لعذابها، غير مفرقة بين الشيء ونقيضه. إنه لم يكن وقوعها تحت طغيان هذا النقيض دون نقيضه، ذكاءً ولا احتفاءً بالحقيقة.. لقد كان ذلك عشوائية، أو ضرورة، أو إلزاماً من الأعلى.

إنه إذا حكمها أفضل الحكام، أو أفضل العقائد والنظريات والمذاهب، فليس لأنها لا تستطيع أن تختار أو تحسن الاختيار؛ ولكن كما تقع أيضاً في قبضة أسوأ الحكام والمعتقدات، والنظريات والمذاهب.. إنها المصادفات التي لا تعني ذكاء ولا بطولة..

إنه ليس توزيع المذاهب، والنظم، والآلهة، بين المجتمعات قائماً على العدل والوعي.. ليس قائماً على أن كل مجتمع يأخذ ما يلائمه أكثر، وما يصلح له دون غيره، في الوقت الملائم المحدد. إن الدليل على أن الأمر ليس كذلك، أن هذا التوزيع يمكن تغييره بضربة واحدة، بضربة مفاجئة قوية. إن الدليل على ذلك أنه يمكن دائماً فرض أية عقيدة أو مذهب أو نظام بالقوة. ويمكن إزالته أيضاً بالقوة، كما يمكن فرض أي شيء آخر بهذه الوسيلة نفسها.

إن أي نظام قائم الآن في أي مكان، يمكن نقله إلى أي مكان آخر من العالم بالوسائل المعروفة، كما يمكن إزالته من أية جهة من الدنيا، ووضع أي نظام آخر مكانه، وكأن الأمر نوع من الاختيار الذكي الطيب.

الضغط لا يولّد الانفجار

إن انتقال الجماعات من مذهب أو نظام، إلى مذهب ونظام آخر؛ ليس انتقالاً مما لا يلائم إلى ما يلائم.

إنه ليس انتقالاً فكرياً.. إنه ليس انتقالاً تصنعه المعرفة أو المقارنة الواعية؛ وإنما هو انتقال تحتمه الحركة والقلق الدائمان الذاتيان.

إنه ليست هناك حدود فاصلة أو مفهومة بين ما لا يلائم وما يلائم. إنه لا توجد تعريفات تحدد كلاً منهما.

إن العالم ليشهد اليوم بلاداً عديدة ومختلفة المستويات قد أخذت بنظام معين واحد، لم تأخذ به بلاد أخرى قد تكون أكثر تقبلاً له بمستوياتها الفكرية والثقافية. إن السبب أنه فرض في حالة بالقوة، ولم يجد من يفرضه في الحالة الأخرى. إن البشر هم الذين يتلاءمون أو يرفضون التلاؤم. إنهم يتلاءمون مع ما هو موجود، ومع ما يفرض عليهم. فالتلاؤم في الناس لا في عقائدهم أو أساليب حياتهم. ولا حدود ولا قانون لقدرتهم على التلاؤم. لقد ظلوا في كل التاريخ يتلاءمون مع أتعس المذاهب والعقائد والنظم وأغباها، حتى كأنها أذكى المعارف وأزكاها وأعدلها. إنهم لم يكونوا يشكون منها. إنهم إن شكوا فمن أنفسهم لا من مذاهبهم لو

عقائدهم أو نظمهم. لقد كانوا يرون أن تلك المذاهب والمعتقدات والنظم، خالدة لا تزول. كانوا يتهمون أنفسهم بالعجز والفسوق كلما تعذبوا أو أخطؤوا؛ دون أن يتهموا عقائدهم أو مذاهبهم أو آلهتهم.. كان المتهم دائماً فيهم هو الإنسان.

إن نظامين متناقضين قد يطبقان على بلد واحد، بل لقد طبقا في تجربة عملية مشهودة على جانبي مجتمع واحد. لقد بدا الجانبين متلائمين مع نظاميهما المتناقضين إلى أبعد حدود التلاؤم. إن المجتمع المتخلف أو المتطور قد يأخذ بنظام واحد فيتلاءم معه، ثم يأخذ بنظام آخر مناقض له فيتلاءم معه أيضاً بنفس النسبة.

إن كل هذا يعني مرونة الإنسان في صياغة أفكاره، ومشاعره، وعقائده، وسلوكه.. يعني استعداده العجيب لقبول كل ضغط.. إن كل هذا يعني استعداد الإنسان لعبادة كل الأصنام المختلفة الأخلاق والمواهب، بحيث يستطيع أن يطيع كل آمر، وأن يتلاءم مع كل شيء.. مع كل شيء ونقيضه، أن يتلاءم مع الهزيمة والنصر، مع الخرافة والحقيقة، مع الحرية والطغيان، مع النظام والفوضى، مع الإيمان والتمرد على الإيمان.. بل ومع اللذة والألم.

ولهذا كان من غير الصحيح بالنسبة للمجتمعات أن الضغط يولد الانفجار. إن هذه المرونة تجعل الضغط مهما كان قاسياً، لا يجد مقاومة من الداخل، لا يجد ردود فعل ملاءمة؛ بل قد يجد أحياناً كثيرة استجابة، واستسلاماً، وتلاؤماً.

إن الضغط قد يتحول إلى طاعة لا إلى عصيان، قد يكون المجتمع المقهور مطيعاً أكثر. قد نطيع لأننا مقهورون مضغوطون تحت العذاب. إن الانفجارات المعروفة التي حدثت في التاريخ لم يكن سببها الضغط. إن أقسى أنواع الضغط في التاريخ لم يحدث أي انفجار. لقد كانت المجتمعات ـ كل المجتمعات ـ تمتص كل ضغط يقع عليها.. كان الإنسان يبتلع جميع الآلام والمظالم، بصبر وموهبة مذهلة.. كان يبتلع جميع الهموم والمهانات.. إنه لم يتهم في أي وقت من الأوقات بفقد الشهية أو بضعفها أمام أية مائدة تجمعت فيها كل المهانات، والآلام، والمظالم..

إن من الحقائق الحزينة أن الضغط القوي على أي مجتمع، قد يتحول فيه إلى أفكار وعقائد، وحالة نفسية يقتات بها، بدل أن يتحول إلى انفجار. إن إهانة المجتمع قد تتحول فيه إلى إيمان وعقيدة وعبادة، وإلى أخلاق وتقاليد مرعية.. إن إهانات المجتمع تتحول فيه إلى آلهة من نوع ما.

وهزيمة أي عهد، أو نظام، لا تعني هزيمة أي نوع من أنواع الضغط.. لا تعني أن الضغط يتحول إلى انفجار، وإنما تعني أن ضغطاً آخر قد أقبل. كما أن هزيمة أحد الآلهة لا تعني هزيمة ذلك الإله، ولكن تعني أن إلهاً آخر في الطريق.

إن الآلهة تنتصر على الآلهة وعلى الجماعات دون أن تنتصر الجماعات على شيء..

إن مجموع أحداث التاريخ، هي مجموع معارك الأرباب وتحركاتها..

إن قصة الإنسان هي قصة أربابه ومغامراتهم وخلافاتهم، وما حاكوا من مؤامرات، وأبدعوا من حروب، وعانوا من آلام..

ليست قصة الإنسان هي رفضه للألم والهوان.. إنه لا يرفض ذلك، إنه يحوله إلى فلسفة ودين..

إن في الإنسان دائماً استعداداً لا ينضب، لهضم الآلام والمشاكل مهما كانت صعبة الهضم..

إنه لا يحدث أن تصاب أخلاقه، أو تفكيره، أو نفسه، أو عقائده، بعسر الهضم مهما تجرع أكبر المقادير، وأردأ الأنواع من الغباء، أو الظلم، أو الفساد، أو الكذب، أو الخرافات والإهانات..

إنه يهضم كل ما يهين كرامته وعقله، وما يعذب ذاته.. إنه يهضمه..

إنه يصنع من كل ذلك غذاء ممتازاً تقتات به روحه..

إنه يفسره تفسيراً يرضي عنه منطقه، ثم يحوله إلى أديان، ومذاهب، وفنون تهبه الصبر والعزاء، والابتسام للبلادة والقبح، للعذاب..

أي ذلك، الحتم..؟

إن القول بحتمية التاريخ ليس صحيحاً إن كان المراد بذلك سير الإنسان، أو سير حياته في طريق محتوم مكتوب مقدماً، تمكن معرفته بالقراءة أو بالتفكير أو بالقياس؛ أو إن كان المراد اتجاه البشر وحياتهم دائماً إلى الأفضل.

ما هو الأفضل..؟

إنها لغة إنسانية ليس لها تفسير لا في الطبيعة، ولا في حياة الإنسان؛ بل ولا في تفكيره. إن القول بحتمية التاريخ بهذا المعنى نوع من اللاهوتية، إنه نوع من القدر الغيبي..

إن تاريخ الإنسان ليس شيئاً خارج الإنسان أو فوقه. إن الإنسان هو تاريخه.

إن البشر لا يسيرون حتماً في طريق مرسوم على الورق؛ لأن إرادتهم، وتفكيرهم، وقدرتهم وظروفهم، ونزواتهم، غير متحددة لا بالمنطق، ولا بالأخلاق، ولا بالقوانين الطبيعية، ولا بأي شيء. ولأنهم في أهوائهم، ومنطقهم، وسلوكهم، لا يبحثون عن الأحسن. إنهم لا يعرفون ما هو الأحسن، ولأنهم لا يستطيعون أن يحققوا دائماً ما يرونه الأحسن. إن كل شيء فيهم

احتمال؛ فالتاريخ الذي هو من خلقهم احتمال. إنه ليس فيه حتم، إلا إذا كان في مصير أي إنسان أو في حياته حتم. إن الحتم لا وجود له إلا في لغة الآلهة وخيالها؛ أما الأشياء فلا حتم فيها. إن الفراغ هو وحده الحتم الدائم.

إنه لا يمكن أن تسير كل المجتمعات في اتجاه تاريخي موحد، إلا إذا كان من المستطاع أن يسلك جميع الأفراد في حياتهم سلوكاً موحداً، أو أن تتشابه جميع وحدات الطبيعة تشابهاً مطلقاً في حركاتها وصفاتها. إن القول بحتمية اتجاه جميع المجتمعات أو الأفراد اتجاهاً موحداً أو متشابهاً، هو مثل القول بحتمية توحد الطبيعة في صفاتها، ومداراتها، وحماقاتها. ولو أخذت جميع الشعوب بنظام واحد، وسارت في مجرى واحد، في زمن واحد، تحت ضغط ظروف واحدة، أو تحت الإغراء القوي، أو المحاكاة أو القهر، أو مقاومة التحدي الرهيب، أو تحت أية قوة أو معجزة قاهرة؛ لكان من المحتوم أن تختلف وتتفرق يوماً ما، خاضعة لقانون الاحتمال العام.

إن البشر لو نظموا جميعاً بنظام واحد، أو مذهب واحد، أو إله واحد، لكان محتوماً أن ينفرطوا ويتبددوا تحت عوامل محتومة.

إن الحكم على التاريخ بالحتمية، حكم مذهبي خاص؛ فكل صاحب مذهب يقول بحتمية التاريخ، وهو يعني أن مذهبه هو الطريق الوحيد للتاريخ.. هكذا يقول الشيوعي، والاشتراكي، والرأسمالي، والملحد، والمؤمن، والمسلم، والمسيحي، وكل صاحب عقيدة أو مذهب. فأي ذلك هو الحتم.. وأي هؤلاء قرأ التاريخ، ورصد كل حركاته قبل أن يكون..؟

لقد كان البشر أنانيين دائماً بغباء. في القديم كان كل أهل دين يرون حتمية دينهم، وسقوط كل الأديان والآلهة تحت أقدامهم، والآن كل أهل مذهب أو نظام يرون في مذهبهم أو نظامهم هذا الرأي.

إنه لا يوجد بين الكائنات كلها من يحمل تناقضاً في احتمالاته الأخلاقية، والنفسية، والتاريخية، مثل الإنسان. إن ما يريده ويستطيعه غير متحدد؛ وإذن كيف يمكن أن يتحدد تاريخه أو سلوكه..؟

بل إنه لا يستطيع أن يعرف ما يريد، أو أن يريد ما يعرف.

إن كل إنساني ينطوي على نقيض نفسه، أي على نقيضه الأخلاقي. إن أي موقف نقفه ننطوي على نقيض له. إن كل من يتبع لمذهب، أو لنظام، أو لإله ودين، ينطوي على الرفض للذلك والخروج عليه. إنك تعيش كل احتمالات الكذب حينما تكون صادقاً كل الصدق.

إن التزام الإنسان لهذه الأخلاق المعينة، مساوٍ في احتمالاته لالتزامه للأخلاق الأخرى

المناقضة لها. إنه يفعل هذا أو هذا بالقانون الذي يعشق به فلانة أو فلانة، ويصادق فلاناً أو فلاناً، ويختار هذه المهنة دون تلك. وقد يتحول من سلوك إلى آخر كما يترك طريقاً لطريق وكما ينتقل من مكان ومنزل إلى مكان ومنزل آخر بنفس الحوافز والأهداف الأخلاقية؛ ولكن ليس بنفس السهولة لأسباب ليست أخلاقية.

ومن الصعب جداً أن يوجد من يستطيعون السير كل حياتهم في طريق أخلاقي واحد. ولو حدث مثل هذا لوجب أن نعلم أن هؤلاء القوم ليسوا عقلاء ولا فضلاء، لوجب أن نعلم أن في الأمر شيئاً غير عادي.. شيئاً ليس سببه الاستمساك بالأخلاق، ولا الخروج عليها؛ إنه شيء لا يحمد ولا يذم لأنه مثل صلابة الأحجار، وكثافتها، وسلوكها، وقوانينها الذاتية التي لا تعني فضيلة ولا رذيلة ولا شيئاً.. فالفضيلة الدائمة بلادة دائمة، أو كذب دائم.

إن الذي يلتزم بأخلاق معينة كل حياته لا يخونها ولا يفكر في خيانتها، لا يمكن أن يكون أخلاقياً. إنه لا يمكن أن يكون حياً أو إنساناً، أعني ولا يمكن أن يكون موجوداً؛ لأن الأخلاقي هو الذي يفعل الشيء ونقيضه.. هو الذي يريد الشيء ونقيضه بنسبة متحركة في وقت واحد أو في وقتين مختلفين.

الأخلاقي هو الذي يصدق مرة واحدة ليكذب عشرات المرات.. هو الذي يكون شجاعاً في موقف واحد أو في عدة مواقف، ليكون جباناً كل حياته.. هو الذي يرفض باسم الشرف أن يبيع نفسه سراً بثمن أقل ضرراً وتحدياً للمجتمع، ليبيعها جهراً بثمن أكبر ضرراً وتحدياً باسم الشرف أيضاً.

إن الموقف الأخلاقي هو موقف معين بين عدد كبير من المواقف المناقضة له. إن الموقف الأخلاقي كائن غريب بين كائنات مألوفة..

إن الذين يبدون لنا محافظين على مستواهم الأخلاقي أطول مدة، هم قوم بارعون في اتقان فن التغطية والتستر على الفضائح الكبيرة.

إن أعظم رجل روحاني في التاريخ ليعيش في ذاته أكبر لص، وأكبر قاطع طريق.. إنه ليعيش في ذاته عدد كبير من اللصوص والقتلة والمرّاق.. إنه احتمال دائم لكل الفاسدين والمنحرفين: إنه احتمال دائم لكل الأخلاق المتناقضة؛ بل وإنه ليمكن أن يكون كذلك ذات يوم، بل لعله قد كان.

كما أن ذات أكبر لص، وأكبر قاطع طريق يعيش فيها أيضاً أكبر قديس، تعيش فيها احتمالات كل القديسين والمعلمين الخالدين.

إن القداسة مختلطة باللصوصية في كل ذات. وإن واعظ المعبد كان يمكن أن يتحول إلى

سارق لشموع المعبد، كما أن سارق الشموع كان يمكن أن يصبح واعظاً عظيماً في أكبر كنيسة أو أكبر مسجد..

إن احتمالات أعظم زعيم أو أعظم قائد عبقري.. إن احتمالاته الذاتية والأخلاقية تؤهله لكي يكون تاجراً صغيراً أو مرابياً في قرية نائية، أو ساقياً في إحدى الحانات. إن في ذات كل قائد أو زعيم عظيم احتمالات كل المرابين، والتجار الصغار، والسقاة في الحانات، وحفاري القبور، وصانعي الأكفان.

إن في ذات كل شيطان احتمالات أكبر ملاك، وإن في ذات كل ملاك احتمالات أكبر شيطان. إن في كل بطل احتمالات كل نذل، وإن في أكبر الأنذال احتمالات أكبر الأبطال. إن في كل إنسان كل الأخلاق، إن في الإنسان الفاضل كل الأخلاق الرديئة. إن في الإنسان الرديء كل الأخلاق الفاضلة.

ليست الظروف وحدها هي التي تجعل البشر هذا أو هذا، بل واحتمالاتهم الذاتية؛ فالإنسان في كينونته الأخلاقية احتمال مطلق. إنه من حيث الأخلاق يكون هذا أو هذا بلا معاناة. إن المعاناة التي يحسها كثير من الناس حينما يواجهون مواقف مخالفة للسلوك العام أو للتعاليم المكتوبة، هي معاناة ليست أخلاقية أو ذاتية. إنها معاناة اجتماعية أو نفسية.

والمعاناة النفسية التي تتحول إلى مواقف أخلاقية ليست جزءاً من تكوين الإنسان النفسي أو الذاتي. إن الإنسان بطبيعته وولادته ليس له أي موقف نفسي من أي تعبير أخلاقي. إنه لا يوجد إنسان أخلاقي؛ وإنما يوجد إنسان فقط، إنما يوجد إنسان يريد فيطارد إرادته بالقدرة والحيلة، بالافتراس والمغازلة، بالصلاة وفعل الفضيلة حيناً، بقتل المصلين ومن يفعلون الفضيلة حيناً آخر.

ومع أن البشر فعلوا جميع الانحطاطات الأخلاقية التي عرفوها واقترفوها بسلوكهم، وأنكروها وصنفوها بمنطقهم؛ فلقد كان من الممكن دائماً، فلقد كان من الممكن في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل، أن يهبطوا من حيث احتمالاتهم الأخلاقية والنفسية إلى قرارات أشد عمقاً. وإنه لمن المحتمل كثيراً حدوث مثل هذا في الآتي من التاريخ. إنه لم يمنعهم من هذا الهبوط الأشد عمقاً، مقاومتهم لأنفسهم؛ ولكن منعهم أنهم لم يستطيعوا، أو لم يريدوا، أو لم يعرفوا، أو لم يحتاجوا. إنها ليست الأخلاق هي التي منعت الحيوان المفترس أن يكون مفترساً أكثر.

لقد منع البشر من أن يهبطوا في مستواهم الأخلاقي أكثر مما هبطوا القانون الذي لم يستطع به هذا السلاح أن يكون قاتلاً أكثر، أو هذا الوحش أن يكون ضارياً أكثر، أو هذا الحجر أن يكون كبيراً أكثر، أو هذه الشجرة أن تكون ضخمة أكثر مما كانت. إنهم لم يهبطوا في

أخلاقهم أكثر مما هبطوا، لأنهم لم يستطيعوا. إنك كما تعجز عن أن تكون ملتزماً للأخلاق، كذلك تعجز عن أن تكون خارجاً على الأخلاق.. وفي أي العجزين أنت أكثر فضيلة أو أخلاقية..؟

والأخلاق لا دخل لها في شيء من هذا. لقد كانوا كالطبيعة، خاضعين في كل تصرفاتهم لقانون القدرة والعجز لا لقانون الخير أو الشر. إن قانون الخير والشر أو الفضيلة والرذيلة، هو تعبير عن قانون القدرة والعجز؛ وليس العكس. إن سلوك الإنسان هو الذي يحدد سلوك الإنسان، إنه هو الذي يحكم عليه أيضاً؛ دون منطقه. إن منطقه قارىء فقط لحكم سلوكه على سلوكه. إن المنطق تعبير عن إرادة السلوك وعن احتمالاته؛ لا عما يفرض عليه.

إن الناس لا يختلفون في الأخلاق ولا في الطبيعة؛ بل في القدرة والموهبة. إنهم يختلفون في عمق ذواتهم وارتفاعاتها كما تختلف الجبال والسهول، كما تختلف الأسود والأرانب في قدرتها لا في أخلاقها.

ومع أن الإنسان من حيث التعبير الأخلاقي احتمال مطلق، فإنه من حيث الطبيعة الأخلاقية، متحدد متكرر في أسلوب واحد لا يختلف. إنه لا يستطيع أن يكون فاضلاً ولا أن يكون غير فاضل.. إنه لا يستطيع أن يكون هذا أو هذا.. إنه هو دائماً هذا.. إنه لا توجد علة احتمالات لاتجاهه الأخلاقي، لا حينما يفترض أخلاقياً، ولا حينما يفترض خارجاً عن الأخلاق.

إن الإنسان احتمالات عديدة في صيغه؛ ولكنه متحدد في طبيعته، في كونه غير أخلاقي مهما بدا أخلاقياً.

طريق ليس فيه معنى الطريق

ليس شيئاً حزيناً أن تكون غير أخلاقي.. أن تكون أخلاقياً هو الشيء الحزين..

إنها لوحشية لا يتسع لها هذا العالم، أن يكون البشر أخلاقيين ملتزمين بأخلاقيتهم. إن العالم سيموت، سيقتل، لو كان البشر أخلاقيين.. لو كانوا قادرين على تنفيذ أخلاقيتهم.. إنهم سيقتلون حينئذٍ كل شيء، سيرفضون كل شيء احتراماً لأخلاقيتهم..

سيقتل الإله الكون، لو كان أخلاقياً..

سينتحر الكون، سيتوقف عن الوجود، عن الحركة، لو كان أخلاقياً؛ مخافة أن يخرج على أخلاقه.. مخافة أن يكون ظالماً أو قاتلاً أو مسيئاً.. سيقتله حينئذٍ الشعور بالذنب، الخوف من الذنب.

إن الإخلاص للحقيقة والمذهب العقيدة، يصنع البغضاء والعداوات بين الناس، أعنف مما يصنع ذلك الاتباع للهوى..

إن الناس مقبولون على نحو ما، متعايشون ببعض السلام وبعض الصداقة، لأنهم غير مخلصين للحقيقة بل لأنفسهم وظروفهم..

ما أبشع الوضع لو كان هذا الشيخ مثلاً، مخلصاً للعقيدة التي يؤمن بها، يؤثرها على أهوائه واحتياجاته..

ما أفظع المؤمن المخلص لمذهبه، أو لدينه، أو لإلهه، أو لتعاليمه الأخلاقية..

ما أخطر الإخلاص.. إنه هدم، وعدوان، وعداوة، ووقاحة، ووحشية..

أيها الإنسان، كن متبعاً لهواك، لا لمذهبك، لئلا تكن عدواناً عالمياً..

ماذا لو وجد مجتمع أو إنسان واحد جمع في سلوكه كل المزايا النظرية، والتزم بها كالتزام الطبيعة بقوانينها، لا يكذب، لا ينافق، لا يكون، لا يحب، لا يكره، لا يعادي إلا بنظرية أخلاقية، لا يبحث عن السيطرة والقوة، لا يعشق ذاته عشقاً جنسياً، لا يخضع لإرادته خضوعاً فيه كل الجنون، يؤثر الحق والفضيلة والناس على نفسه، يضحي بشهوته في سبيل العدل والحب، يضحي بمصلحته فداء لمصلحة الآخرين، يحب للناس ما يحب لنفسه، وكما يحب نفسه، يعامل نفسه والآخرين وكل شيء بالنظرية، ملتزماً كالقانون الطبيعي..؟

ماذا يحدث للحياة وللمجتمع ولنا، لو كنا أتقياء ملتزمين، لا نفعل، لا نريد إلا ما نراه صواباً ونافعاً لنا وللآخرين وللحياة.. إلا ما نراه متوافقاً مع المبادىء والنظريات التي نتعلمها والتي نحفظها.. وإلا ما أردنا به وجه الحق مع التنزه عن كل الأغراض، عن كل الشهوات النفسية المحرمة..؟

ماذا يحدث لو كنا لا نفعل، لا نريد، لا نتكلم، إلا إذا علمنا في أعماق أنفسنا الصدق، والإخلاص، والنزاهة..؟

ثم ماذا لو كان الحاكم، الزعيم، الكاتب، الفنان، المخترع، التاجر، الزارع، الجندي، المغامر.. ماذا لو كان كل هؤلاء لا يعملون إلا إذا كان حب الناس والعمل من أجلهم هو الحافز الأخلاقي والنفسي..؟

ماذا لو تصورنا أن حارث الأرض وباذرها، وأن طاحن القمح وخابزه لا يفعل ذلك إلا إذا كان حافزه أخلاقياً.. ماذا لو تصورنا أن بائع الخبز أو البقول لا يبيع لنا إلا إذا كان حافزه أخلاقياً..؟

ماذا لو قتلنا، لو شتمنا، لو هجرنا، كل من يستحقون ذلك بالنظرية أو بالدين أو بالمذهب الذي نؤمن به..؟

هل يستطيع البشر بدون رذائل نفسية أن يكونوا أخلاقيين أو مبدعين..؟

إني حينما أتصور البشر فضلاء إلى هذا المدى لا أستطيع أن أتصور وجود مجتمع ولا حضارة ولا عبقرية، بل ولا وجود إنسان. إن تصور الأخلاقية في الإنسان كتصورها في الطبيعة؛ وإذا كانت الأخلاقية في الطبيعة هدماً لها، فإنها في الإنسان أكثر وأوقح هدماً ووحشية.

ماذا لو كانت الطبيعة.. لو كانت الأنهار، والبحار، والشموس، والأقمار، والسحب، والرياح، والأحجار، والحيوانات، والحياة بكل أنواعها.. لو كان الحديد، والخشب، والمواد الخام التي نصنع منها أسلحتنا وأشياءنا الأخرى.. ماذا لو كانت كل وحدات الطبيعة هذه خاضعة للأخلاقية، للعدل، للحق، للحب، للمساواة، للرحمة، للإخلاص.. هل يمكن حينئذٍ أن توجد أو تبقى أو تتحرك..؟

إن هذا الحجر الذي يقف فوق الحجر الآخر.. إن هذه الحيوانات والحشرات التي تعيش على الإنسان وعلى الكائنات الأخرى.. إن هذه الأنهار والرياح والسحب التي تتحرك فتقتل وتغرق وتفسد.. إن هذه الكائنات ليست أخلاقية لا في سلوكها ولا في منطقها، ولا في حوافزها. إنها لو كانت أخلاقية لمنعتها أخلاقها من الحركة، خوفاً من أن تكون قاتلة، أو ظالمة، أو غير مخلصة في سلوكها أو قصدها؛ ولكان من المحتوم حينئذٍ أن يقتلها شعورها بالذنب، شعورها بأنها قاتلة وظالمة وغير صديقة لشيء، وبأنها لا تعني شيئاً، وبأنها بلا رسالة، بلا معنى، بلا منطق، بلا كرامة، بلا دين.. إنها حينئذٍ لا بد أن تموت بأخلاقها، بورعها..

إن أعمال الطبيعة وكذا أعمال الإنسان أعمال انتحارية.. إنها لا تعني شيئاً سوى نفسها. إنها ليست لها أهداف خارجية ولا تفسيرات أدبية. إن سبب الشيء هو نفس الشيء، هو تفسيره، هو غايته في تصرف الإنسان، وتصرف الطبيعة، وفي منطقهما.

ليست الحضارة، والإبداع، وممارسة اللذة والسرور؛ إلا صورة من صور الانتحار، ومحاولة من محاولات التخلص من الحياة والكينونة، في صورة البحث عنهما.

الطبيعة والإنسان لا يقصدان أن يفعلا الخير أو الواجب أو الحق أو حتى اللذة بما يفعلانه ولكنهما يعملان ليتخلصا من ذاتيهما. إنهما ينتحران بأن يعملا بلا هدف بلا حكمة، بمواصلة السير من أجل السير، في طريق ليس فيه معنى الطريق.

إن هذه العملية الانتحارية هي التي تصنع الحضارات والأعمال الكبيرة، والفنون والآداب،

وكل الأشياء الجميلة. إن قصة الحياة كلها تشبه قصة البحر والمطر والنهر. إن البحر يتحول إلى مطر ونهر، ثم يتحول النهر والمطر إلى بحر، ثم تتكرر العمليات بلا أية فكرة.. إنها عملية انتحار دائمة. إن الطبيعة حينما تتغير وتعطي أعمالها المبدعة تنتحر، لأنها لا تقصد إلا ما يقصده المنتحر. إن أعمالها لا تؤدي إلا إلى ما يؤدي إليها عمل المنتحر.. إن الإنسان في أعماله العظيمة يعمل نفس الشيء، بنفس الأسلوب، بنفس النتيجة، بنفس الحافز.. إن الولادة ليست سوى أبسط وأوضح أسلوب من أساليب الانتحار، لأنها لا تعني شيئاً غير نفس هذه العملية العقيمة.. إن الولادة لا تعني غير الولادة.. إن أعمال الإنسان وأعمال الطبيعة لا تعني غير نفس هذه الأعمال.. إن الانتحار لا يعني غير الانتحار.. إن الحياة كذلك لا تعني غير الحياة؛ حتى العبقرية لا تساوي إلا العبقرية، كما أن الانتحار لا يساوي أكثر من الانتحار.. إن عملية الولادة لا يمكن أن تعني النتائج التي سوف تؤدي إليها، إنها لا يمكن أن تعني عملاً أخلاقياً.. إن عملية الولادة لا تعني سوى عملية الولادة..

إن سقوط الشجرة مساوٍ لنموها، لأن السقوط والنمو لا يعنيان إلا معنى واحداً.. إنهما لا يخضعان إلا لقانون واحد. إن السقوط انتحار، إذن فالنمو انتحار، إذن فالحياة كلها انتحار، ليست أخلاقاً ولا أفكاراً، ولكنه انتحار ليس ذميماً ولا رديئاً.. ليس هو الانتحار الذي ينهى عنه الواعظون والمدرسون.. إنه انتحار النجوم والأنهار والغمام، حينما تهوي وتضيء، وتفيض في كرم وكبرياء.

إذن، ليس في الطبيعة ولا في أعمال الإنسان أو في حوافزه، أخلاقية. وليس في مصلحة الحياة أن توجد هذه الأخلاقية. إن البشر جميعاً لا يطيقونها ولا يحيون بها.. إنهم يرفضونها في كل عصر ومجتمع مهما آمنوا بها ودعوا إليها.

ولو أن إنساناً يعيش في أكثر المجتمعات إيماناً بالأديان والأخلاق ودعوة إليها، أراد أن يحيا هذه الأديان والأخلاق بسلوكه؛ لكان محتوماً أن يموت هذا الإنسان منبوذاً في الطريق العام، إن لم تصلبه الجماهير أو السلطان على جذع شجرة باسم الدفاع عن هذه الأديان والأخلاق.

إن الذين قتلوا أو أوذوا في التاريخ بحجة خروجهم على العقائد والنظم، إنما حدث لهم ذلك بسبب تمسك أخلاقهم بأخلاق تلك العقائد والنظم، لأنهم كانوا أخلاقيين أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا تحدياً لمن قتلوهم أو آذوهم تحدياً أخلاقياً، لا لأنهم كانوا زنادقة. إن المجتمعات تضيق بذوي الأخلاق القوية المتحدية، لا بذوي الأفكار الكافرة. إن الذين قتلوا باسم المروق من الدين، أو من أي نظام أو مذهب، إنما قتلوا لأنهم وقفوا موقفاً ما، لا لأنهم رأوا رأياً ما.

وهل أنا هنا أخرج على نفسي حينما أزعم أن قوماً ما قد وقفوا موقفاً أخلاقياً، أو أنهم تمسكوا بالأخلاق، أو أنهم كانوا أخلاقيين أكثر من سواهم.. ولكنني أعني بالأخلاق أو الأخلاقية هنا مجرد السلوك، أو الموقف، أو التعبير عن الذات استجابة للذات.

إنه يجب أن يكون هنا سؤال: إذا كانت الأخلاق مستحيلة.. إذا كانت ضد الإنسان والحياة، فكيف جاءت إذن النظريات الداعية إليها المادحة لها..؟

لقد كان المفروض حينئذٍ أن تقوم تعاليم البشر على النهي عن هذا المستحيل الضار، على المعاقبة عليه.. لقد كان المفروض حينئذٍ أن يدرس تحريم الأخلاق، أن توضع الكتب في ذم المستمسكين بها، والداعين إليها.. لقد كان المفروض أن يجيء أنبياء ليعلموا الناس الخروج على الأخلاق، ليفسروا لهم ما فيها من سوء وتعذيب، ليتحدثوا عن جزاء من يتركونها، أي من يتركون الأخلاق.

ولكن الجواب: إن النظريات والمثل الأخلاقية إنما كانت نوعاً من التمني. إن المفروض في الأماني أن تكون فوق الواقع، خارجة عنه، عليه..

نوع من الشعر

ولكن هنا ينهض سؤال: إذا كان جائزاً أن يتمنى الإنسان شيئاً مستحيلاً، فهل جائز أن يتمنى شيئاً ضاراً..؟

لعل الجواب أن هذا جائز أيضاً.. إننا جميعاً لم نزل نتمنى أشياء ضارة بنا، هذا معنى، ومعنى آخر هو: إن التمني هنا ليس في حقيقة التمني، ولكنه نوع من الاحتجاج على ما هو موجود، نوع من الضيق به، من إعلان التمرد الفكري عليه. إن البشر متعذبون من كونهم بلا أخلاق، إنهم يشعرون بذلك فيذهبون يتمنون أن يكونوا محكومين بالأخلاق، دون أن يفكروا في أنهم لو كانوا أخلاقيين لكان عذابهم أشد ووضعهم أسوأ. إن الإنسان لا يستطيع أن يرى صورته أو صورة المجتمع بكل حدودها وتشوهاتها.. إنه لا يستطيع أن يراها ولا يريد أن يراها.

إن هذا لا يعني سوى سخط على واقع قد جاء في صورة شوق إلى نقيضه الذي هو أبشع، وهذا لا يعني خطراً ولا شيئاً، لأن هذا النقيض الذي هو أسوأ لا يخشى من وجوده، لأنه لا يوجد. إن ذلك لا يعني أكثر مما تعنيه الأغاني الحزينة القانطة التي يغنيها ببكاء وحسرة يائس يتمنى مستحيلاً، يتمنى أن تفترسه الوحوش، أو أن يموت بأي أسلوب من أساليب الموت الرهيبة. إن جميع عقائدنا ونظرياتنا المثالية في كل العصور، لم تكن سوى سخط دائم ضد واقع، وسوى شوق دائم إلى مستحيل نشعر بالحنين والحاجة إليه، دون أن نتبين صورته أو حدوده كاملة.

إن الناس قد يتمنون غائباً هو أسوأ، فراراً من حاضر هو أقل سوءاً، لأنهم في العادة لا يعدلون في المقارنة بين الألم الموجود والألم الذي سوف يوجد؛ بل إنهم لا يقبلون مثل هذه المقارنة.. إن إحساسهم مركز على الحالة الموجودة دون الحالة المنتظرة؛ ولهذا فإن أكثر العقائد والمذاهب بقاء على الزمن، واستغواء للنفوس، هي أسخفها وأكثرها استحالة لأنها لا تتحول إلى واقع يجردها من سحرها، ويحولها إلى مشكلة تصنع الألم للمؤمنين بها المتعاملين عليها، دون أن تظل أملاً خلاباً.

إن الإنسان شاعر.. إنه يقول الشعر ويسمعه، ويغنيه ويحفظه. والشعر الذي يقوله ويغنيه، ويحفظه ويسمعه، لا يريد ولا يستطيع أن يحياه. إنه يقوله فقط، كما يقول الآيات المروية عن الكتب المقدسة وعن الأنبياء. ولو فرض عليه أن يحيا ما يقول لقاوم. والنظريات الأخلاقية هي نوع من الشعر الذي يقال لمجرد القول.

إن الإنسان حتماً محتاج إلى أن يتجاوز نفسه ووضعه. إنه لا يستطيع أن يعيش محبوساً داخل حدود ذاته وواقعه، وإلا لاختنق.. إنه دائماً أكبر من ذاته وواقعه.. إنه يتجاوز حدوده الذاتية والواقعية بالشعر والنظريات، والعقائد. والإنسان ليس كاذباً ولا ضالاً حينما يقول ما لا يستطيع أن يلتزم؛ كما أنه ليس كاذباً ولا ضالاً حينما يقول الشعر والأغاني، ويسمعها ويطرب لها دون أن يحياها.

إن الشعر والغناء، والعقائد والنظريات المستحيلة التطبيق، هي الجسور النفسية التي يعبر عليها البشر ذواتهم إلى غير ما شيء.. التي يعبرون عليها ذواتهم ووجودهم وكونهم البليد الأليم العقيم.. يعبرونها إلى الفضاء البعيد لتتحرك فيه آمالهم ونظرياتهم بلا حدود ولا حواجز، حتى تموت بكبرياء في هذا التيه النفسي المملوء بالأشباح، وبالأحزان، وبالدموع، وبالآلهة، وبالمعلمين المتعبين الصارخين في الظلام بلغات كل البداوة؛ بهذا التيه المملوء بالسحر وبالتهاويل.

إن خيالات البشر ومذاهبهم الكاذبة هي التعويض الطبيعي عن عجزهم الذي يعذبهم ويحاصرهم، كلما أرادوا أو تحركوا.

لقد حاول الإنسان أن يفك هذا الحصار عن نفسه بالكذب العقلي على حياته.. لقد عجز أن يكون كما يريد فراح يفكر كما يريد.

ما أسخف الحياة لو كنا لا نفكر ولا نعتقد إلا ما نفعله.. ما أقسى الحياة لو كنا لا نفكر ولا نعتقد إلا ما نستطيع، دون أن نفكر ونعتقد ما لا نستطيع.. ما أقسى الحياة وأسخفها حينئذٍ..

إن الإنسان عاجز أن يعرف، أن يعرف بالمنطق أو بغيره ما هو الأفضل أو الأصدق فيما يفعل من عقائد ونظم.. وإنه لا يبالي بألا يعرف. إن المعرفة لم تكن في أي وقت من الأوقات شرطاً

في حياة الإنسان، أو في رضاه عن نفسه، أو في سعادته، أو في دفاعه المتعصب البليد عما ل
من المعتقدات والنظم. إن الإنسان يعتقد ويقتنع بالأسلوب الذي يعادي به الآخرين ويشاتم
بالقانون الذي يهبط به الحجر الثقيل من أعلى إلى أسفل. ومع أن الإنسان يناقش المذاه
والنظريات بحماس وعصبية، ويؤيدها أو يعارضها بلغة يستعمل فيها العقل والأخلاق، فلي
للعقل ولا للأخلاق أي سلطان على تكوين عقائده أو اقتناعه بها، ولا على سلوكه النفسي. إ
البشر قد يخدعون أنفسهم، وقد يجهلون طبيعة سلوكهم، فيحسبون أنهم بمناقشاته
وحماسهم المنطقي؛ إنما يبحثون عن الصواب والعدل.. قد يحسبون أنهم خاضعون في كل ،
يقولون، ويعتقدون ويفصلون، للمنطق والأخلاق.. قد يحسبون أنهم لم يخالفوا الآخرين إ
احتراماً للعقل والحق، لا للمصادفات، أو الهوى، أو المصلحة، أو الخوف والإكراه.

وأخطر الأشياء على أي مجتمع أن يكون الناس فيه مخلصين لعقائدهم وأفكارهم. إ
الإخلاص ضد الحياة، والمجتمع، والنظام. إنه لهذا لم يوجد ولا يمكن أن يوجد مخلص واح
في أي عصر من العصور.

إن الذين يفعلون الصواب لا يفعلونه لأنهم يحترمون المنطق. إن الذين يفعلون الخطأ لا
يفعلونه لأنهم يحتقرون المنطق. ليست الحضارة أو الأخلاق أو فقدها منطقاً أو فقداً للمنطق،
ولكنها قدرة أو فقد للقدرة. ليس أعظم الناس إبداعاً وحضارة وأخلاقاً، هم أعظمهم منطقاً.

ولم يزل الناس مختلفين، وإنهم لا يزالون يزدادون اختلافاً مع أنهم يتناقشون ويحتكمون في
نقاشهم إلى العقل وإلى الأخلاق في جميع ما يختلفون فيه. إن الاحتكام إلى المنطق والأخلاق
لم يستطع أن يحسم أو يضعف الخلاف بينهم.

إنه لمظنون جداً، إن لم يكن محتوماً حتماً، أن هذا الخلاف قد يقل أو يضعف لولا
احتكامهم إلى المنطق.. لولا تراشقهم به.. لولا زعم كل منهم أنه إنما يخالف الآخرين ويعاديهم
احتراماً لأخلاقه، وموتاً في سبيلها. وقد كان محالاً دائماً أن يؤدي الصراع الحر بين الأفكار إلى
خير أو إلى أية أخلاقية. إنه لا يمكن أن يؤدي القتال الحر بين العقول إلى أي تقارب، أو اتفاق،
أو محبة، أو معرفة للحقيقة. ولو أن الناس عقدوا هدنة دائمة بين مذاهبهم وأخلاقهم، فلم
يدخلوها في أية صراعات أو مقارنات، لكانت الاحتمالات أكبر لرؤية الحق ولاحترامه،
وللالتقاء عنده، ولكي تهدأ أو تتصالح، أو تتصافح خصوماتهم، وتعصبهم لحماقاتهم
وأوهامهم، ولكي تشفى نفوسهم من جراحاتها.

إن المنطق لا يمكن أن يعطي حقيقة ولا سلاماً. بل إنه يمكن أن يعطي منطقاً. إن استعمال
المنطق لا يعطي منطقاً. إن كل أنواع السلام والحقائق التي نعيشها ونملكها اليوم، لم يصنعها

القتال بين الآراء؛ إنما صنعتها الحاجة، والعجز، والآلية، والقانون، والتكيف، والتجربة.

إننا حينما نشتبك في مناقشات ومبارزات جدلية، لا نستعمل في الحقيقة عقولنا، وإنما نستعمل أعصابنا وتوتراتنا.. إننا نستعمل أيدينا من بعيد. إن الذين يتقاتلون بعقولهم، إنما هم يتقاتلون بأيديهم التي أخفوها وراء كلماتهم. إن مشاعر المتقاتلين بعقولهم، هي نفس مشاعر المتقاتلين بأسلحتهم. ولو كنا نستعمل عقولنا لعرفنا أنه ليس من العقل أن نحاول الوصول إلى الصواب، أو إلى إقناع الآخرين. أو حسم الخلاف معهم، أو امتلاك إعجابهم وحبهم، بالهجوم بعقولنا على عقولهم.

ليس من العقل أن تدخل في معركة عقلية مع العقول الأخرى، لأن هذا لا يفيدك ولا يفيد مخالفيك ولا يفيد الحقيقة التي تزعم الغيرة عليها والدفاع عنها. فالاحتكام إلى المنطق في أي خلاف بينك وبين نفسك، وبينك وبين الآخرين هو نوع من القتال، ومن البحث عن العداوة والأعداء.. إنه ليس محاولة للاقتناع، أو للبحث عن الصواب أو الصداقة.. أنت لم تعرف أن هذا الاحتكام يؤدي إلى الصواب أو إلى الصداقة، ولم ترد أن يؤدي، ولم تفكر في ذلك. إن المناقشة المنطقية مع المخالفين هي استجابة سريعة للعاطفة، ليس فيها منطق أو حافز أخلاقي. إنه لا يمكن أن ينتصر الصواب على الخطأ أو العدل على الظلم بالقتال العقلي.

وليس صحيحاً تحت أي ظرف من الظروف، أن أية عقيدة أو دين أو نظام قد انتصر بقوة الاقناع أو الاقتناع المنطقي. إن المختلفين الذين يتعالجون من خلافاتهم بخوض المعارك المنطقية، هم كالذين يتشاتمون.. إن هؤلاء لا يفعلون أكثر من أن يطلقوا انفعالاتهم أو يعرضوا قوتهم، أو يدافعوا عن كبريائهم بأسلوب محنق بليد.. وحتى المخلصون في طلب الحقيقة لا يستطيع الحوار الحر بينهم، أن يخفف من خلافاتهم، أو يساعدهم على رؤية الله الموجود في حقيبة فريق دون فريق، أو في حقيبة كل فريق دون وجوده في حقيبة أي فريق.

إن الإخلاص للحقيقة يصنع التباعد والبغضاء بين الناس أكثر مما يصنع ذلك الاتباع للهوى. إن الناس مقبولون على نحو ما.. إنهم متعايشون ببعض السلام، وبعض الصداقة، لأنهم غير مخلصين للحقيقة، لأنهم مخلصون لأنفسهم وظروفهم؛ دون الإخلاص للحقيقة.. دون الاهتمام بالحقيقة.. دون التفكير في الحقيقة؛ بل خروجاً على الحقيقة.. على كل الحقيقة.

ما أبشع الوضع لو كان هذا الشيخ.. لو كان هذا المذهبي، مخلصاً للعقيدة التي يؤمن بها، يؤثرها على أهوائه واحتياجاته.

ما أفظع المؤمن المخلص لمذهبه، أو لدينه، أو لإلهه، أو لتعاليمه الأخلاقية..

ما أخطر الإخلاص.. إنه هدم، وعدوان، ووحشية، ووقاحة..

كن أيها الإنسان متبعاً لهواك لا لمذهبك؛ لئلا تكون عدواناً عالمياً..

أفكر، لأني أحيا

لقد كان الناس في جميع العصور يستعملون عقولهم، ولكن لا ليستقبلوا بها الحقائق أو العقول الأخرى، ولا ليصافحوها أو يجربوها؛ ولكن ليتحدوها، ليشتموها، ليقاوموها.

لقد كان العقل يواجه العقل بالأسلوب الذي يواجه السلاح به السلاح، والشعور الشعور، بنفس الحقد والغباء، والتعصب والخوف، والتخلي عن المنطق. إن المحارب بعقله يتخلى عن عقله حينما يحارب، كما يتخلى عن عقله المحارب بسلاحه. ولو أن العقول وحدها تواجهت بلا أي تدخل خارجي، لما كانت أشد تقارباً أو صداقة في أية معركة تتقاتل فيها. إنه قد يتفق الناس، وقد يتقاربون، وقد يظلون مختلفين متباعدين، ولكن ليس بفضيلة المنطق، ولا بمشورته ولا بسلاحه، لا حين الاتفاق ولا حين الاختلاف.

إن كل صاحب عقيدة ومذهب يقف عند عقيدته ومذهبه بغباء، بجنون، بتعصب، يحميهما ويبررهما بالمنطق الذي يحمي ويبرر به الآخرون مذاهبهم وعقائدهم الأخرى المضادة، بنفس الاقتناع والحماس والشهوة؛ بلا ذكاء، بلا تسامح، بلا تواضع. إن المنطق أداة ضرب، أداة خصومة.. إنه ليس أداة تفاهم.. إنه لا يدخل المعركة لحسابه هو.. إنه يدخلها لحساب يد تقبض عليه. إنك إذا استعملت منطقك ضد إنسان فأنت تريد أن تقتله أو تسبه أو تهزمه؛ ولست تريد أن تعلمه.. إنك حينئذٍ شاتم لا معلم.

إن البشر لا يعنيهم أن تكون مذاهبهم أو أربابهم أو أخلاقهم طيبة أو صادقة.. إن الذي يعنيهم أن تكون قادرة على إخضاعهم، أو تخويفهم، أو إذلالهم، أو إرضائهم عن أنفسهم، وتحويلهم إلى أعصاب متوترة، إلى ضحايا في معركة يرفضون أن يتناقشوا في شرعيتها.. إلى ضحايا في معركة يموتون فيها دون أن يفهموها، دون أن يقبلوا فهمها، دون أن يقبلوا من يحاولون فهمها.

إن الإنسان لا يفكر أو يناقش ليخلق حالة بل ليشرح حالة.. ليشرح حالة هو فيها أو هي فيه نفسه. إننا لا نستمع إلى من يفكر أو يناقش لنتعلم منه، أو لنفحص ما نسمع؛ ولكن لندافع عن حالة نحياها أو نتمناها أو نريدها. لهذا كان الكلام والمنطق مهما كان صحيحاً وقوياً لا يجدي، لا ينتفع به المفكر المتكلم، ولا ينتفع به السامع. إن المفكر والسامع محكومان معاً بحالة سابقة.. بحالة هي قبل الكلام والتفكير، ووراءهما، وأقوى منهما.. محكومان بالحالة التي تخلق الكلام والتفكير، وتدفع إليهما، وتحرض عليهما، ولا تخضع لهما.

أنا أفكر لأني أحيا، ولا أحيا لأني أفكر. إن أفكارنا هي دائماً تعبير عنا ولسنا تعبيراً عنها. الفكر عملنا ولسنا عمله. إن كل جهاز يصنع عمله، ولا يصنعه عمله.

إن الآلام قد تتحول إلى أفكار، ولكن الأفكار لا تتحول إلى آلام. قد أصبح مفكراً لأني متألم، ولكني لن أصبح متألماً لأني مفكر. قد تخلق الحالة النفسية حالة فكرية، والعكس لا يكون. قد يصبح التشاؤم تفكيراً. أما التفكير فلن يصبح تشاؤماً. إن هذا الإنسان متشائم وفيلسوف، ولكنه ليس متشائماً لأنه فيلسوف.. إذا تعذبت فقد تفكر، ولكنك لا تتعذب لأنك تفكر. إن الكلام والتفكير لا يخلقان حالة، ولا أحداً، ولا شيئاً.. إن الحالة التي تكون بعد الكلام والتفكير، ليست بسببهما؛ ولهذا فإنه لا يمكن إيجاد طراز موحد من البشر في أخلاقهم، وكل مستوياتهم، بإعطائهم طرازاً موحداً من الأفكار. إنه لو كانت الأفكار تصنع الناس لأمكن صنع أعظم الشعوب بإعطائها أعظم الأفكار. إن كثيراً من المفكرين يظنون بسذاجة بريئة أنه يمكن جعل الجماعات المتخلفة متقدمة بتلقينها أفكاراً متقدمة.

إن الشعوب العظيمة تبدع أفكاراً عظيمة، ولكن الأفكار العظيمة لا تبدع شعوباً عظيمة.. ولكن هل توجد أفكار عظيمة عند شعوب ليست عظيمة..؟

إن الناس لا يختلفون أو يتفاوتون لاختلاف وتفاوت أفكارهم، وإنما تختلف أفكارهم وتتفاوت لاختلافهم وتفاوتهم هم. إن اختلاف الأفكار وتفاوتها نتيجة لا سبب؛ حتى الأفكار والمذاهب الرديئة ليست مسؤولة عن المجتمعات الرديئة. إن منطق الناس يفسد لأنهم هم فاسدون.. إنهم لا يفسدون لأن منطقاً فاسداً يحرضهم على الفساد أو يبرر لهم ذلك. إن الناس لا ينتجون أفكاراً ومذاهب سيئة، إلا لأنهم محتاجون إلى أن يسلكا سلوكاً سيئاً، وإلا لأنهم هم سيئون. إن كل من احتاج إلى أن يكون في عمله رديئاً، فلا بد أن يحتاج إلى أن يكون في منطقه رديئاً. إن رداءة المنطق تابعة لرداءة العمل، لرداءة الذات، لرداءة الظروف.

وهؤلاء الذين يؤمنون بأبشع المذاهب والعقائد ويدافعون عنها، ليست المشكلة فيهم أنهم أغبياء أو جهال. إن المشكلة فيهم أنهم فاسدون، وأنهم يحيون في ظروف وأوضاع فاسدة. إن إصلاحهم أو إصلاح منطقهم، لا يكون بمناقشتهم بمنطق أصح وأقوى من منطقهم.

ما أضيع عمل من يحاولون أن يغيروا مجرى النهر، أو أن يغيروا أخلاق الإنسان بالتفكير أو المناقشة، أو بتلاوة الآيات والمدائح للأخلاق.

ليس في الكون أو الحياة شيء يحكمه المنطق، أو يفسره، أو يبرره حتى التفسير، ليس المنطق هو الذي يفسر الأشياء. إنه حتماً يحاول أن يفسر الأشياء، ولكنه مع ذلك ليس هو الذي يفسرها. إن تفسير المنطق للأشياء كتابع لا قائد. ليست حياة الإنسان وحدها هي التي لا منطق

له.. إن وجود الإنسان ومنطقه نفسه، لا منطق لهما.. إنه ليس هذا فقط، بل إن الإنسان ومنطقه، هما ضد المنطق، وليسا فقط بلا منطق.

لو كانت الحياة محتاجة إلى المنطق أو مسبوقة به، لكان المنطق أيضاً محتاجاً ومسبوقاً به؛ وإنه حينئذٍ لا يمكن أن يوجد أي منطق.. إذ كيف يمكن أن يوجد منطق قبل كل منطق..؟

إنه على هذا الافتراض يصبح محالاً أن توجد الحياة، أو يوجد أي شيء لأن وجود الأشياء في هذا التقدير، يكون مشروطاً ومسبوقاً بوجود شيء لا وجود له، وهو المنطق..

أريد أن أقول إذا كانت حياتنا محكومة بالمنطق، فمنطقنا محكوم بماذا، ومنطقنا جزء من حياتنا..؟

هل المنطق يتألف من الفراغ..؟

إذن؛ فالمنطق مسبوق حتماً بغير منطق.. فالمنطق غير منطق، لا في نشأته ولا في طبيعته ولا في أعماله. إن المنطق في كل حالاته وتفسيراته، ليس إلا ظاهرة وتفسيراً من ظواهر الحياة وتفسيراتها.. إنه ليس علة أو مبدأ للحياة. وكما وجد الإنسان بلا منطق، كما وجد ضد المنطق، فكذلك توجد نظمه وسلوكه ومنطقه؛ أي توجد بلا منطق وضد المنطق..

إنه لشيء مذهل: المنطق ليس منطقاً، بل وضد المنطق..

نعم، لأن المنطق هو تفسير الأشياء والتلاؤم معها.. والأشياء ليست منطقاً وضد المنطق.. إذن المنطق كذلك.

لقد كان الإنسان غير موجود، ثم أصبح موجوداً، ثم يصبح غير موجود.. فأية هذه الحالات هي المنطق..؟

إن كان وجوده منطقاً، فإن عدمه قبل أن يوجد، ثم موته بعد أن وجد، غير منطق. ولا يمكن أن نفترض وجوده وعدمه منطقين معاً. ولو كانا كذلك، لكان تعاقبهما غير منطق، وشيئاً لا معنى له؛ كما لا يمكن افتراض الشيء ونقيضه كذلك.

إنه في الوقت الذي يكون فيه الشيء منطقاً لا يكون نقيضه منطقاً، بل لا بد أن يكون أحدهما غير منطق.. أي أن الشيء ونقيضه، يجب أن يكون لكل منهما وقت يكون فيه منطقاً، على حسب تغير الظروف والحاجات؛ إن لم يكن بد من منطقية الأشياء.

ولكن لا يوجد وقتان بالنسبة للإنسان ولوجوده.. إن جميع الأوقات لا تعني إلا وقتاً واحداً في الحكم على الإنسان موجوداً أو معدوماً.. إن الوقت الذي يكون فيه موجوداً هو نفس الوقت الذي يكون فيه غير موجود من حيث الإمكان والاحتمال والملاءمة. إن الوقت الذي

يكون فيه غير موجود من حيث الإمكان والاحتمال والملاءمة. إن الوقت الذي يكون وجوده فيه منطقياً يساوي الوقت الذي يكون فيه عدمه منطقياً. فإذا استوى وجوده وعدمه من حيث الزمان والاحتمال، ومن حيث كل شيء، لم يحتمل أن يكون أحدهما منطقياً دون مثيله، ولم يحتمل كذلك أن يكون الوجود والعدم معاً منطقيين.

إنه لا يحتمل في أية صورة من صور المنطق أن يكون وجود الإنسان اليوم وفقده غداً، أو عدمه بالأمس ووجوده اليوم منطقياً. ولهذا فإنه لو وجد في وقت عدمه، وعدم في وقت وجوده، لما اختلف الأمر شيئاً.

إذا كان وجوده منطقاً فلماذا عدمه..؟

وإذا كان عدمه منطقاً فلماذا وجوده..؟

وإذا كان وجوده في وقت منطقاً، وعدمه في وقت آخر منطقاً، فلماذا أو ما الفرق بين وقت ووقت..؟

وعلى أي تفسير يحدد الوقتان ويختاران..؟

إذا كان الإنسان قد وجد منذ مليون عام، وكان وجوده في التاريخ المذكور منطقاً، فهل يكون وجوده غير منطق لو كان قد وجد منذ ثلاثة ملايين عام أو بعد ثلاثة ملايين عام..؟

ما هو المنطق في وجوده في أي تاريخ، دون وجوده في أي تاريخ آخر قبلاً أو بعداً..؟

إنه لا شيء ينافي المنطق مثل محاولة البحث عن المنطق في وجود الإنسان أو في حياته، أو في سلوكه، أو حتى في منطقه.

إن الذين يؤمنون بأن البشر موجودون بالمنطق، وأنهم بالمنطق يحيون، ويتصرفون، ويفكرون؛ ليخرجون من كل احتمالات المنطق حينما يظنون أنهم يحققونه.

منطقية الوباء

إن كل شيء يؤدي عمله بما يمكن أن يسمى غريزة الأشياء.

لقد اعتدنا القول بأن الحيوانات والحشرات تعيش حياتها، وتحافظ على نفسها، وعلى نوعها بالغريزة. ولقد كان من الصحيح أن نقول مثل هذا القول عن الإنسان، والنبات، والجماد. إن كل الأشياء تؤدي دورها بالغريزة العامة. إن النهر يتجمع ويسير في مجراه الذي يشقه بلا ذكاء أو تدبير.. إنه يعطي كل ذاته.. إن النبات والحجر يفعلان ذلك. وإن البشر يوجدون، ويحيون، ويريدون، ويتحركون، ويفكرون، ويختارون، أو يمارسون أساليب حياتهم، ومذاهبهم، وعقائدهم بنفس الأسلوب الذي يتصرف به الحيوان والحشرة. إن الفروق بين الإنسان وغيره

فروق ذاتية لا منطقية ولا أخلاقية؛ ولكن هذه الفروق الذاتية قد تحولت في إحدى صورها إلى فروق منطقية وأخلاقية، كما أن الفروق بين الحيوان والحشرات، والنباتات والأشياء فروق ذاتية أيضاً، لا منطقية. إن الفروق المنطقية ليست إلا فروقاً ذاتية.. إن بعض الحيوان والنبات والجماد أعظم جداً من بعضه الآخر، ولكن ليس بالمنطق.

إن الإنسان كذلك أعظم جداً من كل ما سواه، ولكن ليس بالمنطق أيضاً.. حتى الفروق بين البشر، هي في الحقيقة فروق ذاتية لا منطقية. والفروق المنطقية هي فقط تعبير عن الفروق الذاتية.. إن شجاعة، وذكاء، ودهاء فصائل معينة من الحيوانات ليس منطقاً، بل غريزة. إن مثله براعة البشر، وحيلهم، وذكاؤهم، وحضارتهم.

ليس القول بأن الإنسان منطقي، إلا كالقول بأن الفيضان أو الوباء منطقي. إن الفيضان والوباء يؤديان ذاتيهما دون أن يحملا أية رسالة لأي مجتمع من النجوم، أو الآلهة، أو من الكائنات الخفية؛ وإن مثلهما البشر.. فأي منطق في الإنسان، أو في الوباء، أو الفيضان..؟

إن في حياة البشر منطقاً؛ ولكن حياتهم ليست قائمة على المنطق. إن فيهم ذكاء، ولكن ذكاءهم ليس له منطق.. إنه لم يبدعه المنطق، كما لا يوجهه المنطق. إن لهم حضارة، غير أن حضارتهم غريزية لا منطقية.. إن لهم أخلاقاً، ولكنها بلا أخلاقية.

إنه إذا كان غباؤهم ليس قائماً على المنطق، وليس له مبرر منطقي، فكذلك ذكاؤهم.. إنهم يصابون بالذكاء والغباء، وبالحضارة والتخلف، كما يصابون بالطول والقصر، والصحة والمرض، وبالعقد النفسية.. إنهم يحيون عبقريتهم كما يحيون آلامهم ونقائصهم.

ولو أن أية حشرة قارضة، أو زهرة صحراوية، استطاعت أن تتحدث عن نفسها كما نستطيع نحن البشر، لوجدت ما تقوله في الثناء على نفسها، وعلى منطقها، وعلى أخلاقها؛ أكثر مما وجدنا، ولألفت أضخم الكتب للتدليل على ما في وجودها، وحياتها، وسلوكها، من براعة منطقية هي أعلى ما في تاريخ الآلهة من ذكاء وفضيلة، ولذهبت حينئذٍ تزعم أكبر المزاعم، لذهبت تزعم أنها لا تتحرك، ولا تتناسل، ولا تنمو، ولا تقرض ملابس الناس، أو تفسد مزروعاتهم، أو تأكل غذاءهم إلا بأقوى وأصدق أساليب المنطق.. إلا بأخلاقية هي أفضل من أخلاقية البشر. وقد ينزل الوحي عليها حينئذٍ ليثني على منطقها أو أخلاقها كما نزل على الناس.. وقد يبعث إليها كذلك الأنبياء كما بعثوا إلى الناس. إن الأنبياء لم يبعثوا إلى الناس.. إن الوحي لم ينزل عليهم لأنهم أفضل من الكائنات الأخرى؛ بل لأنهم أجرأ وأقدر على الادعاء وعلى الكذب باسم الكائنات البعيدة الصامتة.

إنه قد يكون من الصواب التفريق بين المنطق والتفكير.. إنه قد يمكن القول بأن الإنسان

مفكر، وليس منطقياً. فالبشر قد يفكرون، وقد يستعملون التفكير ويستعينون به في تصرفاتهم، كما يستعملون الخداع والدهاء ويستعينون بهما؛ ولكنهم يفعلون كل ذلك بلا منطق، لأن التفكير ليس منطقاً، بل إنه مضاد له.

وقد وضع الإنسان المنطق لا ليعيشه أو ليتعامل به، ولا لأنه وجده رغبة أو حاجة أو ضرورة في نفسه أو في عقائده، أو في نظمه وأوضاعه. إنه لا يمكن لأية عقيدة، أو مذهب، أو نظام، أو مجتمع، أو إنسان أن يحيا بالمنطق. إن المنطق ينافي أن يوجد الشيء.. إنه ينافي أن يمارس نفسه، أو يحياها، أو يستمسك بها. إذ لماذا يفعل ذلك..؟ إن المنطق يجب أن يفسر ولكن لا تفسير هنا. وليست القضية هي فقط أن الإنسان ضد المنطق، بل وأن المنطق ضد الإنسان، وضد نشاطاته الفكرية والنفسية والحضارية.. إنه لا يمكن أن تشاد أية حضارة في أي مجتمع يخضع للمنطق، لو كان ممكناً أن يخضع للمنطق. إن الذي يخضع للمنطق لا بد أن يموت حتماً، وبلا أي عزاء، أو بطولة.

ونستمتع بالهوان

إن كل الشعوب لا تحيا ولا تتقدم إلا بقدر ما تخرج على المنطق، أو إلا لأنها خارجة على المنطق.

لقد وضع البشر المنطق كما وضعوا اللغة، إن اللغة حديث عن الأشياء فقط، حديث إنساني، حديث عن الأشياء كما هي، وعما هي. والمنطق كذلك حديث لا حياة، ولا أخلاق، ولا تفكير، ولا ضرورة. إنه حديث فقط.

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون منطقياً، ولا أخلاقياً، ولا متديناً؛ مهما عبد الآلهة وفعل الفضائل وصاغ الأساليب المنطقية.. إنه يحيا فقط. إن جميع ما يعد ظواهر دينية أو أخلاقية أو منطقية، ليس إلا أسلوباً في الحياة. إنه لا تخضع حياة الإنسان للتدين أو الأخلاق أو المنطق، إلا بمقدار ما تخضع لذلك نبضات قلبه، وعمليات الهضم، ووظائف الجنس فيه.

إنه يوجد نوعان من المنطق في أي تصور يبحث عن الاحتمالات المنطقية. إن الشيء كما هو، منطق طبيعي. إن الحكم على الشيء كما هو، منطق إنساني. إذن فما يسمى بالمنطق، هو إما الشيء كما هو، وإما الحكم عن الشيء كما هو. إن معنى هذا أن المنطق هو الوجود كيفما كان، أو رؤية هذا الوجود كذلك. إنه لا فرق بين المنطق والوجود.

وإذا كان كل وجود منطقاً، فلا منطق هناك، ولكن هناك وجود أو لا وجود.

ومهما اقتنعنا بألا منطق في وجودنا، وبعبث عبقريتنا، وعبث ما حولنا من الأشياء؛ فإن اقتناعنا هذا لن يوهن من إرادتنا لأنفسنا، ولما في وجودنا من تفاهة وإذلال، كما لن يوهن من

دفاعنا عنه، واستمساكنا به، إننا لم نرد أنفسنا أو نمارسها بالمنطق.. إذن، كيف نكرهها أو نرفضها بالمنطق، أو احتراماً للمنطق..؟

إن أسوأ أخلاق الحياة أننا لا نستطيع أن نكره ما نحتقر، أو أن نرفض ما نخجل منه، وما نرسل الأنبياء وننزل الكتب لذمه.

إننا نريد ما ننكر، وندافع عما نحتقر، ونستمتع بالهوان الذي نتعلم الذم له، بجبرية كجبرية الموت، ونزق كنزق القدر، وغباء كغباء الطبيعة، وهوان كهوان الشيخوخة.

إننا عاجزون عن أن نوجد حالة توافق أو تقارب بين منطقنا واقتناعنا.. بين إرادتنا وتصرفنا. بل إننا لسنا محتاجين ولا نشعر أننا محتاجون إلى هذه الحالة من التوافق. ولهذا فإننا مهما اختلفنا في تفسيرنا للحياة، في إيماننا بعبثها أو بحكمتها، بتفاهتها أو عظمتها؛ لا نختلف في شدة رغبتنا فيها وفي الخضوع لالتزاماتها المهينة. إن جميع الناس مسخرون لإرادة الحياة، وللعمل فيها بلا كرامة، ولا فهم، ولا شرف، ولا ثواب.

إن أشد الفلاسفة احتقاراً للعالم، ولما فيه من آلهة، وعظماء، وشهوات، لا يقل في استمساكه بالحياة وقبوله للهوان فيها، عن أبسط الناس وأقواهم إيماناً بحكمة الكون، وثقة بأربابه الذين صنعوه، ووضعوا فيه جميع أسرارهم وذكائهم ورحمتهم.

إن استمرار بقاء النوع الإنساني في هذا العالم دون أن ينتحر انتحاراً عالمياً، مشروط دائماً بألا يكون البشر خاضعين للمنطق. إنهم لو خضعوا للمنطق لما وجد أي احتمال لبقائهم. ولكن هل يوجد أي احتمال لخضوعهم للمنطق..؟

إن الإنسان لا يستأذن منطقه أو أخلاقه لكي يحب نفسه. إنه لا يوجد من يحبون أو يبغضون بالمنطق، أو بالأخلاق. كلنا نحب أنفسنا بالإكراه، كلنا نصر على التمسك بوجودنا حتى ولو لم نحبه. إن الوجود لا يحتاج إلى أية مبررات ليكون مشروعاً أو مفروضاً. إن كل وجود يبرر نفسه.. إن مبرر كل شيء هو وجوده لا فضائله، ولا أسبابه، أو غاياته. إن الناس يبررون أنفسهم لأنهم موجودون لا لأن لهم مبررات معقولة. بل إن الشيء لكي يعيش وجوده لا يحتاج إلى مبرر، حتى ولا من نفسه. إن وجود الشيء هو مبرره.

المنطق تصور إنساني

ولكن ما هو المنطق الذي نتحدث عنه منفياً ومثبتاً..؟

إن المنطق في جميع حالاته هو الإنسان.. إنه لا وجود له بدون الإنسان لا منفياً ولا مثبتاً. فالكون وكل الأشياء من غير الإنسان كتلة من المادة والحركة لا تعني شيئاً، واحتياجات البشر

وعلاقاتهم، ومصالحهم ومسراتهم، هي التي تحول هذه الكتلة إلى منطق أو إلى نفي للمنطق. فالمنطق وعدم المنطق هما إحساس إنساني أو اجتماعي. لهذا كان المنطق دائماً مختلفاً، ومتناقضاً، ومتطوراً، لتناقض الظروف والمجتمعات واختلافهما. إن هذا التناقض يصنع تناقض الأحاسيس والأفكار واختلافاتها. فإذا قيل: هذا منطقي أو غير منطقي، كان المعنى: هذا ملائم أو غير ملائم، أو هذا نريده وهذا لا نريده.

ولكن ما معنى هذا..؟

أليس معناه أن حكمنا على الكون أو على الإنسان بأنه غير منطقي، لا يعني إلا أن وجود الكون أو وجود الإنسان لا يلائمنا، أو أننا نظن ذلك. لهذا فإنه إذا لاءمنا أو حسبنا أنه كذلك أثبتنا له المنطق..؟ وإذن، فلعل وجود الكون والإنسان منطقي. ولعل كل ما فيهما كذلك مهما رأينا النقيض، لأن حالتنا النفسية والفكرية ليست هي المقياس الشامل الوحيد لجميع الأشياء، إنها ليست مقياساً البتة لأي شيء.

إنه لا بد أن تكون هذه الملاحظة غير صحيحة، لأن المنطق تصور إنساني، وافتراض التصور الإنساني بدون الإنسان كيف يمكن أن يكون..؟

إن المنطق كاللغة، والديانة، والقانون، والدولة، والعدالة؛ لا يمكن وجودها بغير الإنسان أو بغير من هو في مستواه، أو أعلى منه، أو من هو قريب منه.

إن كل شيء في هذا الكون لو استطاع أن يتحول إلى رأي كالإنسان؛ لرأى أن كل الأشياء لا منطق لها، لنفس السبب الذي رأى به الإنسان العالم كذلك.

إنه لو كان للنباتات، أو للحشرات، أو الجمادات تفكير وأحاسيس وآلام، لحكمت بألا منطق لأي شيء. إنها سوف ترى حينئذٍ كما رأى البشر ـ في أعلى رؤيتهم ـ أن وجودها ووجود كل الموجودات لا يعني شيئاً، ولا يحقق أي هدف عقلي أو أخلاقي لأحد، أو لأي شيء في هذا الكون، وأنه لا عدل في شيء منه، وأنه لا يتلاءم مع احتياجاتها ومصالحها، وأنه خطأ منطقي أليم، ليس فيه أية ظواهر أو احتمالات منطقية أو أخلاقية.

إن الآلهة نفسها لو تحولت إلى متلائمة ومتألمة ومفكرة مثل الإنسان، لكان محتوماً أن تجد في وجودها ووجود جميع الكائنات الأخرى من منافاة المنطق والخروج عليه، مثلما وجد الإنسان.. ولكان محتوماً أن تحكم على وجودها ووجود كل الأشياء نفس الحكم الذي حكم به الإنسان على وجوده ووجود ما حوله. ولكنها بدون أن تكون متلائمة، متألمة، متلذذة مفكرة، لا يحتمل أن تثبت المنطق ولا أن تنفيه. إنها في الحالة الأولى تنفي المنطق، وإنها في الحالة الثانية لا تنفيه ولا تثبته. إذن فالمنطق إما منفيّ أو لا منفي ولا مثبت.

إن الذين يتعاملون مع الكون ومع أنفسهم بالتفكير والتلاؤم، واللذة والألم، سينكرون على الأشياء زعمها منطقية.. إنهم لن يجدوا فيها هذا المنطق إذا التمسوه مهما آمنوا به. أما الذين لا يستطيعون أن يفكروا ويتلاءموا ويشعروا باللذة والألم، فلن يحكموا على الأشياء أي حكم، لا بوجود المنطق ولا بنفيه.

إن الإنسان هو الذي أثبت المنطق، وإنه هو الذي ينفيه.. إنه هو الذي يستطيع ذلك، وإنه هو الذي له أن يفعله. إنه لا أحد سواه له هذا الحق إلا من كان في مستواه أو أعلى منه، وهذا الذي هو في مستواه أو أعلى منه إذا وجد، سوف ينكر المنطق كما أنكره الإنسان، وللأسباب نفسها.

إن الكون لم يزعم لنفسه أي مزعم.. إنه لم يزعم أنه قائم بالمنطق، أو أنه قد وجد به، أو أنه هدف أعلى من أهداف الآلهة أو أهداف أي تفكير، ولكن الإنسان هو الذي زعم له ذلك، فإذا رأى أن ينكره عليه، كان ذلك من حقه الذي لا يجوز أن ينازع عليه. إن الإنسان هو الواهب المسترد لما وهب.. إنه هو المخطئ المصحح لخطئه.. إن الكون مستسلم صابر.. إنه لا يحس بالخطأ أو الصواب، لا بمن يعبده ولا بمن يلعنه.

إن معنى القضية هنا أن الإنسان ينقض الإنسان أو ينقده. إن البشر دائماً يناضلون ضد عقائد وأفكار وغرور فيهم هم، لا في الكون.. إنهم هم الذين يقاومون أنفسهم، ويضلونها، ويفرضون عليها هذه العقائد، والأفكار، والغرور.. إنهم هم الذين يضربون على أفكارها ووجدانها القيود والتخلف والغباء.

منذ وجد الإنسان وهو يحارب نفسه وحياته بكل الأسلحة.. إنه يحاربها بالنظم، والأديان، والفلسفات، والتقاليد، والدعاة، وبالجيوش الكبيرة.. إنه يريد أن يفرض عليها وضعاً، أو أن يبقيها في وضع. كانت المعتقدات، والنظم، والأخلاق في جميع العصور نوعاً من حمل السلاح ضد النفس، أو من دفاع الذات عن الذات بالهجوم على الذات. أما الكون فهو لا يحارب أحداً ولا يضله.. إنه لا يصنع أوهام الناس، ولا غباواتهم، ولا غرورهم.. إنه لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء.. إنه يعطي نفسه لكل الممارسين له، العاشقين فيه بلا سخاء أو شح، بلا ذكاء أو غباء، بلا صدقة أو عداوة، بلا محاباة أو عدل.

لقد كان موقف البشر من أنفسهم ومن الكون دائماً مختلفاً. لقد كان موقفهم من أنفسهم موقف النضال.. إنهم يناضلون ضدها بحثاً عنها؛ أما الكون فلا يناضلون ضده إذا اخترنا التعبير الأكثر دقة، ولكن يناضلون فيه، لأن الكون لا يقيم حول نفسه الجيوش والمذاهب، والعقائد والنظريات، كقوات للمقاومة أو الهجوم، كما يقيم الإنسان حول نفسه ضد نفسه لحمايتها

تخلفه، وغبائه، وفساده، وما هو فيه من مظالم وشرور. لقد كان الإنسان في كل تاريخه يحارب نفسه بالمعتقدات والمذاهب والأخلاق، كما كان يحاربها بالجيوش، وكان الهدف في الحربين واحداً.

إنه لم تكن أديان البشر وأفكارهم وآلهتهم تعبيراً عن خوفهم من الكون وعن محاولتهم لتفسيره والتناسق معه؛ بل لقد كان تعبيراً عن خوفهم من أنفسهم، وعن محاولتهم لتفسيرها والتناسق معها. إن الذي يرى تدبيراً عقلياً في الكون أو في الإنسان أو في الآلام التي تصيب الإنسان، هو كالذي يرى أشباحاً غيبية في الظلام.. إن كليهما إنما يفسر نفسه ويعبر عن خوفه منها لا مما حوله.

إن الكون والإنسان ليس فيهما أي تدبير عقلي.. إنه ليس فيهما أية أشباح غيبية، ولكن الإنسان يرى هذا وهذه في نفسه لا في الكون. إن مخاوف الإنسان وعقائده وأشباحه في ذاته لا خارجها. إن اختلاف الناس في الآراء والمعتقدات لا يعني اختلافهم في تفسيرهم للكون، وإنما يعني اختلافهم في تفسيرهم لأنفسهم.

إن الكون لايحمل الإلزام بأية عقيدة.. إنه ليس فيه أوامر أية شريعة، كما أنه لا يملي أي نظام أو يفرض أية صورة من صور الحياة؛ ومع هذا فقد استخرج الناس من الكون جميع العقائد والنظم المتناقضة. إن الناس يصنعون عقائدهم وألوان حياتهم بقدر ما يريدون أو يستطيعون، لا بقدر ما يكلمهم الكون، ولا بقدر ما يعلمهم أو يأمرهم الكون، ولا بقدر ما يحتمل أو يستطاع.. فالكون صمت مطلق، صمت دائم.

إنه لا يتكلم، لا ضد نفسه ولا معها، لا ضد البشر ولا معهم، إنه لا يعلم، إنه لا يعلم أحداً.. إنه لا يعلم الآلهة، ولا المذاهب، ولا الأخلاق.. إنه لا يعلم شيئاً، إنه لا يعلم أحداً.. إنه صمت دائم رهيب، إنه صمت بليد..

إن الأرباب والعقائد والأوهام في كل عصر، هي حصيلة تصادم الذات بالذات.. إنها صراع الإنسان ضد نفسه، إنها تفسيره لها. إن شعوراً يتحول إلى إله وعقيدة وموقف نفسي، وإن شعوراً آخر يتحول إلى خوف وعبادة لهذا الخوف. إن القصة إذن، هي أن الشعور يعبد الشعور.. إن القصة إذن، هي أن الخائف هو صانع الخطر، وأن الإله هو المؤمن، وأن العاشق هو الصانع للفتنة.

والبشر هم دائماً الذين يعكسون على الكون أسراره ومنطقه، وهيبته وفضيلته. والكون لا يفعل إلا أن يصمت وينظر ببلاهة، ببلاهة، ببلاهة، والإنسان يتعذب، بهذا الصمت وبهذه البلاهة.. إنه يتعذب، يتعذب.

أما الآلهة فتحتجب وراء صمت الكون وبلاهته، بأسوار عالية هائلة من الحواجز، والشعارات، والنبوات؛ بل ومن الصمت.. من صمت الأرباب.

ما أقسى صمت الأرباب.. ما أثقل صمت الأرباب.. ما أطول صمت الأرباب.

أيتها الأرباب.

إن صمتك طويل.. إن صمتك ثقيل..

أيتها الأرباب

إنك لا تستطيعين أن تتداوي من صمتك.. إن أحداً لا يستطيع أن يشفيك من داء صمتك.. إن صمتك مطلق.. إن صمتك دائم أيتها الأرباب.. إن صمتك يعذبني، يعذبني.. إنه يعذبني.

منطق الكون ومنطق الإنسان

إذا قال الناس إنهم يحترمون المنطق أو يبحثون عنه، فالمعنى أنهم يحترمون ما يريدون، ويبحثون عن هذا المعنى الذي يريدون..

وإذا أنكرت على إنسان خروجه على المنطق، فأنت في الواقع تنكر عليه خروجه على عقائدك ومسلماتك.. أي إنك تنكر عليه خروجه عليك..

وإذا طلبت من الآخرين أن يكونوا منطقيين، كنت تعني أن يكونوا متلائمين معك، متبعين لك، مسلمين برأيك ولموقفك..

إننا لا نولد منطقيين، ولا نولد وفينا شوق إلى المنطق، ولكننا نتعلم المنطق بالضرورة والالتزام، كما نتعلم اللغة والصلاة، والكتابة وملاحظة الأشياء، وتوقي السقوط في الحفر..

*

حركة الشيء منطقه

منطق الإنسان هو محاولة تلاؤم..

إن الإنسان يجيء إلى هذا الكون متروكاً إلى نفسه بلا أية رعاية أو عطف، وفي صميم تكوينه احتياجات وإرادات ضاجة معبرة، وبينه وبين عالمه الذي هو مجال احتياجاته وإراداته تناقضات أليمة حادة. فيذهب يحاول التلاؤم مع الأشياء المحيطة به.. يحاول التعامل معها.. إنه بهذا يكون مفروضاً عليه أن يدرس ويفهم أخلاق وسلوك هذه الأشياء.. أن يدرس ويفهم أخلاق وسلوك الكون ليستطيع التعامل معه..

وبالتتابع المستمر يتكون له منطق ويتكامل هذا المنطق.

إن منطق الإنسان إذن، هو محاولته فهم الكون ليتلاءم معه. إن معنى هذا أنه لا يوجد منطق

لذاته أو في ذاته.. إنه لا يوجد منطق مستقل؛ أي إن الإنسان ليس له منطق كإنسان، وإنما له منطق لأنه كائن متلائم. ومعنى هذا أيضاً أنه لو كان الكون محكوماً بقوانين أخرى، أو لو كان الإنسان يعيش في عالم آخر يختلف عن هذا العالم لاختلف منطق الإنسان، وكذلك لو وجدت قوانين كونية مناقضة للقوانين الموجودة لبدت أيضاً معقولة.

أما منطق الكون فهو كينونته كما هو؛ إن حركة الشيء هي منطقه..

إن الزلازل والفيضان، والتصادم والوباء، والقحط والموت، إن كل ذلك وأبشع من ذلك أسلوب مثالي من أساليب المنطق الكوني.. إنه منطق مثالي كالمطر، كالصحة، كالحياة، كشروق الشمس، كابتسام الأطفال..

إن الكون بحقائقه الكبرى يشبه كتاباً ضخماً أليماً اشترك في تأليفه كل الأبالسة وكل الملائكة، ووضعوا فيه جميع القوانين الطيبة والشريرة، أي المؤلمة والمريحة.. إنها قوانين متحددة في ذاتها، غير متحددة في تفسيرها؛ بل ليس لها تفسير.. إنها موجودة فقط.. إنها تفهم ولكنها لا تبرر.. إنها تفهم لأنها موجودة لا لأنها معقولة. إن البشر يبررون الكون والأشياء لتعلق إرادتهم بها.. إن إرادتهم تتعلق بها لأنها موجودة، ولأنهم موجودون؛ ولكن أي مبرر لوجودها، لوجودهم..؟

إن الفرق بين الكون والكتاب هو الفرق بين الموجود والموضوع، هو الفرق بين منطق الكون ومنطق الإنسان.

إن كل شيء في هذا الوجود، حتى هذا القلم والحبر والورق، خاضع لوحدة قانونية تحتوي كل أجزائه كما يحتوي القانون العلمي والرياضي أجزاء القانون كلها.. أي كما يحتوي الشيء نفسه.

إنه إذا كان الشيء يوجد ويبقى ويزول بقانون، أمكن التحكم في ذلك الشيء باتباع قوانينه والتحكم فيها.. إن الذي يوجد بقانون يمكن امتلاكه والتحكم فيه بقانون أيضاً.. إن تلك القوانين يمكن إيجادها صناعياً ما دامت مستقرة في الطبيعة الموجودة، ما دامت توجد هي بتحركات وعمليات ذاتية.. إنه غير ممكن أن توجد القوانين الموجدة للشيء، ثم لا يوجد ذلك الشيء.

إنه بنفس هذا الأسلوب القانوني، سيكون ممكناً حتماً معرفة القوانين التي بها توجد الحياة - حياة الحيوان والنبات - ومعرفة أدق العمليات والتفاعلات التي بها يتوالد الحي عن الميت، وتكوين الكائن الحي من نواة الحياة الموجودة، ثم تقليد تلك القوانين.

إنه بهذا الأسلوب نفسه، ستحل مشكلة الموت والشيخوخة، وجميع المشكلات العظمى

كالعروج إلى أطراف الكون الأعلى، والسيطرة عليه، وعلى كل طاقاته، وكل ما تتطلع إليه حاجات الإنسان وطموحه..

إنه لا يستطاع إنكار شيء من هذا إلا بإنكار القانونية الذاتية في هذا الوجود أي إلا بإنكار منطقية الوجود. إن هذا لا يمكن لأن القانونية العلمية على اختلافها إنما أخذت من الوجود نفسه؛ فالقوانين العلمية ليست سوى قوانين كونية قد صيغت في كلمات.. أي إن قوانين الكون، أي منطقه، قد تحولت إلى منطق إنساني.. أي إن الإنسان قد صاغ منطقه العلمي - دون منطقه الأخلاقي - من الكون. ومع هذا فإن القوانين الكونية ليست قوانين علمية، وليست كذلك قوانين أدبية. بل قوانين كونية فقط.. فالعالم كله وجميع أنواع المعرفة مأخوذة من الكون؛ ولكن الكون ليس مأخوذاً عن شيء، إذ نحن على مقاس الكون، والكون ليس على أي مقاس.

إنه محتوم وجود أول ليس له أول، والأول بلا أول ليس مأخوذاً عن شيء ولا يمكن أن يكون علمياً أو أخلاقياً، فالشيء العلمي والأخلاقي هو الذي يجيء على مقاس..

وإذا كانت قانونية الكون حقيقة، وكان لمعرفة هذه الحقيقة طريق، فإن هذا الطريق وهذه الحقيقة لن يكونا فوق الفهم والتفسير. فمنطق الإنسان يفسر منطق الكون ويحكمه، أي أن الكون في أعلى مستوياته يحكم الكون ويفسره في كل مستوياته.

ولا فرق بين صنع هذا القلم وصنع كوكب يطلق ليسير بين المجموعات الكونية الهائلة الهائمة، حيث إن كلاً خاضع لقوانين محتومة.

إن معنى الوحدة القانونية معنى كبير، فمعنى هذه الوحدة أن معرفة قوانين إحدى وحدات هذا الكون والسيطرة عليها، تعطي الفكرة نفسها عن سائر الوحدات الأخرى المماثلة. وهذا يعني أن سيطرة العلم الإنساني على جزء من العالم مشترك الأجزاء في طبيعته وقوانينه ومنطقه، تنتهي به إلى السيطرة الكبرى على جميع الأجزاء المتحدة في ذلك، وهذا هو ما انتهت إليه التجربة العلمية. فإن الخطوة العلمية الواحدة تختصر الطريق كله إلى وحدات المعارف المجهولة. ومعرفتنا لطبيعة كوكبنا الأرضي هي معرفة لطبيعة الكواكب الأخرى المماثلة، كما أن دراسة قلب أي إنسان طبيعي، هي دراسة لجميع قلوب البشر المماثلين له في الطبيعة. ولهذا فإن العلوم كلما تقدمت ازدادت طاقتها الإنتاجية من وحدات المعرفة.

كيف لو كان لكل قطعة في الكون قانون خاص، ولكل قلب طبيعة ومرض وعلاج خاص..؟

لا حدود للفكر

إن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يتوقف أو يفرغ من عملياته.. إنه مفروض عليه أن يعاني ويتعذب، موغلاً في رحلة هائمة دائمة في كون متوحش لا يمكن الفراغ منه ولا الفرار.. في كون لا تطاق رؤيته، ولا يستطاع الكف عن رؤيته.. في كون لا يمكن فهمه، ولا التخلي عن محاولة فهمه.

إن وظيفة المنطق الإنساني أن يتتبع القوانين الكونية ليصيرها قوانين علمية، ومقدمات لنتائج. وهل يأتي عليه وقت يفرغ فيه من معرفة هذه القوانين وإخضاعها..؟

إنه لا توجد منطقة من مناطق الكون محرمة على منطق الإنسان؛ لأنه لا توجد منطقة من هذا الوجود لا تحكمها القوانين التي هي من تصنيف منطق الإنسان وتفاسيره..

إن كل شيء لا بد أن يكون موضوعاً من موضوعات العقل.. إن للعين أن تبصر، وللأذن أن تسمع كل ما يمكن أن يرى وأن يسمع، بلا منع ولا محاسبة أو رقابة.. كذلك للفكر أن يعمل بكل قدرته وطبيعته على هذا المستوى..

ليس من الأشياء ما هو فوق العقل أو ما هو خارج على سلطانه.. إنه لا فرق بين شيء وشيء من مكان الفكر منهما؛ فهو إما صالح لكل شيء أو ليس صالحاً لشيء.. إن طبيعة الفكر - من حيث هو فكر - تنفي التحديد لأن وظيفة العقل لا تقبل التحدد.. إن الحد لا يوضع إلا للأمر المحدد؛ أما المطلق في وجوده أو في عمله، فما من حد يفترض له إلا كان لغواً ومحالاً. إن العقل مثل سائر الوجدانات الإنسانية الكبرى، لا يمكن تحديدها، كالحب والبغض، والخيال والشعور، وأشباه ذلك.. إن عمل العقل ليس جريمة أو غير جريمة.. إن عمله كعمل العين، كعمل الأذن..

هل تكون العين أو الأذن كافرة، أو معتدية، إذا نظرت أو سمعت كل شيء، أي شيء، بكل قوتها..؟

هل تكون كافرة أو مخطئة، إذا لم ترَ، أو تسمع شيئاً، أو شيئاً معيناً..؟

إن جميع المفكرين المؤمنين، يرون أن الفكرة التي يجدونها مبثوثة في هذا الوجود هي أعظم البراهين، إنها هي وحدها البرهان الدال على وجود الخالق المفكر المدبر لخلقه بالفكر والمنطق الأزلي.. إنهم يرون أن الكون إنما وجد وانتظم وبقي بالفكرة.. وأنه بها أيضاً يبقى، وينتظم، ويغير، ويعدل، أبد الآباد.. إنهم يعتقدون بهذا أن الفكرة سابقة الوجود، لأن الوجود قد كان بها، ولم تكن هي به. وإذا كان هذا حقاً أصبح محتوماً أن الفكر هو أبو الوجود.. إنه عنه انبثق وبه قام، وهو المهيمن عليه، الفاعل له.. فلا شيء إذن فوقه، ولا شيء إذن محرم عليه.

إنه ليس في طبيعة الفكر أن يهاب أية مشكلة، أو أن تحرم عليه أية منطقة من مناطق الكون أو الحياة. إن معنى هذا أيضاً أن الفكر الإنساني يستطيع أن يعلم كل المعاني والأفكار الموضوعة في أجزاء العالم، والقوانين التي صاغته، والتي صاغها؛ لأن الفكر هو الذي علم بوجودها فحكم بها. ولا يوجد مؤمن واحد يستطيع أن ينفي أن الله إنما خلق العالم بالفكر.. بالفكر الذي عمله التصادم بالأشياء، الذي عمله رؤيتها، والغضب عليها، واكتشاف عاهاتها وذنوبها.

ولكن غير المؤمنين ينكرون الفكرة الكونية.. إنهم يدعون أن ما نشهده في آحاد الطبيعة مما نزعمه فكرة مقصودة ليس كذلك، ولكن المسألة حدثت على النحو الآتي:

وجد الكون تحت ظروفه الخاصة الاضطرارية التي لا قصد فيها ولا عقل.. ثم وجدنا نحن البشر كذلك، لأننا وحدات من الوجود تجمعت على صور معينة، تحت ظروف معينة اضطرارية أيضاً، لا خيار فيها ولا تدبير.. ثم أدركنا متأخرين وبعد عناء طويل أن كل شيء مسوق بقوانين ذاتية لا حيلة فيها، وأن هذه القوانين ثابتة في عملياتها.

وكان لا بد لنا نحن معشر الكائنات الحية، من أن نتكيف تكيفاً ملائماً لنا على نحو ما، مع الوجود المحيط بنا.. أن نتكيف بأفكارنا، وسلوكنا، ومشاعرنا، لنستطيع الفهم والحياة والاستقرار.. فهم الطبيعة والحياة معها، والاستقرار فيها؛ فذهبنا ـ وهذا ضروري لا مهرب منه ـ نضع قوانين علمية ومنطقية، ورياضية وفلسفية. وكان مرجعنا في وضع هذه القوانين هو الكون نفسه، فكان كل ما صنعناه أن أخذنا القوانين الموضوعة فيه، وصيرناها قوانين إنسانية مطلقة. إنها إذن ليست سابقة له، ولا موضوعة خارجاً عنه.. إنها ليست عامة حاكمة عليه، وعلى ما ليس موجوداً.. إنها لا تدرك مستقلة عنه، وإنما تدرك به.. إنها كذلك ليست واضعة له، بل موضوعة فيه، مأخوذة منه.. إننا نحن حين نجد أنفسنا متوافقين على أي مستوى مع الطبيعة، إننا مثلاً نجد أننا نستفيد من الشمس، ومن المياه، والمزروعات، وغيرها؛ فنذهب ندعي أن هذه إنما وجدت لغايات محدودة مقصودة، وأن من هذه الغايات إيجاد حياتنا، وخدمتنا، والإبقاء علينا، وتوفير المزيد من احتياجاتنا، لما لنا من قيمة أدبية ودينية، علم بها الإله الأعظم فراح يفعل من أجلنا مخلوقاته.

نعم نحن حين نذهب ندعي هذه الدعاوى السارة لنا، نشبه ذباباً وجد في أحد المحيطات سفينة حربية ضخمة؛ فحط عليها ووجد فيها طعاماً شهياً فوقع عليه، ووجد وجه حسناء تائهة فهجم عليه يقبله، وكانت السفينة مسافرة مثلاً إلى القارة الأمريكية فنزلت به هناك، فوجد أشياء سارة كثيرة في الدنيا الجديدة، فراح يزعم مزهواً، مثل معلم كبير من معلمي البشر وقادتهم الروحيين، أن السفينة وكل ما وجد فيها، حتى الحسناء النائمة، وأن أمريكا وكل ما

عليها من البشر، والحيوان، والنبات، والأشياء الأخرى الجميلة، حتى الدولار ذو القيمة والسمو العالميتين؛ إنما وجدت من أجله وفي خدمته..

إذن، فالإنسان ليس إلا ذباباً وجد نفسه فوق سفينة، فذهب يغني لنفسه هذه الأغاني.

إن المسألة لا تعدو أن تكون وجوداً ملائماً بعض الملاءمة فقط، قام عليه زعم تاريخي عالمي كبير كهذا الزعم. ولماذا تكون للملاءمة كل هذه القيمة.. وهل في الملاءمة أي منطق مقصود..؟

قد تجيء هرة فترى هذا الكرسي فتمتد فوقه فتجده مريحاً لها، فتزعم ـ لو كانت تستطيع الزعم مثل معلمينا وأنبيائنا ـ أن الكرسي إنما صنع ووضع من أجلها.. وضعه وصنعه لها الإله أو البشر أو الشمس أو القمر. وقد يسقط أحد المنازل فيتحول إلى خرائب وشقوق وحفر، فتأوي إليه الحشرات وتجد فيه ما يلائمها، وتذهب تظن أنه قد سقط ليكون لها بيتاً.

إن جرثومة مرضية قد تجد جسماً ضعيفاً ملائماً لها، فتذهب تزعم ـ لو كان لها مثل منطق البشر ـ أن هذا الإنسان العليل إنما خلق ليكون لها قوتاً ومسكناً. وإذن، لعل الحشرات تزعم لنفسها أن البشر إنما وجدوا من أجلها، لأن وجودهم ملائم لها.. لعل طنينها الدائم تعبير مؤدب وقور عن هذا الزعم.. لعل لها أنبياء وقديسين يبشرونها بهذه المزية ويفسرونها لها، كالذي للبشر من أنبياء وقديسين، يفسرون ويبشرون.

إن الملاءمة لو كانت ذات دلالة على القصد، لكان فقدها أو ضعفها ذا دلالة أيضاً على العكس. إن الملاءمة منطق مضاد وسلاح يقتل على الجانبين. إن أكثر ما في هذا الوجود غير ملائم لنا.. إنه لا يوجد شيء فيه يلائمنا ملاءمة مطلقة، والذي يلائمنا ويلائم احتياجاتنا منه قليل، قليل.

إن هذه الملاءمة لا تكون أبداً تامة، وهي محتاجة دائماً إلى تدخلنا وعملنا. وإن الذي يلائمنا نحن لا يلائم سوانا. ومن أجل هذا كان عمل الإنسان كله ودائماً نضالاً ضد الطبيعة، وضد آلهتها الرحماء، الباحثين لنا عن التلاؤم بكل عبقريتهم ورحمتهم.

ومع هذا النضال القاسي الطويل ـ نضال الإنسان ضد الطبيعة وضد الآلهة ـ لم يزل الإنسان والأحياء جميعاً عاجزين أمام ما تأتيهم به الطبيعة مما لا يعد ملائماً لهم، بل مما يعد مناقضاً لهم. إن المطر الذي كأنما يجيء على أذكى وأدق الحسابات ليكون كما تريد الحياة والأحياء.. إن المطر الذي كأنما تبعثه وتنظمه أعلم وأرحم العقول لينزل في مكان وهو غير ملائم له، ولا لمن فيه، بل وينزل في أماكن لا حياة فيها، لم يمتنع على بلاد لا حياة لها بدونه.. إن

المطر لا يجيء أبداً على قدر الحاجة إليه لا في المقدار ولا في الأوان. إنه ينزل بطريقته الخاصة العنيفة، ثم لا يبالي بمن يستفيد، ولا بمن يصاب بالأضرار. وهكذا كل ما في هذه الحياة.

إن في المطر من الغباء ما يرفض أي احتمال من احتمالات النظام، أو الحكمة، أو القصد في هذا الكون.

إن ما في الوجود يشبه أن تقذف طائرة بمقادير من العملات المختلفة.. أن تقذف بالأغذية والملابس المعدة بدون قصد في أسلوب القذف.. إنه لا بد أن يحدث حينئذٍ أن يسقط بعض هذا على إنسان أو حيوان فيقتله، فيقال إن الإلقاء بهذه الأشياء من الطائرة سفاهة وجريمة؛ كما قد يسقط بعضه أمام إنسان آخر أو في فناء منزله مثلاً فينتفع به، فيقال حينئذٍ: لا محالة أن الالقاء بهذه الأشياء على النحو الذي حدث حكمة مدبرة. إنه بهذه الطريقة ذات النظرات الخاصة المختلفة تؤول أحداث الكون تأويلاً إنسانياً، أو تأويلاً غيبياً. إن أسباب وظروف الخطأ في التفسير والتأويل لا ضابط ولا حدود لها. إن أضخم وأغبى الحماقات في العالم، لتستطيع أن تعيش تحت أجمل وأتقى التفاسير والتأويلات أطول الأوقات. والإنسان موهوب في قدرته على أن يفسر لنفسه لتستريح وترضى، بل وتعجب.

إن أظلم وأجهل نظام اجتماعي في الدنيا قد يلائم فريقاً من الناس فيرونه بحسابهم الخاص أي بمصلحتهم الخاصة، شيئاً رائعاً يعبر عن أسمى ما في قلب الخالق وعقله، من حكمة ورحمة، وخير وحب. والحكم الظالم جداً يجد رجالاً ينتفعون به ويدافعون عنه باسم الله واسم الإنسانية، واسم الخير الأعظم. وفي مثل هذا قال الشاعر القديم: مصائب قوم عند قوم فوائد. وما من شيء إلا وهو ضارب بجوانبه إلى كل الجهات. إن كل جانب منه قد يرى بنظر خاص يخالف نظر الأنظار الأخرى إلى الجوانب الأخرى. وما من شيء قد كان إلا ويقال له: ليته قد كان كذا أو كذا.. ليته لم يكن كما كان.

إنه لو كان الكون فكرة سابقة لما أمكن أن يكون كما كان، ولا أن نكون نحن كما كنا. ولماذا تتحدد حينئذٍ الفكرة الكونية المطلقة بهذه الصورة التي قد كانت دون كل الصور الأخرى المحتملة المتساوية في قانون الإمكان.. هل لأنها لا تستطيع.. هل لأنها لا تريد..؟

إن الفكرة هي صورة ما كان لا مصورته.. إن التلاؤم بين موجود وموجود مفترض دائماً.. إن مجرد الوجود قد يكون تفسيراً للتلاؤم بين شيئين. إن بين الموجودات دائماً صفات مشتركة بدون افتراض الفكرة السابقة أو الخالقة؛ فالتلاؤم ليس شيئاً غير معقول بين الأشياء لكي يمكن الزعم أن وجوده يعني وجود منطق يدبره:

ومن أين يجيء السكون

إن القول بالفكرة السابقة طور إنساني لا قانون كوني؛ فالكون ليس فيه أفكار ولا تفسيرات فكرية، وإنما فيه حركة.

إن الحركة لا تفسر بغير الحركة. إن أسلوب تفسير الماء بعد الجهد بالماء هو الأسلوب المحتوم لتفسير حركة الكون.

لقد كانت سخرية قديمة لاذعة أن يفسر الماء بعد النضال الفكري الطويل بالماء، ولكن هل يبقى تفسير الماء بعد الجهد بالماء سخرية، إذا كان كل شيء يفسر كما يفسر الماء بعد الجهد بالماء. إن الشيء حينئذٍ هو السخرية، لا مفسره.

إننا نأخذ منطقنا من الكون، ولكن الكون لا يأخذ منطقه من شيء؛ لأنه بلا منطق، ولأنه لا يوجد شيء غيره يمكن أن يأخذ منطقه عنه. إن منطقه هو وجوده. إنه ليس لأي شيء تفسير غير مجرد وجوده المادي. إن صفات الأشياء، إن صفاتها المادية هي فكرتها، تفسيرها.. حتى الأخلاق ما هي إلا صفات مادية لوجود مادي. إن التفكير المنفصل عن الوجود، أو السابق على الوجود، ليس غير موجود فقط بل مستحيل وجوده.

نحن لا نستطيع ـ إلى حد الاستحالة ـ أن نفكر، أو أن نضع قوانين منطقية من غير وجود مادي نأخذ منه منطقنا وأفكارنا، ونعكسها عليه، ونحسبها به؛ فالمنطق والتفكير هما حركة المادة، هما حساب هذه الحركة، بل إنه لا يوجد منطق ولا تفكير، وإنما توجد مادة لها خصائص. إن إحساسنا بهذه الخصائص المادية هو ما نسميه منطقاً، أو فكرة، أو قصداً مدبراً.

إن الإنسان قد وجد بعد وجود المادة. والمادة كما هو المفروض لها خصائص، ومحتوم أن يوجد تناسب أو توافق بين هذه الخصائص، أو بينها وبين الإنسان، بينها وبين مشاعره وضروراته. ولقد افترض هذا التناسب منطقاً. لقد افترض فكرة أو تدبيراً في الكون. ولكن التوافق في الطبيعة ضرورة لا فكرة. والذين يفترضون كل تناسب فكرة، يحتاجون إلى أن يفترضوا أولاً أن كل توافق هو ضد القانون الطبيعي، هو ضد الأشياء؛ ولكن لكي يكون هذا الافتراض صحيحاً، أو محتملاً أن يكون صحيحاً، يجب أن نجد كوناً ليس فيه أي توافق، لكي يمكن أن نزعم أن التوافق حيثما وجد فهو غير طبيعي، أو خارج على القوانين الطبيعية؛ إذ إن الحكم على أي شيء يجب أن يكون تفسيراً لصفات ذلك الشيء.

وافتراض أن فقدان التوافق هو القانون الكوني افتراض ليس مأخوذاً من الكون نفسه. إن الكون وحدة تتكاثر بالتوالد والانقسام، والمتوالد المنقسم لا بد أن يكون متوافقاً على مستوى من المستويات، وإنه لا يستطيع أن يكون متنافراً على جميع المستويات. والشيء لا يلد إلا ما

فيه صفاته أو بعض صفاته. فالوجود متوافق أحياناً لأن بعضه متولد ومنقسم عن بعض؛ لا لأن منطقاً أعلى صاغه ليكون كذلك.

إن التوافق وعدمه حكم لا وجود، والطبيعة وجود لا حكم. إن الفكرة في تصرف الإنسان وتفسيره لا يعني بها إلا تحقيق تلاؤم بين وجودين على ما سبق. وافتراض وجود فكرة خارج المادة كافتراض وجود تمثال خارج المادة.. كافتراض وجود مشروع هندسي بلا مادة.

إنه لا الإنسان ولا الكون يحيا، أو يعمل، أو ينتظم بالفكرة أو بالمنطق؛ بل بالحركة. إن الحركة هي التفسيرات كلها لمنطق الكون، وذكائه، وآلهته، وأخلاقه.

إن الحركة لا تكون موهوبة عن غير حركة. إنها هي المعنى الكبير والبسيط للوجود.

إن الكون ليس إلا حركة تكون هذا أو هذا.. تكون إنساناً أو حشرة أو شيئاً آخر..

لقد ظل الفكر الإنساني منذ وجد يسأل عن سبب الحركة من أين توجد، من الذي يوجدها. وكان قد افترض أن السكون هو الصفة الشرعية للكون.. إنه لم يكن قد أدرك أن الوجود لا يكون إلا حركة، وأن الحركة لو كانت تحتاج إلى سبب يوجدها، لكان هذا السبب حركة أيضاً.

وإذا سألنا: كيف تخلق الحركة نفسها كنا كمن يسأل: كيف يكون الشيء هو نفسه. وقد سألوا: من أين تجيء الحركة، ولكن لم يسألوا: من أين يجيء السكون. إن السكون في تقديرهم هو منطق كل الأشياء.

إن المنطق يعرف بالحقيقة، ولكن الحقيقة لا تعرف بالمنطق.. إن الوجود هو الذي يضع قوانين المنطق وليس المنطق هو الذي يضع قوانين الوجود.

إن الحكم على الكون، على الحركة، يجب أن يكون مأخوذاً من نفس الكون، من نفس الحركة. إن الخطأ الدائم هو محاولة تفسير الكون بمنطق الإنسان لا بمنطق الكون. إن منطق الإنسان هو منطق الإرادة كما ينبغي؛ أما منطق الكون فهو منطق الشيء كما هو. والإرادة كما ينبغي أكثر من الشيء كما هو. إن الإنسان في احتياجاته، أو في صيغه الاحتياجية أكثر من الطبيعة في وجودها فقط.

إن المطلق لا يستطيع أن يعمل شيئاً لأن العمل تحديد، وغير المتحدد لا يكون متحدداً. فالقدرة المطلقة، كذا الإرادة والعلم المطلقان، لا يمكن أن تصبح عملاً ولا شيئاً.

إن القوى الفاعلة هي القوى المتحددة. إن قدرة الإنسان وإرادته وفكرته ـ لو كانت مطلقة ـ لما أمكن أن تبدع عملاً ما.

نحن نفعل لأننا متحددون، لأننا متحددون في قدرتنا وتفكيرنا وعواطفنا. إن المطلق ليس موجوداً.. إنه وهم.

إن الذين تصوروا مطلقات.. إن الذين آمنوا بكائنات مطلقة، لم يفطنوا إلى أنهم يتصورون أوهاماً، إلى أنهم يؤمنون بأوهام..

إن الموجودات لا تكون مطلقة.. إن الوجود عمل.. إن العمل تحديد.

إن الفكرة السابقة فكرة مطلقة، لهذا لا يمكن أن تحدث شيئاً، لا يمكن أن تتحول إلى حركة. والوجود السابق هو الذي يجعل الفكرة متحددة، هو الذي يجعلها تخطيطاً مادياً. إن أول الأشياء لا بد أن يكون وجوداً مادياً لا تفكيراً.

ولو وجدت فكرة سابقة على الكون، لما كان ممكناً أن توجد الكون، فالفكرة السابقة ـ لو وجدت ـ لا يمكن أن تتحول إلى صورة مادية، إذ لماذا تتحول، وعلى أية صورة تكون في تحولها ولا صورة سابقة لتكون نموذجها..؟

إن الفكرة السابقة محال وعجز.

لا شيء لا يتحرك

ليس شيء فوق العقل. إن كل موجود محكوم عليه بالعقل، محكوم عليه بالنقد والتهديم. إن المعدوم هو وحده الذي يرتفع فوق العقل، فوق الخطر والاتهام. إن التفكير هو انعكاس الكون على الإنسان، على مشاعره واحتياجاته. إن الفكر بطبيعته لا يستطيع أن يقف موقفاً صامتاً من الأشياء. إنه لا بد أن يحاول فهمها وتفسيرها، تأييدها أو معارضتها.. إن الأشياء تتحدى صمت العقل.. إنها تفرض عليه أن يتعامل معها.. أن يدخل ضدها في حوار، في قتال، في مشاتمات دائمة.

إن الشيء الذي نشعر نحوه لا بد أن نفكر نحوه. إن الموقف الفكري لا يمكن أن يفرض من خارج الفكر وإلا كان تدخلاً ظالماً، تدخلاً جاهلاً.

إن الكون يفرض علينا أن نفكر. إنه لا خيار لنا في أن نفكر وفي ألا نفكر. إن الكون يقف في طريقنا ليصدمنا ويعرض نفسه علينا ويجرح أبصارنا، إذن لا بد أن نفكر فيه. إن فكرنا لا يجد قيوداً من داخله ولا من طبيعة الكون لتحدد تصرفاته أو موضوعاته. إن الفكر حركة، ولا شيء لا يتحرك في هذا الكون حتى ولو أردنا ذلك.

إن هذا العصر هو التفسير الكبير الضخم لمعنى الألوهية، لتلك الألوهية التي ظل الإنسان يتحدث عنها بكل لغاته، ويشعر بها في كل أمانيه ورغباته، دون أن يجد معناها حتى وجده في

حضارته التي تملؤه اليوم قوة وخوفاً، خطراً وتفوقاً، تعذيباً وسعادة، كمعنى الإله الذي قد كان يتعامل بعقل الإنسان وأخلاقه، أو الذي قد كان عقل الإنسان وأخلاقه تتعامل به.

لقد كانت عقائد الإنسان الغيبية تعبيراً دائماً، كانت تعبيراً مبهماً عما يريد أن يكون، أو عما يستطيع أن يكون على نحو ما. إن صُوره الذهنية عن الآلهة وعن الغيب وعما وراء ذلك، كانت تعبر عن مستقبله، وعن حضارته المحتومة التي يستطيع أن يصنعها وأن يعيشها في احتمالاته التاريخية الكبرى. إن الآلهة والعقائد والمثل، هي حصيلة اهتمام الإنسان بنفسه، ومحاولته التعبير عن رغباتها، وعن طاقاتها الانفعالية والتصويرية، فالإيمان بحث عن الرغبة لا عن الاستقامة.

إن الفرق بين من يذهب إلى المعبد في ذهول روحي، وبين من يسير نشوان في موكب الشيطان، فرق في التعبير عن الاستجابة للذات، لا عن الاستجابة للحقيقة.. إن الطاقة النفسية هي التي تتحول إلى آلهة وشياطين، وإلى معابد وملاه، وإلى غناء وصلوات.. إن المبادىء هي التعبير البلاغي عن الأهواء الخاصة. إن جميع المجتمعات تحتاج إلى أن تبتدع لنفسها معوقات فكرية تريحُها من متاعب وأخطار السفر الفكري الدائم. إن كل مجتمع يختار هذه المعوقات مقدودة من ظروفه واستعداداته، أو متناسبة مع هذه الظروف والاستعدادات؛ فالقيود الفكرية ضرورة لكل مجتمع.. إنها ضرورة لا فضيلة. إنه لا يوجد مجتمع لا يصنع لنفسه ألواناً كثيرة من القيود الفكرية.

والمجتمع الذي ورثناه والذي نعيش فيه قد صنع لنفسه معوقات فكرية عديدة ومتنوعة. لقد بالغ في تجويدها، وفي إعطائها القوة التأثيرية المرجوة.

إن العقل ليس أهلاً للثقة به، لأن ثمة قوى أخرى عديدة فوقه هي أقوى، وأقدم، وأذكى، وأصدق، وأخلد منه. تلك هي الخالق، وهي الدين، وهي السلف الصالح بأخلاقه وتعاليمه، وعقائده وسلوكه، وهي أيضاً التاريخ العظيم وتقاليده، ومزاياه الباهرة.

إن العقل لمن لا يملكون شيئاً من هذا.. إنه للفقراء الضائعين الذين لا يملكون كل هذه المزايا. إن الرجوع إلى العقل نوع من الفاقة الأليمة، نوع من الفاقة التاريخية، وتاريخنا غني جداً.. إنه فوق كل الفاقات.

ثم هو ليس أهلاً للثقة أيضاً لأنه يحاول أن يتدخل فيما هو فوق مستوياته، وأن يحكم على أشياء لا يستطيع الحكم عليها، لأنها ليست لها صفات قانونية ذاتية تضبط وتحكم بها. إن الكون والبشر والطبيعة كلها، لا تخضع لقوانين منطقية مضبوطة، لأنها ليست ذات طبيعة متحددة تصدر عن ذاتها صدوراً قانونياً أو منطقياً؛ ولكنها أوامر ومشيئات تصدر إليها، تهبط

عليها اقتداراً. إنها لا تفسر من داخلها، إنها لا تفسر ذاتها.. إنها تحكم من بعيد، من بعيد جداً، جداً.

ثم ما هو هذا العقل..؟

إنه قطعة صغيرة من الخلايا المادية، فكيف يستطيع أن يقرأ أو يفقه كل الإشارات الكبيرة المطلقة المبثوثة في هذا الكون الأعظم.. أو يحكمه، ويخضعه بمنطقه المخلوق المحدود..؟

كيف يمكن أن يحتوي هذا الكائن الصغير كل هذا الكون.. كل أسراره، وإشاراته، وتفاسيره، كل قواه، ومعانيه، وحماقاته، وآلامه، وتناقضاته، أزلاً وأبداً..؟

إن الله أرحم وأعظم من أن يترك عباده لعجزهم الإنساني المحتوم الأليم.. كيف يسمح له جبروته بأن يدع الخالق للمخلوق، ليفهمه ويفسره بجهله وضعفه وهواه، أو يدع المخلوق يبحث عن اقدامه في الظلام، سعياً وراء الحقيقة التي لا يحتويها وعاء، والتي تقتل كل من يحاول امتلاكها..؟

إنه لو فعل ذلك، لكان له أحد تفسيرين فقط: إما أن يكون عاجزاً، وإما أن يكون قاسياً، ظالماً، بخيلاً، سفيهاً.

ليس من الممكن الجمع بين الإيمان بالإله القادر الحكيم الرحيم، والإيمان بالعقل الخالق أو بالإنسان الخالق.. بين الإيمان بالله والإيمان بالطبيعة القانونية المحكومة بذاتها، ومن داخلها، وبضروراتها المحتومة.

لقد احتاج البشر إلى غباء وغفلة عظيمين، لكي يستطيعوا الإيمان بالخالق، والإيمان بالمخلوق في وقت واحد. كان الإيمان بهما معاً مستحيلاً من الناحية العقلية ومن الناحية العملية أيضاً. ولكن الإنسان استطاع أن يفعل هذا المستحيل بقدرته العجيبة على التناقض.

ما أروع الإنسان متناقضاً.. ما أروعه مؤمناً بالله كأنه لا يؤمن بالطبيعة، ومؤمناً بالطبيعة كأنه لا يؤمن بالله..

ما أروع الإنسان ذكياً إلى حد الخوف منه، غبياً إلى حد الرثاء له.. إن الإيمان بالله يلوث الله ويسقط الكون والإنسان، أما الإيمان بالكون والإنسان فإنه يسقط الله.. وأما الإيمان بالله والكون والإنسان، فإنه يحقر الإيمان والذكاء.

يصلبون عقولهم

بهذا المنطق الفراري المريح، استقبلنا الحياة ومشكلات الكون، ووضعنا العقل بحثاً عن

الخلاص منه في هذه الأغلال المصنوعة من زغب الملائكة، فاسترحنا من المحاولات العقلية الشاقة الضاربة في كل تيه.

لقد انصرف الناس إلى النقل يحفظونه ويدرسونه، يطلبون به حل جميع الهموم والمشكلات التي تواجههم من كل نوع، ويطلبون به أيضاً المزيد من فهم الإشارات والأسرار التي يزعمون بزهو عظيم أنها لا تنقضي ولا يبلغ مداها في وقت من الأوقات البعيدة. ولهذا فإنهم يظلون يتعاقبون بلا ملل على هذه الدراسات النقلية. إنهم يظلون يضعون فيها الكتب، ويخلقون لها وجوه التأويلات بلا نهاية، بلا بداية.

لقد فعلوا هذا منذ القرون الأولى، وهم حتى اليوم يفعلونه، وسوف يبقون كذلك يفعلونه أطول الأزمان. لقد ظلوا طويلاً وسوف يظلون أطول، يصلبون عقولهم وكرامتهم الإنسانية في معابد النصوص أو التفاسير؛ ولا يزال السحر في أعلى مستوياته.. لا يزال مختوماً لم يفض، لم تفك أسراره.

وهؤلاء المسحورون لا يجدون أن تتابعهم على الشيء الواحد، على النقل الواحد، على الشرح الواحد، يكررونه، يزيدون فيه أو ينقصون، ويضعون حرفاً مكان حرف أو تفسيراً مكان تفسير، ينفقون في ذلك أوقاتهم وأوقات أتباعهم، ويصبون حياتهم وحياة الآخرين في قفر موات.. هؤلاء المسحورون لا يجدون أنهم بما يفعلون، إنما يعكفون على الأصنام، إنما يحترقون في الهياكل، إنما يدورون حول شمس لا وجود لها.

لقد انطبعت ثقافة هؤلاء بطابع تفسيري نقلي، رائع في الغفلة والطاعة العقلية، حتى لقد صدرت عنها كل هذه التجمعات الباهظة من الشروح والتفاسير الغبية التي فقدت كل مزايا الفكر والفهم، والقوة والإبداع.. هذه التراكمات التي عجزت مكاتبنا عن الاتساع لها، ومطابعنا عن الفراغ منها. إن أحدنا لو قدر له أن يحمل إلى منزله كتاباً واحداً من الكتب التي وضعت في التفسير، أو في الفقه، أو في الحديث، أو في شرحه، أو في علم التوحيد والكلام، لاحتاج حمله إلى شاحنة كبيرة، مع أن كل ذلك لا يعدو أن يكون تكراراً لخيال مذعور.. إنه نوع من تناسخ الأرواح الهمجية.. إنه أسلوب من أساليب الطفولة.. من الرفض للنمو.. من الرفض للرؤية البعيدة.. من الرفض للرؤية القريبة، للرؤية كلها.

لقد نشأت في تاريخنا طبقة مرموقة المكانة، رفيعة الشأن بين أئمة الدين، تلك هي طبقة المحدثين الذين كانوا يعرفون «بالحفاظ». وقد وضعت كتب لا تحصى تفسر حياتهم، وتعد خوارقهم وتفوقهم على الحياة، عرفت باسم له رنين قوي في مشاعر المجتمع، عرفت «بطبقات

الحفاظ». وكان شأن الشيخ يعلو بين الناس بقدر ما يستطيع أن يحفظ من الروايات التي تنافي الحياة، التي تلعن الحياة، التي تحقر الحياة.

ومعروف أن كبار الأئمة كانوا حفاظاً وكانوا أطفالاً، ولكنهم لم يكونوا في حقدهم وبغضائهم وتعصبهم أطفالاً. وحتى اليوم لا تزال هذه المجتمعات ترفع من مقام الرواة والرواية. حتى التعليم في المدارس والجامعات قائم في أكثره على الحفظ. ولو أن أي طالب استطاع أن يجيد الإملاء من محفوظاته على الأوراق، لكان نصيبه في درجات النجاح عظيماً..

وجود.. لا إبداع

إن بعض الحكومات المؤمنة تحاول أن تتقرب إلى الدين وإلى قلوب رعاياها، بنبش هذه المؤلفات التابوتية الضخمة، وإنفاق الأموال الكثيرة على طبعها، إنها لتعد ذلك من الأعمال الكبرى التي ترتفع بها إلى مكانة المصلحين العظام المتكافئين مع العصر الذي نعيش فيه. وقد لوحظ أن التأليف حتى اليوم، ولدى كبار كتابنا، ليس سوى عملية نقل، إما عن تاريخنا القديم أو عن معطيات العصر الحديث. والنقل عن هذا وهذا عملية تكرار بليدة. وهؤلاء الذين يقومون بحركة البعث للكتب القديمة التي طال موتها، لا يعلمون أو لا يبالون أن يعلموا أن هذه الكتب تحرم كل الحياة التي يحيون، وتراها مروقاً وفسوقاً، أو ترفاً وسرفاً أثيماً؛ ولكنهم يعلمون أن هذا شيء لا خطر فيه، فهذه الكتب لن تتحول إلى سلوك لهم أو للمجتمع الذي يحكمون، وهي لن تتحول إلى احتجاج عالمي ضدهم لأنهم بأعمالهم خارجون عليها. إنها ـ أي هذه المؤلفات ـ كائنات ميتة لن يخشاها أو يحترمها أحد..

إن نابشي الجثث لن يخافوا جثثهم.

ولقد ترتبت على هذه الثقافة النقلية وقفة عقلية. إن توجيه الطاقة كلها إلى النقل وقف بالعقل. وحين وقف أصابه الإعياء والضمور، لأن الموت هو الذي لا عمل فيه، وفي الموت ضمور وإعياء. ثم أصابه الفساد، لأنه أصبح مستقبلاً فقط.. أصبح يستقبل الفساد الذهني القديم المتجمع في المحفوظات، من غير أن يكون له نشاط أو تصريف، فصار مثل المستنقع الذي يتلقى دائماً الفضلات بدون أن يصرف منها شيئاً.

لقد خسرنا بخسراننا العقل، الإبداع، فصرنا وجوداً لا إبداعاً.. لقد اقتطعت من مساحة الذاتية أفضل مناطقها.. لقد اقتطعت منا المنطقة الذهنية، وهي منطقة التفسير في حياة الإنسان.. لقد غام فوقنا سكون رهيب من الاستسلام الفكري، وطال الليل.. لقد طال الليل.. وهل كان بيننا من ذهبوا يصنعون فجراً..؟

لماذا وجدت البطولة في بعض الشعوب ولم توجد في شعوب أخرى..؟

إني أعني بالبطولة تلك القدرة الإنسانية التي تحدث في التاريخ موقفاً ما، تغييراً ما، وتهبه وجوداً إنسانياً جديداً.

إننا لم نخلق من بيننا بطلاً واحداً وهب شجاعة ومزية يتحدى بها جمود التاريخ وغباءه، بطلاً واحداً يقف وحده مع مزاياه المتحدية في موكبه المنفرد، بينما يقف مجتمعه كله في موكبه الحاشد على الجانب الآخر، إلى أن يموت أو ينتصر.

لقد قبل الأبطال في شعوب كثيرة أن يموتوا في مواقفهم، أو أن يفتحوا طريقاً كان مسدوداً. إن البطولة هي صياغة التاريخ صياغة جديدة أو الموت العظيم.. إنها هي الموقف المتحدي حتى الموت أو الانتصار.

إن البشر لم يصلوا إلى هذه الحضارة التي يعيشها حتى أعداؤها، حتى أولئك الذين لم يصنعوها، حتى أولئك الذين يكفرون بها، حتى أولئك الذين يلعنونها، إلا فوق أهوال من التحديات؛ ولكن أعظم أبطالنا يموتون هواناً أمام احتمال أي خطر، أي عذاب، أي فقد لأي شيء، أي خسران لأي غنم.

إننا لا نجد حتى اليوم ذلك الذي جرؤ على الاستمساك برأيه أو بموقفه إذا كان يعيش فيه احتمال موت أو عذاب..

نعم، إننا جميعاً نقدم على المغامرة التي تكسبنا مجداً وربحاً وحياة، وبطولة أيضاً.. إننا جميعاً أبطال إذا كانت البطولة تعني في حسابنا الربح والشهرة، والأمان والانتصار.. كلنا أبطال إذا كانت البطولة تعني أن نربح كل شيء، حتى الإعلان والدعاية للنفس دون أن نخسر شيئاً، حتى ولا احتمال أن نخسر شيئاً.

ما أرخص الأبطال في حسابنا. إن الكاتب الذي يبيع نفسه لدولة، أو لحكومة، أو لحزب، أو لزعيم، أو يبيعها لمشاعر السوق المتعصبة ولتقاليد المجتمع المتعبة، فيذهب يسب ويكذب، ويتحدث بعصبية وغوغائية، ثم يأخذ الثمن كاملاً. إن مثل هذا الكاتب بطل، شهيد.. إنه نموذج للبطولة والشهادة والنضال.

إن الحاكم أو الزعيم الذي يجن لخلق المشاكل والخصومات، ويجن في الادعاء والكبرياء، ويجن في استهلاك عواطف جماهيره بالحديث عن الأعداء والأبالسة والجحيم والأخطار المختبئة في أكمام الغمام، ويجن في سبّ الشيطان الذي لا يجرؤ على قتاله، ويجن في الصخب والهياج، وهو يعلم أنه لا يخاطر بما يفعل بل يربح، يربح خديعة الجماهير واستغفالهم والاستقواء بهم عليهم.. إن مثل هذا الحاكم أو الزعيم يعد بيننا بطلاً من أعظم الأبطال القوميين.

اشتم، اشتم الشيطان الذي تتغذى شهواتك بأعضائه تصبح قديساً أو نبياً..

اشتم، اشتم العدو الذي لم يوجد، أو الذي قد مات، أو الذي قد ذهب، تصبح بطلاً قومياً..

اشتم، اشتم أي شيء بلا وقار، بلا تهذيب، تصبح بطلاً ما.

كم هي حيلة رخيصة أن تشتري البطولة والمجد بسبِّ الزلازل والبراكين، أن تشتريهما بالحديث المتهيج عن أشباحك النفسية، عن عداوة الشمس لك؛ عن تآمر كل الكون، كل الناس ضدك، ضد مذاهبك وعبقريتك وثورتك.

لقد هانت البطولة، لقد أصبحت شيئاً صغيراً.. لقد أصبحت عاراً وبذاءة وكذباً.. لقد أصبحت البطولة هي تملق جهل السوق وضعفها، وأخطائها، وصغائرها الكثيرة. إن البطولة هي عرض صغائر شخص ما، عرضاً طفولياً على حساب أخلاق الإنسان، وحساب سلامه، ورخائه، وذكائه.

وهل العداوة خبزٌ..؟

إن العداوة، إن الخصومة ليست قيمة إنسانية، أو ذاتية، أو كونية.. إن فن العداوة ليس فناً عظيماً..

إن أسخف خديعة تعرض لها أي شعب، أن يتقرب إليه حاكمه أو زعيمه بسبِّ الآخرين أو سبّ البراغيث..

إن الكراهة بجميع تعبيراتها، ليست عبقرية، ليست حرية، ليست عدالة اجتماعية.. إنها ليست فضيلة نفسية.. إنها ليست خبزاً أيضاً..

ليس البطل هو الذي يدخل في معارك لا نهاية لها مع الخصوم، ليس هو الذي يخترع الخصوم اختراعاً.. إن البطل هو الذي يكسب الحياة والحرية للإنسان، وإذا استطاع أن يحقق هذا الكسب بلا خصومة بلا خصوم، كان هذا هو النصر الذي تهتف له النجوم. إنه ليس نصراً ولا بطولة، أن تخترع الجحيم أو الشيطان لتظل تلعنهما بتهيج وكأنك تصلي لكل العالم، ولتحول مجتمعك إلى نشيد من اللعنات البذيئة..

كم هو فظيع أن تسرف في شتم أعدائك واتهامهم، أن تصنع أعداء من الزهور لكي تصبح بطلاً قومياً، تخطب وتصخب وتشاتم النجوم.. كم هو فظيع أن تعالج آلام قوم ومشاكلهم بكراهة الشيطان، بسبِّ الأعداء النائمين.. إن من فعل ما يرضي الناس وهو ضد مصلحتهم كان ضالاً كالذي يترك ما ينفعهم خوفاً من غضبهم.

إن الذين يكثرون من سبّ الأعداء، لا بد أن يكونوا كاذبين أو جاهلين أو متوترين يفعلون ما لا معنى له؛ لأن السب لا يقهر عدواً، فهم إذن لا يريدون بسبّ الخصوم هزيمة الخصوم ولا إضعافهم، لأنهم يعلمون أن ذلك لا يكون، وإنما يريدون تضليل الجماهير الباحثة عن الضلال.. إنهم يتاجرون بالعداوة والشتم.. إنهم يبيعون السفاهة بأغلى الأثمان، أي إذا لم يكونوا متعبين أو جهالاً ينفقون أنفسهم بجهالة، أو بتعب، بلا ثمن..

ولماذا تشتري الجماهير الحماقات والأكاذيب بدمها، بكرامتها، برخائها، بأمنها..؟

وهل الجماهير تشتري الجنون، أم أن الطغاة يفرضونه عليها، ثم يفرضون عليها أن تدفع ثمنه..؟

إن السلعة والثمن كلاهما بالإكراه.. إنهم يكرهون بالإكراه، ويدفعون ثمن كراهتهم بالإكراه..

إن أكثر العداوات والخصومات الموجودة في العالم، ليست احتياجاً ولا ضرورة قومية أو أخلاقية أو إنسانية؛ ولكنها فنون شريرة ابتكرها ونماها ورعاها القادة الكادحون الذين وجدوا أن العداوة والخصومة بين الشعوب تمكن لطموحهم ولاستغلالهم وبقائهم، أكثر مما تفعل لهم الصداقة والمحبة والسلام.

ماذا يبقى من أسباب لمجيء الطغاة، وبقائهم، وتسلطهم، ولارتكابهم أفظع الحماقات والمغامرات، لولا الخصومة والعداوة بين الناس..؟

ولو أن الزعماء والقادة عقدوا أكبر مؤتمر في الجحيم، وشهده جميع الأبالسة والأشرار ليجدوا وسيلة يخدعون بها البشر، ليتسلطوا عليهم ويبرروا تسلطهم، ويقودوهم إلى الجنون والموت، لما وجدوا أفضل من أن يخلقوا العداوات والخصومات بين البشر والبشر، وبين القادة والقادة..

هل السوق محتاجة دائماً إلى أشباح مخيفة عدوانية لتصرف إليها اهتمامها ومشاعرها..؟

هل العداوة هرب من الخوف، من التعب، من العذاب، من الهموم، من التخلف..؟

أقسى دكتاتور

إن البطولة إنما تصدر عن عقل متفوق قد آمن بأفكار متفوقة، وليس في الوجود كله قوة أقوى من قوة الفكرة العظيمة. إن أصحاب العقول العظيمة المسكونة بالأفكار العظيمة، تغامر في أنفسهم نشوة عظمى تهبهم شجاعة عظمى. إن هذه النشوة قد تكون نشوة العقل المبدع،

أو نشوة المخالفة للجماهير، أو نشوة الشعور بالتفوق، أو نشوة الإعجاب العظيم الذي يهدي إلى الاستهانة بالأخطار.. كما قد تكون نشوة التحدي لما كان.

إن الذين يجيئون الإنسانية بأفكار ومبتكرات جديدة يؤمنون بقدرتها على الانتصار، وعلى أن تحدث جديداً في الحياة وفي التاريخ، وعلى أن تصوغهما صياغة جديدة.. إن هؤلاء الرجال لا بد أن تكون لديهم قدرة متفوقة في الإرادة والاقتحام. إن اقتحام الألم نوع من التفكير الصعب، إنه حالة فكرية يعيشها إنسان ما، أو المفروض أن تكون كذلك. إن الأفكار القوية تهب مواقف قوية أو تحرض على المواقف القوية. إن ضخامة المغامرة ليست مفصولة عن قيمة الهدف.

إنه لمحتوم ألا يوجد هذا النوع من البطولة بين المحرومين من العقول والأهداف المتفوقة، فالبطولة ليست فراغاً، بل أفكار وأهداف قوية. ويستحيل أن يتحول العاجزون بأفكارهم وأهدافهم إلى أبطال في أخلاقهم؛ فالقوة الأخلاقية هي انعكاس القوة الفكرية.

إن الأفكار لا تكون إلا تحدياً.. ولكن قد توجد مواقف قوية من غير أفكار قوية.. إننا أحياناً لا نفعل لأننا أفكار بل لأننا حياة.. إننا قد نفعل بالقوة لا بالفكر، كما تفعل الطبيعة والكائنات غير المفكرة. إن قوة المواقف قد تكون مأخوذة من قوة الحياة لا من قوة الأفكار. إن قوة الأفكار مأخوذة من قوة الحياة، وليس العكس.

إن الأفكار القوية هي عطاء الذات القوية، هي عطاء الحياة القوية.. إن أفكارك القوية المتحدية هي دائماً تعبير عنك، عن صفاتك، عن موهبتك، عن حياتك المتصادمة بالأشياء، المقاتلة للأشياء..

إن الحدود الفاصلة بين المتفوق وغيره، هي عمق الحياة بأفكارها وأهدافها. وإذا كانت الحياة امتداداً فإن بينها من التفاوت في امتدادها مثل ما بين محيط وغدير..

إن الذين تتفوق حياتهم بالعمق والامتداد، تنطلق منهم طاقات إنسانية مماثلة في تفوقها. إن في أفكارهم وعواطفهم وأفعالهم، هذا العمق وهذا الامتداد الذاتيين المتفوقين..

الحياة إما ضخمة متفوقة، أو ضحلة متطامنة. إنها في الحالة الأولى تحمل كل بسالة التحدي والكبرياء، لأنها حينئذ تستجيب لمعاني ذاتها المتفوقة أكثر من استجابتها لإحساسها بالأخطار المحيطة بها المقاومة لها.. إنها تشعر بضغط الاستجابة لهذه المعاني أعمق من شعورها بضغط الاستجابة للمعاني والأخطار المضادة المهاجمة.. إنها طاعة الذات للذات.. إنها أصدق وأعمق طاعة في الوجود..

إن المتفوق في تفكيره أو في اقتحامه وتحديه أو في أحزانه إنما يطيع ذاته، إنما يخضع لذاته،

إنما يمارس ذاته.. إن ممارسة الذات أبعد عمقاً من طاعة الذات أو الخضوع للذات.. إن الذات هي أقوى وأقسى دكتاتور يحكم الذات، يحكم الحياة، يحكم العالم.

وأما في الحالة الثانية فإنها تحمل كل مهانات الاتضاع والاستسلام..

إنها تحس حينئذٍ بما يناقضها، بما يهددها أعظم من إحساسها بذاتها، بقدرتها على التفوق والانتصار.. إنها من غير أسوار، أو حدود، أو ارتفاع، أو عمق، أو حماية.. إنها لذلك ترى دائماً ما حولها أقوى منها فلا تقاومه، ولا تبتكر موقفاً عظيماً.. إنها دائماً في موقف المهزوم.

أكبر من إرادة الحياة

هل نحن ذاتيون نذأب دائماً على تعميق ذواتنا، وتخصيبها، واستثمار معادنها، وتوليد قواها..؟

هل نحن نولد من الداخل ثم ننمو ونصنع فيه..

هل العالم الذي نريده ينبثق في أنفسنا ثم يظل فيها..

هل نحن معاني الحياة وحروفها أم حروفها فقط..

هل نحن كائنات تتدفق، أم كائنات تتلقى.. هل آلهتنا الخالقة، هل أوثاننا المعبودة فينا أم خارجنا..

هل نحن كذلك، أم نحن مخلوقات تولد خارج نفسها، ثم تحيا وتتحرك وتموت خارجها، جادة في الهرب منها..؟

أما الذاتيون فإنهم يستطيعون تعميق أنهار حياتهم إلى أن تصبح في عمقها وامتدادها كالمحيط يزخر بكل الأسرار والقوى المتحدية والخالقة. أما الهاربون من ذواتهم فإنها ـ فإن ذواتهم ـ تظل كالأكواخ المهجورة، ليس فيها من القوى والأسرار غير ما يدار حولها من قصص الأشباح والأرواح، وغير ما يزحف في شقوقها من الحشرات والهوام، وأطلال التاريخ البائس وذكرياته المهزومة.

هل يمكن أن نلقى بطلاً بين الجماهير الجاهلة..؟

هل يمكن أن يخرج من بين أصلابها مثل سقراط حين رأى الموت والحياة وكل شيء أصغر من فكرته، من وقفته المتحدية..؟

إن الجاهل ليست لديه المواقف الكبيرة، لأنه ليست لديه الأفكار الكبيرة التي تجعل منه تحدياً إنسانياً كبيراً..

إنه لا يوجد شيء أكبر من الحياة، إلا الفكرة الكبيرة.

إننا قد نجد اقتراناً بين العظمة الفكرية والعظمة الأخلاقية.. قد نجد أن الأمم الكبيرة بأفكارها تجيء كبيرة بأخلاقها.. قد تكون البطولة حالة فكرية وأخلاقية.. قد نجد أنه كلما هبط الشعب في حساب الفكر والثقافة، هبط بقدر ذلك في مواقفه الإنسانية كلها.. قد يكون ذلك كذلك.. قد..

إنه توجد بطولة أخرى، تلك هي بطولة المخاطرة العلمية.

لماذا يرخص هؤلاء المخاطرون أنفسهم.. لماذا يقدمون على كل الأخطار دون أن يهابوا الموت، أو أن يصابوا بالجنون من الخوف، حتى كأنهم ليسوا كائنات تموت وتتألم..؟

إن الأفكار التي تحرك هؤلاء أكبر من الخوف، أكبر من إرادة الحياة.. إن لذة الألم في سبيل الفكرة الكبيرة، أكبر من الألم نفسه.. إن التضحية المميتة قد تهب مشاعر لذيذة، أعظم من المشاعر التي تهبها الحياة. إن الإنسان وحده هو الذي ينتحر، لأنه هو وحده المفكر.

إنه لا شيء يتفوق على إرادة الحياة غير إرادة الفكر.. إنه إذا اتجهت الإرادتان اتجاهين مختلفين انتصرت أقواهما. إن الإنسان وحده دون سائر الموجودات هو الذي توجهه الإرادتان.. إنه لهذا لا يوجد سوى الإنسان من يضحي في سبيل معنى أو مبدأ، أو باسم معنى أو مبدأ.. إنه يفعل ذلك لأنه يفكر.

إنه ينتحر لأن الانتحار فكرة على نحو ما؛ ولولا الفكرة لما وجد من ينتحرون. إن الذين لا يفكرون كالأطفال لا ينتحرون، وإذا انتحر طفل كان معنى هذا أنه قد بدأ يفكر. ولم ينتحر جميع المفكرين، لأن التفكير لم يصل في جميع مستوياته إلى مستوى الانتصار الكامل.

إن الانتحار بطولة لأنه أسمى درجات الجرأة، ولكنها بطولة مذمومة في حسابنا، لأنها تجلب الاكتئاب والألم والخسارة للأحياء، أحياناً. ولأن الأحياء من جهة أخرى يجبنون عنها؛ فهم إذن لا بد أن يذموها دفاعاً عن جبنهم.

إن الانتحار هو أعلى مستويات التفكير.. إنه أعلى مستويات الانتصار على الدمامات، والتفاهات، والمسرات الهذيلة، إن الانتحار هو أعلى مستويات الرفض الإنساني.. إنه قمة التفوق، قمة الإباء؛ ولكن البشر لم يحولوه إلى سلوك في سلوكهم، ولا إلى فضيلة من تعاليمهم.

إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوه فلم يمدحوه، لكي يوجدوا تلاؤماً بين سلوكهم وتعاليمهم. إن الذي يرفض الانتحار لا يرفضه لأن البشر محتاجون إليه، أو لأنه يريد أن يمنح الإنسانية مزيداً من النظافة والسمو والقوة، أو ليحيي الشمس كل صباح؛ بل لأنه يخاف ويستمسك بنفسه مثل الصرصار.

هل توجد قيمة أية قيمة يرفض الناس من أجلها الانتحار. هل الناس يرفضون الانتحار لأنهم يحترمون الحياة، أم لأنهم يهابون الموت، ويريدون الحياة..؟

وهل إرادة الشيء تساوي احترامه..؟

ومع هذا فإن حافز الشجاعة هو حافز الجبن؛ فالشجاع جبان، والجبان شجاع.

إن الذي يدعى شجاعاً إنما أقدم على أمر فراراً من أمر، فهو جبان، أو فهو شجاع لأنه جبان.

وإن الذي يسمى جباناً إنما أحجم عن شيء جرأة منه على شيء آخر، فهو جبان لأنه شجاع.

إن الشجعان جداً جبناء جداً، وإن الجبناء جداً شجعان جداً؛ ونحن نحكم بهذا أو هذا باحثين عما يرضينا. والناس الشجعان، والناس الجبناء يقدمون على هذا أو هذا، خاضعين للتقويم الفكري والعاطفي الذي يقومون به الأشياء، ويخضعونها به لحساب الضرر والنفع بمعانيهما العامة.

•

إن الحرب ضرب من ضروب الانتحار العالمي، ولكننا ندعوها فضيلة لأنها موصولة بفكرة مجنونة أو عدوانية من فكرنا. إنه لا فرق بين الحرب وبين الانتحار العادي من حيث الداعي. إن الداعي أو الحافز إليهما معاً هو محاولة الفرار مما يحدث انزعاجاً، إلى ما يحدث سروراً وارتياحاً، ولو في التقدير الخاطئ. إن الذي يموت في حرب، أية حرب، لهو أكثر جبناً وإساءة للبشر وللمثل من أي منتحر.

إن المنتحر تحت فكرة أو بلا فكرة، لأكثر نبلاً وشجاعة من أي شهيد في أية حرب.

لا نرى، بل نقرأ

لقد عوقبنا على نزعتنا النقلية فحولنا كل شيء إلى رواية.

لقد ضعفت فينا طاقة النقد والابتكار، فالمعارف كلها نقل، حتى الفلسفة والفهم، بل حتى الطبيعة والكيمياء والطب، بل حتى الرؤية والمشاهدة، لا بد أن تكونا نقلاً.. إننا لا نستطيع أن نرى الأشياء أو الناس كما نراهم، بل كما نقلوا لنا.. إننا لا نرى الكون أو الأحداث أو الآخرين، ولكن نسمعهم أو نسمع عنهم، أو نقرؤهم أو نقرأ عنهم في الكتب.. إننا لا نرى أبداً، وإنما نقرأ دائماً.

إن أقصى ما يبلغه علماؤنا وعباقرتنا العظام، أن ينقلوا إلينا ما حفظوا وما قرؤوا، كما ينقل لنا الشيخ والقسيس نصوص صلواتهما وكتبهما المقدسة.

ما أقوى سلطان المقابر.. إن الأرواح لتحكمنا دائماً من وراء الحدود، من وراء الزمان..

نحن نفاخر أهل الأرض طراً، زاعمين أننا وحدنا الموحدون الذين يعبدون إلهاً واحداً كبيراً، كبيراً جداً، لا يشركون به شيئاً؛ ولكن ما أكثر الأصنام التي نعبد، ما أكثر أصنامنا..

إنه ليس الذي يصلي للشمس، أو للوثن، أو للأحجار والحيوانات، بأعظم شركاً من ذلك الذي يصلي فكره، واعتقاده، ونظامه، لأحد الموتى البعيدين عنا جداً. إن المعتقدين في هؤلاء الأموات ليعادون الحياة، والناس، والنور، والذكاء، وكل العبقريات، من أجل أن يكونوا عبيداً لأولئك الموتى.. إنهم يعادون أنفسهم ليكونوا عبيداً لبعض الأموات.

إننا نعبد الموتى أكثر وأعمق مما يعبد أي وثني أوثانه. ومهما كان تعريف الوثنية غير مستطاع، ومهما اختلفت مستوياتها، فإننا وثنيون على أعلى مستويات الوثنية، وعلى كل مستوياتها، ومع كل الاختلاف في تعريفها.

لقد شبت حروب صغيرة في مساحة ضيقة من تفكيرنا الديني، بين جماعة اعتدت على اعتقاداتها الدينية ميول عقلية ناحلة، وبين أولئك الذين أخلصوا للنقل وحده.

إن طوائف من المعتزلة وغيرهم ممن كانت لهم منازع فلسفية قريبة المدى، اشتجروا في عراك متقارب الحدود، هم وسائر علماء الإسلام في قضية تصادم العقل والنقل، وكيف يكون الوضع حينئذٍ، فأصحاب المنازع العقلية - وهي منازع محدودة جداً - ذهبوا إلى أنه إذا اختلف العقل والنقل وجب الأخذ بالعقل، ووجب تأويل النقل أو رفضه إذا لم يكن قرآناً أو سنة متواترة.

قالوا: «لأننا لو أخذنا بالنقل ورددنا حكم العقل، لكان هذا رفضهما معاً.. ذلك لأن النقل إنما عرف صدقه وصدق ما جاء به بالعقل، فهو شاهده، والشاهد إذا لم يكن مقبول الشهادة كان المشهود له محتاجاً إلى من يصدقه ويزكيه.

إن تصديق المزكَّى محتاج إلى تصديق المزكِّي.. إن صدق المشهود له، محتاج دائماً إلى صدق الشاهد».

أما أنصار النقل فقد استطاعوا أن ينتصروا دون أن يحتاجوا إلى دهاء، أو ذكاء.. لقد قالوا: «إن الواجب الأخذ بحكم النقل وحده، أما العقل فيجب حينئذٍ اتهامه لأنه أقل من أن يكون نداً للنقل».

وأضاف أذكياؤهم:

«إننا لو طعنّا في النقل أو شككنا فيه، لكان معنى هذا أننا نطعن في الاثنين معاً، ونشك فيهما معاً. ذلك أن العقل هو الذي شهد للنقل، فإذا ثبت في حالة واحدة أن النقل غير جدير

بالتصديق، كانت شهادة العقل ليست ذات دلالة، لأنه شهد لأمر غير ثقة بأنه ثقة، وعاقبة هذا ردّ العقل، ورده يقتضي ردّ النقل لأنه كما سبق هو شاهده الوحيد.

إن اتهام المشهود له، اتهام كذلك للشاهد».

ثم زادوا وقد حسبوا أنهم قد وقفوا بهذه المعركة عند نهاية مرضية وحاسمة:

«إنه لا يمكن أن يقع خلاف حقيقي بين العقل الصريح والنقل الصحيح، وكل ما يبدو أنه خلاف بينهما لا بد أن يكون ضلالاً أو قصوراً في العقل. ولو اهتدى وكمل لعرف الحقيقة، ولوجدها مع النقل دائماً».

ونحن الآن ننظر إلى رماد هذا الحريق الذي شب ثم انطفأ سريعاً، فتهولنا ضآلته.

أمضى أسلحة الحياة

ما هي الوسائل التي يهتدي بها البشر إلى ما يريدون ويحكمون بها على الأشياء..؟

هل البشر منطق أم حركة..؟

هل هم محتاجون إلى أن يعرفوا، أم أنهم لا بد أن يتحركوا فقط كما تتحرك الأشياء، كما يتحرك الجماد والنجوم والنبات، فتتلاءم بالحركة مع نفسها ومع الموجودات الأخرى، وتحقق ذاتها واحتمالاتها.

إن الكون كله يصوغ نفسه ويعطي طبيعته واحتمالاته، ويتوافق مع ظروفه، ويتكيف تكيفاً مستمراً بقانون الحركة وحده. وقانون الحركة هذا أليس هو أيضاً الذي يدبر وجود الإنسان وحياته، ويمنحه نظامه المتطور..؟

إن الشيء يكون لأنه يستطيع أن يكون، وكينونته هذه هي التي تصنع أفكاره وقوانينه وكل صفاته المادية والأدبية. والبشر كأي شيء يكونون بالحركة التي هي طبيعة الكون. والحركة تبحث عن التلاؤم وتحققه. والتلاؤم هو الذي يصنع السلوك. فسلوك البشر هو حركة متلائمة، وأفكارهم وأخلاقهم ونظمهم وكل عبقرياتهم، ما هي إلا أساليب للحركة المتلائمة.

ولكن الحركة هي التي تصحح نفسها دائماً بوسائل ومرشدين تصنعهم هي والناس لا يزالون مختلفين: كيف يعرفون.. وبماذا يعرفون..

هل يحكمون بالنقل.. هل يعرفون بالنقل..؟

إن الأباطيل التاريخية الكبرى يباركها كلها النقل.

إن النقل واحد من الأشياء الكثيرة التي تثقل ضمير الإنسانية بالشرور والعداوات، وتعوقها عن أن تأخذ بمنهج للحياة صحيح موحد، والتي جعلتها عاجزة عن التحرر من نفسها، ومن

أوثانها ومذاهبها، وتقاليدها وأخلاقها، وهمومها الموروثة عن آبائها المتوحشين. إن النقل خصم للصداقة والوفاق والوحدة الإنسانية. إنه هو آلام واحتياجات ونقائص وتصورات عصر من العصور أو فرد من الأفراد قد تجمدت حروفاً وسطوراً بذيئة غبية كئيبة.. وهل يمكن أن نفرض على التاريخ كله آلام عصر أو آلام فرد لتكون كل التاريخ وكل الناس..؟

إن النقل كيفما كان ليس إلا تعبيراً عن حالة إنسان أو جماعة من الناس في وقت من الأوقات. إن النقل ليس إلا إنساناً أو مجتمعاً قد مات وماتت أسباب بقائه.

إذن، هل يحكمون بالعاطفة، ويعرفون بالعاطفة..؟

إن العواطف حرارة ولكنها ليست ضوءاً.. هي رياح كما يقول فولتير، تدفع السفينة ولكنها قد تغرقها أيضاً. والعواطف طاقة عظيمة تدفع المحركات بقوة، غير أن الطاقة والمحركات لا بد لها من قيادة، هي في حقيقتها طاقة كسائر الطاقات في هذا الوجود، طاقة فقط.

كل الناس إنما يخضعون في أعمالهم وفي اعتقاداتهم لهذه القوة الهائلة، والشعوب التي تجيء عواطفها أشد توقداً تكون أحفل الشعوب بالنشاط الإنساني الذي قد يكون إبداعاً كما قد يكون هدماً. كما أن المولد الحراري الكبير يكون أقدر على الإضاءة، وعلى إدارة الآلات، من المولد الصغير. إن من الضلال محاولة تعجيز هذه القوة الإنسانية كما تفعل الجماعات الضالة الخائفة من نفسها. والمولدات العاطفية في الأمم المتحضرة لا تقل عن مولداتها الفكرية، لأن الحضارة في كل صورها تصنعها القوتان.

والعقل كما قيل، موات بغير العاطفة. والعاطفة بدون العقل غير مبصرة. إذن فالعقل قوة قضائية لا تشريعية ولا تنفيذية. والعاطفة تريد وتنفذ؛ ولكن ما الذي يحميها من الضلال والتصادم..؟

ونحن الذين تعلمنا كيف نميت عواطفنا، كما تعلمنا كيف نخمد عقولنا، ظللنا غير قادرين على الاندفاع إلى الهدف، وغير قادرين على رؤية الهدف. وقد كانت سياسة التمويت التي صنعها معلمونا الموتى قادرة على أن تضعف فينا القوتين: قوة الاندفاع وقوة الحكم. وكانت هذه السياسة تعد العاطفة الإنسانية شر ما في الحياة، وتراها الخصم الشرير للدين، وللروحانية وللأخلاق.

إن الشهوة المتفجرة هي أمضى أسلحة الحياة. والإنسان الشهواني يفعل الحياة أكثر مما يفعلها خامل الشهوات. ولكن هذا السلاح أعمى، وهو حيوان حتى يحكمه العقل؛ حينئذٍ يصبح مبصراً.. يصبح إنساناً مبصراً.

وأنت حين تصر على الاستمساك بعقائدك وأوضاعك، وتصر على أنها حق، بدليل صدق

عاطفتك نحوها أو شهواتك لها، تكون طفلاً ضالاً، لأن الناس جميعاً يجدون نحو أوضاعهم ومعتقداتهم مثل الذي تجد؛ حتى أولئك الذين يعبدون الشيطان. إن الذين يعبدون الشيطان يشتهونه أكثر مما يشتهي الله من يعبدونه.

إن المعتقدات ليست عواطف حقيقية، وإنما هي تعبير عنها، أو تصريف لها. إن الناس لا يختلفون في العواطف إلا في مقدارها وتوزيعها لا في وجودها، فلا خلاف بينهم في أن لدى كل فرد عاطفة الحب والبغض وإرادة الحياة؛ وإنما يختلفون فقط في المقدار أو في التوزيع. ولكن اختلافهم في العقائد والمذاهب واسع. فالعقيدة إذن ليست عاطفة، ولكن العاطفة صرفت إلى العقيدة صرفاً، فظهرت فيها على أنها إحدى صورها وأزيائها.

والطريقة التي تمّ بها هذا الصرف هي أن الناس لقنوا عقائدهم بالتكرار، والوعظ، والتعويد، والممارسة.. ولقنوا أن يصبوا عواطفهم في تلك العقائد. والاتصال الطويل بالشيء، يجعل النفس تألفه، بل وتحبه وتهاب فراقه؛ فتشابكت هذه الأفعال والتلقينات بالعواطف، فخرج منها حالة تصدق إن سميتها عواطف، وتصدق إن سميتها عقائد.

إنه لن توجد عقائد لو لم توجد العواطف، ولكن العواطف توجد بدون عقائد.

وطبيعة العاطفة طبيعة ليس فيها تحديد ولا تخصيص. فالحب والبغض، والخوف وإرادة الحياة وأمثالها، عواطف مطلقة ليس في تفسير شيء منها حب ذات، أو أمر بعينه، أو بغضه، أو الخوف منه؛ وإنما هذه توزيعات تتحدد بالتجربة، أو بالتلقين، أو تحت ظرف معين يصنع صدفة معينة. وعاطفتك نحو معتقد أو مذهب ما، يشبه عاطفتك نحو إنسان أو فعل ما؛ إنما وقع لك تحت ظروف خاصة، ولولا تلك الظروف لبقيت حياتك لا تعرف ذلك المعتقد، ولا ذلك المذهب، ولا ذلك الإنسان، ولا ذلك الفعل، بل ولا ذلك الإله.

والذين حسبوا العقائد عواطف أو غرائز، فاتهم التمييز بين هذه الأمور. وواضح أن الذين يعتقدون في «بوذا» هم كسائر أهل المعتقدات الأخرى في أرجاء الدنيا، كان من الممكن أن تظل عواطفهم فراغاً من هذه المعتقدات والآلهة، وأن تظل أيضاً ـ أي العواطف ـ كما هي مطلقة بدون أن تتحول إلى الارتباط بأحد هؤلاء الأرباب.. كما أن الذي أحب فلاناً أو فلانة أو كرههما، كان من الممكن ألا يحبهما وألا يكرههما.

إن الارتباط بالأديان، والعقائد، والمذاهب، والآلهة المعينة، مثل الارتباط بهذا الإنسان أو بهذه الإنسانة، كان من الممكن ألا يحدث لو كانت الظروف ظروفاً أخرى.. إذن، فالعواطف ليست طريقاً إلى معرفة الخير والحق، فلماذا يعرفون..؟

قيود للفكر، جنون للإرادة

ما هو الإلهام والشعور الموحى..

يؤمن قوم بهما ويرون أنهما خليقان بأن يدلا على شيء يؤمنون بأنه لا بد أن يكون فيهما شيء من معاني النبوة أو من معاني الحدس النفاذ.. إنهما لن يكونا بطلاناً.

ويصعب التفريق بين معنى لفظة الإلهام، ومعنى لفظة الشعور الداخلي، كما يصعب التفريق بين معناهما ومعنى العاطفة على أحد وجوهها. والإلهام مع هذا، أو الشعور، أو الوحي الذاتي، ليس له من دلالة أكثر من أن الظروف أو الأوضاع الاجتماعية، أو احتياجات النفس ومتاعبها، أو قلقها وأمراضها، قد جعلت من إنسان ما، ملهماً مريضاً يتلقى انعكاس تلك الحالات على طبعه الخاص بصورة إلهام أو وحي.

والمرضى والشاعرون بالخيبة والظلم، والعاجزون عن أن يصنعوا لهم دنيا حقيقية في عالم الواقع، والذين لا يجدون متنفساً لمواهبهم.. هؤلاء وأشباههم هم أقرب الناس إلى الإلهام، وإلى تلقي الوحي الذاتي. وقد يتطور هذا الشعور الباطني حتى يصبح أشباحاً وأصواتاً ترى وتسمع. وهذه الحالة يجب أن تعد محاولة نفسية منحرفة، فإن المحاولة الصحيحة للنفس الصحيحة هي أن تشيد عالمها المنشود خارجها، وأن تعبر عن رغباتها تعبيراً عملياً مادياً بأن تنطلق إلى الخارج في صور احتياجات مقضية، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك لسبب من الأسباب، انحرفت وانصرفت إلى الداخل.. إلى داخل ذاتها.

ولكنها لن تجد داخل ذاتها مكاناً للتعبير عن الرغبات، ولإقامة عالمها المطلوب، وحينئذٍ لا تجد إلا أن تتنكر، وأن تتخذ زي الفضيلة لها زياً.. لا تجد إلا أن تتصور إلهاماً ووحياً يريد إنقاذ البشر الضالين المعذبين؛ بل يريد إنقاذ الآلهة من ضلال الناس، وكفرهم بها، وتعذيبهم لها بفسادهم وغبائهم. إن في قصد هؤلاء أن ينقذوا الآلهة أكثر مما في قصدهم أن ينقذوا البشر.

وأمراضنا وآلامنا النفسية محتوم أن تتحول إلى قادة ودعاة وأنبياء. إن المصحات العقلية والنفسية هي أحفل المواطن بالملهمين والإنسانيين، وأقرب الطرق إلى السماء.

إن أبواب السماء لمفتحة دائماً لهؤلاء الملهمين المتعذبين المعذبين، الذين يحولون آلامهم إلى قرابة لهم بسكان السماء.

إن المرض والألم والحرمان.. هؤلاء الأعداء الثلاثة تتنزل دائماً بالنبوات، والزعامات الكاذبة المريضة، على قلوب المرضى والمتألمين والمحرومين، وليس الوحي الذاتي إلا صورة من صور التعبير عن نهاية الاختزانات الذاتية، اختزانات الطاقات والشهوات النفسية داخل النفس، والأهوال الوحشية الفظيعة التي تصورها الملهمون عقاباً لأعدائهم ومخالفيهم.. تلك الأهوال التي ليس

لها مثال موجود، والآلام التي لا انقضاء لها، راجعة إلى أنهم كانوا عاجزين عن إيقاع العقوبة السريعة بأعدائهم ومخالفيهم، فأعدوها لهم في عالم آخر. لقد عجزوا عن أن يفعلوا فتصوروا. ولو كانوا قادرين على الانتقام وعلى شفاء أنفسهم من أحقادها وآلامها، لما توقدت تصوراتهم بتلك النيران الغيبية التي ظلت تلفح وجه التاريخ الإنساني بوهجها الأليم المنكر حتى طبعته بسماتها الكالحة الشريرة.

إنه لتهولنا تلك الصور من العذاب والأهوال التي ابتدعها خيال أولئك المعلمين الكبار لتكون عقاباً لمخالفيهم، بل عقاباً للناس جميعاً..

كم فيها من الدمامة، من الوحشية، من البغض، من التعصب..

كيف استطاع خيال أن يبدع كل ذلك، أو يعيشه، أو يقبله، أو يحمله..؟

إن العاجزين يتمنون. والذين يتمنون يتخيلون خيالات منبثقة عن اللهفة، لا عن الفكر. والمتلهفون العاجزون يتحولون إلى مشاعر، وتصورات أليمة ضالة.

أما القادرون فقد تعدوا منطقة التشهي، والتصور، والتألم، إلى منطقة الأخذ، والظفر، والتلذذ.. إنهم كالآلات التي تحولت طاقاتها إلى نشاط مادي خارجي، وظلت أجهزتها الداخلية سليمة. ولهذا فإن أوقات المحن والآلام هي أفضل الأوقات لحدوث الإلهام وازدهاره. والشعوب العاجزة الفقيرة، هي التي يوحى إليها دون الغنية القادرة. إن علينا أن ننتظر خروج هؤلاء المعلمين في آسيا وإفريقيا، أكثر من انتظارنا لخروجهم في أوروبا وأمريكا.

وهؤلاء المعلمون الملهمون يكون فيهم ذكاء وتفوق ما.. إنهم يجيئون الناس بما يبهرهم ويهزهم، إذ المفروض أنهم مخصوصون بلمعان ذهني، وبطاقة نفسية غير عادية. وحينما يحاول ذكاؤهم وهياجهم النفسي والشهواني أن يتدفقا خارج النفس بحثاً عن المجال، اصطدما بالحواجز الصلبة العالية فارتدا داخل النفس، ثم اصطرعا فيها اصطراعاً عنيفاً مدمراً، فهدما الحواجز والجسور، وأخيراً ظهرا بأشكال مرضية، شأن كل القوى المندفعة حينما تغلق عليها ذاتها، فإنها إذا لم تجد طريقاً تندفع فيه، حاربت ذاتها وفجرتها. ولن تجد ـ إلا أن يكون شاذاً جداً ـ مكان هؤلاء بين السعداء والأغبياء. إذ السعداء قد دفعوا نشاطهم خارج ذواتهم، فحقق رغباتهم، ونفضوا أنفسهم من أمراض التمني المحروم.

أما الأغبياء، فإن طاقتهم الذهنية الضئيلة لن تكون لها اندفاعات كبيرة لا في الذات ولا خارجها.

إن الأغبياء والسعداء لن يكونوا أنبياء أو زعماء للتاريخ يقودونه إلى الحماقات الكبرى، أو

يهبونه العاليم الأليمة المتعصبة. والذين حركوا الموجات التاريخية العظمى، هم من هذا الصنف المريض، المتعذب المعذب الذكي.

وهؤلاء ليسوا خيراً، كما أنهم ليسوا شراً. إنهم في المجتمعات كالأمراض في الأفراد، يخطون بها أحياناً على رمال التاريخ، ولكنهم يلقون بها في التيه المملوء بالعذاب والأوهام.. وكذلك الأمراض في الأفراد تدفعهم أحياناً إلى أن يكونوا فعالين مبدعين، ولكنها مع ذلك تهبهم العذاب، وتطبع إبداعهم بالشذوذ، والتناقضات الأليمة، وبالوحشية الأخلاقية. إنهم مثل الأوهام الكبيرة للأمم، تعطيها الإرادة وتسلبها الفكر.. إنهم كالأحلام، تعبّر عن شيء ولكنها تعبر عنه تعبيراً ضالاً أليماً مشوشاً. وأغلب الزعماء والدعاة الكبار في التاريخ، كانوا من هذا النوع الذي يمنح الإرادة ويسلب التفكير، أو الذي يخاطب الإرادة، ويرفض مخاطبة التفكير، بل ويقمع التفكير. بل إن عبقرية جميع الزعماء والمعلمين في كل التاريخ، هي أن يهبوا الإرادة ويسلبوا التفكير، أو أن يستثيروا الإرادة، ويخمدوا التفكير.. كل الزعماء والمعلمين حتى المفكرون منهم، لم يكونوا في كل تاريخهم إلا قيوداً على الفكر، وجنوناً للإرادة، بل لكل شيء.

هذا عن الإلهام في صورته المريضة.

أما في صورته الصحيحة ـ أي حينما يقع لإنسان سوي ـ فليس هو سوى انطباعات لصور مادية مأخوذة من العالم المشهود الخارجي، فهذا العالم المادي المشهود ينعكس على نفس الإنسان صوراً وأحكاماً فيحولها إلى أفكار، فيرى حسناً ويرى قبحاً ـ أي يرى ألماً ويرى مسرة، ويريد أو لا يريد، ثم لا يعطي شيئاً من هذا معنى من معاني الغيب أو الإلهام.

إن الإلهام هو الرؤية من خلال التجربة المماثلة، لا من خلال الرؤية المباشرة.

ولكن العقل ما مكانته، هل يصلح أن يكون حكماً على الأشياء..؟

يقول العقليون:

إنه إما أن يكون حكماً في الأشياء كلها، أو في بعضها، أو ليس حكماً في شيء.

إن كان الأول فإنه حينئذٍ يكون حكماً على الدين نفسه، وعلى هذا الفرض تسقط جميع المطاعن التي تقدمت في العقل.

وأما إن كان الصواب هو الفرض الثاني فما هي الحدود حينئذٍ بين ما هو حكم فيه، وبين ما لا سلطان له عليه..؟

وما من حد يمكن أن يفترض إلا كان باطلاً، لأنه إذا كان حكماً في شيء فلا بد أن يكون

حكمه هذا قائماً على قيمته الذاتية، وإلا لما قبل. وإذا كانت له قيمة ذاتية تعطيه حق الحكم المقبول، وجب أن يكون كذلك دائماً.

ولا يمكن أن يكون الشاهد ثقة في شيء في وقت، غير ثقة في شيء آخر في وقت آخر؛ وإلا لما كان ثقة البتة. وإذا أمكن الشك في شهادة الشاهد في حالة أو حالات، لم نجد ما يمنع من الشك فيه في كل الحالات.

وإذا كان العقل مردود الحكم في بعض الأشياء، فرد حكمه إما أن يرجع إلى طبيعته ـ أي طبيعة العقل ـ أو يرجع إلى أمر آخر. فإن كان الأمر هو الأول وجب ردّ أحكامه كلها دائماً، لأنه لا يصح تحكيم شيء ليس في طبع حكمه الصدق. وإما إن كان رد حكمه في بعض الحالات راجعاً إلى أمر آخر غير طبيعته قيل: هذا غير مفهوم ولا يمكن تحديده، ولو كان صحيحاً لوجب ردّ أحكامه دائماً من أجل هذا الأمر الذي لا يمكن فهمه ولا تحديده.

وأما الافتراض الثالث ـ أي افتراض العقل دائماً ليس حكماً في شيء ـ فهذا مجرد افتراض جدلي.

إذن لا محالة من افتراض العقل دائماً، حكماً مطلق الحكم على جميع الأشياء الكبيرة والصغيرة، وأنه هو الذي يشرف على كل معارف البشر، ولا شيء يشرف عليه أو ينوب عنه.

وقد يقال بأسلوب آخر:

الدين إن كان صدقه قد علم بالعقل، فالعقل إذن صادق الحكم في رأي الدين، وله إذن أن يحكم عليه كله في كل الأوقات، لأنه هو شاهده، ولو شككنا مع هذا الافتراض في العقل لكان هذا الشك شكاً في الدين نفسه على ما سبق.

وإذا لم يعلم صدقه من العقل، فبأية حجة إذن علم صدقه.. مع أن العقل هو وسيلة المعرفة على ما افترض..؟

ولو أمكن الزعم بأن شيئاً من الأشياء يعلم صدقه بطريقة أخرى غير العقل، لأمكن لكل صاحب دين، أو مذهب، أو باطل، أن يدعي هذه الدعوى لدينه، أو مذهبه، أو باطله، ولما جاز للآخرين حينئذٍ أن يحاجوه بالعقل، أو يعلموا بطلان رأيه، ولما جاز أيضاً أن نحاول التدليل على ديننا بالبرهان الذي لا يدرك إلا بالعقل، ولا أن نحاول إقناع الآخرين به.

يقول قوم: إن أصل الدين أو جملة الدين، لم تعرف إلا بالعقل، وبعد معرفة أصله وجب تحكيمه ـ أي تحكيم الدين ـ في العقل بعد إخلائه من تكاليف الحكم.. أي إن وظيفة الدين في هذا الموضوع، هي أن يدلنا على أن الدين حق، ثم يترك الطريق لهذا الذي منحه الثقة، لأن العقل لن يستطيع أن يعلم الوحدات العقلية التي لا يمكن علمها إلا بالدين وحده.

ثم يقولون: إننا لو احتجنا إلى معرفة كل قضايا الدين بالعقل، بعد أن عرفنا منه صدق أصله، لكان هذا الاحتياج دليلاً على أننا لم نؤمن بشهادة العقل المطلقة التي ظفر بها الدين منه. وإذا شككنا في صدق شهادته لم نكن مؤمنين به، وإذا شهد الشاهد الثقة الذي نرضى شهادته، لزم أن نقبل كل ما يقول، ولو خالفت شهادته ما نقوله وما نعلمه.

وهذه المحاولة غير سديدة.

ذلك لأننا ما قبلنا شهادة العقل لأصل الدين، إلا لاعترافنا بقدرته على الشهادة، ولاعترافنا بأن شهادته مقبولة في جميع الحالات.. وإلا فإنه إذا لم يكن قادراً على الشهادة لعجزه أحياناً، أو إذا لم يكن مرضي الشهادة في كل قضية، لم يجز لنا أن نقبل شهادته في قضية واحدة، لا قضية الدين ولا غيرها، لاحتمال أن تكون هذه القضية من القضايا التي هو عاجز عنها، أو من القضايا التي لا تقبل شهادته فيها. ومن المحال أن تقول قبلت خمسين في المائة من شهادة فلان، ورفضت خمسين، ثم تأخذ محكمة ما في الدنيا، بشهادة ذلك الشاهد عملاً بشهادتك له.

والعقل إذا كان عاجزاً عن إدراك كثير من قضايا الدين، أو كان أهلاً لأن يخطئ فيها، فكيف استطاع إدراك أعظم قضاياه، ولم يكن محتملاً أن يخطئ فيها.. وإذا كان قادراً على فهم قضيته الأولى وهي معرفة أصله، ولم يكن جائزاً أن يضل فيها، فأنّى يعجز عن فهم الجزئيات، أو يضل فيها..؟

يعتقدون ثم لا يفكرون

إن الذي يعرف الله ووجوده بعقله، يجب أن يعرف بعقله كل شيء. وليس استمرار الرقابة العقلية نكوصاً عن الشهادة، بل استمرار في رقابة الأسباب التي أوجبت منح هذه الشهادة. وليس هنالك من تمنحه ثقتك بشهادتك له ليعود هو فيسقطك، وليكون حاكماً عليك قادحاً فيك، ولو حدث هذا لكان إسقاطاً لكما معاً. لأنَ الذي يسقط شاهده، يسقط هو أيضاً لا محالة، لأنه إنما اكتسب التزكية منه، وإذا طعن الشاهد في مزكيه سقطا معاً.

وهنا يهتز خصوم العقل اهتزازة الانتصار ويقولون في زهو عظيم:

إن شر الأديان والمذاهب في الأرض، إنما علم صدقها بالعقل على ما يقول أصحابها ويعتقدون. وهم في هذا القول أما أن يكونوا مصيبين أو مخطئين، فإن كانوا مصيبين فالعقل شاهد كاذب، لأنه منح شهادته للأديان والمذاهب الباطلة؛ وإن كانوا مخطئين، فالعقل شاهد كاذب، لأنه منح شهادته للأديان والمذاهب الباطلة؛ وإن كانوا مخطئين، فالعقل إذن لا يصح الاعتماد عليه، لأنه حاكم جريح الموهبة، أو جريح الأخلاق.. إن الصادقين والكاذبين يأوون إليه، فلا يرفض أحداً منهم، بل يستقبلهم جميعاً بحنان ومودة لا تفريق فيها.. إنه لا يميز بين

اللاجئين إليه.. إنه لا يؤمن بالتمييز أو يقرّه.

ولكن ها هنا أمران:

أحدهما أن العقل لم يستشر في أمر الأديان، وإنما أخذت بالتلقين والتتابع، فالذين يولدون في أي دين يكونون من أهله.

وإذا كان العلماء المفكرون والزعماء في أوروبا وأمريكا مسيحيين، وكان الفلاحون والعمال ورجال الدين عندنا مسلمين، وكذا زعماؤنا ومعلمونا الأغبياء، لم يكن ممكناً أن يعني ذلك أن هؤلاء المسيحيين ليسوا أذكياء، ولا عقلاء، ولا أحراراً، ولا مخلصين، وأن فلاحينا وعمالنا ومشايخنا وزعماءنا ومعلمينا، هم وحدهم العقلاء والأحرار والمفكرون والأذكياء. إنك لست مسلماً، ولا يهودياً، ولا مسيحياً، لأنك أذكى أو أعشق للحق من صديقك وزميلك الذي يدين ديناً آخر..

إن الناس يجدون أديانهم كما يجدون أوطانهم، وأرضهم، وبيوتهم، وآباءهم.. إنهم يجدونها فقط ولا يبحثون عنها، أو يؤمنون بها، أو يفهمونها، أو يختارونها.

إن العقل لا يدري ولا يستشار؛ ولكن البشر بعد أن يرتبوا معتقداتهم ويسلموا بها تسليماً، يحاولون أن يدخلوا عليها العقل ويسوغوها به، أي يحاولون أن يزكوها به، لا أن يحكموه فيها، فهي لم توضع تحت تصرفه، وإنما وضع هو في خدمتها.

والبشر، لأنهم مفروضون من المخلوقات العاقلة، لا يجدون بداً من أن يفترضوا تصرفاتهم كلها محكومة بالعقل، حتى أكثرها مجانبة للعقل.

ومن الكلام الشائع أن الناس يعتقدون ثم يفكرون، وهذا غير صحيح حتماً.

إن الناس يعتقدون ثم لايفكرون، أو يفكرون فيما يجعلهم لا يفكرون، لأنهم بعد الاعتقاد لا يعرضون عقائدهم على الفكر للنقد والاختبار والدراسة. وكل ما يفعلون أن يستعينوا بالعقل على تقوية اعتقاداتهم وزعمها صحيحة.

إنهم يسخرون العقل ليؤيد ما ليس عقلاً، إنهم يسخرون العقل لإخماد العقل. فالمعتقد يفكر إذا فكر ضد التفكير.. أي إنه يحارب التفكير بأسلوب يجعله يظن أنه يفكر.. بل إن التفكير هو دائماً مقاومة للتفكير على نحو ما.

ولو كانت الأديان خاضعة لحكم العقل، لضالت الخلافات بينها، وتناقصت، أو لتداخلت وتوحدت كلها في دين واحد؛ كالذي حدث في الموضوعات العلمية والصناعية التي ابتكرها

العقل.

إن الحضارة تتقارب وتتوحد عند سائر الشعوب مهما تباعدت واختلفت في بداياتها.

هل اختلف البشر في الرياضيات، وفي الكشوف العلمية، أو في حجم الشمس والقمر، مثل اختلافهم في أديانهم ومذاهبهم..؟

وكذلك لو كانت الأديان تؤخذ بالعقل والمنطق، لوجدنا المؤمنين يخرجون من دين إلى دين بالسرعة والسهولة التي ينتقل بها الناس من فكر إلى فكر، ومن فلسفة إلى فلسفة، بل ومن مكان إلى مكان.

إن الناس يخشون على أديانهم وعقائدهم من تعريضها للمنطق، فكيف يؤيدونها، أو يعرفون صدقها بالمنطق، وهم يرون الذين يخضعون المعتقدات للتفكير الحر زنادقة، يحاربون ويكرهون وتجب البراءة منهم..؟

توجد معركة واحدة تنتصر فيها الأديان، تلك هي ألا تدخل معركة ضد أي خصم من خصومها..

نعم، الأديان لا تنتصر إلا في المعارك التي تتجنبها..

إن الأديان لا تحارب بالعقل، ولا تحارب العقل، أي لا تدخل مع العقل في معارك حرة؛ لهذا ظلت منتصرة، أو بدت كمنتصرة.

استفراغ روحي

إن حقائقنا متولدة عن رغباتنا ومخاوفنا، عن لذاتنا وآلامنا، لا عن أفكارنا؛ فالمخاوف والرغبات تخلق التصورات التي كثيراً ما تكون ضالة وعاجزة وغير متصلة بالتفكير. والخوف والحاجة ـ لا البرهان ـ هما اللذان اخترعا لنا عوالم الأشباح والأرواح، وكل ما وراء الحس من أوهام رهيبة أو بهيجة، ثم جعلانا نؤمن بها كأننا نراها، بل جعلانا نراها.

ومع أن التصورات حقيقة فإن الصور ليست كذلك دائماً. فالأولى انطلاقة قذيفة موجودة، ولكن ليس حتماً أن تصيب الهدف، بل ولا أن يكون هناك هدف. فالتصور حالة لا صورة.. فالتصور لا يعني أن هناك صورة، والإيمان لا يعني أن هناك إلهاً.

ماذا لو كان الإنسان يعيش بلا رغبة ولا رهبة..؟

إنه سيكون حينئذٍ من غير تصور، لأن التصور من عمل الحاجة. والذين لا يحتاجون لا يتصوورن! ولولا الصور النفسية لما كانت الآلهة والعقائد والتقاليد. ونحن نعتقد لأننا نتألم، لا لأننا نعلم، ولا لأن الكون محتاج إلى عقائدنا، ولا لأن الآلهة تطالبنا بذلك أو تفرح به، ولا

لأن شيئاً من القيم يفرض علينا هذا الاعتقاد.

إننا سوف نعتقد حتى لو حرمت علينا الآلهة والأخلاق والعقائد.. نحن لا نبحث في اعتقادنا عن رضا شيء، ولا عن احترام شيء، ولا عن الحقيقة في ذاتها.. إننا نعصي لنؤمن.. نعصي أربابنا لنؤمن بها.

نحن لا نريد بعبادتنا أن نطيع.. الطاعة والمعصية شيء واحد.

إن السماء لو أرسلت إلينا كل أنبيائها ينهوننا عن الإيمان، ويحرمون علينا كل عبادة، لعصينا كل هؤلاء الأنبياء، وبقينا نؤمن ونصلي ونتعبد. فالعبادة استفراغ روحي، وعملية جنسية تؤديها الروح لحسابها، لا لحساب الآلهة..

لقد عبدنا الرجال الصالحين الذين جاؤونا لينهونا عن عبادة البشر.. لقد عبدنا حيث نهينا عن العبادة. إننا لا نؤمن أو نعبد لأننا مأمورون بذلك، بل لأننا محتاجون إلى العبادة والإيمان.. إننا سوف نعصي الإله الذي ينهانا عن عبادته والإيمان به، مثلما نعصي الإله الذي يأمرنا بأن تغتسل أرواحنا وأخلاقنا من أوضارها وظلماتها.

ليست أربابنا وعقائدنا قيماً، ولا أخلاقاً، ولا تفكيراً؛ وإنما هي شهوات وأنانية. وليس المؤمن المتعبد بمريد للفضيلة، ولا بفاعل لها إلا بقدر ما يريدها ويفعلها أولئك الذين يستجيبون لشهواتهم وأغراضهم المحرمة، ويتركون في سبيلها الأخلاق التي يعترفون بها.

والشيء ـ سواء أكان حقيقة أم وهماً، لا يعنينا بذاته؛ وإنما يعيننا بقدر حاجتنا ـ ولو الوهمية ـ إليه. وليست قيمة الآلهة موجودة في نفس الآلهة، ولكن في إرادتنا وشهوتنا. وأدلة عقائدنا لا توجد في عقائدنا، وإنما توجد في ظروفنا، وفي اعتيادنا لها.

والبشر في العادة تتراءى لهم أربابهم وعقائدهم التي تتعلق بها إرادتهم ومستوياتهم، كما يتراءى الطعام للجائعين، وتتراءى صور النساء للمحرومين جنسياً في أحلامهم. وهذا لا يعني أكثر من أننا نريد فنرى ونعتقد. والإرادات والعقائد ليست حقائق خارجية، بل تصورات ذاتية، والقصة تتألف هكذا:

أردنا فتصورنا، فاعتقدنا، فاقتنعنا..

لقد احتلمنا بالآلهة كما احتلم الجائعون بالخبز، وكما احتلم المحرومون من الجنس بصور النساء وبالممارسة الجنسية. والخوف من السماء فضيلة بقدر ما يكون من الظلام فضيلة. وأسباب الإيمان بالأرباب هي نفس أسباب الإيمان بوجود الأشباح. وكما لا يجب على الآخرين أن يريدوا حين نريد، كذلك لا يجب عليهم أن يريدوا ما نريد.

إن الوجود بكل ما فيه من حقائق وبشر، ومعارف وآلهة، وأخلاق ومبادئ، لا يساوي في حسابنا أكثر من رغبتنا فيه وشعورنا نحوه.

والعالم لذلك جزء منا، كما نحن جزء منه منبثق عنا كما نحن منبثقون عنه. وهو بنا يتغير وينفعل، ويصغر ويكبر، أكثر مما يحدث العكس. ومعانيه المحبوبة والمكروهة، الدالة والنافية، موجودة فينا أكثر من وجودها فيه هو.

هل يتحقق معنى الوجود لو لم نوجد نحن..؟ فالوجود معنى يحدده الإدراك وحده، وبغير الإدراك لا يمكن التمييز بين معنى الوجود ومعنى ضده؛ بل لا يمكن التمييز بين معنى ومعنى، ووجود ووجود.

فنحن إذن لشعورنا وإدراكنا الموجدون للحقائق الفكرية والأدبية كلها، الواهبون للأشياء صفاتها، وقيمها، وقوانينها، ودلالاتها، وحدودها.

والبشر إذن بصفتهم الإدراكية، هم الذين لهم وحدهم أن يحكموا على كل شيء، وفي كل شيء، وليس لشيء ما أن يحكم عليهم.

هل العقل نوع من الجنون

أما الأمر الثاني عن التشكيك في قيمة العقل فهو:

إذا لم يقبلوا حكم العقل في الأديان لأنه يؤيد باطلها، فأي شيء إذن يقبلون حكمه..؟

إنه إذن من الممكن اختراع أرباب وأديان باطلة لا عداد لها، ثم الاستمساك بها، ورفض ما عداها، من غير أن توجد حجة تبطل ذلك، بل من غير أن يجوز لنا الإنكار على المؤمنين بها، أو مناقشتهم.

إننا لا نستطيع حينئذٍ أن نعرف أي الأديان والأرباب الحق وأيها الباطل..

ومن الجائز في هذه الحالة أن نكون نحن الهالكين، والآخرون هم الناجين، فنشقي أنفسنا بالأعمال الشاقة لنصير مصيراً نجهل نهايته أو مصيراً وبيلاً.. إنه لا وسيلة للمعرفة على هذا الافتراض.

إن الأديان والآلهة التي يمكن ابتداعها يوم يعزل العقل، أكثر من التي يمكن ابتداعها يوم يحكم.

إذا كان العقل داعية ضلال، فأين يوجد داعية الهدى..؟

إننا لا نستطيع أن ننكر أن العقل يؤيد الضلال والغباء والأهواء المعبودة؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع أن ننكر أنه لا توجد وسيلة أخرى تعصمنا من ذلك.

ويقول قائلون:

إن العقل ليس شيئاً يمكن ضبطه بالأبعاد، أو بالوزن، أو باللون. إنه أحياناً يشبه العاطفة في سرعة تقلبه، وكثرة اختلاف الناس فيه. إن انفعالات النفس وما يختلف على الجسم من صحة ومرض، وراحة وتعب، وما يحيط به من اختلاف الظروف الجوية من حر وبرد واعتدال.. إن ذلك كله وأمثاله يؤثر في حكم العقل وفي تناقضه، حتى أن الإنسان الواحد ليحكم أحكاماً عقلية عديدة متناقضة على الأمر المعين الواحد تحت ظروف مختلفة. إن العقل الذي لا يتناقض هو العقل الذي قد مات؛ ولا يحتمل أن يثبت أي إنسان كل حياته على حكم واحد.. فكيف يصح إذن اتخاذ العقل حكماً على الآلهة والاعتقادات..؟

إنه في هذه الحالة لا يوجد ما يمنع من أن مرضاً طفيفاً يصيب الإنسان يعبث بميزان اعتقاداته، ويبدل صفات آلهته وصورها.. وقد يتغير رأيه تحت اختلاف هذه الظروف، وهو قائم يؤدي عباداته؛ فيسخر حينئذٍ من عقله وعقائده، ويرى أن العقل في أن يخرج من عبادته كما يخرج من ألعابه متى شعر بالتعب أو الملل، أو الحرج، أو الخطأ، أو السخف.

وإذا كان من الضروري أن يدفع عن العقل كل هجوم؛ فإن من الضروري أن يقال إن هذا الذي ذكر ليس حقاً كله، وإن كان أيضاً ليس باطلاً. فالعقل حقاً يتأثر، ويتغير، ويتحرك بسرعة، ويؤيد ثم يناقض، ويفعل العكس لأنه حي؛ والحياة حركة، والحركة تغير. وهو في حركته وتغيره يصنع الحقيقة، ويصل إليها، ويعبر عنها. ولو كان جامداً ثابتاً لما كان شيئاً. وما دام العقل يعكس دائماً الحقيقة التي حوله، فلا بد أن يتغير، وأن يتناقض، لأن الحقيقة كذلك.

إن العقل يتغير لأنه شيء قوي، فالشيء لا يثبت على حال. والقوي أكثر تغيراً من الضعيف. وغير الشيء.. غير الموجود هو الدائم الثابت، لأنه لا شيء.

وتناقض العقل ليس ضعفاً فيه، ولكن تناقضه يعني أنه يعمل في عدة ميادين وينظر إلى كل الجهات.

إن تناقضه يعني أنه يرى بكل العيون، ويسمع بكل الآذان، ويحس بكل الحواس.. يرى، ويسمع، ويحس كل الكون، كل المتناقضات. ويقع تحت كل الضغوط، ضغوط كل الأهواء والمصالح، والظروف والمذاهب، والنظم والتاريخ.. ضغوط كل المستقبل وكل الحاضر وكل الماضي.

إذن كم هو مسحوق ومظلوم ذلك العقل.. إن العقل إذن نوع من الجنون.

إن العقل هو الذي يدرك تناقض العقل، فالتناقض وإدراك التناقض أسلوبان عقليان.

والعقل أيضاً هو الذي يدرك سخف العقل وهزائمه. إن العقل ناقداً ومنقوداً، هو كل المعرفة.

الحياة لا تقبل الثبات ولا الديمومة. والثبات والديمومة من اختراع الوهم، هما الوهم. فالخرافة تدعو إلى الدوام، والخرافة أكثر دواماً من الحقيقة. والشيء الذي نتصوره ثابتاً إنما نتصوره كوهم، ولو تصورناه حقيقة لتصورناه متغيراً. وقد تصور الإنسان أشياء ثابتة لأنه لم يكن يبحث عن الحقيقة.

العقل وحده هو الذي توصل إلى أنه يجب أن يتحول إلى تجربة حسية. وهو نفسه الصانع للتجربة الحسية. وقد انتهى إلى أن المنطق المجرد ينتهي أيضاً إلى منطق مجرد. إن العقل هو وحده الذي اكتشف ضعف العقل وخطأه وعيوبه.

إن العقل هو عمل الوجود الحسي. هذا هو حكم العقل وعمله. إن العقل وحده هو الذي هدم العقل. إن الوجود الحسي هو الحقيقة.. هكذا تكلم العقل.

وبعد فكل الدلائل التي تقال للتشكيك في قيمة العقل، إما أن تكون دلائل عقلية أو غير عقلية، فإن كانت عقلية فالعقل إما أن يكون حكماً مرضي الحكم، أو ليس كذلك.

إن كان الرأي هو الأول هوت جميع المطاعن فيه.. وإن كان الرأي هو الثاني سقطت هذه الدلائل أيضاً لأنها دلائل عقلية، وقد فرضت باطلة.

أما إن كان ما يقال من محاولة هدم العقل ليس رأياً صادراً عن العقل، فكيف نرتضيه، وبأية وسيلة نعلم أنه حق، وإلى ماذا حينئذٍ يجب أن يكون الاحتكام..؟

إنك لن تستطيع أن تثق أيها المؤمن بأنك على الدين الحق، وأن مخالفك على الدين الباطل، إلا إذا احتكمت إلى العقليات، وأنت في هذه الحالة لم تفعل ذلك، فكيف ضمنت لنفسك المصير الذي تريده وتنتظره..؟

إن كانت حجتك في ضمان هذا المصير هو رغبتك فيه، لارتباطك النفسي والاجتماعي به، ولتآلفك الطويل معه، فاعلم أن جميع مخالفيك هم جميعاً مثلك في رغبتهم وارتباطهم وتآلفهم..

وإن كانت حجتك هي اطمئنانك ورضاك عما أنت فاعل وعن نفسك، فاعلم أن الآخرين كلهم يرون ويطمئنون كذلك..

وإن كانت حجتك هي أنك وجدت مجتمعك كله يرى رأيك ويعتقد اعتقادك، فاعلم أن كل المجتمعات كذلك.

أما إن كانت حجتك أنك تريد الأخذ بالاحتياط لنفسك، فتؤمن بما لا دليل عليه لتكون واثقاً من النجاة على افتراض صحته، فهل يمكن أن يكون الإيمان بهذا الأسلوب.. هل يكون الإيمان بالتعامل على الأكثر ربحاً..

هل هو إجراء مفاضلة بين حالتين.. هل الإيمان تعامل باليد، أم هو حالة عقلية أو نفسية لا حيلة للمفاضلة فيها..؟

ألست بهذا تحاول خديعة الإله، وتطمع في انتصار هذه الخديعة..؟

ومع هذا فإن الاحتياط لن يتم لك إلّا بأن تؤمن وتكفر بكل شيء في نفس واحد؛ إذ لو آمنت ببعض ما عند الناس، لما كنت آخذاً بأسباب الاحتياط؛ فإن ما كفرت به حينئذٍ قد يكون هو الذي فيه النجاة دون ما سواه، وحينئذٍ تكون هالكاً. فلو آمنت بدين الإسلام أو الدين المسيحي على افتراضه دينك، لكان من المحتمل أن تكون النجاة في الأديان الأخرى. وإذن لا بد لك من الإيمان بكل الأديان، لكي تكون محتاطاً لنفسك. ولكن إيمانك بكل الأديان يخالف كل الأديان. وهو تناقض لأنك إذا آمنت بدين واحد، كان معنى هذا إنكارك للديانات الأخرى المخالفة للدين الذي آمنت به. فلا نجاة لك إذا آمنت، ولا إذا كفرت. إنه ما من مذهب من المذاهب إلا وهو كفر، أو خروج عند طائفة من المؤمنين. وأنت لن تكون ناجياً يقيناً على هذا المذهب إلا إذا تبرأت من كل ما اعتقد أنه قد يؤدي إلى الهلاك.

وإذن، لا يمكن الاحتياط إلا بالإيمان المطلق والكفر المطلق مجتمعين في عقيدة واحدة ووقت واحد. فالاحتياط لا يكون بالإيمان بكل العقائد، ولا بالإيمان ببعض العقائد، بل مبدأ الإيمان خطر على هذا التفكير، بقدر ما الخروج من كل الإيمان خطر. فالإيمان يجعلك تصدق أن النجاة لا تكون إلا بصورة من صور العقائد، وحينئذٍ أية هذه العقائد تهب النجاة.. فهل تجد حلاً لهذه المشكلة..؟

ألا يحتمل أن الاحتياط للنفس لا يكون إلا برفض كل العقائد والأديان..؟

ألا يحتمل أن الآلهة كانت تسخر من البشر، وتجرب عقولهم، حينما طالبتهم بأن يؤمنوا بما لا تريد، وبما لا ترضاه لهم ولا لنفسها..؟

لتحرك لم نفهم

إن الرأي مع هذا هو ما سبق، هو أن البشر لا يعرفون بعقولهم، ولا بعواطفهم، ولا بإلهامهم. وإنهم لا يحيون، أو يتكلمون بإرادة الحق ولا بالمعرفة، ولا يريدون هذه المعرفة ولا هذا الحق. وإنما هم كوحدات هذا الوجود الأخرى، كالصخور والجبال والنباتات، يوجدون بالضرورة، ويحيون ويتغيرون بالحركة، ويعرفون بالاصطدام والالتئام..

إن لهم إرادة ولهم قدرة. فقدرتهم توجد قدرتهم وتحركها، لأنها مادة. وإرادتهم تحرك قدرتهم لأنهم حياة. وبالحركة والإرادة تكون كل أعمال الإنسان. وليس العلم والتفكير وجميع قوى الإنسان الأخرى إلا تفسيراً ورصداً للحركة.

وكما أن وظيفة الحواس أن تفسر الأشياء، لا أن توجدها أو أن تضع لها أحكاماً أدبية؛ فكذلك العقل. إن البصر يرى، والأذن تسمع دون أن توجد وهكذا يفعل العقل. والعقل لا يستطيع أن يحكم بأن هذا خير أو شر، حق أو باطل، إلا بقدر ما تحكم العين أو الأذن. فالخلق والحكم من عمل الحركة وحدها. وإذا حكم العقل فحكمه أن يرى الحركة فقط وأن يفسرها.

إذا قال: هذا باطل أو شر، كان يعني أن الحركة في حالة تصادم..

وإذا قال: هذا حق أو خير، كان يعني أن الحركة في حالة توافق، مثل أن يقول: هذا أسود أو أحمر.

إنه رأى الحركة فحكم على ما رأى، أو كما رأى. فالبشر يتحركون ثم يفهمون، ولا يفهمون ثم يتحركون. والمنطق دائماً محكوم بالحركة، ولكن الحركة لا تحكم بالمنطق.

تفسير لا تبرير

يمكن فهم الكون وتفسيره إذا افترض محكوماً بذاته. ولكنه لن يكون مفهوماً ولا مغفوراً له، إذا افترض محكوماً بالآلهة، أو بالتدبير الخارجي، أو حتى بالأبالسة والأرواح الشريرة. فالافتراض الأول يعني فهم العالم كشيء لا يعني شيئاً. أما الافتراض الثاني فيعني فهمه كفضيلة، وفكرة، وإرادة. معنى الأول فهم الأشياء كما هي نفسها. ومعنى الثاني فهمها كما هي غير نفسها.

قد يمكن تفسير الوجود، فهل يمكن تبريره..؟

وحينما أراد الإنسان أن يفسر الكون كمنطق وكتدبير أعلى، جعله شيئاً لا يمكن فهمه، ولا الاعتذار عنه.

هل يستطيع أي منطق أن يفسر كيف يكون معقولاً أو ممكناً، أن تجتمع كل الآلهة القادرة الخيرة، وكل الأرواح العلوية، وكل العباقرة من البشر، ليسخروا كل عبقريتهم، وفضيلتهم وعدالتهم، في خلق ذبابة، أو طاغية، أو جرثومة مرض، أو خلق صخرة حادة فوق قمة جبل أو في قاع محيط، أو في خلق أحد الأغبياء والمجانين..؟

وهل منطق أن تكون كل معاني الآلهة مصبوبة في هذا الحجر، أو في هذا الحيوان المريض، أو النبتة المتوحشة..؟

أو هل من المنطق أن جميع هؤلاء الآلهة والعباقرة، والأرواح الفاضلة لم يجدوا في أخلاقهم، ولا في علمهم، ولا في تفكيرهم، ولا في موهبتهم الفنية، صورة للخلق والابداع أفضل أو أقوى مما فعلوا..؟

وهل هذا الذي حدث هو أكمل جميع الاحتمالات في قدرة هؤلاء القادرين.. وهل لو فعلوا أفضل مما فعلوا، لتعذبوا، أو رفض العالم الذي صنعوه أن يكون أفضل..؟

من السهل أو المحتمل أن نفهم الصواعق، والزلازل، والبراكين، وغيرها من التعبيرات العنيفة العابثة، على أنها حركات ذاتية لا منطق فيها، ولا غرض، كأنها حركة المريض المغلوب على أمره؛ ولكن من المستحيل فهمها على أنها منطق مدبر حكيم.

إننا لا نغفر أو نتصور أن تكون من عمل أطغى طاغية جاهل شرير، فكيف نغفر أو نتصور أن تكون من عمل أعظم خالق، وأحكم حكيم، وأذكى مدبر، وأرحم صديق للكون، والناس، والحياة..؟

لقد آمن الإنسان بأن للكون منطقاً أخلاقياً وفكرياً، هو أعظم ما استطاع أن يتصور. وهذا المنطق الكوني هو البرهان الكبير المشهود الذي برر به إيمانه بوجود إله عظيم مثالي في حكمته وأخلاقيته. ولولا إيمانه بمنطق الكون لما آمن بمنطق الإله، فالكون ومنطقه هما الله ومنطقه.

إن أحداً من المؤمنين بالله، لم يرَ الله ولم يجرب له منطقاً.. لقد رأى المؤمنون الكون وجربوا منطقه. إذن لقد رأوا الكون هو الله، ورأوا منطق الكون، هو منطق الله.. إذن لقد رأوا الله شيئاً عظيماً.. ولكن كيف آمنوا بأن للكون منطقاً..؟

إن تصرف الكون لا يمكن أن يتوافق مع أي تصرف من تصرفات العقلاء. ومنطق الإنسان نفسه يخالف منطق الكون ويلعنه. ولو أن أي إنسان أراد أن يتصرف بالأسلوب الذي يتصرف به الكون، لتفوق على جميع المجرمين والمجانين في حماقته وظلمه وقسوته؛ ولكان محتوماً أن تشنقه الجماهير الصابرة على قارعة الطريق، أو في أحد معابدها تحت ضجيج الصلوات والثناء على الإله الطيب.

إن أفسق طاغية وأقسى مجرم قاتل، لا يمكن أن يهبطا في طغيانهما وفسوقهما إلى مستوى الكون. وكل الطغاة والقتلة والفاسدين يتمنون أن يسمح لهم بأن يكونوا فضلاء بالأسلوب الذي أصبح به الكون فاضلاً..

ماذا لو طالب البشر حكامهم أن يحكموهم بمنطق الكون.. وماذا لو عامل الناس بعضهم بعضاً بهذا المنطق..؟

إن الإنسان لم يرَ منطقاً غير منطقه هو ليتعامل عليه، ويجعله مثالاً للمنطق الذي يؤمن به،

والذي يتصوره، وليقيس به منطق الكون. وإذن فبأي منطق جعل للكون منطقاً..؟

إن كان ذلك بالقياس والمثال، فلا قياس ولا مثال؛ لأن منطقه هو منطق خارج على المنطق الكوني وكافر به.. وهل رأى منطقاً غير منطقه..؟

وإن كان ذلك بالتفكير المجرد، فالتفكير المجرد ينكر منطقية الكون ويراه متوحشاً ضالاً، يضرب ويعطي بلا حكمة وبلا رحمة.. إذا فعل الخير والحياة، فبالقصد والقانون اللذين يفعل بهما الشر والموت. وخنق الحياة في الزهرة يساوي عنده إنماء الحياة في الحشرة القاتلة. وهو يفعل الشيء بالأسلوب الذي يفعل به نقيضه. ولهذا فإن كل أعمل الإنسان وحضاراته مصروفة إلى مقاومة الكون والتعديل عليه.

ليست الحضارة في كل تعبيراتها إلا مقاومة للحكمة والمنطق الموجودين في الإنسان، والحياة، والكون. ولا يوجد إنسان واحد، حتى ولا من المؤمنين بعدالة الكون ومنطقه كأعظم مثل، يقبل أن يعامله أحد أو أن يعامل هو أحداً بالأسلوب الكوني. ولو استطاع البشر أن يحاكموا الكون لما وجدوا عقوبة تكفي للقصاص منه.

لقد رأى الإنسان في حياته منطقين فقط: منطقه هو ومنطق الكون، وهما مختلفان أشد الاختلاف. وكان محتوماً عليه أن يخضع أحدهما للآخر.. إنه لا بد من ذلك. وإخضاع منطقه هو لمنطق الكون لم يكن محتملاً.. إن ذلك انتحار وجنون.

لقد كان محتوماً أن يخضع منطق الكون لمنطقه.. لقد كان هذا هو اختياره واضطراره، وكان معنى حضارته وأخلاقه، وكل أساليب نضاله.

وأريد بمنطق الكون هنا وحيثما ذكرته، كينونته كما هو.. كينونته الخارجة على كل أساليب المنطق والأخلاقيات. وإذا لم يكن للكون منطق، فكيف عدّ منطق الإله أسمى منطق، مع أنه لا منطق للإله غير منطق الكون.. كيف أمكن الإيمان بوجود إله مفكر أخلاقي، مع أنه لا دليل عليه، ولا شاهد له، سوى هذا الكون الذي لا عقل له، ولا أخلاق.. هذا الكون الذي لا أكثر منه جنوناً وفجوراً، في حساب منطق الإنسان وأخلاقه..؟

ارتباط ذهني، لا واقعي

لقد وجد الإنسان في الكون ما يلائمه أحياناً. ولم يكن يستطيع أن يفسر ذلك تفسيراً علمياً، فركز اهتمامه في هذا الذي يلائمه، ولم يستطع التحديق في الحقائق الأخرى التي لا تلائمه، بل الحقائق الأخرى التي تصدمه وتحاربه، وتناقض كل احتياجاته، وأصول تفكيره وأخلاقه.

لقد كانت النتيجة أن آمن بأن الكون يسير بمنطق طيب معقول، ومثل هذا أن الناس كانوا يؤمنون بآلهتهم، ويدعونها حين الشدائد والاحتياج، ويطلبون منها مطالب كثيرة متنوعة، فتقع بعض هذه المطالب في أوانها، كما تطلع الشمس ويفيض النهر في أوانهما حتماً، فيذهب المؤمنون يركزون اهتمامهم في ذلك، ويرون أن الآلهة قد استجابت لهم، وأنها تسهر وتتعذب لترعاهم وتحقق مطالبهم، ويتغافلون حينئذٍ عن الاحتياجات والدعوات الكثيرة المرفوضة. والذين يؤمنون بالسحر سيجدون في التوافق الزمني ما يبرر إيمانهم. والدعوات التي تستجاب لا بد أن تستجاب حتى ولو طلب من الآلهة ألا تستجاب. إن الدعوات لا تستجاب، ولكن الحدث يقع وكأنه يستجيب للدعوة، كما لا يقع وكأنه يرفض الدعوة. إن الأحداث تمارس نفسها دون أن تعاني لتستجيب، أو لترفض، ولكن المنتظرين للاستجابة، والخائفين من الرفض يفسرون بهذا أو بهذا.

وإذا هتف كل المرضى بالآلهة والأصنام، وقدموا لها النذور والصلوات لتشفيهم، فحدث أن شفي منهم عدد قليل، لأن المرض قد استوفى دوره وانتهى، ولأن حياتهم كانت أقوى من المرض، كما يشفى من يلعنون الآلهة ومن لا يؤمنون بأي دين ولا بأي إله.. إذا حدث ذلك فسوف يذهبون يتحدثون عن أولئك المرضى الذين شفوا، وينسون قصة الآخرين الأكثرين الذين ماتوا، لأن المرض كان أقوى منهم.. إنهم ينسون أولئك الذين لم تنفعهم صلواتهم ولا نذورهم..

إن أي فاسق لو أقسم على الله بأن يموت في يوم معين بعض الناس، ويمرض بعضهم، ويهزم بعضهم، ويفتقر ويفتضح ويهون بعضهم، لكان محتوماً أن يبر الله بقسمه.

ولكن لو أن أحد الأنبياء صلى لله ووراءه جميع الأنبياء والقديسين، طالبين منه بألا يموت في يوم معين، وألا يمرض، وألا يحزن، وألا يعصي، وألا يتعذب، وألا يهان أو يجوع أحد، لرفضت دعوتهم وصلواتهم؛ فلماذا..؟

والارتباط بين حدوث الحدث والعقيدة ارتباط ذهني لا واقعي. مثلاً: المؤمن الذي يضع البذر في الأرض ويقول: «بإذن الله تنمو»، لا توجد أية علاقة بين نمو النباتات وبين هذا القول. إلا في ذهن ذلك المؤمن، ولهذا فإن النتيجة لا تختلف لو قال: ستنمو بمشيئة الشيطان، أو بمشيئة الصنم، أو على رغم كل مشيئة.

إن الأرض والبذور لا تسمع لصلوات المصلين ولا ترق لقلوبهم، كما لا تطيع مشيئة أي إله أو تهاب أوامره أو تعرف ماذا يريد أو يقول.

ولو كانت دعوات الآلهة تستجاب، لكان الموقف أبلغ من كل جنون.. إذ ماذا يكون

الوضع لو أن خصمين متحاربين يؤمنان بإله واحد، دعا كل منهما إلهه لكي يكون إلى جانبه ضد خصمه.. كيف يتصرف حينئذٍ ذالك الإله المتورط في هذا الموقف الذي لا مثيل له في الحرج..؟

كيف يكون الوضع إذا كان هناك آلهة كثيرة لعدة خصوم متحاربين فدعوها كلها لتفصل بينهم ولينصر كل إله فريقه..؟

سيكون الجواب هنا: إن الآلهة لا تفعل ما يطلب أو يراد منها، بل ما ينبغي لها.. سيكون هذا هو أذكى جواب ينتظر هنا. ولكن يكون معنى هذا الجواب أن الآلهة لا تستجيب لمن يدعونها ويصلون لها، وإنما تفعل الواجب والحق.. وإذن لماذا تدعى ويصلى لها.. وهل يدعى النهر أو يصلى له ليفعل ما هو فاعل..؟

وهل الآلهة حقاً تفعل ما ينبغي لها فعله.. هل تفعل كل العدل والحق والفضيلة..؟

إن معنى هذا ألا يوجد في هذا الكون ما ينبغي أن يغيره الإنسان أو يقاومه، أو يلعنه، أو ينكره، ويعذبه.

هل الآلهة عاجزة عن بلوغ ما تريد، وبلوغ الكمال الذي تنشده إلا بهذه الآلام، والنقائص، والشرور..؟

هل الآلهة لا تستطيع أن تصنع الكون أو الإنسان كاملاً إلا بالعذاب، والرذائل، والمظالم..؟

هل الآلهة لا تسعد إلا بأن تخلق الخطأ والألم والشرور، لكي يكون الإنسان محكوماً عليه بأن يقاومها، فيستطيع أو يعجز، أو محكوماً عليه بأن يستسلم لها ويتوافق معها ويباركها..؟

إن معنى هذا لو كان صحيحاً أن توجد الأشياء طبق ما في نفس الإله، وطبق صوره العقلية، وطبق مثل الإنسان الفكرية والأخلاقية.

إن هذه النقائص في الكون والإنسان، إما أن تكون احتياجاً أو شهوة. هل الآلهة تحتاج إلى النقائص أو تشتهيها..؟

إذن كيف ولأية حكمة أو مصلحة وجدت النقائص.. هل يمكن وجودها مع وجود حكمة خالقة..؟

حينما نريد الدفاع عن ذلك نقول:

إن الحياة لا معنى لها بدون الآلام، والمتاعب، والإلم، وجميع الشرور الأخرى. ولكن القادر المطلق القدرة، والخير المطلق الخير، ألا يستطيع أن يجعل المحياة وللبشر كل معنى وكل شعور بالسعادة بدون هذه الوسيلة الألهمة السخيفة..؟

إن الطبيب لا يمكن أن يعمل عملية جراحية إلا إذا لم يجد وسيلة أخرى.

وأنت وأنا وكل الناس لو استطاعوا أن يجعلوا أولادهم كاملين وأقوياء، وناجحين وعارفين ما تطلب معرفته من غير تعذيب وتأديب، وإكراه على الذهاب إلى المدارس، هل يمكن أن يلزموهم بشيء من ذلك..؟

وأي فنان عظيم هذا الفنان الذي يجعل فنه محتاجاً إلى التشويه، والخطأ، والنقائص لكي يكون فناً عظيماً..؟

وأي خالق هذا الذي يجعل مخلوقه محتاجاً إلى العذاب، والتلوث، والمعاناة، والأحزان لكي يكون مخلوقاً سعيداً..؟

إن أية حكومة في الدنيا لو راحت تنشر في الناس الفقر، والجوع، والفسوق، والنقائص، والأمراض، وكل ما يحدث الآلام، مفسرة تصرفها هذا بأنها تعلمهم الصبر والقدرة على النضال، وممارسة الأخطار، وتهبهم فرصة الشعور بلذة الفوز في المعارك، ولذة العمل والانتقال من النقيض إلى النقيض، وتهبهم كذلك أسباب تكامل الشخصية.. إن أية حكومة في الدنيا لو أنها فعلت كل هذا، لكانت هذه الحكومة أفضل جداً من الإله الذي يفعل هذه الأشياء نفسها للغاية المذكورة نفسها..

إن الذين يبررون للإله فعل الألم هم أشد غباء من الذين يبررون فعل الألم للحكام والبشر.. إن الذي يصنع الشر وهو غير محتاج إليه، ويستطيع ألا يصنعه، شر جداً من الذي يصنعه وهو محتاج إليه، وعاجز ألا يصنعه.

قد يوجد عذر للمحتاجين العاجزين إذا خرجوا على السلوك والتفكير المثاليين. ولكن أي عذر للإله إذا خرج على ذلك..؟

والذي تكون شريعته فرض المثالية، كيف تكون حكمته الخروج على المثالية..؟

كيف يطالب الناس بفعل أشياء يضيرهم أن يفعلوها، وهو لا يفعلها مع أنه لا يضيره فعلها.. كيف يعاقبهم على فعل أشياء هو يفعلها، مع أنهم هم يفعلونها بالشهوة والضرورة، وهو يفعلها بلا شهوة ولا ضرورة.

لو كانت هذه التفسيرات لأفعال الإله صحيحة، لكان الحكام الفاسدون، اللصوص القتلة، هم أفضل الحكام؛ لأنهم بفعالهم الشريرة المؤلمة يحققون الأهداف النهائية الحكيمة التي تحققها تصرفات الإله الحكيم بما يفعله من ألم، وحرمان، وقسوة، وفوضى.

إن الآلام والأخطاء التي يفعلها الإله هي لإسعاد الإنسان وفي مصلحته لأنها تعلمه النضال والقدرة عليه، وتطلق جميع احتمالات العبقرية فيه..

إذن فمرحباً بالطغاة وبجميع صانعي الألم والخطأ من البشر. إنهم يفعلون نفس ما يفعل الإله.. إنهم إذن يسعدون البشر، ويطلقون عبقرياتهم، ويحولونها إلى نشاط ومقاومة..

إذن فليكثروا، وليباركهم الله الحكيم الرحيم، الباحث عن حكمته بحماقتهم وجنونهم.. ليبارك الله كل طاغية وشرير، فإنه التفسير النبيل لحب الإله وصداقته للبشر..

نعم، ليبارك الله كل الطغاة والأشرار.. إنهم يحققون معاني الإله.. إنهم المفسرون لحكمته ورحمته..

الضرورة لا الفكرة

وهذا الاتجاه الذي يجعل الناس في الأكثر ينظرون إلى جانب واحد من أية قضية ومشكلة وأية ظاهرة، ويفسرونها بوجه واحد من وجوه وجودها، هو الذي صنع المبررات الدائمة في جميع العصور والمجتمعات للاقتناع بقيمة الدجالين والمهرجين، والأدعياء والأنبياء الزائفين، وبقيمة الأحلام والأوهام الكبرى. فالذي يكذب في كل الاتجاهات وعلى كل الاحتمالات، لا بد أن تصدق بعض أكاذيبه، ولو أراد أن يكون كاذباً دائماً، لما استطاع ما دام يكذب دائماً. فالضرورة تجعل الكاذب دائماً، صادقاً أحياناً. والكذب ليس هو ألا تقول الصدق بل هو ألا تريده. ليس الكذب هو ألا تصدق، بل هو أن تكذب. والذي يحلم برؤية نفسه أو بأنه سوف يموت، لا بد أن يكون صادقاً، والذي تكثر رؤاه لا بد أن يصدق بعضها بقانون الانتشار العشوائي. والانتشار العشوائي قانون، ونتائجه قانونية.

وميل الناس إلى أن يروا جانباً واحداً فقط من مشاكلهم وواقعهم، هو الذي جعل الجماهير لا ترى إلا صورة واحدة لحكامها وزعمائها حينما تريد الإيمان بهم والدفاع عنهم، وحينما تريد الخروج عليهم والكفر بهم.

إنها في الحالة الأولى لا ترى منهم إلا الانتصارات والمواقف الطيبة، وتغفل عما عدا ذلك، وإنها في الحالة الثانية تفعل العكس. وهذا الميل هو السبب في التفسيرات الخاطئة التي كان الإنسان منذ وجد يفسر بها الحياة والأحداث والكون، ويفسر بها نفسه. إن الإنسان يعي ويتذكر ما يلائمه أكثر من وعيه وتذكره لما لا يلائمه. إنه لا يستطيع أن يعدل في شعوره بين الحدث الذي يصنع له سروراً، والحدث الذي يصنع له ألماً. وليس في قدرته أو نيته أن يكون حكيماً أو معتدلاً أو محايداً بين ما يريد وما يكره. وإنه كذلك لا يستطيع أن يقف بين المتناقضات متناقضاً أو فاهماً لموقفه أو مقسماً لميوله ونفسه بين هذا وهذا، بل هو يريد دائماً أن

يتخذ موقفاً منحازاً متعصباً جائراً، موقفاً قاطعاً ومؤمناً، حيث لا قطع ولا أسباب للإيمان.

الإنسان يهاب الأفكار المتناقضة، ويهرب من الاقتناع أو الشعور بأنه في موقف فكري متناقض. إنه يستريح إلى اتخاذ الأفكار القاطعة والإيمان بوجهة النظر الواحدة مهما تناقض في سلوكه ومواقفه، بل هو لا يكون إلا متناقضاً في ذلك. وضعف الأفكار عنده وتوزعها يعني في شعوره ضعف الذات وتوزعها. ولهذا يتفرق الناس في إيمانهم بين المذاهب والنظريات والأديان والنظم، وكل منهم يؤمن بما عنده بحماس وتصميم، ويراه وحده الحقيقة المطلقة، وكأنه لا يوجد شيء آخر غيره، أو لا يرى ذلك الشيء الآخر.. هو لا يطيق أن يرى الحقيقة، أو أن تكون الحقيقة احتمالاً أو توزيعاً بين المذاهب والناس.

عجباً.. كيف لا يدرك أن لاعتقاد الآخرين ما يبرره أو ما يجعله احتمالاً، مثلما لاعتقاداته هو..؟

قد ينتقل الناس من الإيمان بمذهب ونظام، إلى الإيمان بنقيضه، ولكنهم لا ينتقلون إلى الإيمان بذلك كاحتمال أو كجانب واحد من الحقيقة.

إنهم يريدون أن يكون هذا الشيء إما خيراً وإما شراً، وهذا الإنسان إما فاضلاً فقط وإما رديئاً فقط. إنهم يريدون صوراً ذهنية موضوعة في مقاسات ثابتة، ولا يطيقون الصور الذهنية المهزوزة أو المتحركة. لهذا حولوا تصوراتهم إلى موجودات متحددة متعددة.. حولوها وقسموها الى آلهة وملائكة وقديسين، وإلى أبالسة وأشرار، وإلى حقائق وأوهام وعقائد كبرى.

وهذا تحويل وتقسيم لأنفسهم لا للواقع.

*

إني أشعر برغبة قوية في أن أقول بعض ما قلت بأساليب أخرى:

إن الناس لايحبون، أو يتعاملون، أو يريدون، بل ولا يفهمون أو يفكرون بالمنطق. فالمنطق لا يقود حياة الإنسان وإنما يحاول تفسيرها أو تبريرها. ولهذا فإنه لا يمكن أن يعالج أي نزاع أو يوجد أي تفاهم بين البشر. وإذا توافقوا أو تصادقوا فبالضرورة والمصلحة والظروف، أو كما تتوافق المادة مع المادة. والتوافق المنطقي تابع للتوافق المصلحي والاضطراري، والمادي والانفعالي النفسي، وليس العكس؛ فتوافق الناس الفكري مسبوق ومحكوم بتوافق غير فكري. إن التوافق دائماً غير فكري.

والمنطق في تقدير كل إنسان وكل فريق، هو ما يشعر نحوه شعوراً ملائماً، أو ما يحياه، أو ما يضطر إلى الالتزام به، أو ما عوّد عليه طويلاً. ودائماً نرى الشيء ونقيضه منطقاً بدرجة قد تكون متساوية.

إنك إذا كنت تعيش في نظام أو مذهب أو اعتقاد، كان ذلك هو المنطق. وإذا تحولت إلى نقيضه، صار ذلك النقيض هو المنطق أيضاً. إذا تحولت إلى أي نقيض تحول المنطق إلى ذلك النقيض..

أنت ومخالفك كلاكما يرى ما لديه هو المنطق.. كلاكما يرى شيطانه هو القديس، كلاكما يرى الله معه وحده.. كلاكما يرى الله هو الحارس والمفسر لأهوائه هو.

إنه لا منطق بدون إنسان، وبدون إرادة، وظروف إنسانية، ولا حق ولا باطل إلا في حياة الإنسان؛ فالمنطق ليس شيئاً.. إنه هو الإنسان..

وحينما تشعر أنك خارج على المنطق، فإنما يعني ذلك شعورك أنك خارج على إحدى رغباتك، أو على إحدى المقررات السابقة، أو يكون معنى ذلك أن ظروفك بدأت تشعر كأنك لا بد أن تتغير، وأن مصالحك قد أصبحت في الجانب الآخر.

وإذا قال الناس إنهم يحترمون المنطق، أو يبحثون عنه، فالمعنى أنهم يحترمون ما يريدون، ويبحثون عن هذا الذي يريدون..

وإذا أنكرت على إنسان خروجه على المنطق، فأنت في الواقع تنكر عليه خروجه على عقائدك ومسلماتك.. إنك تنكر خروجه عليك..

وإذا طلبت من الآخرين أن يكونوا منطقيين كنت تعني أن يكونوا متلائمين معك، ومتبعين لك مسلمين برأيك. فقيمة الحق عندك تساوي قيمته في نفسك وفي مصالحك. ومن وقف عند منطقه بعناد، فإنما يقف عند ذاته بعناد.

إننا لا نولد منطقيين، ولا نولد وفينا شوق إلى المنطق، ولكننا نتعلم المنطق بالضرورة والإلزام، كما نتعلم اللغة والصلاة، والكتابة وملاحظة الأشياء، وتفادي السقوط في الحفر..

إننا سابقون على منطقنا.. إن منطقنا صناعة بشرية.. إنه خاضع لكل ما يخضع له البشر.. إنه ليس إلهاً، ليس ملاكاً.

وأنا أعني بالمنطق كلما ذكرته، تحويل الشيء إلى صيغة نفسية.

ونحن نحيا ونصنع تصرفاتنا وجميع أعمالنا الكبيرة بالأسلوب الذي تحيا به الحشرات والطيور، وتصنع أعشاشها وتصرفاتها، وخصائصها السلوكية والنفسية، من غير منطق ولا مثل فكري أو أخلاقي.

قد نظن أننا نصنع حضاراتنا، وعلومنا، وكل ابتكارات حياتنا، بالمنطق وبالمثل والمبادئ،

ولكن ما الذي يصنع ألوان الزهرة، وضوء الشمس، وعصف الريح، ومجرى النهر، وفضيلة الكلب، وشجاعة الأسد، ووقار الحمار، وذكاء الثعلب، وحذر الغراب..؟

إننا بالحاجة والضرورة والسليقة التلقائية، نصنع كل وجودنا الحضاريِ والعلمي. ليس لأن لنا منطقاً أعلى، أو مثلاً أعلى نخضع له، ونحترمه، ونبحث عنه.

كما نستطيعه، لا كما نجده

إننا نريد ونخطو.. إننا نخطو ولا نريد..

إننا نكون بلا حافز ولا هدف خارجي، ثم نسمي خطونا الطويل العشوائي في التيه الوحل منطقاً ومثلاً..

إننا مهما عرفنا من حقيقة سيرنا العشوائي.. فإن ذلك لن يخفف من سرعة سيرنا، أو من رغبتنا في السير، لأننا نسير بالضرورة لا بالمنطق..

إننا نسير لأننا نسير، لأننا نريد أن نسير، أو نعرف لماذا نسير، أو إلى أين نسير، ولا لأن لنا منطقاً يحرضنا أن نسير.

لقد كان منطق الإنسان في التاريخ ضده، وضد حضارته وتطوره، وكل إبداعاته الجديدة.. كانت الآلهة والمعابد، وأذهان الجماهير والمتعلمين، تؤمن بمنطق ينكر ويحرم كل إبداع وتجديد. ودائماً يوجد فيِ كل مجتمع من المجتمعات المتطورة والمتخلفة منطق يدعو إلى الاستمساك بما هو موجود، وينكّل بل ويحارب الجديد والتغير. ولكن الإنسان مع ذلك كان يخطو ويتغير، يصنع الجديد بالكره من منطقه.. كان يحطم ذلك المنطق المحرم الناهي النافي المقدس، ويتخطاه بدون أن يستشيره أو يرفق به، أو يحمله معه في رحلته الأبدية الشائقة.. كان يسير في الطريق المغلق بالمنطق وبالمحرمات وبالمقدسات العقلية، لا يحده أو يصده شيء من ذلك.. كان الإنسان دائماً عاصياً.. لم يكن الإنسان في أي وقت من الأوقات يلتزم المنطق الذي يصنعه، ولا المنطق الذي يفرض عليه.. كان الإنسان دائماً عاصياً، وكان ذلك خيراً له.

ولو كانت حياة الإنسان تخضع لمنطقه، لما استطاع أن يتغير، ولا أن يكون شيئاً كبيراً. بل لو كان الإنسان يحترم منطقه أو يخضع له، لما أمكن أن يتجدد منطقه، فخروجه على التقيد بالمنطق، هو الذي جعل له دائماً منطقاً متجدداً. ولهذا فإن المجتمعات تعجز عن التطور والإبداع، وعن اكتساب المنطق الجديد، بقدر ما تحترم منطقها، وتخضع له، وبقدر ما يكون له من سلطان عليها ومن قدرة على البقاء. إن الذين لا يخضعون للمنطق هم الذين يصنعون المنطق، أما الذين يخضعون للمنطق فسيظلون بلا منطق، لأن المنطق الذي يخضعون له سيحرم عليهم كل منطق.

إننا دائماً نجد المتبلدين الذين لا يشاركون في تكوين المنطق الإنساني هم قوم خاضعون لنوع عنيف من المنطقية. ما أتعس الوضع لو كان في الإمكان أن تخضع حياة الإنسان لمنطقه.

إن أي منطق هو تعبير عن حالة واحدة من حالات الإنسان المادية أو النفسية، فلو كان الإنسان يخضع لمنطقه، لكان معنى هذا أن تخضع كل حياته لفترة واحدة منها.. أي أن يتجمد تاريخه كله في طور واحد منه. والناس حينما يغيرون منطقهم ليسوا بذلك خاضعين لمنطق جديد، بل لحياة جديدة.. إنهم لا يستبدلون منطقاً بمنطق، بل حياة بحياة.

ومهما اخترع الإنسان لنفسه من منطق ضد حياته، فإن نسبة تقدمه لن تضعف. فهو حينما يستطيع أن يتقدم سيغير منطقه الذي يقاوم التقدم، أو يتركه مهجوراً ويستبدل به منطقاً آخر يتوافق مع قدرته على التغير. وإذا كان لا يستطيع التقدم فسيبقى عاجزاً مهما ملك من المنطق المحرض على التقدم، المؤمن به، الرافض للعجز.

ولا يوجد منطق متعصب وآخر متسامح، بل يوجد قوم متعصبون وآخرون متسامحون.

إذا وقفنا عند وضع عاجز ولم نستطع تخطيه، فليس الذنب ذنب منطقنا بل ذنب عجزنا. فالعاجز عاجز لأنه لا يستطيع أن يكون قوياً؛ لا لأن له منطقاً عاجزاً. وعجز المنطق سببه عجز الذات أو عجز المجتمع. إن منطقنا هو صورتنا، ولسنا صورته.

والذين يؤمنون بمنطق رديء متخلف، إما أن يكونوا قد اخترعوا هم هذا المنطق أو لقنوه. وفي الحالتين لا بد أن يكون ذلك لضعف فيهم، فالذي يخترع المنطق الضعيف والذي يقبله، كلاهما يعبر عن مستواه، عن قدرته ورغبته.

وكما أن المنطق الضعيف لا يوجد هذا المستوى، وإنما يدل عليه؛ فهو أيضاً لا يديمه.

وقبول أية فكرة، أو منطق، هو عملية تبرير لما ترغب فيه الذات، أو لما يفرض عليها، أو لما تستطيعه، أو لما يرضي غرورها، أو مطامعها..

فالذي يؤمن بفكرة، والذي يكفر بها، كلاهما يفعل ما يريد لا ما يجب..

ونحن نقبل الفكرة والمنطق ونفهمهما بقدر ما نحن، لا بقدر ما هما.. أي كما نستطيع وكما نريد أن نكون، لا كما يحملان من دلالات واحتمالات لفظية أو عقلية.

إن المنطق كيفما كان، ليس موجوداً في ذاته، وليس منفصلاً عنا، ولا متحققاً في الشيء نفسه؛ وإنما هو علاقة تصورية تقوم بين الكائن وذاته، وبينه وبين ظروفه الخارجية.

وهذه العلاقة التصورية، هي من صنع المتصور نفسه، لا من صنع الظروف الخارجية؛ لأن هذه الظروف هي مجال صامت.. مجال فقط. إنها لا تشير علينا بأن نصنع منطقنا على أي

نحو. إن منطقنا يختلف ويتغير مع أن المجال لا يختلف ولا يتغير.. أي مع أن الكون الذي هو مجال نشاطنا الفكري والنفسي باقٍ كما هو في منطق أحداثه ودلالاته. إن كل شيء صامت ونحن وحدنا المتكلمون. لقد حولنا كل صمت إلى كلام، وكل عبث إلى منطق، وكل بلادة إلى تفكير ذكي، لأننا نحن متكلمون، ومصابون بالتفكير والمنطق.

لماذا يتغير منطقنا عن الكون الذي لا يتغير منطقه..؟

إن تغير منطق أي قوم لا يعني تغير الشمس والأرض، أو تغير الأحداث والقوانين الكونية التي يعيشونها، وإنما يعني تغيرهم هم. فمنطق الناس هو حالتهم، لا حالة مجالهم الخارجي. ولقد ظللنا في أكثر الأوقات نأخذ عن الكون منطقاً مخالفاً جداً للمنطق الذي كان ينبغي أن نأخذه عنه.. لقد ظللنا في كل تلك الأوقات نقرؤه قراءة خاطئة.. لم نكن نقرؤه كما هو، بل قرأناه كما نحن.. ولم نقرؤه بالحروف التي كتب بها نفسه؛ بل قرأناه بحروف كتبناها نحن.. لقد ظللنا نكتب الكون ونقرؤه كما نريده، وكما نستطيعه، لا كما نجده أو نراه.

وإذا كانت أوضاعنا المادية تتغير دائماً فينعكس تغيرها على منطقنا، فهذه الأوضاع المادية هي من صنعنا.. أي أنها حالة من حالاتنا. ولو كنا نتلقى منطقنا من الخارج بمنطق ذلك الخارج، أو كما يدل ذلك الخارج لما كان ممكناً أن يتغير منطقنا، بل ولا أن يكون لنا منطق..

إننا نعيش دائماً مع هذا الكون البليد الصارم؛ ومع ذلك فكم تتطور، وتتحرك فكرتنا عنه..؟

وإذا كان هذا الوجود نفسه لم يستطع أن يضعنا في قالب فكري ثابت، فكيف يستطيع منطق رديء متخلف نلقنه تلقيناً أن يعتقلنا في مثل هذا القالب..؟

لقد تخطينا أقوى منطق في التاريخ وأشده رهبة وسحراً، ولم يستطع ذلك المنطق الرهيب أن يحتفظ بنا في إساره.

إن الكائنات الأخرى التي هي دون الإنسان تعيش في الكون دون أن يكون لها عنه منطق ما.. إن هذه الكائنات تفقد الحالة الفكرية والنفسية التي تجعلها تستطيع تحويل مجالاتها الذاتية والخارجية إلى منطق؛ لهذا لم يكن لها منطق.

إن الناس يختلفون في تلقي النصوص والأفكار التي يلقنون، كما يختلفون في تلقي وتفسير المنطق الكوني.. إنهم يختلفون هذا الاختلاف لأنهم يتلقون تفسيراتهم للأشياء من ذواتهم، لا من نفس تلك الأشياء.. إنهم يفسرون، والتفسير عمل من يقع منهم التفسير، لا عمل من يقع عليهم التفسير؛ بقدر ما الحب والإرادة عمل المحب المريد، لا المحبوب المراد.

إن الشيء المحبوب المراد لا يوجد فيه أي شيء اسمه الحب والإرادة، فكذلك الشيء المفسر لا يوجد فيه شيء اسمه المنطق.

الله في أفواههم.. وفي أعضائهم الشيطان

ما أشد ضلال من يلتمسون الفضيلة النفسية والأخلاقية بالجمود العقلي.

إن المتأخر فكراً في المتأخرين أفكاراً، لا بد أن يسرف في تناول اللذات المحرمة لأنه هو متأخر، ولأن المجتمع الذي يعيش فيه متأخر كذلك.

وإذا أسرف القوي المتأخر في تناول المحرمات على حساب مجتمعه، فسوف يضطر إلى محاولة تغطية نفسية وجرائرها، بأن ينتصر لخرافات المجتمع الذي تمكن من خديعته واستغلاله.. لم يرى على وجه آخر أنه لولا تأخرهم لما انتصر عليهم، فيذهب يعتقد أن الخير له أن يظل قومه في عمايتهم المباركة، فيصر على تأييد هذه العماية وتقويتها..

ومعنى هذا أن يصبح أكبر زعماء الرجعية في العالم، هم أفسق فساق العالم.

•

إيمان نظري وكفر بالممارسة

يركز التفكير المتخلف تقديره على النظرية أكثر مما يركزه على التطبيق، فالقيمة الكبرى للعقيدة، لا للسلوك. إن الذي يخرج في سلوكه على جميع الالتزامات الأدبية والأخلاقية، قد يكون مغفوراً له ومواطناً صالحاً، إذا كان شديد المحافظة في تفكيره.

أما الذي يخرج عن المألوف فإنه يصبح زنديقاً ممقوتاً، مهما استقامت صفاته النفسية والسلوكية. إنه لو انحرف أي مفكر عن العقائد والتقاليد الفكرية القادمة مع التاريخ، التي يؤمن بها المجتمع الذي قد يكون محكوماً باللصوص والمرتشين، والفساق والمنحرفين، وبالطغاة الجاهلين، لكن ذلك المفكر هو وحده المارق المستحق للموت والمطاردة، والحقد السماوي، والكراهة المتدينة.

إنه لمألوف جداً أن تلقى في بلاد شامخة العقائد أناساً مصابين بكل الفسوق السلوكي،

أناساً ملوثي النفوس تلويثاً خطيراً، يجدون في قلوبهم وأيديهم من الشجاعة والغيرة، والتدين والسلطان، ما يجعلهم يحاكمون أو يطاردون أحد المفكرين، ويرهبون كل احتمال من احتمالات التفكير، بحجة المحافظة على عقائد لو أنها تحولت إلى إله مرئي ليلزمهم بالعمل بها، لصلبوه ثم سجدوا له.

إن هؤلاء الملوثين قد يقتلون كاتباً يجرؤ على الدعوة بالرأي إلى المساواة بين الرجل والمرأة، وإلى اختلاطها بالمجتمع، أو تعليمها الرقص، بينما يتسامحون مع من يهتكون عرضها.. وقد يكونون هم أولئك الذين يفعلون ذلك، بل بينما يتعاقبون عليها بالامتلاك لامتصاص رحيقها بالتناوب، ويعرضونها مثل حيوان في سوق الرقيق بلا خمار ولا إزار.

إن جميع الناس يتخلون عن الله حتماً.. كفضيلة والتزام، ثم يبقى أنهم قد يرفضون إعلان هذا التخلي، لأن رفض إعلان التخلي عن الإيمان بالله قد يساعد على التخلي عن الالتزام به، كفضيلة والتزام أدبي.

والبشر لا يطيقون أن يروا أنفسهم كما هي، ولا أن يعيشوا معها، ويتعاملوا بها، أو يتحدثوا عنها كذلك. وهذا لخوفهم من أنفسهم، لا خوفهم من الآخرين إذ أنهم هم الآخرون.

إن الشرير جداً يستطيع أن يكون فاضلاً جداً، وذلك بأن يبالغ في الثناء على الله، وعلى الأمجاد القومية التاريخية الخالدة، بينما يحتقرها في سلوكه كل أساليب الاحتقار وعلى كل مستوياته. كما يستطيع الفاضل جداً أن يكون شريراً جداً، إذا نقد، أو خالف، أو فكر.. إذا فكر، أو خالف، أو نقد معتقدات أو نظريات لا يلتزمها أحد بسلوكه أو بأهوائه وتمنياته، بل ولا باحتلامه، بل حتماً سيموت من يحاول التزامها مذبوحاً، باسم الدفاع عنها والاحترام لها.

وقد اعتقدنا دائماً أن خير الحكام والزعماء هم الذين يتعصبون لنظريات. إن المجتمعات التي تؤمن بهذا المنطق تكون مفتوحة للنفاق والخرافة والتهريج. إن الذي يخون المجتمع، ويدمر حياته بالفقر والطغيان والتأخر، ثم يمتدح تاريخه وآباءه الصيد الذين وهبوا البشر كل ما عندهم من حضارات وفضائل، يعد وطنياً عظيماً.. وإن الذي يتحدث عن الله، وعما في خلقه للمرض والجوع والآلام من حكمة ورحمة وعدل، وعن مزايا الدين وإغنائه عن كل حضارة وعلم، يكون قديساً مهما لعن الله وأنبياءه بأعماله، وتشوهاته النفسية والفكرية.

الذين ينقدون التاريخ خونة وأعداء، دون الذين يسلبون الناس الحرية، ويسرقون منهم الحياة ويؤخرون بلادهم، ويسيئون بانحطاطهم وجهلهم إلى تاريخهم.

والذين يفكرون في الله، ويريدون منه أن يكون أكثر نبلاً وحباً وذكاءً هم كفرة.

أما الذين يكذبون باسمه ويظلمون، ويسرقون ويقتلون تحت توقيعه، ويتحدون أخلاقه المكتوبة بأخلاقهم الملوثة، فهم من كبار المؤمنين، بل فهم كبار المؤمنين.

إن الإيمان بوجود الإله، أفضل وألزم من طاعته والتخلق بأخلاقه.

وقد رأينا أفسق الحكام والدجالين والكتاب، يعيشون في المجتمعات المتخلفة في مواكب المهابة والمجد، والثراء والاسترخاء، ولكن لم نرَ مفكراً واحداً استطاع أن يعيش بكرامة أو أمان في مثل هذه المجتمعات، إن لم يهادن أوهام السوق ويعبد أصنامها.

أليس الملحدون الذين يعيش على عبقريتهم المؤمنون، أعظم فضيلة وتديناً من المؤمنين الذين يعيشون دائماً على ذكاء غيرهم وقوتهم..؟

هل يحتمل أن يكون الله عدواً للذين يصنعون الحضارة، صديقاً للذين يستهلكونها ويلعنونها، لأنهم يضعون الأديان في أفواههم، والمعاصي الكبيرة في قلوبهم وأعضائهم..؟

لقد ظلّ التفكير في المجتمع المتخلف في كل تاريخه يتسامح مع جميع المخالفات الأخلاقية، كما ظل دائماً يرفض التسامح مع أية مخالفة فكرية أو اعتقادية.

وقد استثمر الماكرون الأقوياء هذا الغباء استثماراً متشعباً، فمن جهة استطاعوا أن يخرجوا على كل القيود الأدبية، وأن يتمتعوا بجميع مزايا الإنحراف والطغيان والفضائح بدون أي احتشام، لأن العصيان السلوكي ليس شيئاً كبيراً بهذا المنطق.

ومن جهة أخرى وجدوا المبرّر المقنع ليبطشوا بكل ثقافة أو تفكير قد يخشونهما، بحجة المحاربة للآراء المخالفة. ولهذا كنا دائماً نجد في التاريخ وفي العصر الحاضر كذلك، قوماً لا يتورعون عن فجورهم عن أية رذيلة، ثم يتهيبون من ورعهم كل تفكير.

لقد ظللنا دائماً نجد قوماً هم أتقى الناس تفكيراً، وأفسقهم نفوساً، وأعضاء، وأماني.

وما حاجة اللص للكفر..؟

إن للفقهاء والمحدثين المسلمين في هذا الموضوع آراء معروفة.

إنهم يفرقون بين الفسوق والتفكير.. فالفاسق مهما كان نوع فسقه، ليس شريراً كالمفكر المخالف في تفكيره.. والخارج في أفكاره على عقائد السوق، كافر وله النار حتماً، ولن ينفعه ما لديه من عبقرية ولفضائل إنسانية، لأنه مرفوض بكل فضائله..

أما الفاسق فيبقى مؤمناً ومن أهل الجنة حتى ولو قتل كل الناس، وفجر بكل الأعراض، وسرق كل الأموال.. لأنه مقبول ومغفور له بكل تلوثاته.

لقد قالوا إن الحاكم الظالم اللص الفاجر لا يجوز نقض بيعته ولا الخروج عليه، ما لم يعلن خروجه على العقائد المقررة. ولا يشرع الخروج على مثل هذا الحاكم إلا في حالة واحدة، هي أن يعلن جهراً كفره بالمعتقدات، وبالآلهة المعروضة في الميادين العامة لتشوهها الجماهير بصلواتها وتفاهاتها وهتافها، وبمطالبها وضراعاتها غير المهذبة وغير الذكية..

ولكن لماذا يكفر الحاكم.. وإذا كفر فلماذا يعلن كفره.. وهل هو فاضل إلى المدى الذي يجعله يفعل ذلك..؟

إن العقائد القوية هي دائماً جنود مخلصون للطغاة والمستغلين. وهم يحافظون على هذه المعتقدات كما يحافظون على الجيوش الكبيرة، لأن الجماهير كما تحكم بالجيش القوي، تحكم أيضاً بالخرافة القوية.

إن الثائر والمقاوم للثورة، كلاهما محتاج إلى نوع قوي من العقائد لخديعة جماهيره، وتكتيلها.. لسوقها في طريق واحد إلى العبودية. وليس في الثورات ما هو خروج على كل العقائد؛ ولكن الثورة، أية ثورة، هي استبدال عقيدة قوية وجديدة، بأخرى قديمة قد ضعفت.. لهذا كان الثوار دائماً أقسى بطشاً، وأعنف قيوداً، وأكثر إذلالاً للناس، وللعقول، والحريات، من كل الطغاة.. بل لقد كانوا أكثر رجعية من جميع الرجعيين. ولم يوجد حاكم واحد في كل التاريخ، كانت خطته إضعاف العقائد أو الخرافات من كل نوع، في المجتمع الذي يقف على قمته، بل كان الحكام والقادة في جميع العصور إذا حاربوا أو أضعفوا عقيدة أو خرافة، انصرفوا إلى تشييد أنواع أقوى من الخرافات والعقائد، وهم لا يبحثون عن الأفضل أو الأصدق، بل عن الأقوى والأنفع لهم.

إذن فلماذا يكفر الحاكم والمستغل، أو يعلن كفره حينما يكون كافراً حقاً..؟

إن إعلان الكفر قد يكون تضحية، أو بطولة يصعب جداً أن يوجد من يمارسونها..

إن أي حاكم محتاج إلى أن يملك فضيلة خارقة، لكي يرتفع عن استغلال الإيمان في خديعة رعاياه، فإيمان القوي رذيلة معروفة، لأنه أسلوب لئيم من أساليب الأقوياء لسيطرتهم على الضعفاء.. ولو أعلن أي حاكم كفره بكل العقائد المطروحة في السوق، لكان حاكماً لم يعرف البشر له مثيلاً في شجاعته وفضيلته، إن لم يكن مجنوناً، أو باحثاً عن الانتحار.

لقد ظل أفجر الحكام والمعلمين والفقهاء، يحكمون العالم المتخلف في كل تاريخه، ويخدعون ذكاءه وأخلاقه، متسترين بالدعوة إلى عقائد لا تحترمها أعضاؤهم، ولا شهواتهم الخارجة على جميع العقائد والقوانين.

وقد أيد الفقهاء والمحدثون المسلمون الآراء المذكورة بأحاديث نسبوها للرسول.. لقد قال فيما رووا: «لا تخرجوا على الحاكم الظالم ما لم تروا منه كفراً بواحاً قامت عليه جميع البينات».

وقال: «لا تخرجوا على الحكام الطغاة ما أقاموا فيكم الصلاة»..

ونقلوا روايات كثيرة، فيها تكفير لمن يخرجون على الحاكم الظالم المؤمن.

إن كثيراً من الشعوب قد تخضع بلا شعور كبير بالهوان أو المرارة، لأفسق الحكام وأطغاهم من الخارجين بآثامهم على الأديان، والقانون، وعلى كل فضيلة إنسانية، ولكن لو أن أحد هؤلاء الحكام أعلن شكه في مجموعة المعتقدات الشعبية التي لا يريد أحد أن يعمل بها.. لا الشعب ولا حكامه، لكان احتمالاً قوياً جداً أن يثور البركان الخامد ليقتلع ذلك الحاكم الزنديق، حتى ولو أصبح في حكمه نموذجاً يتعلم منه الأنبياء النظافة والزهد، وتتعلم منه الشمس الإشراق وضخامة العطاء.

ولقد صنع الإلفُ التهاونَ مع الفسوقِ السلوكي، والتشدد إزاء الخلاف الفكري والاعتقادي.. لقد اعتاد الناس جميعاً أن يفسقوا، ويعصوا، وأن يروا جميع الآخرين يفعلون ذلك. والأمر ليس كذلك في المعتقدات، فالبشر قد يحافظون على عقائدهم الغاضبة المتعصبة، وفي الوقت نفسه يصنعون كل ما يشاؤون. وإذا غيروا هذه العقائد في أنفسهم فقد يخفون تغييرها.. إن كل إنسان قد يستطيع أن يكون أكثر من الأنبياء في المحافظة على عقائده، حتى ولو كان في حقيقته زنديقاً خطيراً، ولكن لا يوجد من يستطيع أن يكون كذلك في سلوكه، لأن السلوك تطبيق، والتطبيق تناقض وافتضاح وتحديد. إن أجمل العقائد تصبح شيئاً حافلاً بالعيوب والنقائص، إذا طبقت سلوكاً.

إنه لمن السهل أن ينافق الإنسان في إيمانه، ولكن من الصعب أن يفعل ذلك في سلوكه، لأن النفاق الاعتقادي إنما يراد به التغطية على سلوك ما. فالنفاق في السلوك باهظ، وهو ليس كذلك في العقيدة..

إنه لصعب جداً أن تفعل دائماً ما يرضي الناس، ولكن ما أسهل أن تعتقد أو تقول ما يرضيهم..

كم هو سهل أن تقسم بكل الآلهة والأنبياء بأنك تعتقد أن الموت في سبيل الله، وسبيل الناس، هو الغاية من وجودك، وأنك سوف تفعل ذلك حتماً.. ولكن كم هو صعب أن تفعل هذا الذي تعتقد، أو هذا الذي تقول.

الأتقياء الفجار

لقد حدث في كل مراحل التاريخ أن وجد من ثاروا على حكام مؤمنين يؤمنون بالإله، ويدافعون عن الإيمان به، بل ويقتلون الملحدين. ولكن هذا الذي حدث لم يكن تعديلاً للنظرية وإنما كان خروجاً عليها، أي كان معصية لا فكرة، والخروج على النظرية لا ينافي صدق النظرية في هذا التفكير.

وإذا كانت هذه النظرية قد تغيرت أو اهتزت، فقد حدث هذا بأسلوب غير فكري، وبطريقة جزئية غير ثابتة، وبالخضوع لمؤثرات خارجية. إن نظريات أجنبية كثيرة قد اعتدت على هذه النظريات المحترمة للعقيدة دون السلوك.

لماذا أشادوا بقيمة العقيدة أكثر من إشادتهم بقيمة السلوك..؟

إنهم لم يكونوا في ذلك أتقياء بل فجاراً. لقد هونوا من شأن السلوك، ليستطيعوا التصرف بلا أخلاق. وهم لا بد أن يخرقوا أي سلوك مقرر.

وقد وجدوا أنه من المستحيل أن يكونوا ملتزمين أخلاقياً، إذن يجب أن يعتقدوا أن الالتزام الأخلاقي ليس شيئاً عظيماً، لكي يستطيعوا خرق الالتزام دون سقوط أو معاناة. وعظموا من شأن الاعتقاد، لأن الالتزام في العقيدة مريح، ولا يتنافى مع الاستجابة للشهوات، بل إن في الخروج على العقائد والأفكار المألوفة معاناة وخطراً، وفي التعظيم من شأن الاعتقاد أو النظرية تعويض عن السلوك القوي المطلوب المفقود. والضعفاء هم وحدهم الذين يعظمون العقائد ويحتقرون الأعمال، لأن هذا يتناسب مع ضعفهم؛ فالضعف اعتقاد. أما الأقوياء فإنهم يرون أن القيمة كلها للعمل، لأنهم يستطيعون أن يعملوا، والقوة عمل. إن تعظيم العقيدة على حساب السلوك، أسلوب من أساليب الهرب والدفاع عن العجز. والمبالغون في تقويم المعتقدات هم قوم عاجزون لا فضلاء. والعقيدة ليست عملاً ولكنما هي مجرد توقف العقل عن العمل. إذن فالعقيدة مريحة ومفيدة أيضاً.

وتصميمنا على الإيمان بعقيدة ما، ليس متأثراً بصحة تلك العقيدة أو بطلانها، بل بقوة إغرائها وإرادتنا لها. ولا فرق بين أذكى العقائد وأغباها في قدرتها على إقناع كل فريق بأن عقائده هي خير العقائد. إن الإنسان لا يبحث باعتقاداته عن الحق أو الفضيلة؛ ولكن عن الشهوة والحماقة، والإثارة، والتعصب. وقد اخترع الناس العقائد المتعصبة المثيرة لأنهم محتاجون إلى أن يتعصبوا، ويستثاروا، ويفعلوا الحماقات.

إن العقائد تتكون بالإلف، والممارسة، والتكيف النفسي والذهني، فما ألفناه ومارسناه منها يصبح فينا حالة نفسية وفكرية، نجد معاناة في الخروج عليه، واستجابة ذاتية في الاستمساك به،

وقد نقاتل دفاعاً عنه. أما ما يخالف ذلك فنراه الزندقة، ونقاومه بلا ذكاء أو تسامح.. والذين يمارسون الإيمان بالحشرات السامة، والحيوانات المفترسة، ويمارسون عبادتها طويلاً، يحسون نحوها بالروعة والإلهام، والحب والحماس، ويرفضون التمرد عليها، وقد يقتلون من يشككونهم فيها، كما يصنع بلا أية فروق من يألفون عبادة الله وحده، ويمارسونها مدة طويلة.

إن شعور العابد للخالق، مثل شعور العابد للوثن من حيث التكيف، والعشق، والاقتناع، ومقاومة المخالفين، وكراهتهم. إن جميع أصحاب العقائد والمذاهب المتناقضة، يدافعون عن عقائدهم ومذاهبهم، ويؤمنون بها، ويشعرون نحوها بالحب والاحترام، على مستوى واحد من الجنون والتعصب. إن التفاوت بينهم في تقدير مذاهبهم وأربابهم ليس سببه تفاوت هذه الأرباب والمذاهب، بل تفاوت مستوياتهم هم..

إن الإيمان ليس حباً أو خوفاً من الآلهة، بل من النفس. والبشر يحولون خوفهم من أنفسهم إلى آلهة وعقائد عنيفة، كما يحولون توتراتهم الخاصة إلى شرائع وأخلاق اجتماعية. إن المؤمن الذي يقاتل الآخرين أو يعاديهم لأنهم مخالفون له في الدين، سيقف منهم هذا الموقف نفسه لو كان بلا دين، أو لو كان على دين آخر وخالفوه في ذلك، لأن البشر لا يؤمنون بأديان أو مذاهب أو آلهة، ولا يدافعون عنها؛ وإنما يؤمنون بمركبات شعورية، ويدافعون عن هذه المركبات التي تتحول إلى مواقف..

إن من هتف لمذهب أو إله، أو هتف ضده فهو إنما يهتف لمشاعره أو ضدها. ومن عادى الناس لأنهم يخالفونه في عبادة الله، كان كمن يعاديهم لأنهم يخالفونه في عبادة الأوثان، لأن المعاداة في الحالتين دفاع عن الإلف، والشعور، والمصلحة؛ لا عن الآلهة.

ولو عرف البشر هذه الحقائق فهل يتخلون حينئذٍ عن جنون التعصب والغرور والبغضاء..؟

لا أعتقد ذلك لأن الغرور، والتعصب، والبغضاء، حاجة أو حالة؛ لا دفاع عن الأرباب أو المذاهب.. إن انفعالنا للإله أو المذهب، أو انفعالنا باسم الإله أو المذهب، ليس مساوياً لذلك الإله أو المذهب، بل مساوٍ لحالتنا نحن..

إن همومنا الذاتية تتحول إلى هموم أدبية.

لكي نوغل في الإثم

أحوج الناس إلى الخروج على الأديان والأخلاق والمذاهب من حيث التطبيق هم أكثرهم دعوة إليها، وإيماناً بها.. هم كبار القادة والزعماء والوعاظ، الذين يضعون القوانين، والعقائد القاسية المتعصبة، للبطش بكل من يفهمون أو يفكرون، أو يناقشون.. إنه لا أحد يحتاج إلى خرق الأخلاق، والقوانين، والمذاهب، والأديان، مثل واضعيها ومنفذيها؛ لأن تطبيقها يقضي

على هؤلاء جميعاً بأن يصلبوا، ويسلبوا كل فوائدهم الكبيرة المحرمة.. إن أي داعية أو حاكم أو زعيم عرفه العالم بأنه أعظم من رفع راية الدعوة إلى الدين والفضيلة، لو حوكم بنصوص ذلك الدين وتلك الفضيلة، أو بروحهما، لكان الإعدام جزاءه المتواضع..

إن كل الذين يؤمنون بالله، يؤمنون به كميت، كمصلوب.. إنهم لا يؤمنون به حياً، قوياً، يراقب اللصوص، والقتلة، والكذابين، والمنافقين الطغاة، وأهل الغدر والخيانة، ويعاقبهم، ويبتسم للصادقين والفضلاء ويثيبهم.. إنهم لا يؤمنون به قانوناً، أو نظاماً تحميه العدالة المحتومة.. إنهم يؤمنون به جثة تشيع، وتجامل، وتمدح بالكلمات الطيبة؛ دون أن تهاب، أو تحترم، أو يبحث عن رغباتها..

إنهم مهما آمنوا به، أو زعموا ذلك، يتعرون أمامه بكل فسوقهم، وتشوهاتهم بلا خوف عقاب، ولا انتظار مثوبة، وبلا أية هزة من الحياء، مثلما يتعرون أمام الموتى.. إنهم يتعاملون على ذكرى، ليس لها في حسابهم أكثر مما لأية ذكرى أخرى.

والذي يؤمن بالله ثم يعامله كميت، إنما هو قاتل إله.. لقد آمن بإله.. ثم لم يستطع، أو لم يرد أن يعايشه، أو يحمله حياً في نفسه، أو في بيته؛ فقتله..

إن كل المؤمنين في كل العصور إنما كانوا قتلة آلهة وحاملي جثث.. كانوا يؤمنون بالآلهة القوية المفترسة، ثم يقتلونها، ويحملون جثتها، ويقيمون فوق اسمها قبوراً شاهقة، فإذا صلوا لها، أو دعوها، كانوا في الحقيقة يصلون عليها ويبكونها.

ليست المعابد الكثيرة في كل مكان وعصر، إلا قبوراً للآلهة..

لقد بنيت لتكون معابد، فتحولت إلى مقابر.. بل لقد بنيت لتكون مقابر..

إن كل ما للمؤمن من مزية على غيره، أنه يشيد مقبرة ضخمة لإله لا يستطيع أن يطيعه، أو يحترمه، وإنما يتحدث عنه، ويبكي أمامه بدموع باردة، ثم يتعاطى جميع آثامه وخطاياه، داخل ضريح ذلك الإله الجميل القتيل، الذي لا يريد أن يطيعه، كما لا يستطيع أن يفعل.. يتعاطاها بحرارة، وحماس، ولهفة..

وهل عزاء للآلهة أن يذهب عصاتها إلى مقابرها، لكي يبللوها بالدموع الكاذبة..؟

أو هل من عزاء أو تعويض لها، أن يشهدوا المقابر فوق جثثها الحزينة المشوهة بآثام عبيدها..؟

إن الإيمان جهد رخيص، ليس فيه أية فضيلة أو تضحية أو ذكاء. إن جميع العاجزين والفاسدين والأغبياء، يستطيعون أن يؤمنوا دون أية معاناة عقلية أو أخلاقية. إن الشيء الكبير

الذي فيه كل المعاناة، هو أن يكونوا فضلاء أو أقوياء في تصرفهم مع الطبيعة، ومع أنفسهم، ومع الآخرين.

أشد الناس حماساً للإيمان، هم الذين لا يتعاملون مع إيمانهم.. هم الذين لا يلزمهم إيمانهم بشيء أكثر من أن يؤمنوا، ويتحدثوا عن آلهتهم بإعجاب، ويرضوا عن أنفسهم، ويلعنوا المخالفين لهم، ويكرهوهم. ودائماً حيث يوجد الإيمان الأكيد لا يوجد الالتزام؛ فالذي لا يحتاج إلى أن يطيع إلهه ويعاني من طاعته، لا يشعر بالحاجة إلى أن يكفر، أو يحتج، أو يعارض. فالمعارضة والتمرد على العقائد دليل على شدة المعاناة منها، وعلى الشعور بثقل تبعتها، وبدلالتها الالتزامية.

كم هي فضيلة أو بطولة أن نؤمن بإله يملأ علينا الكون، ثم لا نلتزم نحوه بأي شيء، ثم نعزل إيماننا به عن شهواتنا، وحماقاتنا السلوكية، ومصالحنا غير المتوقرة، بل ونحميها ونبررها به.

إن الإيمان بإله منبوذ مهجور، مثل هذا الإله الذي يمارس المؤمنون به عفوناتهم أمامه، دون أن يسقطوا خوفاً أو حياء، بل دون أن يحترموا نظراته أي احترام.. إن الإيمان هذا، لهو أبشع أساليب الفجور، والكفر، والتحقير.

إذن الذين يتمردون على العقائد والنظريات لأنهم يتململون منها، هم أكثر أخلاقية والتزاماً وشعوراً بقيمة الإيمان، ممن يؤمنون بلا معارضة ولا شكوك.. فغير المؤمن أكثر إيماناً من المؤمن وأقوى إدراكاً لقيمة الإيمان ومعناه الأخلاقي.

والذين لا يشعرون بأية حاجة إلى الخروج على عقائدهم أو تغييرها، هم حتماً قوم متحللون من الالتزامات الأخلاقية، أي متحللون من نفس عقائدهم. واحترام هؤلاء لأنفسهم ضرب من الغباء أو النفاق..

وهل يوجد أفسق، أو أكفر، أو أكثر وقاحة، من الذي يستهين بعقائده، وإيمانه إلى المدى الذي يجعله لا يشعر بالحاجة إلى الخروج على هذه العقائد والإيمان..؟

إن الخروج على العقيدة التي لا نستطيع الالتزام بها، أسلوب من أساليب الاعتذار إليها.

*

أنا دائماً شديد التعجب من حرص الإنسان على ألا يكون صادقاً، ولا ذكياً في فهمه لنفسه ولسلوكه، وفي حديثه عنهما. إنه يصر على التحدث عن العقائد والنظريات والمبادئ، داعياً إليها الآخرين، زاعماً أنه لا يتحرك إلا بها..

كم أشعر بالدهشة والخجل، حين أسمع من يتحدثون عن الالتزام الأخلاقي، والعقلي،

والاعتقادي، بحماس من يتحدثون عن أقوى الحقائق.. كم أحسد هؤلاء على استعدادهم العجيب للاقتناع بالأكاذيب والأوهام التي تجعلهم يزيفون أنفسهم بلا معاناة، أو على استعدادهم لقول الأكاذيب التي لا يصدقها أحد، دون أن يشعروا بالحاجة إلى أي اعتذار.

إن الناس لا يتفاوتون في استحالة أن يكونوا ملتزمين أو محترمين لما ينادون به من عقائد ونظريات ومثل أخلاقية.. إن بعدي أنا وأنت، عن الالتزام بأية عقيدة يساوي بعد أي إنسان آخر، إذ لا توجد أبعاد مختلفة عن العقائد، ولا مستويات مختلفة للمعتقدين في احترام عقائدهم.

ليس في الناس فضلاء وغير فضلاء.. من يطيعون الفضيلة، ومن يطيعون الإرادة؛ كما أنه ليس في الطبيعة ما يخضع للقوانين، وما لا يخضع لها. إنه لا فرق بين البشر والطبيعة في الخضوع لقانون واحد.

إن المعتقدات وجميع النظريات ليست التزاماً أو قيداً، بل هي تعاريف وشروح لظروفنا وأهوائنا. ونحن بمعتقداتنا نفسر أنفسنا، ونبحث عن رغباتنا، ومصالحنا، ونسميها بها. ولسنا بالعقائد نضع قيوداً أو حدوداً على سلوكنا، أو أهوائنا لنخضعها أو نوجهها. إننا نسمي أوضاعنا وما نريد عقائد، ولا نخضع أوضاعنا وإرادتنا لعقائد. إن الفرق بين أشد الناس حماساً لعقيدة من العقائد، وتظاهراً بالتزامها، وبين أشدهم عداوة لها، أو خوفاً منها، يساوي الفرق بين هؤلاء وهؤلاء في ارتباط مصالحهم وأهوائهم بتلك العقيدة أو بالتظاهر بها. فالذين يعتقدون كالذين لا يعتقدون في خضوعهم لذواتهم، لا لأي اعتقاد. إن العقيدة أسلوب من أساليب البحث عن الذات.. لا عن الله. وهي تبرير لما تريد شهواتنا، لا لما تريد أربابنا..

نحن نعتقد، لأننا عصاة نحاول تحقيق معاصينا تحت شعار مقبول.. لا لأننا أتقياء..

الاعتقاد بحث عن شيء.. عن شيء غير منزه، لا إعطاء لشيء منزه..

إننا نريد بالعقيدة أن نخدم أهواءنا، لا أن نخدم الله بها.. نريد بها أن نخدم أهواءنا التي هي ضد الله، لا أهواءنا التي هي مع الله.

إن النموذج الذي تحتاج إليه حياة الناس لتكون عظيمة، هو أن يكون متديناً جداً في سلوكه، وجسارة نفسه، لا في اعتقاده أو تفكيره..

إن النموذج هو أن يكون الإنسان في حياته كالتعاليم، وفي تفكيره كالشهوات، لا تتقيد بشيء..

إن الإنسان المستقيم النفس، القوي الحياة والسلوك، هو المثل الأعلى والأفضل لكل دين وفلسفة، مهما أخطأ في التعبير عنه، سواء أكان ذلك الإنسان بلا عقيدة، أم كان بعقيدة..

سواء كان بعقيدة رجعية، أم عقيدة تقدمية.. سواء أكان زنديقاً، أم كان مؤمناً.. سواء أكان مؤمناً تقدمياً، أم مؤمناً رجعياً..

إني لأفضل الرجعي المستقيم على المتحرر المنحل..

إني لأفضل عابد الأوثان، المؤمن بأسخف المذاهب والأفكار، النظيف السلوك، القوي الحياة، على من يعبد الله وحده، وعلى من يؤمن بأذكى الأفكار والمذاهب، إذا كان ملوثاً أو ضعيفاً..

وإن الله ليفضل هذا الذي أفضل.

وقد كانت المجتمعات في كل تاريخها، بكل تصرفاتها، تفضل الذكي الصالح الزنديق، على الفاسد الغبي المؤمن. إن جميع ما يقال خلاف ذلك، ليس إلا لغواً لفظياً وخطابياً، لا حساب له في سلوك أي مجتمع من المجتمعات القديمة أو الحديثة، حتى أقواها إيماناً.

إن ضمير الحضارة يبحث في المستقبل عمن يستقيم بلا عقيدة؛ لا عمن يعتقد بلا استقامة..

إن هدف الإنسان المتحضر أن يكون فاضلاً وشريفاً بلا معتقدات، لا أن يكون معتقداً بلا فضائل ولا شرف.

لقد خرج البشر من تجاربهم الطويلة بنتيجة كبيرة، هي أن العقيدة لا تصنع الاستقامة، ولا يمكن أن تصنعها، وأن الذين يطلبون الاستقامة بالعقيدة، كالذين يبحثون عن العدل والحب في ضمير الزلازل والبراكين، وفي ضمير القوة التي تحرك الزلازل والبراكين.

مزاح دولي سخيف

وهل يمكن أن يضعف تعصب الإنسان لعقائده ومذاهبه وآلهته، أو يتواضع رضاه عن إيمانه، لو عرف أن هذه المذاهب، والعقائد، والآلهة، لا تستطيع أن تقوّم من سلوكه أو من شهواته أي تقويم، بل ولا أن تدخل معها في أي اصطدام، بل ولا أن تزجرها، أو تعاتبها أقل زجر، أو أرق عتاب؛ مهما ملأ الدنيا حديثاً عنها، أي عن عقائده وآلهته، ومهما شبّ الحروب والخصومات تحت أعلامها المرفوعة بلا أية نية لاحترامها.. ثم لو عرف أنه بإيمانه، يبحث عن الاستجابة لأهوائه ومآربه الخاصة؛ لا عن مقاومتها.. ثم لو عرف أن الإيمان إنما هو دائماً بحث عن الرغبة؛ لا عن الاستقامة، وأن سلوك الإنسان في جميع الظروف ليس توازناً، أو ميثاقاً محترماً بين رغبات مفترسة، وعقائد مؤمنة، ولكنه توازن أو تناقض بين رغبات ورغبات أخرى مضادة.. أو لو عرف أنه ليس لأي إنسان ـ مهما كانت فضيلته أو إيمانه ـ من إله يعبده، ويصوغ فيه عقائده، ويطيع كتبه المنزلة وأنبياءه المتناقضين القساة، سوى إله واحد.. وأن هذا الإله الواحد

ليس سوى الرغبة.. وأنه هكذا كان الإنسان منذ وجد.. وهكذا سوف يبقى إلى الأبد.. وأنه لن توجد أية وسيلة لإضعاف هذه الحقيقة..؟

إن كل إنسان يعرف على نحو ما، أنه كاذب حينما يتحدث عن معتقداته وعن التزامه بها..

إذن، ما أكبر الوقاحة التي يحتاج إليها من يجرؤ على توجيه اللوم إلى الآخرين الذين لا يحترمون عقائدهم ونظرياتهم، ويخضعون لمصالحهم وأهوائهم، وكأنه هو ليس كذلك..

إن الإنسان يحتاج إلى غباء غير محدود لكي يستطيع تصديق هذه الأكذوبة، وإنه يحتاج إلى صفاقة مماثلة لكي يجرؤ على التحدث عنها.

ومع معرفته لذلك من نفسه، ومعرفته أن الآخرين هم كذلك أيضاً، لأنهم ليسوا أقدر ولا أفضل منه، فهو يرفض الاعتراف به، وكأنه يستطيع ويحاول أن يخفي نفسه عن نفسه، أو عن الآخرين الذين يعرفونه حتماً، لأنهم يعرفون أنفسهم بهذه القوة.

إن أي زعيم في العالم، يعرف أن الزعيم الآخر كاذب حينما يقف يتحدث عن احترام العدل والحق، لأنه يعرف أنه هو نفسه كاذب حينما يقف نفس الموقف ليتحدث نفس الحديث، وهو لن يستطيع أن يرى أن الآخرين أفضل منه أو أقدر على عصيان الشيطان، أو أن رغبة الشيطان فيهم أقل من رغبته فيه..

ومع ذلك، فجميع زعماء العالم يجرؤون على أن يتقدموا إلى أعلى المنابر الدولية بخطوات لا ترتجف من ضخامة الأكذوبة، ليعلنوا هذا الهراء على مستوى عالمي، دون أن يسقطوا موتى من الخوف أو العار، ودون أن يقذفهم الناس، أو تقذفهم النجوم بالحجارة..

إن كل هؤلاء الزعماء يفعلون ما ينكرون باسم الأخلاق على خصومهم أن يفعلوه. وإنهم يقفون من كل القضايا والمشاكل نفس المواقف التي إذا وقفها الآخرون أعلنوا عليهم النكير، وقاموا يلعنون هؤلاء الآخرين باسم الإنسانية كلها، وباسم كل القيم والقوانين، ولا يذكرون أنهم هم كذلك يفعلون، وأنهم إذا لم يفعلوا فخطة لا نزاهة..

إنك لن تجد مزاحاً دولياً سخيفاً، تتعامل به كل المجتمعات في كل العصور وكأنه أقوى من الجد، مثل الزعم أن الناس في حياتهم وعلاقاتهم إنما يبحثون عن العدل والصدق والحق، وأن سبب الخلاف والخصومات بينهم هو تحري الحقيقة، والخطأ في تحريها، وليس الهوى أو المصلحة الخاصة..

وإذا كان الإنسان يريد أن يسخر من نفسه ويحقرها، فليس في أساليب السخرية والتحقير ما هو أقوى من ذلك.

لا نعيش بالحقيقة

كم يثير الاشمئزاز والغضب أن نجد دكتاتوراً مجنوناً يعاقب على خطرات النفس التي لا تتحول إلى همس، وعلى احتجاج العقول الذي لا يتحول إلى تفكير، يجسر على أن يقوم خطيباً داعياً إلى الحرية، آمراً بها، متحدثاً عن مزاياها وعن فضله عليها..

وإننا لنشك أحياناً هل هذا جنون أم هو وقاحة.. هل العالم كله مجنون، أم كله وقح.. هل كل زعماء العالم ومعلميه مجانين أم وقحاء.. هل البشر كلهم يبحثون عن الوقاحة والجنون أم يفرضان عليهم.. هل الناس هم الذين فرضوا على زعمائهم ومعلميهم أن يكونوا وقحاء ومجانين، أم زعماؤهم ومعلموهم، هم الذين فرضوا عليهم أن يتقبلوا منهم ذلك..؟

نحن لا نستطيع أن نفسر الآخرين تفسيراً أخلاقياً، لأننا لا نستطيع أن نفسر أنفسنا هذا التفسير، لأننا نعرفها..

والذين يعرفون أنفسهم ثم يفسرونها تفسيراً أخلاقياً، والذين لا يفسرون أنفسهم تفسيراً أخلاقياً، ثم يفسرون الآخرين تفسيراً أخلاقياً.. هؤلاء وهؤلاء قوم لا يمكن أن يفهموا كما يفهم البشر..

هكذا يظل الناس يكذبون على أنفسهم، وعلى الآخرين، بقدر ما يكذب عليهم الآخرون الذين يكذبون أيضاً على أنفسهم.

وهذا الكذب المتفق عليه لا يبدو أنه يعني شيئاً، أو أنه يحقق أي هدف لأي من هؤلاء المتعاملين عليه.

إن الذين يصدقون أكاذيبنا المفضوحة لا يصدقونها عن غباء، بل عن حاجة وضرورة. إنهم لا بد أن يصدقوها حتى ولو طلبنا إليهم ألا يصدقوها. والذين يؤمنون بالزعماء والدعاة المصلحين لافتراضهم إياهم صادقين، ومتطهرين، ومخلصين، سيظلون مؤمنين بهم وبهذا الافتراض مهما تعرت أكاذيبهم وجرائمهم وافتضحت.. بل لو أعلن هؤلاء القادة عن أنفسهم أنهم كاذبون مخادعون، وطلبوا من أتباعهم ألا يؤمنوا بهم وألا يحترموهم، لأنهم في الحقيقة دجالون منافقون، لازدادوا لهم احتراماً وبهم إيماناً، ولقالوا حينئذٍ أنهم من فضلهم وتواضعهم يقولون ذلك عن أنفسهم، أنهم يكذبون ضد أنفسهم لنبل أنفسهم، فيصدقونهم إذا كذبوا، ويكذبونهم لو صدقوا..

إن الناس لم يصدقوا أو يحترموا زعماءهم ومعلميهم لأنهم قد استطاعوا أن يخفوا سلوكهم أو نياتهم عنهم..

كلا، إنهم مفتضحون.. وقد كان هؤلاء الزعماء والمعلمون يعلنون عن هذا الافتضاح بشتى الأساليب، ويلعنون أنفسهم بأساليب مثالية في التعري.. لقد كانت كل أعمالهم وأهدافهم، تعيش في العراء تتحدى جميع المستويات الأخلاقية والقانونية، وتقتات برذائلها بوقاحة وإعلان. ولكن البشر مع كل هذا، ظلوا مصرين على الإيمان بهؤلاء الزعماء والمعلمين، أو على الأقل ظلوا يتعاملون معهم بشيء من الإيمان والاحترام، أو ظلوا يخضعون لهم ويطيعونهم وكأنهم يؤمنون بهم كل الإيمان، ويحترمونهم كل الاحترام.

وليس ممكناً أن يكون الزعماء والمعلمون المتبرعون في العالم أخلاقيين، يقولون كل الحقيقة، ويحترمون ويفعلون كل الحقيقة، ويدافعون عن كل الحقيقة تحت كل الظروف، ويكرهون كل الكذب والباطل والظلم والأنانية، ويحاربونها، حتى لو كان ذلك يعني أن يكرهوا أنفسهم ويحاربوها، لأنها كذب، وظلم، وباطل، وأنانية..

ولو وجد زعيم أو معلم واحد من هذا الطراز، لما آمن به أو احترمه أو احتمله أي مجتمع، ولما أمكن أن يقبل هو أن يكون زعيماً أو معلماً، لأنه حينئذٍ سوف يكون ملزماً بأن يكره نفسه ويقاتلها، لما فيها من الكذب والباطل والأنانية، وملزماً أيضاً بأن يكشفها ويحرم عليها ما لا تستحق..

إن الصدق لا يمكن أن يقود العالم، إن الصدق مع الذات وصدق الذات يقضيان علينا بأن نزول.

إن جميع الكائنات المعروفة لنا، ما عدا الإنسان، تعيش بالحقيقة.. والإنسان وحده هو الذي تقتله الحقيقة، تجعله يطلق الرصاص على نفسه، أو يتوقف عن أن يحيا لو أنه عاشها كاملة.. ولكنه عاش، وسيظل يعيش، لأنه لا يعيش بالحقيقة.

قانون الجبرية الذاتية

ماذا يحدث لو تصارح الناس وأعلنوا عن أنفسهم إعلاناً مستمراً وبكل الوسائل، أنهم لا يسيرون وفق عقيدة أو مبدأ أو نظرية، ولا يحترمون شيئاً من ذلك، وإنما هم أجهزة مادية تتحرك بالشهوة، والأنانية، والحقد، والمنافسة، والألم، والكبرياء، والجوع، ورد الفعل، وبالعقد والظروف، والذكاء والغباء..

ماذا يحدث لو فعلوا هذا..؟

هل تتغير النتيجة، أو يتغير سلوك الناس لو أنهم تحدثوا عن أنفسهم وفهموها بهذا الأسلوب، بلا أية أقنعة من الكذب والعجز عن الفهم.. حتى ولو جاءت الكتب المقدسة، وجاء الأنبياء للإعلان عن هذه الحقيقة، وللدعوة إلى الإيمان بها..؟

إنه لا يمكن أن تتغير النتيجة، لو أن كل التعاليم الإنسانية قد جاءت تدعو إلى نقيض ما دعت إليه..

لن تتغير النتيجة لوْ جاءت التعاليم تدعو الناس إلى الكذب والكراهة، والحسد والأنانية، وإلى الحروب وكل ضروب الفساد، وتحرم جميع الفضائل المضادة.

إن الناس سوف يكونون حينئذٍ كما كانوا بلا أية فروق، سوف يعصون التعاليم التي تأمرهم بالرذائل، كما يعصون التعاليم التي تأمرهم بالفضائل. إن الناس لا يفعلون الرذائل لأنهم يريدون أن يعصوا التعاليم، كما أنهم لا يفعلون الفضائل لأنهم لا يريدون أن يطيعوا التعاليم.. إن الناس يطيعون ويعصون بلا تعاليم، بلا تحليل ولا تحريم، أي يفعلون أشياء ويتركون أشياء بالأسلوب الذي به يحبون أنفسهم ويكرهون أعداءهم، ويشتهون ويحقدون، ويجوعون ويعبرون عن ذلك، وكما ينامون ويصنعون منازلهم وثيابهم وطعامهم بلا أية تعاليم أخلاقية. وكما أنهم حينما يخرجون على التعاليم لا يقصدون عصيانها، بل الاستجابة لأنفسهم، فكذلك حينما يطيعونها. وقد خرجوا على التعاليم أكثر مما توافقوا معها، وهم في الحالتين لا يقصدون طاعتها، ولا الخروج عليها.

إن جميع ما صنعه البشر في كل تاريخهم لابتكار العقائد والتمكين لها والمحافظة عليها، وما أنفق على أجهزتها المختلفة من ذكاء وحب، وبغض وخلاف، وعمل وعداوات، ليس إلا عبثاً عقيماً إذا كان القصد من هذه العقائد أن تتدخل في صياغة سلوك الإنسان أو صياغة أهوائه النفسية.

إن في جسد كل إنسان نبياً داخلياً لا يمكن عصيانه ولا تكذيبه، يوحي إليه بأن يطيع ذاته، ويعصي عقائده ومعلميه..

لهذا لم يكن ممكناً في أي وقت من الأوقات أن يطيع الناس أنبياءهم ومعلميهم الذين يجيئون إليهم من خارج أنفسهم، ليعلموهم الأخلاق والعقائد بالأوامر؛ لأنه لم يكن ممكناً أن يعصوا أنبياءهم ومعلميهم الذين يجيئونهم من داخل ذواتهم، ليعلموهم الشهوات والضرورات الطبيعية..

لقد كان الصراع غير متكافئ بين نبي يعيش داخل الذات، ونبي يعيش خارج الذات، بعيداً عنها. وحينما يبدو الناس في صورة من يطيعون عقائدهم وأخلاقهم ويموتون فداء لها، فهم إنما يطيعون مجموعة من الإلزامات الذاتية، والتاريخية، والاجتماعية، ويدافعون عنها. أو كما يجري النهر، وتطلع الشمس، وتنمو النباتات، وكأنها تسير وفق عقائد وأخلاق موضوعة.

إن زهرة البستان التي تتورد في موسمها المحتوم لتحيي ربة المنزل، وتبتسم لها، وتمنحها

شذاها كلما مرت بها، أو نظرت إليها، أو غفلت عنها، لتبدو أكثر أخلاقية وضعية من أي إنسان جاء إلى هذه الدنيا ليعلم أهلها الأخلاق المقررة المكتوبة في السماء.

هل الزهرة تعمل وفق أخلاق وعقائد، أم وفق التزامات ذاتية وطبيعية..؟

وإذا مات اللص أو الحيوان في معركة باسلة هجومية أو دفاعية، فهو يدافع عن ذاته.. عن شيء لا يعرفه، لا عن عقيدة ولا عن مبدأ أو إله..

إنه يقاتل ويموت بلا معنى، بلا هدف، كما يسقط الحجر وينزل المطر، وكذلك المؤمن حينما يموت في معركة بطولية، في معركة يشبها الطغاة، أو المعلمون المختلفون المتغذون بالآلام والحروب.. إنه يموت كما يموت اللصوص بل أسوأ هدفاً.

إن البطل إنسان يعرض نفسه عرضاً قاتلاً..

إن الذي يموت دفاعاً عن مبدأ أو في سبيل شيء، ليس إلا إنساناً يعشق ذاته إلى حد القتل لها..

يجيء الإنسان، يولد، وأيضاً يذهب، يقاتل، ينتحر، يموت، بلا أية تفسيرات أو حوافز أخلاقية أو اعتقادية..

إنه يكون جباناً بالذات، لا بالنظرية أو العقيدة، وكذلك يكون بطلاً..

وكما يحب ويكره بلا نظرية، فكذلك يقاتل حتى الموت بلا نظرية..

كل أعمال البشر.. حتى الموت والحياة، والجبن والشجاعة، أعمال ذاتية لا مذهبية..

حتى المذهبية هي عملية ذاتية، لا أخلاقية ولا اعتقادية..

إن الإيمان بالمذاهب، والانتقال من مذهب إلى مذهب، ليس سلوكاً أخلاقياً أو اعتقادياً.. إنه سلوك ذاتي.. إنه ضرورة ذات أو ظروف ذات، أو أهواء ذات.. إنه ليس بحثاً عن شهوة الإله، أو عن ضرورة الكون.

إن الإنسان في سلوكه وفي جميع استجاباته، خاضع لجبرية ذاتية.. خاضع لقانون الالتزام الذاتي الذي يخضع له كل شيء..

إن الشجاع هو إنسان عاجز عن أن يكون جباناً.. وإن الجبان هو إنسان عاجز أن يكون شجاعاً..

إن المؤمنين بالأرباب هم قوم لا يستطيعون أن يكفروا بها، وإن الكافرين بها هم قوم لا يستطيعون الإيمان بها.. لأنه لا فضل ولا سلطان للأرباب ولا للعقائد، في أن نكون هكذا أو هكذا، كما لا دخل لها في أن نكون أقوياء أو ضعفاء، عقلاء أو حمقى. فالمعتقدات والآلهة لا

تستطيع أن تعطي أي تأثير على سلوك المؤمن، وعلى استجاباته النفسية.. إنها لا تستطيع أن تجعله شيئاً غير ذاته، وقدرتها، وموهبتها.

قد تكون جميع الأعمال الاعتقادية عبثاً مقصوداً.. والعبث المقصود به نفس العبث، يستهلك جل حياة الإنسان. بل كل الحياة ـ من حيث حوافزها، وغايتها، وحاصلها، وأسلوبها ـ ليست سوى عبث أليم..

إنه لا يقصد بالعقيدة أن تعطي سلوكاً.. إنها هي توزيع غير مضبوط بالتفكير أو بالنتيجة لحالة نفسية، كما توزع مثل هذه الحالة بالحقد والغضب، والحسد والسباب، والبكاء والاحتلام وأمثال ذلك.

العبادة احتجاج مقنّع

الإنسان يبكي دائماً، وبكاؤه الدائم هو الذي يصنع عقائده وعباداته، وعبقرياته وتفكيره، ومثله وكل أساليب نشاطه..

إننا نبكي.. إذن نحن نعتقد ونصلي. إننا لا نستطيع ألا نبكي، لهذا لا نستطيع ألا نعتقد ونتعبد.

وإذن، العقيدة بكاء لا سلوك. وهما أي الاعتقاد والبكاء عبث مطلوب، ليس لأنهما يهبان جمالاً أو كمالاً، أو ثقة، أو يحلان مشكلة، ولكن لأنهما يعبران عن ضياعنا.. عن المأساة العائشة، تعبيراً لا يعني غير الاحتجاج الدائم على الحقيقة الأليمة الكبيرة التي لا نستطيع أن نرضاها أو نبررها، كما لا نستطيع أن نرفضها أو نرغب في التخلص منها..

إنهما تعبير عن الاحتجاج على كينونتنا التي لا تزال تحتاج إلى تفسير أو تبرير لم نجده بعد، ولا أمل في أن نجده؛ فنعيشها بلا اقتناع.. فنحس الضياع.. فنبكي ونحول بكاءنا إلى عقائد وصلوات ومثل وأخلاق، وأحياناً نحول بكاءنا إلى حروب وخصومات، أو إلى فنون وآداب وتفكير. وفي ظروف أخرى نحوله إلى انحراف وعربدة، فيهما كل أساليب الانهيار وتعذيب النفس أو قتلها.

إن كل زجاجة تحمل الشراب الوقح النبيل..

وكل كتاب يحوي العقائد الغاضبة المتعصبة..

وكل معبد يجتمع فيه المصلون ليبكوا، ويحزنوا، ويلعنوا أنفسهم، تقرباً إلى الآلهة..

وكل تعصب أو سباب نطلقه على خصومنا، أو جيراننا أو على أبنائنا..

إن كل ذلك لا يعني إلا الاحتجاج على وجودنا، وعلى من أوجدونا..

حتى هذا القلم الذي يتحرك الآن بيدي، إنما يعني الاحتجاج والاستنكار.. إنما يعني الغضب على شيء لا يستطيع أن يفهمه أو يرفضه.

إن المنتحر، والمذنب، والبطل، والعبقري، والمفكر، والمؤمن.. إن هؤلاء جميعاً ليسوا سوى قوم يبكون، فيصنعون من بكائهم تعبيرات مختلفة، تعبيرات فيها جميع معاني الاحتجاج على ما كان..

إن الإيمان والعبادة، ليسا إلا نقداً للكون وللإنسان، ولما في وجودهما وسلوكهما من حماقة وغباء، وعداوة وكذب، وفوضى وظلم، ومن خروج على النظام لا مثيل له في منطق المؤمن العابد، ولا في أخلاقه وأمانيه..

إن الإيمان والعبادة يحملان كل ضروب الاحتجاج ضد العبادة والإيمان.. إنهما ينافيان نفسيهما. إننا لا نستطيع أن نؤمن أو نتعبد، ما لم نكن معارضين مستنكرين.. ما لم نكن معارضين مستنكرين لأسباب إيماننا وعبادتنا.. للوجود الذي جعلنا نؤمن ونعبد..

وكذلك لا نستطيع أن نبكي ما لم نكن كذلك، أي ما لم نكن معارضين ومستنكرين شيئاً ما. إننا نبكي ونؤمن بالله، لأننا بأسلوب غير مباشر نتساءل بدهشة عن أفعاله وحكمته في مخلوقاته، ونعلن الاحتجاج على ذلك..

إننا لو رضينا عن كل شيء، ولم ننكر شيئاً، وجاءت كل الأشياء حتى أنفسنا مع أنفسنا، وفق احتياجنا وإرادتنا، بلا تصادم ولا تناقض، لما بكينا ولا آمنا..

إن قوة إيماننا بالله، مساوية لقوة إرادتنا الهرب منه.. من الله وإرادتنا الاعتراض عليه والغضب مما فعل.. إن كل مؤمن بالله ومصلٍّ له، إنما يعني الهرب منه والاحتجاج عليه..

ليس الإيمان والصلاة سوى أسلوب من أساليب الغضب، والرفض، والهجاء. لقد كان المؤمنون يقولون في مخاطبتهم للإله: «اللهم إنا نعوذ بك منك، ونلجأ منك إليك».. دعاء فيه أقسى مشاعر المرارة والمقاومة الضائعة.. إنه دعاء فيه كل الهجاء والرفض والهرب.. فيه كل معاني الحرب، كل المحاربة، فالإيمان والصلاة هما دائماً احتجاج متستر.. احتجاج على الآلهة التي تعرض ذاتها وعبقريتها عرضاً يصدم الإنسان في منطقه، وأمانيه، وضروراته.. عرضاً ينافي الأخلاق في جميع حدودها. وحتى الإيمان بالزعماء، والمذاهب، والنظم، ليس إلا نوعاً من الاحتجاج، والمعارضة، والبكاء.

لو تبدلت المواقع..

سيكون الجواب الدائم: «إن الدين هو هوى النفس»، حينما نسأل: ما هو الدين..

فالمتدين هو إنسان متبع لهواه كفاعل الخطيئة، وليس عاصياً لهواه، ولنضرب لذلك مثلاً:

إن الاشتراكية تعد اليوم في بلد عربي معين مروقاً من الإسلام، وتعد في بلد عربي آخر أفضل ما في الإسلام، ولو طبقت الشيوعية بدل الاشتراكية أو بعدها، لقالوا إنها هي الإسلام..

وسفور المرأة، والتعامل بالربا، يعدان في بعض الدول العربية من أمجاد الشريعة الإسلامية، ومن سبقها الحضاري والإنساني.. وفي بلاد عربية أخرى يعاقب عليهما، أو ينكران كأقبح الذنوب. إن القرآن في البلدين المختلفين هو القرآن، والرسول هو الرسول، والإله هو الإله.. إذن كيف جاء الاختلاف.. كيف أصبح الله مخالفاً لله، والدين مخالفاً للدين، والرسول مخالفاً للرسول.. كيف اختلفت صورة الشيء الواحد لاختلاف أهواء الناظرين إليه وظروفهم..؟

إنه كما يختلف تفسير المؤمنين للدين لاختلاف أهوائهم، كذلك يختلف تفسير الناس للعدالة والحق، والحرية والديمقراطية، وأخذهم بالمذاهب والنظم، وإيمانهم بها، وتفسيراتهم لها، للسبب نفسه..

وإذا تبدلت الأهواء تبدلت التفسيرات بالنسبة للرجل الواحد، وفي العقيدة والنظرية الواحدة..

إن صفات الله تختلف لاختلاف أهواء المؤمنين به..

إن صورة الله تختلف إذا اختلفت أعصاب وظروف الناظرين إليه، أو اختلفت العيون المبصرة له..

إن الشيوخ الذين يفتون هنا مع الاشتراكية وهناك ضدها، لو تبادلوا الأماكن لتبادلوا الفتاوى..

إن الشيخ الذي يفتي بقتل مخالفه لاعتقاده بكفره، لمستعد أن يتخذ موقف مخالفه لو عاش تحت ظروفه..

إن الشيخ الذي يرى الله غاضباً مهتاجاً حاملاً السلاح إزاء موقف من المواقف، لا بد أن يرى الله مبتسماً مبتهجاً حاملاً الزهور إزاء نفس الموقف لو اختلفت ظروف الشيخ، أو لو اختلف الطاغية الذي يفتي تحت طغيانه ونظامه..

إن البشر يضعون في أذهانهم صورة للإله لو أنها تجسدت كائناً حياً، جاسراً، مرئياً، يعمل في الكون والحياة والمجتمع الذي يعيشون فيه، مواجهة، ومصادمة، واختلاطاً، ويعاملهم بالصفات التي تخيلوها وتمنوها له، لأصبح لديهم أبشع وأفظع كائن لا يمكن أن يقبلوا التعامل معه، ولا أن يكون لهم صديقاً، أو عليهم حاكماً، ولا أن يكون مجرد مواطن لهم.. بل لكان

محتوماً أن يعاملوه كما يعاملون أكبر وأفظع وحش يغزوهم من أحد الأكوان المجهولة.

ولا يوجد بين المؤمنين بهذا الإله على النحو الذي تصوروه، من يرضى لنفسه بأن يعيش بالصفات التي اختاروها وألفوها له، أو يرضى بأن يكون إلهاً كهذا الإله..

إن صورة الإله في أذهان المؤمنين، تشير إلى كائن غريب خارق الغرابة، لا يحتمل إمكان وجوده، ولو وجد لجاء كائناً يثير كل مشاعر الاشمئزاز، والخوف، والبغض، وكل معاني التناقض، والوحشية، والسخرية..

إنهم لم يحترموا الألوهية في تصورهم، فهم إذن في سلوكهم مارقون، وفي عقيدتهم شاتمون.. مارقون من الالتزامات الأخلاقية والدينية التي يشقون أنفسهم في تعلمها، وفي مخاصمة الآخرين، ومخالفتهم عليها.. شاتمون للإله في صورهم الذهنية عنه، وتفسيراتهم له.

لقد ظل المؤمن يعتقد أطول مدة في تاريخه أن خلق الأمراض والعاهات والمجاعات، وكل المظالم والآلام الإنسانية والحيوانية، ليست دليلاً فحسب على وجود الإله، بل أقوى دليل على أن عدل هذا الإله وحكمته ورحمته، قد بلغت أبعد مدى يعجز عن بلوغه كل تصور.

وقد يعد هذا الإيمان أعظم برهان على انحطاط العقل المؤمن، بل على انحطاط العقل الإنساني كله، لأن المؤمن قد اقتنع بذلك كإنسان لا كمؤمن.. لقد كان إنساناً، ثم صار مؤمناً. وهو إنسان حينما يكون مؤمناً.

ولو أننا من أجل هذا، أنكرنا أن يكون للمنطق الإنساني، أو للإيمان الإنساني أية قيمة لكان إنكاراً قوي الأسباب. ولكن قد يكون هذا الإيمان، أو هذا الاقتناع بقيمة الإله الذي يصنع الألم والمرض والفساد لخدمة الإنسان، ولتحقيق العدالة، دليلاً على أخلاق الإنسان، وعلى أن حالته النفسية، لا عقله، هي التي تصوغ إيمانه واقتناعه ومنطقه. وإذن لا قيمة لأي إيمان، أو اقتناع، أو منطق، لأن كل ذلك ليس سوى تعبير عن حالة نفسية.

لقد كان البشر منذ كانوا ولا يزالون، يفعلون الشيء ونقيضه، ويعتقدون الشيء ونقيضه، تحت شعار الاحترام للمنطق، والحق، والبحث عنهما..

لقد عبدوا الآلهة والأصنام وكفروا بها.. لقد آمنوا بالأنبياء، والدجالين، وقتلوهم..

لقد نادوا بالرأسمالية والشيوعية.. لقد اعتقدوا اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وكل دين، وأنكروه..

لقد شهوا الحروب ولعنوا الحروب..

لقد صادقوا هذا الرجل، وهذه الدولة، وعادوها..

لقد احترموا هذا المنطق واحتقروه..

لقد قتلوا الإنسان وصلوا عليه..

لقد لعنوا فلاناً، وهتفوا له..

لقد سرقوا الأموال، وقطعوا يد من سرقها..

لقد فعلوا كل ذلك.. فعلوا أحسن الأشياء وأقبحها تحت شعار المنطق والعقيدة والعدل..

وإنهم مع ذلك، لا يشعرون أنهم يقبحون، ويقبحون، ويقبحون، حينما يصرون على التحدث عن قيمة العقيدة، والعدل، والذكاء، والمنطق، أو عن قيمة الإنسان معتقداً، مقتنعاً، عادلاً، مفكراً، صانعاً للمنطق محتكماً إليه، محارباً به، محارباً من أجله.

عن أبي هريرة عن رسول الله

«إن المؤمنين بالأحاديث والأساطير يريدون أن يموتوا.. يريدون أن تموت بعض أشواقهم، وتحركاتهم، وأفكارهم، وحماسهم، ومطالبهم.

إنهم لا يطيقون أن يحيوا كل الحياة بكل معاني الحياة، وشهواتها، واحتياجاتها. إن ذلك يرهقهم.. إنه يقتلهم.

إننا لا نطيق أن نحيا كل الحياة، إذن لا بد أن نموت بعض الموت.. إن حياة كل الحياة بكل رغباتها واحتمالاتها لعذاب، لقتل، لمحال. لهذا لم يكن بد من أن نحيا بعض الحياة..

إن البشر محتاجون دائماً إلى اطفاء بعض الحرائق الكبرى التي تأكل ذواتهم..

إن في كل ذات.. إن في كل مجتمع حريقاً دائماً. وعمليات الإطفاء موجودة في جميع المجتمعات والذوات، ولولا هذه الاطفائيات لاحترق البشر.

وليست التعاليم في كل مستوياتها سوى عمليات اطفاء منظمة»..

•

الأطفال الأساتذة

تحت ظروف غير سعيدة اخترع الرواة بدعة الحديث، وطريقة حفظه وتدوينه، والاقتناع بصدقه أو كذبه، وجللوه برهبة كرهبة الموت.

لقد جعلوا جميع العقول تخضع له، وجعلوا الأكثرين ينذرون له أنفسهم، ويرون في الانقطاع إلى الاشتغال به درجة تزاحم درجة النبوة، وتتفوق على كل مجد إنساني.

إن الانقطاع إلى الحديث يعني شيئاً كبيراً جداً، فالمحدث يعني أنه يتحدث عن الله، وعن أسرار السماء، وأسرار الكون، أسرار الأزل وأسرار الأبد.

إن المحدث إذا كان يحدث من حفظه، كان ذلك يعني أن الله وأسرار السماء، وأسرار الكون وكل شيء، موضوع في صدره. وأي مجد أعظم من مجد من وضع الله وأسرار السماء، وأسرار كل شيء في لسانه..؟

لهذا كان الافتتان بالحديث عظيماً، كان الافتتان بحفظه وروايته مثيراً.

بعد الفتوحات العربية الواسعة ودخول شعوب بأسرها في الدين الجديد، اجتمع للناس فراغان كبيران: فراغ نفسي عقلي، وفراغ في الوقت..

أما فراغ الوقت فمعلوم، وأما فراغ النفس والعقل فيرجع أكثره إلى تخلي الناس عن أديانهم وتعاليمهم القديمة، ولو من حيث العزم والأسلوب.

وقد اجتمع إلى هذين الفراغين، رغبة قوية في بناء الدين الجديد والعهد الجديد.

إن البشر في العادة يجدون حماساً وجيشاناً نفسياً عقب كل حدث روحي أو فكري أو اجتماعي. ولقد اجتمع أيضاً إلى هذين الفراغين التماس للحظوة لدى أنصار الدين الجديد والعهد الجديد، لدى أنصاره من الحكام ومن الجماهير المتدفقة في حماسها. وكانت هذه الشعوب التي تخلت عن أديانها للدين الجديد المنتصر تحمل في تلافيف نفسها وتقاليدها كل ماضيها الديني، والتاريخي، والاجتماعي، والأخلاقي.

اجتمع الفراغان، واجتمع إليهما الولع القوي ببناء الثقافة والدين الجديدين. واجتمع كذلك كل ماضي الأمم التي آمنت بالإسلام في صورة أخرى.

واجتمع شيء آخر عظيم التأثير، هو افتتان الناس بالأبطال والرجال الخرافيين الخارجين على المقاييس المعروفة، وبالأساطير المستحيلة، وبالأكاذيب والمبالغات التي تصور عالماً من السحر والجنون والتهاويل تستطيع أن تتحرك فيه الأماني كيف شاءت، بلا قيود من الواقع المضاد الأليم.

واجتمع أيضاً، ما في طبيعة البشر من رغبة في التصديق، وفي خرق القوانين الكونية بوسيلة غيبية خارقة.

والناس محتاجون في بعض الأوقات أو في كل الأوقات، إلى تأليه رجال ممتازين منهم. إن الإنسان الإله لم يزل حاجة بشرية. ولقد عبد البشر الطبيعة والآلهة الغائبين في السماء، وعبدوا بنفس الحرارة والإخلاص أفراداً منهم، عبدوا أفراداً قد يكونون أقل منهم في جميع المستويات.

لقد أصبح التحديث والرواية في تلك الفترة الجياشة، أعظم وظيفة دينية في الإسلام، وأصبح المحدثون أشرف طائفة يتطاول إلى الالتحاق بها جميع الباحثين عن مجد الأرض لو

مجد السماء. لقد راح الناس في نوبات سعيدة من الجنون يمتصون من كل الشفاه كل البصاق، وراح أشراف الناس يجثون صاغرين تحت أقدام من يحفظون الحديث ومن يروونه، يلتمسون منهم البركة والرضا، والتوسط لهم لدى آلهة السماء.. وتفجرت الرغبات، والخيال، والمصالح، والغباء بطوفان من الرواية أغرق الحياة والفكر، وأغلق كل المستقبل. وقد ثبت على طول التجربة أن الحديث خصم بشع للمعرفة الإنسانية وللحياة. إن الحديث ليس إلا نقلاً للمجتمعات إلى المقابر، أو نقلاً للمقابر لكي تعيش فيها مواهبها وتتعلم منها الخوف من التغير.

إنه لا يوجد في الكائنات كلها كائن يتناقض ويحتاج إلى التناقض مثل الإنسان، إنه لا يريد شيئاً معيناً ولا يبحث عن شيء معين، إنه لا يمكن أن يعرف هو ماذا يريد..

إنه دائماً مركب من الشيء ونقيضه.. إنه يفعل الذكاء والغباء، والحرية والعبودية، ويتمرد على جميع الآلهة والعقائد، ويخضع لكل الآلهة والعقائد، ويكون إلهاً ويكون عبداً، يصنع لنفسه آلهة من جنسه، ويهبط بجنسه حتى يصنع له أغبى الآلهة، ويفرض عليها عبادتها بكل إذلال.

لقد ظل كائناً مركباً، وسوف يبقى كذلك أبداً.

لقد ظهرت في المحدثين وفي تلك المجتمعات أقوى خصائص الطفولة، ظهرت فيهم وفيها عبادة الأساطير والارتفاع في تقديرها وتصديقها كلما كانت أكثر خروجاً على المنطق والطبيعة، وكلما كانت أكثر غباء.

لم يترك أولئك المحدثون شيئاً خارج أحاديثهم. لقد حدثوا عن كل الوجود، قبل أن يكون أي شيء إلى أن يزول كل شيء. حدثوا عن الفراغ قبل أن توجد المادة، ثم حدثوا عن طبيعة المادة قبل أن تصبح صوراً، شموساً وأقماراً ونجوماً. ثم حدثوا عن صورها المتحددة عن شموسها، وأقمارها، ونجومها.. عن طبائعها، وأعدادها، وهيئاتها، وعن نهاياتها، وعن كل سر من أسرارها. حدثوا عن الخسوف والكسوف، وعن البرق والرعد والرياح، وعن بداية الحياة وكيف بدأت، وعن الحيوان والنبات، وعن لغز الشمس: من أين تجيء وأين تذهب، وعن سر القمر: يكف يبدو صغيراً، ويتوسط كبيراً، وينتهي كما بدأ.. حدثوا عن القوانين الاجتماعية والأخلاقية والنفسية، وعن الظروف التي تقوى بها الأمم وتضعف، وتسقط وتزول، وحدثوا عن جميع العوالم والقوى الخفية في هذا الكون، وعن الخوارق الكونية التي ستقع قبل فناء العالم، وعن كل ما سوف يصيب هذا الوجود الكبير.

لقد حدثوا واستمروا يتحدثون حتى أصابوا من يستمعون إليهم بالذهول والجنون، وعقدوا

فوق بلادهم ليلاً كثيفاً لم تستطع كل الحضارات والمعارف أن تزيله، حتى لقد كادت الشمس القوية في بلاد الحديث أن تضل وتموت في هذا الليل.

لقد صاغوا الكون كله حقائق جاهزة، وأراحوا المؤمنين بهم من السعي وراء الحقائق الصعبة، بينما كان العالم الذي صنع الحضارة، متلاحق الأشواط يبحث عن حقائقه التي لم تنزلها نجوم السماء مع الفجر السعيد، على إحدى المغارات الثاوية تحت أحد الجبال الحزينة، المقدسة، العارية من الحياة.. ومن الجمال.

ثم انتهوا هذه النهاية المروعة:

ما من كشف، أو اختراع، أو أسلوب جديد من أساليب الحياة تهدي إليه التجربة أو العقل إلا وجدوا في خزائنهم المحفوظة الملأى ما يثبت بطلانه وفساده، أو ما يغني عنه. وهنا ينهضون ليشبوا حرباً دينياً ضد ذلك الباطل الذي هدى إليه الشيطان أعوانه من الكفرة والفاسقين ويظلون يرشقونه برجوم الأحاديث التي لا عداد لها.

لقد تجمعت كل طفولة التاريخ لتتحدث عن كل شيء.. لتعلم كل شيء ماضيه ومستقبله.. لتملي على التاريخ كل أطواره وأخلاقه.. لتراه كله في نظرة واحدة.. لتجمع كل الكون، كل احتمالاته في حروف، في كلمة واحدة، في رواية، في حديث واحد.

لقد تقررت المأساة وتهيأ لهم أن يقيموا هذا التراث الضخم الثقيل من الحديث وعلومه الكثيرة العقيمة، فأصيب التاريخ والفكر العربيان بكارثة.. أصيبا بهوان، بهزيمة.. لقد فقدا عافيتهما، وشهيتهما، وقدرتهما على الحركة السريعة القوية المبدعة.

أكل هذا نتاج لعلوم الحديث، وتدوينه، والاشتغال به..؟

لقد انصرفت طاقات الفكر إلى الرواية تكتبها، وتحفظها، وتشرحها، وتؤمن بها، وتوفق بين تناقضاتها، وتضع لها المصطلحات والفنون الكثيرة. ها لقد أصبح الناس كلهم محدثين أو حفاظاً أو شراحاً أو مستنبطين للأحكام والعلوم من نصوص الحديث، أو مستشهدين على قيمة الجوع الغذائية. لقد نمت ملكات الحفظ، وضمرت ملكات الفكر والفهم، ولم تظفر تلك العصور جميعاً بإنسان واحد يمكن أن يعد من المفكرين أو العقليين الكبار. لقد أصبحت الطريقة المعروفة المحترمة لدى الجميع لمعرفة أي شيء هي الرواية، حتى التاريخ والتفسير والفهم أصبح رواية. إنه لا مكان للتأمل أو البحث العقلي.

إننا نجد حشوداً هائلة متنافرة من الروايات في القضية الواحدة والمعنى الواحد، ثم لا يدرك لا المؤلف ولا القارئ هذا التنافر المثير. إنه لا موضع للإدراك والتساؤل هنا، لأن المسألة مسألة نقل فقط، وأي مانع من التناقض ما دام العقل ممنوعاً من التدخل..؟ أما محاولات التوفيق بين

التناقضات فقد كانت أسخف من التناقضات نفسها، كانت تبريراً لهذه التناقضات وإذلالاً للعقل، كانت إهانة للعقل.

إن التفسير والتاريخ وغيرهما من الموضوعات، لم تكن في تلك الكتب والمحاولات إلا نقلاً متهافتاً أو تكراراً منبوذاً لمعنى صغير لم يثبت صدقه ولا قيمته. وإذا أصبحت المعرفة نقلاً فلن تجد فيها غير التكرار والتناقض، والبلادة المتراكمة.

لنقرأ أي كتاب كبير شهير في التاريخ، وليكن مثلاً تاريخ ابن جرير الطبري، فإننا لن نلقى بين أجزائه وصفحاته الطويلة الشاحبة سوى الرواية المكررة المتناقضة، كذلك تجد تفسيره الكبير، كذلك تجد جميع المؤلفات في جميع ما كان الناس يعدونه معرفة وعلماً. إنها عملية طحن كبير للعقل، إنها صهيل وغبار بلا معركة.

إذن، لقد حدث انفجار لفظي غرق فيه التاريخ.. لقد غاصت أقدام التاريخ في أوحال ذلك الانفجار اللفظي.

لقد انتهى ذلك إلى وجود شعوب أسطورية تخشع لأبهظ الأساطير، وتفقد كل منطقها في كل المواقف، وترى في الفكر أو النقد أسلوباً من أساليب الله في تعبيره عن غضبه على من أراد أن يوقع بهم عقابه، وأحد أساليب الشيطان في إغوائه للجديرين بالغواية من أتباعه الأشقياء. لقد رأوا أن التفكير هو أحد الذنوب الكبار، بل لقد رأوا أنه أكبر الذنوب.. أنه جهاز الشيطان وعبقريته الرهيبة لإفساد الإنسان وهزيمة الإله.

لقد لجوا في تحامي الفكر والمفكرين وفي التحذير منهما حتى لقد رووا في أخبارهم أنه لا يقبل شهادة من ينظرون إلى الأمور بعقولهم. وحدثوا عن أحد الأئمة أنه قال: حكمي في أهل الرأي أن يطاف بهم بين القبائل تشهيراً، ثم يضربوا بالنعال على وجوههم، ثم يقال لهم هذا جزاء الذين يحكمون عقولهم في دين الله. وعندهم حديث ينسبونه إلى الرسول عليه السلام كان يجب أن نخجل من روايته، وكان عليهم هم أن ينزهوا الرسول عنه لو كانوا يفكرون ليفهموا ما يروون، ولكنهم يحرمون التفكير، إذن كيف يمكن أن يفهموا ما يروون، ليفهموا أن في ما يروون هجاء أو بلادة.

يقول هذا الحديث المزعوم: «الذين يفسرون القرآن بآرائهم إما أن يصيبوا أو يخطئوا، فإن أصابوا فقد أخطؤوا، وإن أخطؤوا فقد كفروا».

ما أكثر ما وضعوا من الكتب في شتم الرأي وشتم من يفكرون. إننا إذا رجعنا إلى مؤلفاتهم وجدناهم يمتدحون الرجل بأنه كان راوية أو حافظاً أو محدثاً، وإننا لن نجدهم يثنون على إنسان بأنه كان مفكراً أو ناقداً، حتى لنجد ذلك منعكساً على أسمائهم، إذ نجدهم يسمون حافظاً،

وعبد الحافظ، وحفيظاً، وعبد الحفيظ، ولا نجدهم يسمون مفكراً أو عبد المفكر. لقد سموا الله الحافظ والحفيظ، والذاكر والذي لا ينسى، ولم يسموه بالمفكر أو الذكي أو حتى العاقل.

إنها توجد دائماً خصومة تفصل بين العقل والنقل وتحول دون التقائهما. إن العقل لا يرضى إلا بأن يبسط سلطانه على كل شيء، وعلى النقل أيضاً، فالنقل إذن ليس بشيء ما لم يشهد له العقل. وهو ـ أي النقل ـ تسليم مطلق لخرافات غبية صنعت في ظروف غير عقلية. فهما إذن مختلفان في طبيعتهما، ولهذا فإن الذين يحترمون أحدهما لا يحترمون الآخر.

وقد دلت التجربة الطويلة التي مرت بهذين الخصمين على أن الذين يرتفعون في ميزان الرواية يهبطون في ميزان الفكر. ويصدق عكس هذا، فاحترام الرواية هو في معناه احتقار للفكر، والذين يستمرون طويلاً يحترمون الرواية ويؤمنون بها، يصلون أخيراً إلى منخفض خطير يفقد فيه هؤلاء المؤمنون كل مزاياهم العقلية.

ولقد كان كذلك كبار الرواة. إنهم لم يكونوا يملكون أي مستوى من مستويات الفكر أو الذكاء. إن الضرر الجسيم أن هؤلاء المحدثين قد صبوا كل من جاؤوا بعدهم في قوالبهم، وشغلوهم بما خلفوا من أساطير ممعنة في الغباء. وقد سار العالم العربي في رحلة طويلة ضالة وراء هؤلاء الرواد أفنت بضعة عشر قرناً من الزمان بلا جدوى أو راحة، أو بلوغ هدف. وإنا لنرجو ألا يكونوا في أوائل الرحلة، إذ إنه توجد علامات تشير إلى أن الأيام والأحداث المتجهمة المتحدية لم تستطع أن توهن الإعجاب بهؤلاء الهداة الضالين. إن المفكر المؤمن بقيمة الإنسان وقيمة الحياة، ليأخذه الغيظ حينما يرى كيف تنفق طاقات ضخمة من الفكر، والوقت، والأمل، والحب، والحماس، في دراسة كتب الحديث وحفظها، والتماس الحياة فيها.

نعي للحياة

إن الرواية هي إحدى الوسائل التي تعوق محاولات التقدم، وتصرف عن الإيمان بفضائل الحضارة وفضائل الفكر الإنساني.

إنها تنعي الحياة وترفضها، وإنها من جهة أخرى تلعن الفكر وتعاقبه، وإنها من جهة ثالثة تصد عن الأحياء وتحتقرهم، وتدعو إلى الموتى وتقدسهم. فالموتى ـ على حسب ما تقول الرواية ـ هم الذين يجب الأخذ عنهم، والثقة بهم دون الأحياء الفاسدين، أو المعرضين للفساد.

وهي من جهة رابعة، تملأ أوقات المؤمنين بدراستها وتفهم أسرارها، فلا تترك لهم وقتاً للبحث في غيرها. وهي من جهة خامسة تملأ رؤوس المشتغلين بها غروراً لأنهم يحسبونها أفضل هدايا السماء إلى الأرض. وغرور الجاهل يحرمه من الانتفاع بمواهبه.

وإنها من جهة سادسة، تدعو إلى معاداة الإنسان. فالمشتغلون المؤمنون بها لا يمكن أن

يكونوا أصدقاء للإنسان، أو إنسانيين، أو أن تصدر عنهم أخلاق إنسانية متسامحة وذكية. إنها تعلم التعصب والقسوة، والبغض والغباء، والغرور والضعف، والهوان، وتحقير الأحياء وتقديس الأموات. إنها رحلة إلى المقابر، إنها فرار من المواجهة، إنها بحث عن البداوة الأليمة وتثبيت لها.

إن أهل الحديث هم أضعف الطوائف في كل بلد. إن المسلمين مثلاً في الهند والباكستان منقسمون إلى طوائف عديدة من حيث المذهب والاعتقاد، ففيهم الشيعة والسنة، والإسماعيلية والقاديانية، وأهل المذاهب الأخرى، وفيهم بعد ذلك أهل الحديث. إنهم جماعة مشهورة، لها مساجدها وكتبها ودراساتها الخاصة، وهي مجانبة بمذهبها وورعها الطوائف الأخرى. إنها تدرس الحديث وفنونه دراسة مستقلة على حسب فهمها وقدرتها، وتأخذ شرائعها وسائر أحكامها وأخلاقها ـ أي نظرياً ـ من النصوص مباشرة لأنها ترفض التقليد وتعاديه. فهي لهذا شديدة اللصوق والهوى بالرواية. فما هو شأن هذه الطائفة..؟

إنها مع إخلاصها وورع قصدها الذي لا ينكر، تعد من أعجز تلك الطوائف وأبعدها عن مراكز القوة والانطلاق. إنها لا يمكن أن تعد إعلاناً جيداً عن نفسها.

ونحن لذلك لن يغمرنا شيء من السرور أو التفاؤل حينما يخرج من بين صفوفنا قوم يدرسون الحديث أو يحفظونه، أو حينما نسمع أصواتاً ترتعش من الهزال تنبعث من صدور قد تحولت إلى مخازن لأضخم المقابر الأثرية، تدعونا إلى الحديث وإلى العيش بين المقابر. بل إنه لينبغي لنا أن نفزع أشد الفزع يوم ينتهي إلينا نبأ بأنه قد نبغ بين قومنا محدث أو محدثون. إن هذا النبأ يساوي أن نخبر بوقوع آفة، أو جنون، أو خراب، أو أوبئة هائلة.

إن النصوص المقدسة، أو المفروضة مقدسة، هي إحدى معوقات الفكر البشري عن التكامل والنمو. إنها إحدى الآفات التي تريد أن تطبع حياة الإنسان بالتبلد والكآبة النازعة إلى التحريم. وقد كان تقدم الفكر والحياة دائماً مساوياً ما بلغه البشر من تفوق وتمرد على النصوص. وإنه لا يزال الطريق غاصاً بالشواهد الدالة على نهاية المعركة، وغاصاً أيضاً بالأنصاب التي يزدحم حولها المؤمنون، ليعوقوا سير التاريخ، وليرفضوا منطقه.

من هو الثقة..

إن القواعد التي وضعها المحدثون لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف، قواعد لا يمكن أن تستحق أي إعجاب، فالصحيح هو الذي يرويه راوٍ ثقة عن مثله، من بداية السند إلى نهايته.

ولكن من هو الثقة..؟

هو الذي يجتمع فيه وصفان: مسلم صالح لا يجرؤ على تعمد الكذب، ولا يجرؤ الكذب على أن يقع منه. وحافظ لا يخطئ.. لا حينما يحفظ، ولا حينما يحدث.

ولكن المسلم الصالح، أيراد به من هو كذلك في الظاهر والباطن، أم في الظاهر فقط..؟ أما الثاني فلا قيمة له، وأما الأول فلا سبيل إلى معرفته.

كم هم الذين يستطيعون أن يخفوا أنفسهم، وأن يبدوا أكثر وأفضل مما يعنون..؟

إن أذكى الأذكياء قد يخدع، ويصدق أغبى الأكاذيب وأكثرها افتضاحاً. إن التصديق والانخداع معنيان خالدان من معاني الإنسان. إنهما حتماً في طبيعة حياته.. إنهما فنان من فنون البشر.

وإن النفاق والمكر فنان يتفاوت من يتعاملون بهما في درجة اتقانهما. إنه لا يوجد من لا ينخدع، ومن لا يصدق الكذب، كما لا يوجد من لا يخدع أو يكذب ولو أحياناً. وفي القرآن أن قوماً من المنافقين كانوا يعيشون في المدينة مع الرسول عليه السلام، وكانوا يظهرون له الإيمان وهو لا يعلم من أمرهم شيئاً، أي إنهم استطاعوا أن يكذبوا ويخفوا نفاقهم، وقد قال عن هؤلاء: ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم.. نحن نعلمهم﴾.

وتأريخ المنافقين في الإسلام معروف. وكان كبار الصحابة وأذكياؤهم لا يعلمون أمر هؤلاء المنافقين، كانوا يرونهم مؤمنين صادقين كما كان الرسول يراهم، فإذا كان الرسول لا يعلم المنافقين من أصحابه، فكيف يعلم المحدث الكاذبين من شيوخه..؟

وليس في الدنيا كلها أغبى من إنسان يرى الناس مؤمنين وفضلاء، لا يكذبون ولا يغدرون لأنهم يتظاهرون بذلك. إنه لعجيب أن الناس يثقون بالآخرين في شؤون الدين، ولكنهم يحاذرونهم في شؤون الدنيا. إنهم يمنحونهم الثقة إذا حدثوهم عن الله والرسول، وينزعون عنهم هذه الثقة إذا تعاملوا معهم في أمور الحياة الدنيا.. فلماذا..؟

والمحدثون أنفسهم يعطون هذه الفكرة عن قيمة هذا التصديق والثقة بشتى الأساليب.

إنهم يختلفون في الراوي الواحد فيراه بعضهم صالحاً مثل نبي، ويراه آخرون رديئاً مثل شيطان. إن معنى هذا أنهم باعترافهم قد يخدعون. والراوي الذي يخدع محدثاً واحداً أو محدثين دون أن ينكشف أمره، يستطيع بهذه الوسيلة نفسها أن يخدع ثلاثة وأربعة وخمسة وجمعاً. ولو كان حكم المحدثين على الرواة لا يخطئ، لما جاز أن يختلفوا فيهم هذا الاختلاف.

ثم ما هي وسائل الاختبار التي كانوا يميزون بها بين الثقات وغيرهم..؟

إنه لم تكن لديهم أجهزة للكشف على الكاذبين، ولم يكن لهم ذكاء خارق يعلمون به

مكنونات النفوس، أو يقرؤون به لغات الوجوه. إن المسألة لم تتجاوز أن تكون غفلة واسعة، وكرماً في البلادة يحول المغفلين والمخادعين إلى أنبياء وثقات.

وأي ضرر يصيبهم أو يصيب الإسلام إذا اعتقدوا الناس كلهم أتقياء وصادقين، إذا اعتقدوهم أنبياء.. أليس في هذا خير للإسلام والمسلمين.. أو ليس الواجب أن يظن الخير دائماً بالمسلم.. أليس الاتهام للمسلمين وإساءة الظن بهم مما يغضب الله ويغضب المسلمين أيضاً.. أليس في إغضابهم العذاب لنا ولهم كذلك..؟

إن الطيبين هم الذين يرون كل الناس طيبين. إنهم إذا شكوا في أمر نقله الحديث فسوف ينالهم شكهم هذا بأضرار جسيمة، إذ سيكون محصولهم حينئذٍ من الأحاديث الصحيحة قليلاً، كما سوف يكون مشايخهم الثقات قليلين، وهذا يعني هبوط مكانتهم في السوق التي ينافسهم عليها الأقران. ويعني أيضاً أن يتقدم عليهم المحدثون الآخرون الذين رووا الأحاديث الصحيحة الكثيرة، والذين أخذوا عن الكثيرين من الرواة العدول.. فتوثيق الكاذبين إذن تجارة وانتصار. إن تصديق الرواة الكاذبين ربح لمن يصدقونهم ويروون عنهم. إنهم إعلان عنهم، وقوة ومجد لهم في السوق.

إذن، ما أغباهم لو لم يصدقوهم. والخطأ في توثيق غير ثقة، أفضل من الخطأ في تجريح الثقة.

إنها عملية بيع.

وكم هم الذين يبيعون السلع الرديئة.. كم هم المزيفون في السوق..؟

إن بيع الرواة كبيع الآراء. فإذا كان الوعاظ والفقهاء يبيعون على السوق آراءهم الزائفة بلا ورع، فإنهم كذلك سوف يبيعون الرواة. والبائعون مضطرون إلى امتداح بضائعهم. والشيخ بضاعة حقيقية تعرض وتباع في السوق كالآلهة والأنبياء سواء.

لقد كانت الأرباب، والأنبياء، والشيوخ، والمحدثون سلعاً تجلب إلى الأسواق، فيقع فيها الغش كما يقع في سائر السلع.. لقد كان التعامل عليهم في كل العصور.

إننا نرى في عصرنا الحاضر الجماهير الغفيرة، وفيها الأذكياء والمتعلمون والمثقفون جداً، يجمعون على تزكية إنسان هو زعيم في الغدر والكذب والخداع، أو معلم للغباء والخرافة. وما زالت أحكام الإنسان على الأشياء وعلى الآخرين محكومة بالغباء، والتقليد، والتعب.

قد يكون قبول الشيء والرضا عنه، تعبيراً عن التعب. إننا قد نصدق رواية أو راوياً لأننا متعبون.

ثم ما معنى كون الرجل صالحاً..؟

إن كون الشيء كما هو، غير حكمنا عليه كما هو. فكيف نحكم عليه كما هو..؟

إننا في أحكامنا على الأشياء نتأثر بالمذهب، وبالموافقة والمخالفة، أكثر مما نتأثر بالعمل وبالحقيقة. فالذي يوافق مذهبه مذهبنا، أو الذي بيننا وبينه تلاؤم وصداقة، نميل إلى أن نعده صالحاً وثقة. والذي ليس كذلك نريد أن نجعله من الفاسقين والأبالسة. والحقيقة لا تنفصل عن الشعور. إن الفضيلة والرذيلة هما الموافقة وفقد الموافقة، ولا يوجد من يستطيعون أن يكونوا أكبر من حبهم وبغضهم، ولا من ينتصرون دائماً على أهوائهم الخاصة. إن الناس في كل تصرفاتهم إنما يتركون هوى لهوى، وشعوراً لشعور، إذ هم في جميع مواقفهم خاضعون لأهوائهم ومشاعرهم. ولم يخرج المحدثون عن أن يكونوا كذلك، وهم لا يجبنون عن الاعتراف بأنفسهم كما هي. إن السني يعدّ الإمام الشيعي بل الملاك الشيعي شيطاناً، وهكذا يصنع الشيعي في حكمه على السني. وجميع أصحاب المذاهب يخضعون لهذه المؤثرات في حكمهم على الآخرين.

إنه لا يمكن التدين بلا هوى، كما لا يمكن العدل مع الهوى. إنه بلا هوى لا يمكن أن نتدين، ومع الهوى كيف يمكن أن نتدين.. أو كيف يمكن أن يكون تديناً بريئاً..؟

على أن التقوى التي جعلوها أحد ركني التزكية، قد جعلوها في مناسبة أخرى سبباً في الاتهام. وقد روى مسلم في صحيحه ـ ومسلم والبخاري هما اللذان يجرؤآن على أن ينافسا بكتابيهما القرآن الكريم ـ روى مسلم في كتابه: إن الصالحين هم أكذب الناس في الحديث. وفسروا هذا بأن الكذب يجري على ألسنتهم بدون أن يعرفوا أو يقصدوا لغفلتهم.

وروى مسلم هذا أيضاً في صحيحه، أن نقاد الحديث كانوا يرفضون شهادة قوم يعدونهم من أهل الجنة، حتى لو أقسم أحدهم في جوف الكعبة، أمام جميع الأنبياء، وفي يده المصحف الذي كتبه جبريل بيده، بأنه رأى ذبابة تموت في معركة باسلة على الطعام ضد الإنسان لما قبلوا شهادته هذه.

ونقل صاحب كتاب الآداب الشرعية عن أحد الأئمة أنه قال: إذا جاء في سند الحديث: حدثني فلان الزاهد ـ أي الصالح ـ فاغسل يديك منه، فإنه لا يساوي شيئاً.

وقد عرف أن بعض الرواة من الصالحين كانوا يكذبون في حياتهم تقرباً إلى الله، كالذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، وعندهم أن الكذب يجوز أو يجب للمصلحة. وقد رووا أخباراً يعدونها صحيحة عن الرسول، فيها تحسين وترويج للكذب الطيب. وأية مصلحة أكبر من خدمة الدين..؟

إنه لا بد أن يوجد في كل زمان من الأتقياء من يرون أن كل عمل مشروع إذا كان ينصر كلمة الله. إن نصرة كلمة الله يجب أن تكون غاية كل مؤمن. وإذا كان من الجائز أو الواجب أن نكذب كما في رأيهم ورواياتهم إذا كان كذبنا يعني شيئاً طيباً، أو إذا كان من الجائز أو الواجب، أن نكذب في شؤون الدنيا، فكيف يحرم الكذب الذي يخدم حقيقة الحقائق.. الذي ينصر الله ودينه..؟

ومن الأحاديث التي رووها في تسويغ الكذب للمصلحة، ما نقلوا عن الرسول أنه قال: «يجوز الكذب في الحروب، وفي حديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها، وفي الإصلاح بين الناس».

وفي حديث آخر عن الرسول أيضاً أنه قال: «ليس الكذاب الذي يقول خيراً وينمي خيراً».

وفي حديث آخر: «الحرب خدعة». أي الحركة كذب. وكان يكذب في الحرب كما رووا. وهذا شيء خطير.

إذا كان الصدق والكذب تحكمهما المصلحة، لا الأخلاق ولا المبادئ، كان معنى هذا أنه ليست هناك شرائع، ولا أخلاق، ولا مواقف فاضلة ومواقف رديئة، وإنما هناك مصالح فقط، والمطلوب البحث عن هذه المصالح حيثما كانت، حتى لو كانت في الجحيم، حتى لو كانت في مبايعة الشيطان. وهذا يعني إبطال الأخلاقية.

وإذن لماذا جاءت الأديان..؟

إن كانت قد جاءت للبحث عن المصلحة بلا أخلاق، أي بالكذب والصدق، والفضيلة والرذيلة، وبكل الوسائل، فالأبالسة وأفجر الناس لا يفعلون غير هذا. إنهم يصدقون إذا كان الصدق خيراً لهم، ويرفضون الكذب الذي يجلب لهم الخسران. إنهم يفعلون الفضيلة الملائمة لهم بقدر ما يفعلون الرذيلة الملائمة لهم. إذا كان البحث عن المصلحة، وكانت الأخلاق بحثاً عن المصلحة، فما الفرق إذن بين الأنبياء والمعلمين، وبين الأشرار والأبالسة.. ولماذا جاء الأنبياء والمعلمون..؟

المفروض أن الأديان والأخلاق والتعاليم كلها، إنما جاءت تطالبنا بأن نضحي بمصالحنا في سبيل مثلنا. وتشريع الكذب للمصلحة يفقد الكذب قيمته؛ لأن الناس إذا علموا أن الكذب مشروع للمصلحة، فلم يصدقوا ما يقال لهم، إذ سيقدرون أن ما يقال لهم إنما هو كذب للمصلحة، أو يحتمل أن يكون الأمر كذلك، وهذا يبطل الغرض من الكذب الباحث عن المصلحة.

إذن فالصلاح الذي عدّ ضماناً ضد الكذب هو من أسباب الكذب.

وإذا قيل إنهم ليسوا كل المحدثين يقولون بجواز الكذب في الحديث لخدمة الدين، بل إن الأكثرين يرفضون ذلك، كان الجواب: وكيف نعرف هؤلاء من هؤلاء..؟

وليس إنكار هذا الرأي في الظاهر دليلاً على أن منكره ينكره حقاً، إذ قد يكون إنكاره له من الكذب الديني الذي يرى جوازه أو وجوبه. وهو لا بد أن يعلم أنه يجب عليه أن يخفي مذهبه في هذه القضية، لأن إعلانه له يحمل الناس على أن يردوا روايته، وحينئذ يضيع عليه الغرض من الكذب، ومن القول بجوازه. إذن قد يقول إنه لا يرى جواز الكذب بينما يراه.

.. والأنبياء ينسون

وأما الركن الثاني من ركني التزكية، وهو أن يكون الراوي حافظاً لا يخطئ، لا يخطئ في حفظه ولا في تحديثه فهو أبعد الركنين عن احتمالات الصحة.

إنه لا يمكن العلم بأن إنساناً ما لا يخطئ إلا بعد العلم بأنه معصوم. معصوم من أن ينسى إذا حفظ، ومن أن يخطئ في سماعه إذا سمع، ومن أن يقع عبث في أوراقه إذا كتب.

ولكن أي إنسان يمكن أن يملك هذه الضمانات..؟

أكثر الناس ينسون، بل كل الناس. وكثيرون منهم يخطئون في السماع فينقلون ما يقال لهم ويكتبون بلا اتقان. وآخرون لا يميزون بين ما يكتبون وما يكتب لهم أو عليهم، فتدخل على كتبهم أشياء لا يعلمونها ولا يعرفون أن ذلك قد حدث. وكثير من المحدثين كانوا أميين أو أقل من الأميين، كانوا لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، وهذا يجعلهم لا يعرفون ما يدخل على أوراقهم.

إنه ليس أسوأ ولا أردأ في جميع معتقدات البشر من أن تؤمن برواية رجل يحدثك عن الله، مفترضاً فيه أنه لا ينسى، ولا يخطئ، ولا يخدع.

إن جميع المعتقدات لأقرب إلى احتمالات الصدق من عقيدتك القائمة على هذا الافتراض المهين لله. إن معنى هذا أن تحكم على الله برجل من الناس، أو أن يحكم رجل على الله. إن معنى هذا أن ترى الله، أن ترى صورته، وصفاته، وكل ذاته بعيني إنسان ما، ومن خلال أهوائه، وشهواته، وضعفه، بل من خلال غبائه.

إن المحدثين في الغالب كانوا يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم لم يكونوا يكتبون. إما لأنهم كانوا أميين أو لأنهم كانوا يريدون المباهاة بأنهم من الحفاظ الذين يستوعبون علمهم في صدورهم، وينتقلون به، ويعلمونه الآخرين من غير رجوع إلى الكتب. وهذه منزلة كانت عظيمة في تقديرهم. كان النقل عن الكتب نقصاً خطيراً في رأيهم.

لقد كانت الرواية بلا كتاب عملية إغراء وعرض للذات فيها نوع من المغازلة والتبرج. كان الذي يحدث من غير كتاب يعرض نفسه أكثر من أية غانية، كان فارساً من روايات، من كلمات، كان بطلاً من أساطير، كان بطلاً من قبور..

وكانوا يعلمون أن كتابة الحديث منهي عنها فكانوا يحترمون هذا النهي، ولديهم أحاديث كثيرة شهيرة تنهى عن ذلك. من هذه الأحاديث أنهم رووا عن الرسول عليه السلام أنه قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن. ومن كتب عني شيئاً فليمحه». وهذه رواية صحيحة عندهم، وهي مروية في صحيح مسلم. وروى أبو داود أن الرسول نهاهم أن يكتبوا كلامه. وتوجد روايات أخرى كثيرة سيمر بنا بعضها في صفحات آتية.

وأصحاب الرسول الذين هم الطرف الأعلى في سلسلة الأسانيد لم يكونوا ينهون عن كتابة الحديث فحسب، بل كانوا ينهون عن حفظه وروايته. كانوا ينهون عن نفس التحديث ويعاقبون من يحدثون. كان الصحابة يعرفون استعداد الناس للغواية بالحديث، كانوا يعرفون قوة الأسطورة، كانوا يعرفون أن من سوف يصبحون رواة ومحدثين، سيفتنون بذلك، كما يفتتن الناس بالسلطان، والمجد، والمال، وبكل الشهوات الكبيرة. وإن من يجدون الفرصة ليكونوا محدثين، هم مثل من يجدون الفرصة ليكونوا أمراء، وولاة، وطغاة. وإن لدى الجماهير من الاستعداد للغواية بالحديث والمحدثين، مثلما عندها من استعداد للغواية بعبادة الأوثان، أو للإيمان بكل الدعاة المضللين.

فالمرجع إذن في حفظ الأحاديث حين جمعها كان الذاكرة لا الكتابة. وقد تأخر تدوين الرواية كثيراً. كان الراوي يحدث بالحديث بعد وفاة الرسول، وبعد وفاة من حدثه به بعشرات الأعوام.

وهل مما يحدث أن يختزن الراوي في نفسه مئات الروايات وآلافها، عشرين أو ثلاثين أو خمسين عاماً، ثم يرويها كما هي لا يخرم منها شيئاً..؟

إذا كان من الممكن حدوث مثل هذه المعجزة، فهل من الصواب والعقل، أو من الدين، الثقة بها حتى يصبح وحياً منزلاً يترك من أجله العقل والحياة، وعلوم الإنسان جميعاً، وتلزم البشرية كلها أن تؤمن به ما ظلت الشمس طالعة..؟ وقد كان حفاظ القرآن ينسونه.. وكان الرسول نفسه ينساه أحياناً. وهذا ثابت في رواياتهم الصحيحة.

وإذا حدث أن راوية جاء معجزة إنسانية، فاجتمعت له خصائص خارقة للعادة في قوة الحفظ، فهل من المحقق أو المحتمل أن تجتمع هذه الخصائص لجميع الرواة الذين يتألف منهم الإسناد، حتى لا يشك في نسيان أي واحد منهم..؟

ونسيان واحد في سند يتألف من خمسة أو ستة رواة، يكفي لهدم السند كله. ان رواية ينقلها لنا سبعة من الأنبياء من بينهم أولو العزم على هذا النحو، معتمدين على قوة الاستذكار فيهم، لرواية خليقة بأن نشك فيها ولو من جهة احتمال النسيان مثلاً. وقد كان آدم ناسياً حين أكل من الشجرة كما ذكر القرآن، وكذلك قد حكى أن موسى وغلامه قد نسيا حوتهما، ونسي الرسول عليه السلام بعض آيات القرآن حتى ذكره بها مذكر، ونسي أيضاً في الصلاة وفي شؤون أخرى كثيرة وقال: «إنما نحن بشر مثلكم أنسى».

ماذا يحدث حينما يلقى خطاب عام على جمع كبير من الناس..؟

إنه لا يوجد إنسان واحد مهما كان استذكاره يستطيع أن يحفظ الخطاب بكل معانيه وظروفه وحروفه. وإذا كان قد حفظ منه عشرة في المائة، فماذا يبقى من هذه العشرة بعد شهر. فإن كان قد بقي بعض الألفاظ والمعاني العامة للخطاب بعد الشهر، فماذا يمكن أن يبقى بعد السنة، وبعد العشر، أو الثلاثين، أو الأربعين سنة..؟

وقد كانوا يروون الأحاديث بعد أربعين أو خمسين عاماً، وقد يروونها بعد أكثر من ذلك.

ثم أية فكرة سيخرج بها الحشد من الخطاب الذي استمعوا إليه..؟

إنهم سوف يتناقضون في العبارات والمعاني التي يسمعونها، وسيحفظ فريق ما لا يحفظه الفريق الآخر، ويفهم بعض الحاضرين ما لم يفهم الآخرون، وسيكون الخلاف بين السامعين الحاضرين شديداً. ولا يمكن الخروج بفكرة صحيحة من روايات الشهود، وسوف يكون التناقض أكثر كلما كثر عدد السامعين.

كل هذا يحدث بعد سماع الخطاب مباشرة، أما بعد مضي عام أو عشرة أعوام فإن رفض شهادة جميع الشهود في هذه القضية قد يهدينا إلى الحقيقة أكثر مما يهدينا قبول شهادتهم.

إن الرجوع إلى المنطق، والقرائن، والظروف، أفضل لفهم الحقيقة من الرجوع إلى الروايات التي يرويها جمع غفير في حشد عام. إن الكذب والخطأ هما خلقان من أخلاق الاجتماعات العامة، ومن أخلاق الجماعات الكبيرة. إنه لا جماعة ولا اجتماع بدون كذب، بلا خطأ. قد يكون اجتماع الجماعة أحياناً أسلوباً من أساليب البحث عن الكذب والخطأ.

والأحاديث التي يرويها المحدثون، كانت تقال لهم كما هو المفروض في مجتمعات عامة، وقد تقال لفرد أو أفراد، ثم يأخذ الأفراد يحدثون بها للمناسبات بعد مرور عشرات السنين أحياناً، معتمدين على حفظهم لا على كتبهم. فهل يمكن أن يطمئن قلب المؤمن إلى هذه الأحاديث إذا كان يخشى أن يعهد الله بالكذب..؟

إن الرواة لم يستطيعوا أن ينقلوا لنا كلمات الأذان التي كانوا يسمعونها في اليوم الواحد

عدة مرات بأسلوب إعلاني مثير، فاختلفوا في ذلك اختلافاً لم يخلصوا منه حتى اليوم، وكذلك اختلفوا في نقل الشعائر الدينية الكبرى العامة كالصلوات، والحج، وأعمال الغزو وغيرها.

لقد أرادوا أن يصفوا شيئاً يملأ أنفسهم وعيونهم بهجةً ورؤيةً ومحبةً وإيماناً فما استطاعوا. لقد أرادوا أن يصفوا لنا ذات الرسول.. وجهه وشعره، فنقلوا أنه قد شاب، ونقلوا أنه لم يشب، ونقلوا أنه قد خضب شيبه بالحناء، ونقلوا أنه لم يخضب. لقد نقلوا روايات متناقضة عن كل أوصاف جسمه. لقد عجزوا عن رؤية جسم نبيهم، وعن حفظ هذه الرؤية. لقد اختلفوا في رؤيتهم لوجه نبيهم. لقد عجزوا عن أن يروا وجهه كما يقول الرواة. إذن كيف يمكن أن يوثق بأي راوية بل بأية رواية..؟

إنهم لم يقدروا أن يرووا لنا شيئاً ـ أي شيء ـ رواية موحدة، بل أن يروا شيئاً رؤية موحدة.

فقد للحصانة العقلية

إن من يقرأ كتب الحديث تتقاذفه الروايات المتناقضة التي تعد كلها صحيحة، فلا يدري أي ذلك هو الصحيح. والذي يحاول إدراك الحقيقة واليقين من هذه الروايات، هو كالذي يروم التمييز بين أنساب ومنابع قطرات الغمائم. إن من يحاول أن يعرف الدين الذي جاء به الرسول بعقله، بحدسه، بخياله، بأمانيه لأقرب إلى معرفته ممن يحاول معرفة ذلك بالرجوع إلى النصوص.

وليس الخلاف بين الأديان المتباعدة ـ بين التوحيد والوثنية ـ بأشد من الخلاف بين هذه الروايات. إن أي دين وثني لأقرب إلى التوافق مع الدين الإسلامي من الأحاديث بعضها مع بعض، بل من الأحاديث نفسها مع الإسلام.

والذين يدرسون هذه المتناقضات من الأحاديث لا بد أن ينتهوا إحدى نهايتين: إما أن ييأسوا منها لتناقضها وفقد الوحدة الفكرية بين آحادها، ولما فيها من صفات البداوة والغباء، فيطرحوها كلها بلا احترام. وإما أن يتبلدوا ويفقدوا كل حصانة فكرية لطول ما يعتادون الإيمان بها وبتناقضها وضعفها. وحينئذ يستطيعون أن يؤمنوا، لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا.

إن الشرط الأول للإيمان بالحديث، هو فقد الحصانة الفكرية. والفكر الذي يرتاض على الإيمان بالمحالات يصاب بالفساد الوظيفي. وليس الجنون سوى فساد وظيفي في العقل.

إن الرواية ليست مصدراً من مصادر المعرفة. إنها حديث عن القبور، والذين يشيدون معارفهم من الروايات المحفوظة لن يشاركوا في بناء الحضارة. والأمم في بداوتها وتأخرها، لا تجد غير الرواية تصوغ منها كل تاريخها، ومعرفتها، وإيمانها، وأشواقها الفكرية، وتحولها إلى

أساطير ملتهبة تستهلك بها حماسها وأشواقها الضائعة. وسنبقى دائماً غير متحضرين ما دام تفكيرنا يسجد باحترام عظيم للرواية. وإذا كانت أفكارنا ووجوهنا وحياتنا ساجدة؛ فماذا يمكن أن ينهض فينا ليصنع لنا وجوداً يرتفع فوق المحاريب..؟

إن السجود الفكري هو المشرع لكل أنواع العبوديات الأخرى.

والحضارات العظيمة لم تنهض كلها إلا على أطلال الروايات التي كانت دائماً قيوداً على العقول، وعلى احتمالات الإبداع. لقد كان الإنسان يتمرد على فترات فيقذف بتلك القيود ويمضي في الطريق، وكان هذا معنى الحضارة. إن الحضارة هي مجموع عمليات التمرد على النقل. وليس الجمود التاريخي إلا جموداً على النصوص، وليست أية فترة تاريخية سوى فترة تحددها النصوص.

إننا لسنا وحدنا الذين ضللتهم النصوص المنسوبة إلى الأنبياء. إن أهل الأديان الأخرى جميعاً كانوا كذلك يحدثون عن أنبيائهم، وفضلائهم الروحانيين، ويزعمون كما نزعم أنهم رأوا وسمعوا وحفظوا. ولكن هل كان لحفظهم وسماعهم ورؤيتهم أية قيمة..؟

وإذا كانوا لم يدركوا العصمة في أحاديثهم ومشاهداتهم، فكيف أدركناها نحن، هل كتبت لنا وحدنا..؟

لقد قالوا إنهم علموا ورأوا كل معجزات أولئك الأنبياء والروحانيين، وأبصروا بهم وهم يحكمون قوانين الكون ويلعبون بها ويسخرونها. لقد قالوا إنهم رأوا وحضروا المسيح مصلوباً. فهل لهذه الروايات القائمة على الرؤية قيمة علمية..؟

إننا نجرب الخطأ القديم الذي جربه من كانوا قبلنا من غير أن نبدل في الوسائل والخطط. وإذا لم يكن لهذه الروايات القائمة على المشاهدة والرؤية قيمة، فكيف يمكن أن يكون لرواياتنا نحن كل هذه القيمة.. لماذا ننحاز لأنفسنا بهذه المبالغة، وبهذا الأسلوب الصغير.. لماذا نعشق أنفسنا بكل هذا الافتضاح، وهذه المغازلة الهمجية..؟

إن الكثيرين من المحدثين كانوا صغاراً إلى مدى بعيد. وكانوا يغلقون أنفسهم دون كل احتمالات الذكاء، ولا يريدون أن يروا إلا بداوتهم العقلية والنفسية. ولم يكونوا يستطيعون الصعود إلى القمم ليشرفوا على مناورات الناس وألاعيبهم وزيفهم. وهم لهذا يرون الأشياء دائماً من وجه واحد، ولا مانع عندهم حينئذ أن يرووا عمن لم يروا، وأن يتعلموا صفات الله وأسرار السماء من أفواه الأطفال، ومن مجالس العامة المؤمنة التي لا تكذب، وأن يصوغوا من كل ذلك أحاديث يرويها البخاري ومسلم عن القمر، عن الشمس، عن المجرة، عن محمد، عن جبريل، عن الله.

وأي إثم حينئذ في أن يقول الرجل الصالح: سمعت فلاناً، أو حدثني فلان، أو قال الرسول، من غير أن يسمع أو يلقى ما دام يعتقد ذلك صدقاً.. أي إثم حينئذ، في أن يقول أي رجل صالح أنه سمع سحابتين تتحدثان بحماس وانفعال عن جمال الإسلام، وعن أنه خير الأديان، وأن أهله سوف يحكمون كل العالم..؟

إن عبيد الإشاعة موجودون في كل زمان ومكان. إن أكثر الأكاذيب التي تملأ الدنيا بقوتها وضجيجها ليست سوى إشاعات. إن في البشر شيئاً كأنه الغريزة يجعلهم يؤمنون بالإشاعة. إن المعنى الذي يؤديه سماع الإشاعة والترويج لها، هو المعنى الذي يؤديه سماع الموسيقى والعزف بها، فالإشاعة فن شعبي يستهلك الطاقات النفسية كما تستهلكها سائر الفنون العليا. والناس يبتهجون بالإشاعات لأنها نوع من الإجابة عن التساؤل المخزون في أنفسهم، والذي يبحث دائماً عن الانطلاق. والذين يملكون حماساً نفسياً متفوقاً هم أكثر الناس إصغاء إلى الإشاعة وترحيباً بها. وقيمة الإشاعة محسوبة بقيمة موضوعها، وقيمة من تنسب إليه، وحالة الظروف التي قيلت فيها.

ما أكثر ما يقتات الضعفاء والمتألمون بالإشاعات. إنها غذاء لاحتياجاتهم المحرومة، إنها نوع من العلاج لأحقادهم.. وهل تحتمل الحياة بدونها..؟

إن إطلاق الإشاعة ليس منفصلاً عن الاستماع اليها. إن أحاسيس مطلقها أو صانعها ليست بعيدة عن أحاسيس من يستمع إليها. إن الإشاعة مطلقة ومستقبلة، أسلوب من أساليب البكاء أو الغناء، أو الرفض، أو الاحتجاج، أو الأمل والأمنية، أو النقد، أو المقاومة، أو السباب. إنها احتياج، إنها بحث عن الراحة والعزاء، إنها محاولة لابتلاع ما يصعب ابتلاعه من أخطاء، ودمامات، وآلام، وأحزان، وحياة.

وجامعو الأحاديث في تلك الأزمان، كانوا يؤلفون كتبهم ثم يدعونها بعد وفاتهم مخطوطة يتلقفها الناس بعد رحيلهم من ورثتهم، أو من الوراقين، أو ممن يعرضونها، مسلمة لا جدال ولا ريب فيها. ولم تكن هناك نسخ رسمية تعتمدها الحكومات أو تعتمدها هيئات علمية محترمة أو معروفة، ولم يكن يوجد خبراء بالخطوط يفرقون بين الزائف والصحيح. وإنما كان هناك إيمان متسامح إزاء نفسه، يتسع لكل ما في الحياة من أكاذيب وخرافات، ولكل ما في البشر من مكر، وسوء، وضعف. ولو أن هيئة قانونية أو قضائية اعتمدت اليوم على وثيقة شراء أو بيع وجدت مع باعة الورق بدون إجراءات رسمية وفنية، لكانت هيئة مجانين أو لصوص.

إن الثقة بكتب المحدثين لم تكن تعني أكثر من الثقة بباعة الورق. لقد كانت هذه الثقة تعني

أخذ الإله أو الحصول عليه أو شرائه من متاجر الوراقين. كان الذين يشترون هذه الكتب من السوق، إنما يشترون منها صفات الإله وأخلاقه.

أحاديث النهي عن الأحاديث

ومع ذلك فإن للمحدثين علماً آخر.

إنهم يروون أحاديث في النهي عن الأحاديث. وقد سبق أن مسلماً روى في صحيحه أن الرسول قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن. ومن كتب عني سوى القرآن فليمحه».

وروى أبو داود أن زيد بن ثابت دخل على معاوية فسأله معاوية عن حديث، فأخبره عنه، فأمر معاوية بكتابته، فقال زيد: «أمرنا رسول الله أن لا نكتب شيئاً من حديثه فمحاه».

وروى الترمذي عن أبي سعيد قال: «استأذنا رسول الله في الكتابة ـ أي كتابة الحديث ـ فلم يأذن لنا».

وفي كتب الحديث روايات كثيرة جداً في الزجر عن التحديث. وقد جاء في هذه الروايات «إن هلاك المسلمين سيكون بالحديث». وجاء في رواية أخرى: «إن كثرة الحديث من علامات الساعة»، ذكرهما في مجمع الزوائد.

وقد ذكروا أن كبار الصحابة ـ ومنهم الخلفاء الأربعة ـ كانوا يتحاشون الرواية عن الرسول، وينكرونها، وينهون عنها. ولهذا نجد أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، أقل الناس حديثاً. ونجد الذين هم أقل شأناً أكثر حديثاً. ولو كان التحديث مزية، أو لو كان الحديث ديناً أو علماً لكان الخلفاء الأربعة، ولكان كبار الصحابة هم أكثر الناس حديثاً، ولكان من المحتوم أن يحاولوا ديمومة البقاء مع الرسول، والأخذ عن كل من أخذ وسمع منه.

وجاء في تذكرة الحفاظ للذهبي أن أبا بكر الصديق جمع الناس كلهم بعد وفاة الرسول عليه السلام، وقال لهم: إنكم تحدثون عن الرسول أحاديث تختلفون فيها، وسيكون الناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن الرسول شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرموا حرامه.

وفي هذا الكتاب أيضاً قالت عائشة: «جمع أبي الأحاديث عن رسول الله وكانت خمسمائة حديث، فبات ليله يتقلب كثيراً ولم ينم، قالت: فغمني ذلك فقلت له: أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟» فلما أصبح قال: يا بنية، هاتي الأحاديث التي عندك فجئته بها، فدعا بنار فأحرقها.

فقلت له: «لماذا أحرقتها؟» قال: خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن

رجل كنت حسبته أميناً ووثقت به، ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذاك».

والذهبي الذي ذكر هذه الأخبار هو من الحفاظ النقاد الكبار في علم الحديث، فلما ينقله قيمة لا يمكن أن تنكر، ويجب أن نقف عند قولها «وكانت خمسمائة حديث» أين هذا العدد من طوفان الأحاديث الذي اختنقت به حياة المسلمين، واختنق به التاريخ العربي، ولم يزالا يختنقان..؟

*

وللخليفة عمر بن الخطاب موقف مشابه لموقف الخليفة الصديق، أو أشد.

قالوا كثرت الأحاديث في زمن عمر، فطلب من الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها وقال: أمثناة كمثناة أهل الكتاب..؟

وقال أبو هريرة: لم نستطع أن نقول «قال رسول الله» إلا بعد موت عمر.

وسئل أبو هريرة: «أكنت تحدث بأحاديثك هذه في زمن عمر..؟ قال: لو حدثت بها لشج رأسي..؟

وقال عمر لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس ـ يقصد نفيه لبلاده ـ

وقال لكعب الأحبار: لتتركن الحديث عن الأوائل، أو لألحقنك بأرض القردة والخنازير.

كان عمر ينهى الوفود التي يبعث بها إلى البلاد عن الحديث، ويقول لهم أقلوا الحديث وأنا شريككم.

وعن قرظة بن كعب قال: لما سيرنا عمر بن الخطاب إلى العراق مشى معنا وقال: أتدركون لم شيعتكم..؟ قالوا: نعم مكرمة لنا، قال: ومع ذلك إنكم تأتون قوماً لهم دوي بالقرآن فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم. فلما قدم قرظة بن كعب، قالوا له: حدثنا، فقال: نهانا عمر عن الحديث.

وقال الحافظ ابن حجر صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري: إن هذه رواية ثابتة وإن رأي عمر كان هو هذا. وقد حبس عمر ثلاثة من كبار الصحابة على الحديث لأنه نهاهم فلم ينتهوا، وهم ابن مسعود، وأبو مسعود، وأبو الدرداء. قال ابن حجر وهذا ثابت عن عمر.

وعن أبي سعيد الخدري قال: كنا قعوداً نكتب عن رسول الله ما نسمع منه فخرج علينا فقال: ما هذا الذي تكتبون..؟ فقلنا ما نسمع منك، فقال: أكتاب مع كتاب الله..؟ امحضوا كتاب الله وأخلصوه، قال: فجمعنا ما كتبناه في صعيد واحد وأحرقناه بالنار، وفي آخر

الحديث: حدثوا عني ولا حرج، حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، رواه الإمام أحمد.

وقد فطن الرواة إلى التناقض بين هذه الروايات وبين ما يفعلون، فراحوا يحتالون للتوفيق بينهما، وقد زعموا ان النهي عن كتابة الحديث إنما كان في زمن نزول الوحي خوفاً من التباس القرآن بالحديث، فليس النهي عن نفس الحديث بل عن كتابته.

ماذا لو اختلطا؟

وهذا التخريج الذي ذهبوا إليه يعني أنهم لا يرون القرآن معجزاً وأن إعجازه لا بد أن يميزه، وإلا فإنه إذا كان كذلك فلن يختلط بغيره، أو يعجز عن تمييزه عما سواه.

وما رأيهم لو خلطت الأحاديث الآن بالقرآن أو بغير القرآن من الكلام، وقدم للناس على أنه القرآن ولا شيء معه..؟

إن قالوا إن هذا سوف يفهم من هذا، فلا احتمال إذن لخوف اللبس، وإن قالوا إن ذلك لن يفهم، وإنه سوف يظن غير القرآن قرآناً كان معنى هذا اتهام القرآن بأنه كلام عادي وأنه غير معجز بذاته، وأن إعجازه ليس إلا إيماناً فقط.

أنت مؤمن بإعجازه، إذن هو معجز. هو معجز لإنك مؤمن بإعجازه، ولست مؤمناً بإعجازه لأنه معجز. ليس معجزاً لأنه معجز، بل لأنك مؤمن بذلك.

ومع هذا فإنهم لو كتبوا الحديث، وكتبوا عليه أنه حديث، وكتبوا القرآن وكتبوا عليه أنه قرآن لكان هذا أقوى وأفضل طريقة للتمييز بينهما، فلماذا لم يفعلوا ذلك..؟

إن الأسلوب الذي حدث يجعل احتمالات اللبس أقوى وأقرب إن كان مبدأ اللبس محتملاً، فكأنهم إذن قد فرطوا في أخذ الحيطة لحماية القرآن من الاختلاط بغيره.

إن القرآن الآن مكتوب والحديث مكتوب، فهل حدث ما خافوه من احتمال الالتباس..؟

كان يجب أن يكتبا في زمن الرسول كما هما الآن مكتوبان، وأن يوضع كل منهما وحده كما هما اليوم موضوعان. إن من المعروف أن القرآن كان في عهد الرسول يحفظ حفظاً، والأقلون هم الذين كانوا يكتبونه، فإذا كان الحديث يحفظ أيضاً فما الذي يمنع الالتباس حينئذٍ على هذا الزعم..؟ وقد اضطروا في أحد عهودهم إلى جمع القرآن مكتوباً حينما خشوا ضياعه أو ضياع شيء منه لما كثر القتلى من حفاظه.

ومهما فرحوا بهذا التأويل، فإنه لن يكون صحيحاً لأن الكثير من الروايات المذكورة، إنما قيلت بعد انقطاع الوحي، وبعد وفاة الرسول عليه السلام، حيث لا خوف من اللبس كما في حديث زيد ومعاوية، وكما في مناهي أبي بكر وعمر وإحراقهما للأحاديث.

كذلك يرد هذا التأويل تعليل النهي، فقد علل النهي بأشياء أخرى غير خوف الالتباس. ولو كان الغرض هو فصل هذا عن هذا، لكان من السهل أن يقول الرسول ويقول الذين نهوا عن الحديث إننا لا نقصد إلا حماية القرآن من أن يضيع في غيره. فإذا تحققت هذه الحماية فحدثوا، أو اكتبوا أحاديثكم كيف شئتم. وحينئذٍ لا يقع لبس لا في معاني هذه الأخبار، ولا في فصل الكتاب عن السنة.

ولماذا يكون اختلاط الأحاديث بالقرآن مرفوضاً..؟ أليس كلاهما من عند الله..؟ أليس كلاهما ديناً ملزماً..؟ إن الخوف من اختلاطهما تعني أن قيمتهما الإلزامية أو التشريعية غير متساوية. إن في هذا ما يعني التهوين من شأن الحديث.

وأنا أزعم هنا أنه لو كان الحديث رسالة من الله إلى البشر تحمل التحليل والتحريم والإلزام العقلي والأخلاقي، لكان من المحتوم كتابته، ولكان له كتاب يلزمون الرسول ويكتبون عنه كل حديث ينطق به، كما كان للقرآن كتاب يسمون كتاب الوحي. ولا يمكن أن يصح في أي مذهب من مذاهب الاحتمالات أن يكون الحديث ديناً مثل القرآن يشرع ويأمر، وينهى ويلزم، ثم ينهى عن كتابته ويحرق ما كتب منه. إنه لا بد من أحد أمرين: إما أن تكون كتابته مفروضة، أو أن يكون شيئاً خارجاً على الدين. وهل يصح أن يأمر الرسول وأصحابه بتحريق أوامر الله ونواهيه..؟

الحديث تشريع وإلزام. إلزام عقلي وأخلاقي وقانوني؛ ولكن مع هذا حرام أن يكتب، وحتم أن يحرق لو كتب. هل هذا منطق.. هل محتمل أن يكون الأمر كذلك.. هل معقول الجمع بين كون الشيء واجباً، وبين كون كتابته حراماً..؟

إن هذه كلها دلالات على أن وضع الحديث في المكان الذي وضعه فيه المحدثون خروج على الدين نفسه.

وقد كان الرسول يكتب كتبه، ويبعث بها إلى الملوك وغيرهم، ممن يدعوهم إلى الإسلام، وينهي إليهم أوامره مكتوبة. إنه لم يخشَ أن تظن كتبه قرآناً وأن تتلى في المحاريب. فهذا الاحتمال إذن لم يكن في القصد.

وإذا كان ما ذكره هؤلاء من خوف الالتباس صحيحاً، فما الذي يدريهم حينئذٍ بأن هذا المحذور لم يقع..؟

لعله وقع، ولعلهم هم وسواهم لم يشعروا بوقوعه. لعل الخدعة قد انتصرت على الجميع، لأنه لا ضمان من حيث طبيعة القرآن، ولا من حيث الاحتياطات التي اتخذت لإقرار هذا الضمان على حسب ما ذكروا، وقد كان يوجد كلام كثير في زمان نزول الوحي، وكان

يكتب، كما كان الوحي يكتب، ولا فرق بين مكتوب ومكتوب في رأي هؤلاء. فعليهم إذن أن يبحثوا عن اليقين، لعل الكثير مما يظنونه قرآناً ويصلون به في المحاريب، ليس سوى كلام من كلام السوق، لعله كلام قاله قوم ليس لهم أي مستوى ديني، أو فكري، أو أخلاقي، أو حتى بلاغي.

ومن المحاكاة التي لا يمكن أن توصف بالذكاء ولا بعمق الدين، ذلك الجنون الإسنادي الذي جعل الكثيرين، من عبيد الرواية يحاولون أن يمجدوا أنفسهم بوصلها بأصحاب كتب الحديث المشهورة، فيروي أحد هؤلاء عن شيخه، وشيخه يروي عن شيخه، وهكذا إلى أن يتصل مثلاً بالبخاري، والبخاري يروي عن آخر، إلى أن يقول الراوي سمعت أو رأيت الرسول. وهم يظنون أنهم بهذا قد أخذوا عن الرسول الذي أخذ عن جبريل الذي أخذ عن الله. إنهم يظنون أنهم بهذا قد أمسكوا بقوائم عرش الإله، وبأثواب النبي، وبأجنحة ملاك الوحي. إنهم يظنون أنهم بهذا قد اقتحموا على الله مكانه، وأن المسافات بينهم وبينه قد زالت. إن هذا نوع من التقليد الذي تطير له ألباب الأطفال فرحاً. إن الطفل يرسل بالونه المملوء بالهواء فيرتفع فوق رأسه، فينفجر بالسرور ظاناً أن مجده قد صعد، وأنه قد اتصل بالشموس وبالكون الأعلى.

.. لا تحكيماً لإحدى الحماقتين

لما عرض الرسول عليه السلام دعوته على قومه العرب رفضوا الدعوة، وقالوا في أسباب رفضها إنها أساطير الأولين، وهم يعنون ما في القرآن من قصص وتعاليم. وهذه الحجة لا بد أن ننكرها نحن لأننا مسلمون، ولكنها مع هذا حجة تثير فينا التأمل، وأحياناً الإعجاب.

يرفض العرب القرآن قائلين إنه أساطير الأولين. إذن فالعرب لا يؤمنون بالأساطير القديمة المحفوظة، بل يفاخرون برفضها، إذن هم يرفضون الرواية عن الأولين، إذن هم يرفضون الأحاديث، يرفضون النقل والتقليد، إذن هم يرفضون ما يتلى في المحاريب من نصوص وأساطير تعيش فيها كل قداسة التاريخ وجبروته.

إن الشعوب المتأخرة، بل إن أكثر الشعوب، أو كل الشعوب تركع بخشوع وغيبوبة أمام رهبة الأساطير الأولى، إنها تمتصها بنهم وإيمان. إن الأساطير لدى هذه الشعوب أكبر من أن تناقش أو يشك فيها. إنه لا يمكن أن يرتفع فوق المأثورات الأولى إلا من لهم شمم فكري فيه كل معاني الكبرياء والرفض. لقد كان عند العرب هذا الشمم الذي أبى عليهم الانحناء للأساطير. إن أفكارهم وأخلاقهم لم تروض على السجود للنصوص، والطغاة، والقبور. كانوا مشركين، ولكن بالهوى، والفن، والتسامح، لا بالفكر. لقد كانوا مع شركهم يؤمنون بحرية الفكر والدين لكل المخالفين.

كانت لهم أصنام وآلهة عديدة، ولكنهم لم يكونوا يضيقون بمن يعبد إلهاً واحداً، ولا بمن ينكرون كل الأصنام والآلهة. كانوا يرون أن مما ينافي أخلاق القوة والرجولة، والفروسية، والذكاء والكرم، أن يكرهوا إنساناً أو يطاردوه، أو يحاربوه لأنه يدين بدين غير دينهم. إنهم السخفاء، والوقحاء، والضعفاء، الذين يفعلون ذلك. إنهم المتعصبون.. إنهم الذين يجهلون حقوق الإنسانية في استقلال معانيها وتعددها، ويجهلون طبيعة الظروف التي تكوّن وتكيّف عقائد البشر، كما تكوّن وتكيف حياتهم وأعمالهم.. إنهم الذين لا يؤمنون بحرية الإنسان ولا بحرية أنفسهم، ولا بأن البشر متعددون بخصائصهم، وشخصياتهم، وظروفهم، وعقولهم، وشهواتهم.

أليست إرادتنا الحرية لأنفسنا تعني إرادتنا الحرية للآخرين، وإلا فكيف تكون أنت أنت، ولا أكون أنا أنا..؟

إن فرض حريتك على حريتي، يساوي فرض ذاتك على ذاتي.

كيف يكون معقولاً أن تفرض حريتك على حريتي، دون أن يكون معقولاً أن أفرض حريتي على حريتك..؟

كيف يكون معقولاً أن تفعل أنت هذا الجنون لأفعله أنا كذلك..؟

كيف يصح الاتفاق بيننا ليكون كلانا مجنوناً..؟

كيف يحل لأحدنا أن يكون مجنوناً ويحرم على الآخر..؟

ومن الدلائل على عمق إيمانهم بالحرية الفكرية والدينية والإنسانية للآخرين المخالفين، معايشتهم لليهود والمسيحيين، والخلفاء المؤمنين بإله واحد على ملة إبراهيم أبي الأنبياء والموحدين. لقد كانوا يعايشون هؤلاء وغيرهم من أهل المذاهب الأخرى وغيرهم، ممن لا يؤمنون بأي دين، وينكرون كل الآلهة والأديان، معايشة ليس فيها أية بغضاء أو مضايقة. كانوا يحالفونهم، ويصادقونهم، ويشاركونهم، ويدخلون إلى معابدهم، ويصافحون أربابهم، ويدخلونهم معهم معابدهم، ويستمعون إلى كتبهم المقدسة، بل ويقرؤونها، ومنهم من يدخل في دينهم، ومنهم من يفضلون دين أهل الكتاب على دين العرب.

كان أهل الكتاب يهجون دين العرب الوثني، ويبشرون بدينهم بينهم، فيسمع العرب ولا ينكرون. وقد قام في العرب كثير من الخلفاء الموحدين الذين نبذوا الأوثان، ودعوا إلى نبذها، وبشروا بعبادة الله الواحد، فاتسعوا لهم ولم يضيقوا بهم، بل لقد سالموهم وعاملوهم بتقدير واحترام، ولم يحدث أن أحداً من هؤلاء أوذي لدينه. كان اختلاف الدين في تقديرهم مثل اختلاف الأجسام والخصائص. إن كلاً يرى بعينيه ويسمع بأذنيه، إذن كيف لا يتدين كل بدينه

ويعتقد بعقيدته..؟ إن من يفرض على الآخر أن يتدين بدينه، أو يفكر بعقله، لهو مثل من يفرض على الآخر أن يرى بعينيه، أو يسمع بأذنيه أو يمشي بقدميه. أي أن يرى، ويسمع ويمارس بذوات الآخرين لا بذاته هو.

لقد عاش الرسول وأصحابه بينهم زمناً طويلاً، وكان الكثيرون منهم يدفعون عن المسلمين كل عدوان، ومنهم من يعلن حمايته لهم، وينتصر لحريتهم الدينية الكاملة انتصاراً مطلقاً. لقد كانوا في تسامحهم ووثنيتهم يشبهون اليابانيين اليوم. لقد كان التدين عندهم نوعاً من الشعر والجمال والفروسية، وليس نوعاً من الآلهة الحاقدة المتقاتلة. لقد كان التدين المختلف عندهم نوعاً من الرؤية بكلتا العينين، وليس نوعاً من الفقء لإحدى العينين، أو أنه كان نوعاً من التسوية بين حماقتين، لا تحكيماً لإحدى الحماقتين. لقد كانت أوثان العرب أكثر تسامحاً وصداقة للإنسان، من آلهة أصحاب الديانات الكبرى.

أما مقاومتهم أخيراً للمسلمين، ومضايقتهم لهم، حتى اضطروهم إلى أن يهاجروا ويتركوا أوطانهم، فلا يرجع ذلك إلى تعصبهم الديني أو الفكري، بل يرجع إلى طبيعة القادم الجديد، وإلى تخوفهم من هؤلاء المؤمنين، على مصالحهم، وتقاليدهم وأخلاقهم، ونظمهم ومكانتهم، وشرفهم المهدد.

إنه نوع من النزاع السياسي أو من التعصب ضد التعصب. إن المتسامحين قد يتحولون إلى متعصبين ليحموا تسامحهم من تعصب يهدده. إذن قد يكون موقف القرشيين من المسلمين نوعاً من التعصب ضد التعصب أو خوفاً منه. وقد يكون التنافس هو السبب، فقد خاف زعماء قريش على زعامتهم من المنافسين الجدد الأقوياء. قد يكون ذلك خوفاً من هؤلاء المتدينين، لا خوفاً من الدين. ولعلهم أرادوا الدفاع عن حياتهم الحرة المتسامحة. لعلهم اعتقدوا أن انتصار الدين الجديد، أي انتصار أهل الدين الجديد قد يسلبهم الحرية والتسامح، والحياة المبتسمة، ويفرض عليهم حياة عنيفة متعصبة، مستبدة كئيبة. لعلهم أرادوا أن يدافعوا لا أن يهاجموا.

*

التعصب هو الدمامة

والمتدينون دائماً ينشرون التعصب والاكتئاب، ويحاربون السرور والحرية. كان العرب يحيون لأربعة أمور: للشعر، والخمر، والنساء، والحياة التي لم تقيدها التعاليم.. ويحيون خامساً للسرور.

وقد حموا كذلك من خمسة شرور: من الألوهية القوية، وقد كانت الألوهية عندهم نوعاً من المزاح.

ومن الطغيان، فلم يحكموا بالطغاة.

ومن النصوص المقدسة، فلم تكن لهم كتب مقدسة.

ومن التعصب الديني أو الفكري أو الأخلاقي.

ومن المعلمين المتزمتين الأغبياء، لم يكن عندهم رجال دين أو لاهوت.

إذن لقد حموا من خمسة، وعاشوا لخمسة. والذين يعيشون لهذه الأوثان الخمسة لن يكونوا متسامحين وأصدقاء للناس، ولكل ما في الحياة من فكر وجمال، بل ومن ضعف وغباء.

إن هؤلاء لن يحاولوا أن يفرضوا عبودية فكرية أو عاطفية على الآخرين، أو يقبلوا أن يفرضها عليهم الآخرون. إن اللذين يكرهون عقائد الآخرين وأفكارهم وحماقاتهم البريئة وسلوكهم، هم المتألمون المحرومون المكتئبون. والسعداء المطمئنون الواثقون لا يكرهون شيئاً ولا يحقدون على شيء. والحرمان - الحرمان المادي والنفسي - هو الذي يخلق التعصب والبغضاء، والقسوة والتدين الفظ. واللذين يكرهون المخالفين لهم باسم الفضيلة أو الدين، هل يعرفون لماذا يفعلون ذلك..؟

إنهم يكرهون لأنهم معذبون ومحرومون.. محرومون من شيء ما، محرومون ولو من التوافق مع أنفسهم.

فالعرب كانوا يؤمنون بحق الرغبة في الانطلاق، وبتعدد ظروف الحياة، وبالمبررات الإنسانية التي تجعل الناس يختلفون في أفكارهم وعقائدهم، وسلوكهم وأهوائهم بدون أن يكونوا أشراراً أو مخطئين. كانوا يؤمنون بتعدد الشخصيات واستقلالها، كما يؤمنون بتعدد الأشخاص، وكانوا يؤمنون بالحب، بكل الحب، لكل الوجود، لكل البشر الذين يوافقون والذين يخالفون، وبالحب للخرافة أيضاً.

إن هذي هي المزية الكبرى لمن يحيون حياة الشعر.

إنني أفزع حينما أتصور مجتمعاً كل أفراده من اللاهوتيين، ليس فيهم شعراء، ليس فيهم قوم من المتسامحين الأحرار، اللذين يدعون بالفساق والضالين والمغضوب عليهم. إن حياة مثل هؤلاء، سوف تكون كآبة وضيقاً، وتحريماً وبغضاً، وعجزاً وتعصباً كالحاً. ولولا حياة الفن والشعر المتحللة من كآبة اللاهوتيين ومحرماتهم وضيقهم، لما أمكن أن يتحضر الإنسان. لقد تحضر الإنسان خارج المحراب، ولم يتحضر داخله.

إن المتدينين قوم خائفون من الحياة والناس ومن أنفسهم، وهم لهذا لا بد أن يكونوا أعداء

وغير أخلاقيين. إنهم في الغالب عاجزون، ومرضى متبلدون، ومنحرفون. وهل التدين هو الذي يصنع ذلك، أم هو الذي يدل عليه..؟

توجد ملامح ظاهرة من الشبه بين حياة العرب في الجاهلية، وحياة الإغريق في عصر الشعراء الذي انبثق عنه عصر الفلاسفة. كانوا يحيون في صور من الحياة تشبه صور تلك الحياة التي ألهمت هوميروس وغيره من شعراء اليونان تلك الملاحم الخرافية الخالدة. إن حب الخرافة بلا تعصب، نوع من الجمال والحرية، والكينونة المقبلة. ليست الخرافة هي الدمامة، ولكن الدمامة هي التعصب. إن جميع الخرافات في الدنيا تتحول إلى جمال وشعر وموسيقى، إذا كانت بلا تعصب. وإن كل تعصب يتحول إلى أقبح الدمامات، مهما كان تعصباً للحق أو للذكاء، أو لأنبل ما في الحياة أو في الإنسان من معان وعبقريات.. كن متسامحاً بلا حقيقة، ولا تكن متعصباً ومعك كل الحقيقة.

إن من الأسباب التي جعلت العرب متسامحين أنهم لم يكن لديهم علم لاهوتي. إنهم لم يقعوا في قبضة اللاهوتيين. إنهم لم تذل أفكارهم، ولم يطبعوا على التسليم، أو التعصب الذي يفرض على صاحبه أن يخلق الناس على مقاسه الفكري والوجداني والأخلاقي، وإلا أبغضهم وحاربهم. ولهذا ارتفعت هاماتهم أمام صولة الأساطير التي تطامنت لها أعلى الهامات، ولم ينكروا ديناً أو مذهباً يؤمن به الآخرون لأنهم أولاً لم يتعودوا الإيمان بالتلقين، ولأنهم ثانياً لم يحددوا بحدود اعتقادية تعجزهم عن استيعاب العقائد الأخرى. واللاهوتيون هم الذين يفرضون على البشر الآفتين: يذلون أفكارهم بالإيمان، ويضعون لهم حدوداً تضيق بالإنسان، فيجيئون عبيداً في عقولهم وسيئين في أخلاقهم.

إن من الحظوظ السعيدة أن حرم العرب من طغيان اللاهوتية ومن شرورها الكثيرة، وإن تركوا يحيون حياة شعرية نمت فيها أفكارهم وأخلاقهم وعواطفهم في الأفق الواسع، فانطلقت منهم في وقت من الأوقات قفزة إنسانية طبعت التاريخ طبعة جديدة. وقد فسرت هذه التربية نفسها في صدر الإسلام، فالذين تغذوا بآثام الجاهلية، كانوا أبطالاً في الإسلام أكثر من الذين تغذوا بتقوى الإسلام، والذين وهبوا الإسلام انتصاراته الكبرى هم الذين ولدوا وعاشوا في صحراء الوثنية، دون الذين ولدوا وعاشوا في محاريب التوحيد والتعبد.

ماذا لو أن العرب كانوا في غير الجاهلية.. ماذا لو كانوا يحيون حياة لاهوتية، كهذه الحياة التي نحياها..؟

أكان من الممكن حينئذ أن يؤمنوا بالدعوة الجديدة.. ولو آمنوا بها فهل كان من الممكن أن ينهضوا بها، وأن ينصروها، أو يعرضوها عرضاً قوياً تهتز له الدنيا القديمة بأسرها..؟

إن روح التسامح والحرية التي انتقلت إليهم مع الجاهلية هي التي جعلتهم يستطيعون الإيمان بالدين الجديد. إن من الصعب جداً أن يخرج أهل دين من دينهم ليؤمنوا بدين آخر جديد. إن الديانة القائمة على اللاهوتية تكون متعصبة ومصممة ومانعة من التفكير والاحترام للآراء الأخرى، وهذا يجعل أهلها غير قابلين للخروج منها بسهولة. إن الوثنيين يتغيرون أسرع وأيسر مما يتغير اللاهوتيون والمؤمنون بالأديان القوية الكبيرة. وإذا تغير أهل الأديان فمعنى هذا أنهم بدأوا يفقدون احترامهم لدينهم، وكذلك أهل الأديان الكبرى القوية لا يمكن أن يتسامحوا مع الآراء أو الأديان الأخرى المخالفة. إنهم لن يتسامحوا إلا حين يصاب إيمانهم بالوهن والهزيمة. وهل يمكن أن يتسامح أو أن يحب المخالفين من يعتقد أن إلهاً قوياً باطشاً يملك كل شيء يعيش في داخله..؟

يرى بعض الناس أن مجرد نزول القرآن وإيمان العرب به، هو الذي صنع منهم في وقت من الأوقات أمة فاتحة قوية منطلقة متماسكة. ولكن إذا كان هذا صحيحاً فلماذا لا تخلق المصاحف وهي كثيرة ومطبوعة طبعات أنيقة، أمة فاعلة ما فعل العرب في انطلاقتهم الأولى الكبيرة..؟

إنسانية غير ملجمة

أنا شديد الإعجاب بأهل الجاهلية، وقد كان شاعر قبلي معجباً بهم كذلك حينما قال وهو يمدح قوماً ويصف أخلاقهم القوية:

في الجاهلية إلا أن أنفسهم ... من طيبهن به في الأشهر الحرم

إن الجاهلية تصنع إنسانية غير ملجومة. إن اللجام لم تبتكره احتياجات الحياة بل الخوف منها. لقد كان المراد من اللجام أن يؤدي عملية إذلال وإضعاف خشية المقاومة أو الهرب. واللجم لا تهب حامليها قوة أو مجداً، وإنما تهبهم سكينة وطاعة وورعاً. وقمم الحياة لا تبلغ بالسكينة والوقار والاستقامة، ولكن بتسلق القمم، قمم الآثام الصعبة دون الإصغاء إلى وعظ أو تحذير.

إن الحضارات العظيمة جميعاً ليست إلا خلق الوثنيات، وأقوى هذه الوثنيات الوثنية الغربية الحديثة، وقبلها في الزمان الوثنية الإغريقية.

إن أعظم مزايا الجاهلية أو الوثنية إعفاؤها الفكر والإرادة من شريعة التحريم، وتركها إياهما يتسلقان جميع المرتفعات، ويفتاتان بكل أنواع الألم واللذات المحرمة.

إن الجاهلية تؤمن بحرية الحياة والتفكير، والإيمان والكفر. وهذه فضيلتها العظمى، وتؤمن

فوق ذلك بحرية الخطيئة. أما اللاهوتية فهي تحريم.. كل ما تفعله اللاهوتية أن تحرم. والتحريم في جميع صوره ليس إلا مقاومة للحياة.

إن حياة الجاهلية تتعدد وتتسع وتبتهج، بقدر ما تضيق وتتوحد وتكتئب حياة اللاهوتية. والعرب الذين نبتوا على جوانب هذه الحرية لن يلعنوا حرية الآخرين، ولن تعنو أفكارهم ولا جباههم للصلاة في المعابد الشامخة، المشيدة من القيود ومن عضلات العبيد. وإذا أبوا احترام الأسطورة فلأنها قد أصبحت تاريخاً ميتاً. وحياتهم الحرة المتجددة لن تدخل في تصميمها شيئاً قد مات، وفقد اللذة، وحب النساء والخمر والشعر، والإحساس الطليق بالحياة الطليقة؛ لأن حياتهم السمحة المنطلقة ترفض الخضوع لإملاء الآلهة المسنة.. إن الآلهة المسنة عدوة التسامح والحب واللذات.. إنها لا تمارس إلا الحقد والتعصب، والبغضاء والحرمان. إن حياة العرب في الجاهلية كانت نقيضاً قوياً لأخلاق الآلهة المسنة.

•

لقد ظلم العرب ظلماً كبيراً. وقد كان التعصب الديني هو أحد أسباب هذا الظلم. وكذلك قد كان أحد أسبابه فساد رأي الذين نصبوا أنفسهم حكاماً على تاريخ العرب.

وقد يكون للتعصب العنصري يد في هذا الظلم ـ فإن هؤلاء المؤرخين والمفسرين، وكان أكثرهم من غير العرب وكانوا يخوضون معركة متنافسة عرقية ضدهم ـ فإن هؤلاء المؤرخين والمفسرين كانوا يعدون صفات القوة والانطلاق التي يحيا بها العرب نقائص وآثاماً، لأنهم كانوا من العاجزين الذين يفضلون السجود والضعف والهرب، لأنهم كانوا من الذين يفضلون ترك المرام الصعب بحجة أنه حرام، على اقتحامه الشاق.

إن ما خلفه العرب من شعر ومحاورات يدل على ما بلغوا من إباء عقلي وخلقي وعاطفي، ومن حرية في التفكير والقول والممارسة، وكذلك من حرية في الحب. وحرية الحب تشبه دائماً أن تكون هي المادة الأولى، التي تصنع منها كل الحريات.

إن أعظم ما نعرفه اليوم من فضائل العرب في الجاهلية هو أنهم لم يكونوا يؤمنون بعقيدة أو بفكر أو بنص إيماناً مذلاً.. إنهم لم يكونوا يقدسون شيئاً تقديساً غيبياً.. ليست لهم نصوص ولا مقدسات، ولا أوثان عقائدية. وهذه الحرية الاعتقادية والنفسية والفكرية، هي التي خلقت من العرب أمة أضاءت ذات يوم في التاريخ، ولكن كما يضيء الكوكب المتهاوي في الظلام، بالسرعة التي أضاء بها انطفأ، لأنهم لم يلبثوا أن جردتهم اللاهوتية من خصائصهم القوية، ولأنها حولتهم إلى رماد..

ولكن هل اللاهوتية تستطيع أن تهزم خصائص المجتمع أو الإنسان، أم أن الخصائص هي التي تحكم اللاهوتية وتفسرها، وتقبلها وترفضها، وتضعها وتتخطاها..؟

أكان إنساناً أم إلهاً

إن الغلطة الكبرى التي شاد عليها المحدثون أكثر أخطائهم، هي اعتقادهم بأن الرسول كان إلهاً.. بأن أقواله وأفعاله كانت أقوال وأفعال إله، وليس بشراً يفعل بقوة البشر، وبحوافزهم، واحتياجاتهم، وضعفهم.. لقد ألهوا معناه دون اسمه وذاته.. لقد رأوا فيه كل صفات الإله وأخلاقه والزامه.. إن كان كل ما يقوله ويفعله ويسكت عليه وحي، له جميع خصائص الوحي، والزامه، وقوته، وقداسته. لهذا أمعن الرواة في الجمع والنقل. لقد كانوا ينقلون ويجمعون معاني وأخلاق إله.. كانوا ينقلون ويجمعون ويروون عن كائن تجب طاعته كالإله، ويكفر الخارج عليه أو الشاك فيما يقول أو يفعل، مثلما يكفر الخارج على الإله أو الشاك فيه.. عن كائن منزه ومعصوم مثل الإله..

إذن لقد كان إلهاً مهما كان إنساناً.

ولكن ألم يكن الرسول إنساناً له تفكير الإنسان ورغبته، وحبه وبغضه، وألمه وكل قوته وضعفه..؟

لقد أراد القرآن أن يصفه للمؤمنين فأمره أن يقول: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ﴾. وهذا لأنه كان يخشى أن يحسب إلهاً في قواه، أو تصرفاته، أو في أخلاقه، أو في معانيه كما حسبه المحدثون كذلك. وقد كان بعض المؤمنين يرونه أحياناً كذلك فيذهبون يتقبلون ما يقول وما يصنع، كما يتقبلون الوحي فيردهم عن ذلك ويقول لهم أنا بشر مثلكم.

ويروي الرواة قصة لها دلالة في هذا الموضوع.

قالوا إن الرسول مرّ بقوم يلقحون نخيلهم، فقال لهم إن ما تفعلون لا يفيد شيئاً، فتركوه، ففسد الثمر فأخبروه، فقال اتركوا قولي واعملوا ما كنتم تعملون، فأنتم أعلم بأمور دنياكم، ولا تأخذوا عني إلا ما حدثتكم به عن الله. وقد تصرف ذات مرة تصرفاً فسألوه، قالوا هل ما فعلته وحي أم رأي..؟ فقال إنه رأي.. فقالوا له إن الرأي غير هذا، فنزل عند رأيهم.

والمسألة تعرض على هذا النحو: الرسول إما أن يكون إلهاً أو بشراً.

وإذ أنه بشر، فمعانيه إما أن تكون معاني إله أو معاني إنسان..

الأول لا يمكن القول به، وإلا لكان إلهاً في صورة إنسان، والإله في صورة إنسان ليس أقل من الإله في صورة إله. وإذن لا بد من القول بأنه بشر في معانٍ بشرية..

وإذا كان كذلك فكيف تعد تصرفاته وأقواله وأحاسيسه ديناً مفروضاً..؟

كيف يعد سلوكه الجنسي وأحاسيسه نحو الجنس، وممارسته الطعام والماء، والنوم والتعب والأحزان ديناً مفروضاً..؟

إن هذا يساوي الزعم أنه إله.

إنه لا يبقى هنا من الاحتمالات إلا القول بأنه إنسان يوحى إليه. ثم يتوسعون في معنى الإيحاء فيرون أن جميع أفعاله وأقواله، ومشاعره وأفكاره، وآلامه والتعبير عنها، حتى الآهات والبكاء والضحك والحزن والاكتئاب، صادرة عن وحي.. أي أنه حينما يرى شيئاً فيشعر بالارتياح أو الاشمئزاز فيذم أو يمدح، وحينما يقدم له طعام فيأكل منه أو يعافه، وحينما يحب لباساً فيلبسه، أو يرى إنساناً فيحبه أو يكرهه، أو يتقدم إليه خصمان فيحكم بينهما بما يراه العدل، أو يسمع عن الأوائل فيحدث بما سمع؛ فلا بد أن يكون ذلك كله وحياً ملزماً للبشرية في جميع عصورها.

وأي تأليه له أكثر من هذا.. وأي تحقير للإنسان يساوي هذا التحقير.. وأية وثنية هذه الوثنية..؟

وهنا إما أن يكون ما قاله وما فعله بشعور ذاتي منه أو بلا شعور. فإن كان بلا شعور فقد هبطوا به عن مستوى الأحياء الشاعرين المنفعلين المستقبلين للأشياء، القابلين أو الرافضين لها بعقولهم وأخلاقهم، وعواطفهم وبمستوياتهم الإنسانية. وإن كان بشعور فهذا الشعور لا بد أيضاً أن يكون وحياً، ليكون موافقاً للوحي الآمر بالفعل وبالقول، لأنه لو كان شعوراً ذاتياً مستقلاً لأمكن أن يخالف الوحي النازل؛ وحينئذٍ يكون الرسول قائلاً وفاعلاً ما يخالف شعوره النفسي واتجاهه الخاص.

وهل يتصور المحدثون صدق هذا الاحتمال..؟

.. لا كوعاء لأوامر السماء

وليس في طاقة الممكنات أن تتسع للرأي القائل بأن جميع انفعالات الرسول، وتصرفاته ومعاناته للأشياء، إنما صدرت عن وحي. ولو كان ذلك كذلك، لكان الوحي أرخص شيء في السوق، ولكان النزول من فوق السرير أو من على ظهر الدابة أصعب من نزول الملائكة بأوامر الله إلى أهل الأرض..

وهل يصدق خيال المؤمن أن الله يتنزل من عليائه ليكلف جبريل بالنزول إلى الأرض ليوحي إلى محمد عليه الصلاة والسلام بالأكل من ذلك الطعام، أو بلبس ذلك الثوب، أو بحب فلان

وكره فلان، أو الأكل على الأرض، وبالنوم على الجنب الأيمن، أو بشرب الماء على أربع جرعات، أو بوضع الخاتم في اليد اليمنى، أو بركوب الحمار..؟

هل يصدق خيال المؤمن أن الله يعلم الناس كيف يأكلون ويشربون ويمارسون علاقاتهم الجنسية، ويلبسون وينامون، ويحبون، ويمشون، ويتكلمون..؟

وإذا كان الله يفعّل كل ذلك فما قيمة الإنسان.. ما قيمة ذكائه وعبقريته حينئذٍ..؟

إن الحشرات حينئذٍ، لأفضل وأعلم وأعظم ممارسة لنفسها، وأكثر حرية من هذا الإنسان.

إن هذا التدليل أو التفضيل المزعوم للبشر لأشنع من قتلهم. والتعليم بهذا الأسلوب لو خضعوا له، يجردهم من كل موهبة وذكاء.. ولن يوجد حينئذٍ ما يسلب البشر حريتهم مثل النبوات والأنبياء. إننا لن نرضى لأطفالنا الصغار بوصاية كهذه الوصاية، ولا بإذلال لحريتهم مثل هذا الإذلال.. وهل جاء الأنبياء لإذلال الانسان وسلبه حرياته..؟

إن الرسول كان يتصرف في مواقفه وشؤونه، تصرفاً فيه كل معاناة الإنسان وآلامه، وكل توريطه وترويعه.. كان يواجه ويعالج ما يعرض له من مواقف، بعقله وتجاربه ومشاعره معالجة إنسان ضعيف قوي، آمل خائف مفكر، فرضت عليه التبعات والالتزامات..

إنه لم يعرف أنه كان يتبلد، أو يتخلى، أو يهرب من طريق المشكلات، منتظراً أن تعالجها السماء ليكون أقل شأناً واستقلالاً، ومكابدة وتفكيراً، من الحكام والزعماء، والقادة والقضاة، بل والأفراد الذين يواجهون المشاكل بكفاياتهم الخاصة، وبذكائهم وقواهم، فيزيدهم التمرس بالأحداث علماً، وقوة أخلاق، وذكاء.

والذين لا يواجهون المواقف المختلفة بأنفسهم لا يمكن أن تتكون لهم صفات قوية، ولا فضائل نفسية أو فكرية. فالالتقاء بالأحداث هو الذي يصنع جميع مزايانا. والذين لا يفكرون، ولا يتألمون، ولا يخافون، كيف يمكن أن يكونوا..؟

إن الإنسان بكل فضائله، بكل علمه وذكائه وقوته، بكل مستوياته ليس إلا نتيجة معركة. إن الإنسان معركة يمارسها بعقله وأحزانه، وبانطراحه على الأرض وحيداً مخذولاً، لا بجبروت السماء أو صداقة السماء.

إن السوق التي تفسد أخلاقنا هي التي تقوّم أخلاقنا.

ولو أننا لا نتعامل مع السوق، ولا مع المجتمع، ولا مع الطبيعة؛ لما أمكن أن تكون لنا فضائل، ولما أمكن كذلك أن تكون لنا رذائل.

لقد عاتب القرآن الرسول في كثير مما قال وفعل ورأى، ورده عن الكثير من اهتمامه

ورغباته، ونهاه عن الكثير من مشاعره وآرائه. وكذلك لقد استشار الرسول الآخرين، وأخذ بمشورتهم، وأمرهم بأشياء رأى فيها رأياً ثم رجع عن رأيه.

وقد قال هؤلاء المحدثون، وقال معهم الفقهاء: إنه كان يجتهد أي: يقول ويعمل بالرأي والضرورة، ثم اختلفوا هل هو معصوم في اجتهاده أم أنه قد يخطئ. والرأي الذي اختاروه ودللوا عليه بوقائع معينة معروفة، أنه غير معصوم.

ومما روى الرواة أنه كان ينظر إلى ما عند أهل الأديان والأمم الأخرى، فيأخذ عنها بعض ذلك. وفي الأحاديث الصحيحة أنه كان يعجبه أن يوافق أهل الكتاب أي اليهود والنصارى، ويعمل كما يعملون، إلا إذا نهي عن ذلك نهياً. وقد رآهم يفرقون شعورهم ويصففونها، فصنع كما يصنعون.

وفي حديث صحيح أنه قال لقد هممت أن أنهى عن الاتصال الجنسي بالمرأة وهي مرضع، فرأيت فارس يفعلون هذا ولا يضير أولادهم شيئاً. فلم ينه.

وهذا كله يدل على أنه كان يتصرف كإنسان، لا كوعاء لأوامر السماء. ويعرض هذا الموضوع بالأسلوب التالي:

الرسول إما أن يكون له عقل يفكر، وعواطف تتأثر، وحرية تستجيب، أم ليس له شيء من ذلك؛ وإنما هو وعاء يسقط فيه الإله، وتسقط فيه الأوامر والنواهي والتشريع، ويتحرك بلا رفض أو قبول من ذاته.

القول الثاني لا يمكن تصديقه، حتى ولا المؤمن يمكن أن يصدقه.. أما القول بأن له كل هذا، فهذه القوى فيه لا يصح أن تكون معطلة، وإلا لما كان لوجودها فيه معنى، ولكان أقل من الناس العاديين الذين يستجيبون لعقولهم، وعواطفهم، وحرياتهم، وينتفعون بها. وإذا كانت له هذي القوى وكانت غير معطلة، فهل هي تستقل بتوجيه تصرفاته، أم أن معها الوحي..؟

القول الأول يقضي بأنها تصرفات إنسانية عادية غير ملزمة. والقول الثاني يوجد احتمالاً ثانياً، هو أن تتعارض مع الوحي. وعند التعارض بين عقله وعواطفه، وبين الوحي؛ فلن يستطيع الاستجابة لأحد المتعارضين ورفض الآخر. فلا بد إذن من القول باستقلالها.

وفي المسألة قول آخر يفترض أنه لا توحى إليه تصرفاته، ولكنه يلهم الصواب فيها إلهاماً.

غير أن ما ذكر من عتاب القرآن له، ومن رجوعه عن كثير مما قال ورأى، ثم ظهور الصواب في الجانب الآخر، وأخذه بالشورى، ثم ما سيأتي من ترك أقواله وأفعاله بلا تدوين.. كل هذا يبعد احتمال صدق هذا الافتراض. والقول بالإلهام المعصوم قول لبعض الطوائف المسيحية في كتابة الأناجيل، وكتابة سيرة السيد المسيح، وكتابة أقواله. فإنهم زعموا أن الذين كتبوا الأناجيل

قد اعتمدوا على إلهام الله لهم الصواب، وعصمته لهم من الخطأ، ولهذا فقد نقلوا الحقيقة كما أرادها الله بلا أي خطأ. والإلهام كمبدأ، هل هو حتماً مرفوض..؟

إذا كان من الممكن أن يوحي الله إلى إنسان وحياً مسموعاً معصوماً، فلماذا لا يكون ممكناً أن يلهم الله ذلك الإنسان، أو أي إنسان آخر إلهاماً ما معصوماً غير مسموع..؟

وإذا لم يكن ممكناً الإيمان بالإلهام المعصوم، فكيف يمكن الإيمان بالوحي المعصوم..؟

إذا كان ممكناً أن يخاطبنا الله بواسطة ملاك، فكيف لا يكون ممكناً أن يخاطبنا بواسطة ذواتنا..؟

كيف نسمع الله بواسطة الآخرين، ولا نسمعه بواسطة أنفسنا...؟

وهنا سؤالان قويان، ويظهر أنهما قد خفيا على الرواة وغير الرواة..

الأول: لماذا لم ينزل الله بالحديث قرآناً، إذا كان وحياً من عند الله يريد به الإلزام..؟

إن إنزاله كذلك، يزيل إشكالات كثيرة، ويضبطه، ويعطيه الاحترام المطلوب، والقداسة، ويبعد عنه كل احتمال بالانتحال، ويحوله إلى تلاوة وصلاة في ألسنة وقلوب المؤمنين.

يقولون هنا إن الحديث منزل المعاني دون الألفاظ، وهذا له وجهان من المعاني:

أحدهما أن ألفاظه نزلت على الرسول فغيرها بألفاظ أخرى من عنده..

وثانيهما أن ألفاظه لم تنزل، وإنما فهم معانيها فهماً بطريق الإلهام..

أما الأول فكيف يمكن التصديق أن وحياً قد نزل على رسول الله بكلمات الله يجرؤ على تغييرها، أو يؤمر بتغييرها، ولماذا، وما الفائدة.. هل ستكون كلمات الرسول أبلغ من كلمات الله..؟

وأما القول بأنه ألهم معاني الحديث بدون إنزالها، فهذا هو القول بالإلهام الآنف الذكر.

وأما السؤال الثاني فهو: لماذا لم يدون الحديث في زمن الرسول، ولا في زمن خلفائه، بل ولماذا نهوا عن تدوينه، وقد أجمعوا على أنهم قد نهوا عن ذلك.. وهل يتفق هذا والزعم أنه من عند الله..؟

ليل يعيش كل النهار

وبعد فلقد بدأ المحدثون بدعتهم كما يبدأ الليل من أطراف الأفق خطاً ضيقاً متخاذلاً، فلم يزل ينمو ويمتد وينتشر، حتى أمسى ليلاً كبيراً، ليلاً لا يعيش الليل وحده، بل ليلاً يعيش النهار كما يعيش الليل، ليلاً يعيش فيه كل النهار كما يعيش فيه كل الليل.

إني أكاد أسمع صلصلة الأحاديث وعنعناتها، كأنها سلاسل من الحديد تربطنا بالأموات، وتشدنا إلى التاريخ؛ لئلا ننطلق أحراراً كما نستطيع.. إني أكاد أسمع صلصلاتها كأنها القيود في أقدام التاريخ، في حماسه، في ذكائه.. أكاد أسمعها كأنها الهجاء للحياة، للحضارة، للقوة، للإنسان، كأنها الصلاة للتعصب، للحقد، للعداوات. وليس الذين يفصمون هذه السلسلة بأقل نضالاً في سبيل الإنسانية، من أولئك الذين يهدمون أضخم سجون التاريخ.

إنه كلما عجزت العقول عن المعرفة، استعاضت عنها بالروايات والأسانيد.. إن الأساطير المروية في عقول الرواة والمؤمنين بها، تشبه النقوش والكتابات فوق جدران المقابر.

إن في الصغار دائماً معاني العبيد، فهم لهذا دائماً يبحثون عن الأرباب، فإذا لم يجدوا رباً يمن عليهم بالمنّ والسلوى، تذكرهم به نعمته، عبدوا رباً يضربهم بالجوع والمرض وسائر الآفات، تذكرهم به قوته. ثم لا يغني هذا ولا هذا حاجات العبودية فيهم، فيصرون على أن يتخذوا من القبور آلهة أخرى.

والحديث ضرب بشع من القبورية.. ضرب من عبادة القبور. إن الرواة قوم يدعون إلى عبادة القبور.. إنهم يؤكدون هذه العبادة.. إنهم دعاة أوثان مهما تحدثوا عن التوحيد أو فاخروا بأنهم لا يعبدون إلا إلهاً واحداً.

إن الحديث موت يدعو إلى موت، ويتحدث إلى أموات.. إن المحدثين يروون عمن قال: «من كان منكم مقتدياً فليقتد بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة».

إن هؤلاء المحدثين لم يفطنوا إلى أن الأموات كانوا أيضاً أحياء. كانوا عرضة للفتنة التي خافوها على الأحياء. ولم يفطنوا إلى أن فتنتهم قد أصبحت بعد موتهم حديثاً وشريعة وديناً.. بل إن أولئك الموتى كانوا في حياتهم عرضة للجهل والعجز، وأن جهلهم وعجزهم قد فرضا بعد موتهم على المؤمنين، ليؤمنوا بهما ويعلموهما..

إن الحديث على النحو الذي دعا إليه المحدثون نوع من الوثنية، نوع من تأليه الإنسان والموت. وإن المؤمنين بقدسية الرواية قوم يعبدون أصناماً، مهما فاخروا الدنيا بإيمانهم وتوحيدهم، ورفضهم للشرك.

ليس إيماناً، بل تواتر

إن هنا حقيقة كبيرة لم يعرفها الرواة.. ذلك أن ثقتنا بالرواة لا سند لها غير ثقتنا بهم، لا سند لها غير إرادتنا أن نثق.

لقد وجدنا الرواة يزكي بعضهم بعضاً.. إنهم فريقان: شهود ومشهود لهم. لقد قبلنا

المشهود له، واعتقدناه ثقة بشهادة الشاهد. ولكن الشاهد بأي شهادة قبلنا شهادته، وبأي شيء عرفنا أنه ثقة..؟

إذا شهد محمد لمحمود، لم يكن لهذه الشهادة وزن إلا إذا كان معروفاً أن محمداً هذا عدل. ولا يقبل أن يشهد محمد لمحمود ليشهد محمود لمحمد، لأن هذا هو شهادة المرء لنفسه..

إن المحدثين إذن طائفة من الناس نريد أن نعرف أعدول هم، فكيف تأتي هذه المعرفة..؟

إذا شهدوا كلهم لكلهم ردت الشهادة، لأنها من شهادة الشيء لنفسه. وإذا شهدوا كلهم أو بعضهم لبعضهم، أو شهد بعضهم لكلهم، ردت الشهادة أيضاً لأن الشاهد نفسه لم يشهد له أحد، ولم يزل مجهولاً. فلا بد إذن أن تكون الشهادة لهم من الخارج، كما يجب ذلك في محاكمة الفرد إذا طلبت له أو ضده الشهادة. فما هي هذه الشهادة الآتية من الخارج، الآتية من الغيب، التي عرفنا بها عدالة الرواة الذين زكوا الرواة الآخرين، أو التي قبلنا بها المحدثين شاهدين ومشهوداً لهم، وصيرنا منهم حكاماً لا يرد حكمهم في قضية الدين والعقل الإنساني كله..؟

ما هي الشهادة التي جعلتنا نقبل الرواة والمحدثين حكاماً لا يرد حكمهم، حينما يحدثوننا عن كل ما كان وسوف يكون، عن الأزل، عن الأبد، عن الشيء قبل أن يكون، عن الشيء بعد أن يصبح غير الشيء.. حينما يحدثوننا عن الله، عن شكله، عن هيئته، عن ضميره، عن صفاته النفسية والفكرية..؟

إن في طبيعة الجماهير رغبة وحاجة إلى أن تثق وتصدق. فالجماعات لا تستطيع أن تحيا أو تسعد بدون الثقة والتصديق. إن الثقة والتصديق خبز للمجتمعات.. إنهما يمنحانها الاستقرار والتوافق النفسي مع الظروف والبيئة، كما يمنحانها القدرة على مواجهة المستقبل المخيف المجهول.. الثقة والتصديق في حساب المجتمعات كالأرض لا بد منها، وإلا فمحتوم أن نزول.

إنه عن هذه الحاجة والرغبة انبثقت كل هذه البلاهات الكبرى التي جعلت من الإنسان مصدقاً كاذباً.. جعلته مصدقاً مع أنه غير صادق، وجعلته يثق بالآخرين مع أنه لا يفعل هو ما يوثق به، بل مع أنه لا يثق هو بنفسه ولا يصدقها. فتوجد إذن تزكية اسمها تزكية السوق، أو تزكية الحاجة والضرورة، أو تزكية العجز عن النقد والخوف من النقد، وهي أرخص وأشيع تزكية مطروحة في الأسواق.

إن في الجماهير شهوة طاغية إلى الإسراف إذا مدحوا أو ذموا، إذا آمنوا أو كفروا.. إن الاعتدال عدوهم، إنه ليس في طبعهم، إنه ليفسد عليهم حماسهم وجنونهم، وبذاءاتهم وتوتراتهم.. إن المبالغة في تصرف الجماهير نوع من الإيمان والتدين، بل نوع من العمليات الجنسية.. من هذا، تخلقت الآلهة والزعماء القتلة الأحباء، كما تخلقت العقائد والانفجارات.

إن التهاويل والمبالغات هما صورتان من الفنون الشعبية التي تعبر بها الجماعات عن أزماتها ومخاوفها وحرمانها، وتخمد بها حماس أزماتها ومخاوفها وحرمانها. وهي حينما تذم أو تمدح في مبالغة وتهويل، لا تقصد ذم ذلك الشيء أو امتداحه. إنها تقصد أن تعبر عن نفسها. عن أمانيها، عن جراحها عن آهاتها بصراخ. والآلهة والشياطين، والجنة والنار في لغة الجماعات، هي التعبير السوقي عن الغيظ والاحتلام. إن التخويف بالشيطان قوة خلقت أكبر الزعماء والدعاة.

إن أقوى الدعاة والزعماء تأثيراً في السوق هم المرجفون المهوّلون. أما المعتدلون فلا بد أن يسقطوا في حماس الجماهير الهائجة المتألمة. وقد حول المسيطرون الخبثاء هذه الطبيعة في البشر إلى جنون عام، وأصاب ذلك أغلب زعماء العالم بأبشع العاهات الأخلاقية والعقلية والنفسية، وصار الكذب والنفاق، والتهريج والفسوق الفكري، أمراضاً مستعصية في حياة كل زعيم وحاكم وداعية. إن حماس الجماهير وصراخها ليس إيماناً بل توتر. إن الارجاف رقي وعصي سحرية طالما جلد بها الطغاة والمعلمون الدجالون أعصاب التاريخ وظهره، واستغووا بها ذكاءه وأخلاقه، وساقوه إلى أكبر الحماقات تحت أبشع الطبول دوياً.

إن هذا الإسراف في الناحيتين ـ حين الذم وحين المدح ـ ناشئ عن تلك الحاجة وتلك الرغبة في التصديق والثقة. أما في التزكية فكما ذكر، وأما في التجريح فذلك لأنهم إذا بالغوا في ذم شيء فقد بالغوا في الإيمان أو في محاولة الإيمان بما يضاد ذلك الشيء، فالمبالغة في ذم هذا مبالغة في امتداح ذاك. إن الذم لا يعني دائماً إلا الامتداح. لا يعني إلا امتداح النقيض. والنفي المطلق أو الكفر المطلق أمر سلبي لا تطلبه النفوس، ولا تتوجه إليه لأنه لا شيء؛ وإنما تطلبه إذا كان فيه إثبات لأمر آخر أو إيمان بحقيقة أخرى تريدها النفوس. فنفي الفضيلة مثلاً عن إنسان ما لن يكون غرضاً من أغراضنا ولا مرضياً لنا، إلا إذا كان يوصل إلى إثبات فضيلة، أو إثبات شيء آخر نهواه ويفيدنا إثباته، ولو إفادة شعورية أو فكرية. فالغرض إذن من الكفر ومن الذم، المدح والإيمان. فإذا ذممنا قوماً أو مذهباً فنحن في الحقيقة نريد امتداح قوم آخرين أو مذهب آخر.. إننا نمدح هذا بذم هذا.

إن مدح الشيء بذم نقيضه قد يكون أقوى وأشيع من المدح المباشر. وكل البشر يمارسون هذا النوع من المدح، يمدحون به طغاتهم، ومذاهبهم، وبلادهم، وتاريخهم، وآلهتهم، وأنفسهم حينما يذهبون دون وقار يذمون النقيض.. ويبدو كل البشر صغاراً، صغاراً جداً حينما يفعلون جميعاً ذلك.

إن الناس إذن مجبولون على الإسراف في الثناء وفي التصديق؛ استجابة لرغبتهم في أن

يثوا، ولحاجتهم في أن يصدقوا. وانفعالات السوق لا تقبل الاعتدال، والدعوة إلى اعتدال المشاعر دعوة إلى اعتقالها. وهذه الطبيعة في السوق هي التي منحت المحدثين التزكية، وجعلت منهم شهوداً فوق الاتهام على عقائد الناس وعقولهم. ولكن ما قيمة شهادة السوق..؟

إن عواطف الجماهير كأفكار الجماهير هي أكذب الحاكمين وأظلمهم. إن الجماهير هي دائماً الأوعية الهائلة لأضخم الخرافات والأكاذيب العالمية. والماكرون الدعاة الذين يصنعون الأوهام الكبرى، إنما يصنعونها للجماهير. ولولا استعدادها للغواية والإيمان بلا حدود؛ لما وجد في التاريخ المضللون الكبار، والدعاة الزائفون، والزعماء الذين تحولوا إلى اتهام مذل لكرامة الإنسان وذكائه وكبريائه.

لا تخاف لأنها لا تعرف

إن الحكم العام لم يكن أميناً أو ذكياً أو محترماً قط. إنه يؤمن لمن يكذبه ويخدعه وينافقه، لا لمن يعلمه ويصدقه ويستنهض هممه.. يؤمن بالذين يعدونه بأن يضعوا الشمس في كمه، لا بالذين يعلمونه الصعود إليها.. يؤمن بالذين يلعقون جراحه، لا بالذين يعالجون جراحه.

إن التغييرات الكبرى التي تحدث في المجتمعات فتنقلها إلى الأفضل، لا تحدث بتفكير الجماهير ولا برغبتها أو بشجاعتها؛ بل بتدبير أناس أفذاذ يفرضونها فرضاً. والجماهير تسير وراء هؤلاء الأفذاذ أو تخذلهم، وهي في الحالتين تابعة مخدوعة. والذي يسير وراء الرائد الراشد، كالذي يسير وراء الخابط الضال، كلاهما لا يدري ولا يمكن أن يدري. والرائد لا يقصد إسعاد هذه الجماهير، بل التعبير عن نفسه.

واتباع الجماهير لأحد النوعين من القادة والأدلاء خاضع لأسباب أخرى غير الفهم والفضيلة والأصالة. وتوجد دائماً انطباعات وظروف تجعلهم يختارون هذا أو هذا. إن الجماهير دائماً فراغ ينتظر من يملؤه.. إنهم دائماً أتباع يؤمنون بالنبي والدجال، ويهتفون للبطل والمهرج.. إنهم في الحقيقة لا يؤمنون بهذا ولا بهذا، ولا يهتفون لهذا أو لهذا؛ إنهم يؤمنون ويهتفون لأنهم لا بد أن يفعلوا.. لأنهم لا بد أن يعبروا.. لأنهم لا بد أن يفتضحوا، ويساقوا، ويخافوا، ويحشدوا.

إنه إذا وجدت قيادتان، جاهلة ورشيدة، فسوف تجد كل منهما لها أتباعاً يطيعونها على سبيل الانخداع والتبعية والخوف؛ لا على سبيل الوعي والاحترام للحرية.

إن القائد الراشد محتاج إلى أن يكذب على الجماهير ويخدعها، لكي تفهمه وتتبعه وتناصره.. إنه محتاج إلى أن يدعو إلى الحق بغير الحق، وأن يسير في الطريق الصحيح بأسلوب غير صحيح، وإنها لتتبعه وتؤمن به، لما يقول من الكذب؛ لا لما يقول من الصدق. فالجماهير

ضالة حتى في هداها.. ضالة في هداها وضلالها. إن أفكارها وعواطفها لا تستطيع أن تكون عاقلة ولا معتدلة، حتى في أحسن ظروف تقدمها ووعيها. إنها تؤمن بالرجال الصارخين المتوترين، لا بالأفكار ولا بالحقائق. والناس لا يتبعون المبادئ أو النظم أو العقائد؛ وإنما يتبعون رجالاً ينادون بالمبادئ، والنظم، والعقائد، أو يخضعون لهؤلاء الرجال.

إن التنافس بين الزعماء والحكام والمتفوقين، أو رغبتهم في المجد والقوة والانتصار، أو خوفهم، أو مزاياهم الذاتية.. إن ذلك هو الذي يغير المجتمعات، لا فضيلة تلك المجتمعات. ولو أن القادرين والأفذاذ من المفكرين والمصلحين والعلماء استطاعوا أن يعقدوا بينهم اتفاقاً، وأن يعملوا بهذا الاتفاق، بأن يتخلوا عن الجماهير ويتركوها لذكائها فلا يعطوها شيئاً ـ لا يعلموها ولا يقودوها ـ أو بأن يتآمروا على تضليلها وإضعافها؛ لكان من المخيف جداً أن نتصور كيف يمكن أن يكون الوضع. ولكن أليست الحياة تطور نفسها بقوانينها التابعية، لا بإرادة الزعماء ولا بإرادة الجماهير.. أليست المجتمعات تخطو ضد رغبتها وعلمها..؟

إن القائد والمعلم المثالي لدى الرأي العام، هو من لا يرتفع تفكيره وأخلاقه إلى المستوى الصعب. فالرأي العام لا يريد من يرهقه بالذكاء، أو بالاستقامة، أو بالنضال ضد ضعفه وهوانه. إنه جبان عاجز يخاف الحقيقة والمعرفة والمعركة.. إنه يريد دائماً أن يبحث عن مثله العليا في غباء وهوان وضعف.. إنه لا يريد أن يسمو إليها على مصاعد من التفكير والتعب، والتكاليف المرهقة.

إن الرأي العام لم يؤمن بآلهته وزعمائه بجنون، إلا لأنهم يعدونه بأن يأخذ بإسراف، دون أن يطالبوه بأن يعطي عطاء مماثلاً، أو يفهموه الحقيقة الصعبة، وأكثر الآلهة والزعماء حظوة لدى الجماهير، هم أقدرهم على اتقان الخديعة والكذب، وعلى إزجاء الوعود التي لا تصدق، والتي لا تكذب أيضاً، لأنها لا شيء. وقد فطن الطامحون والمغامرون إلى هذه الطبيعة، فراحوا يطلقون الوعود التي لا تستطيع القوانين الطبيعية تحقيقها، لأن تحقيقها شيء فوق الطبيعة، وفوق قوانينها.

إن الحكم العام هو الذي قتل سقراط، وصلب أو حاول أن يصلب المسيح. وإذا آمن المجتمع بسقراط أو المسيح، فليس لأنه فاضل عارف، بل لأنه جاهل رديء.

وعفواً، فلقد أكون هنا مخالفاً لمذهبي، فليست الجماهير هي التي صلبت المفكرين، والمصلحين، والرواد والأنبياء.. ليست هي التي صلبت المسيح، وسقت سقراط السم؛ وإنما الذين فعلوا هم ذلك الذين يحركون الجماهير ويحكمونها، ويجعلون منها وقوداً لكل ما يصنعون من آلام. إن الجماهير دائماً تابعة، حتى في قتل الأنبياء والملحدين، حتى في الإيمان

بالحقيقة، والإيمان بالخرافة، حتى في قتل سقراط والمسيح. إن الجماهير لن تقتل سقراط ولا المسيح لأنها لن تعرفهما أو تخاف منهما، أو تشعر بتحديهما لغبائها وضعفها. إن الجماهير لا تقتل المتفوقين لأن قتلهم أسلوب من أساليب القوة وإدراك خطر التفوق.

يفترق اتجاه المفكرين واتجاه الجماهير، فالجماهير تحكمها الرغبة وحدها.. تريد وتريد أن تحقق ما تريد بلا أية شروط، لا يقبلون من يفكرون أو يشترطون، أو يعلقون، أو يشكون، أو يتحدون، أو يعتدلون في وعدهم أو وعيدهم.. إنهم إرادة مطلقة بلا أي قيد من قيود الفكر.

أما المفكرون فهم فوق هذا المستوى، فوقه بالقدرة والمزاج، لا بالفضيلة.

إنهم متعبون، ومقلقون، ومثيرون للحنق، ومفسدون للرضا عن النفس.. إنهم ينزعون إلى التغيير والتشكيك في قيمة ما هو موجود، وإلى الموازنة بين القدرة والإرادة، وبين الواقع والإرادة، والواقع والقدرة، وإلى الربط بين الفكر والفعل.. هم يدركون أنه لا يوجد ما هو مطلق؛ كل الأشياء مقيدة ومشروطة. إنهم بهذا يصدمون رغبات الجماهير، وآلهتها، وأفهامها، وتقاليدها، وعقائدها، ويعذبونها بأفكارهم غير المفهومة، وغير السارة بما فيها من اشتراط، وتضييق، واتزان. لهذا يصبحون غير سارين، ولا صالحين في حكم الجماهير. فالصدق في فهم الواقع، وكذا العمق في فهم الواقع، عدوان للجماهير.. إنها تكرههما بعمق وحرارة. ولقد جاء خطب الإنسانية عظيماً، فإن هذه الشيمة الضعيفة في الإنسان قد صنعت له أكذب وأفسد الأرباب والقادة، والدعاة الأشرار الذين أخرجوا تاريخه هذا الإخراج الشرير الفاسق الأحمق.

إن الحضارة كلها ليست إلا ناتج الصراع بين أخلاق الجماهير المطيعة المستسلمة، وبين رفض المفكرين والمتفوقين وتخطيهم للجماهير. أو على الأصح ليست إلا ناتج الصراع بين قادة وقادة، وأقوياء وأقوياء، ومعلمين ومعلمين، وبين محاريب ومخربي محاريب، وبين رواة وعصاة للرواة.

إن الجماهير لا تقاوم إلا بقيادة قوم من الأقوياء الماكرين، فهم دائماً أتباع يعملون لغيرهم. وكثير من هؤلاء القادة ـ وهم القادة الروحيون الخالدون ـ قد شدوا الإنسان وقواه الروحية والفكرية إلى ماضٍ كئيب عاجز، وربطوه بأقوى التعاليم الهمجية، وبالوعود المتهوسة التي حولت التاريخ إلى جنون عالمي، وبالتهاويل والأشباح الكئيبة المشوهة.

ماذا يمكن أن نتصور البشر، لو تصورناهم بلا قادة، ولا معلمين من هذا الطراز..؟

*

محكومون بشهوات الموتى

إن الضرورة هي أصدق هاد للإنسان.. إنها هي التي تبدع العقل والقدرة وأخلاقهما.

والعقل والقدرة هما الرسولان الذكيان المبدعان في هذه الحياة. وكل رسالة أولئك القادة موجهة إلى مخادعة هذين الرسولين وتضليلهما، وتبديد قواهما أو صرفها في أغراض ضارة. والفرق بين الشعوب المتقدمة الواعية، والمتأخرة الضالة يساوي الفرق بينها في الاستجابة للضرورة وتضليلها. إن تضليل الضرورة يجمع كل ضروب الضلال. وإن كل هدي في هذا الوجود ليس إلا معرفة لوجوه الضرورة، واستجابة لمطالبها. وافتراض البشر بلا معلمين ولا زعماء من هذا النوع يعني افتراضهم مسوقين بالضرورة وحدها وبذكائها، وهذا يعني تقدمهم بكل طاقاتهم العقلية والعضلية بلا مضللين.

إن الزعامات البشرية على النحو الذي حدث على طول امتداد التاريخ، تلك الزعامات التي قسمت الإنسان وقسمت أفكاره وعقائده وأحقاده؛ لهي أضخم قوة قد ضللت التاريخ وأذلته، وسرقته وحقرته.

إنه لا يجب تحرير العقل فقط من الأرباب، بل وتحرير الضرورة والعاطفة. وكرم الإنسان في توزيع النيات الطيبة هو خالق كل هؤلاء الأرباب. لقد كانت أرباب الإنسان في بدء تاريخه، تفوق في تعدادها أفراده، ثم أخذها النقصان والموت والأفول تباعاً. ولعله يأتي زمان لا يبقى منها سوى الذكرى. وحينئذٍ يعلن في الدنيا كلها أن عهد الأرباب قد مات، وأن انطلاق الحياة وانطلاق الإنسان، لن يقف في طريقه الآلهة الجاهلون الفاسقون.

كم هو مهين أن تكون البشرية كلها مسوقة بشهوات وأخطاء زعمائها، زعمائها من الأحياء ومن الموتى أيضاً.. كم هو مهين أن يحكم الموتى الأحياء، أن تحكمهم الروايات والأساطير التي يروونها، ويتناقلونها بكبرياء عن سكان القبور.

إن الإنسان يحمل في نفسه عبوديته وحريته. إن العبودية والحرية لا يأتيان من الخارج؛ فالعبودية هي نبع الضعف أو علامة العجز عن التكافؤ مع الطبيعة القوية المضادة لنا، فيوم يضعف الإنسان يقوى خصمه الذي هو الطبيعة، وحينئذٍ يحاول أن يجد حماية لنفسه، فيصنع الأرباب والأساطير لئلا يكون مكشوفاً أمام خصومه أو أمام نفسه..

ليس عجيباً منك حين عجزك وخوفك أن تخلق شيئاً كي تطلب منه أن يخلقك ويحميك؛ فإن العجز كما يعني فقدان التكافؤ بين قوتك وقوة الطبيعة، فإنه يعني أيضاً فقدان التكافؤ بين منطقك ومنطق الطبيعة.

أما الحرية فإنها انعكاس القوة، فالأقوياء يتكافؤون مع ما حولهم، فيقابلونه بلا خوف ولا أوهام؛ فتكون المعركة بينهم وبينه معركة مفهومة مفسرة، ليس فيها أسرار ولا أرباب؛ إذ أنهم

يكون استقلال الذات. والذات المستقلة هي المتميزة بحقائقها التي لا تحتاج إلى أن تجعلها تابعة لغيرها أو متبوعة؛ كما لا تحتاج إلى أوهام وأساطير لتغطي بها نفسها ومواقفها.

هو وحده الكاذب

قد يرى قوم أننا إذا لم نثق برواة الحديث، فإنه لا شيء يجعلنا نثق برواة التاريخ والأدب، وغيرهم من رواة المعارف الإنسانية..

أو لسنا محتاجين إلى الثقة بشيء، برواة، بروايات.. هل يمكن أن نرفض كل الروايات وكل الرواة.. أليس هذا نوعاً من البداوة الجاهلة..؟

إن التاريخ وغيره مما يروى نوعان: نوع لا سبيل إلى العلم به إلا التحديث الشخصي، أي بأن يحدث إنسان أو أكثر إنساناً آخر أو أكثر من إنسان. ونوع يعرف بغير ذلك من وسائل المعرفة، ويمكن اختبار صدقه، واختبار كذبه، وكشف الحقيقة فيه، بتلك الوسائل.

أما النوع الأول فمن الغباء العظيم الاطمئنان إليه. وقد ثبت أن هذا النوع من أكذب ما عرف الناس ومن أبطل ما آمنوا به.. أليست جميع غباوات البشر، ومحاولاتهم، وأوثانهم، أحاديث تروى بهذا الأسلوب..؟

أليس من الإفراط في الغباوة أن نفترض الناس دائماً صادقين.. ما الذي يجعلهم صادقين..؟

إنهم مسيرون دائماً بأغراض متعارضة ملحة، لا ترحم ولا تعقل.. إن هذه الأغراض لا تتحقق في أكثر الأحيان بالصدق، بل بالكذب أو بما هو شر من الكذب.

إنه كلما عظمت مكانة الإنسان في المجتمع اشتدت حاجته إلى الكذب؛ لأن حاجات الآخرين إليه وعلاقاتهم به، بل وحاجاته هو إليهم تكون حينئذٍ أقوى وأشد تشابكاً. إن هذا يجعل الكذب ضرورة محتومة، لأنه يجد الصدق يصدمه ويخذله كلما أراد أن يكون صادقاً. إن الصدق لا يتسع للإرادة. إن أحوج الناس إلى الكذب والنفاق، هم أعظمهم وأفضلهم، وأفعلهم للخير.

ولعل الكذب من أفضل الابتكارات الإنسانية. إنه من خصائص الإنسان ومزاياه البارعة التي فرضتها عليه محاولاته التكافؤ والتعامل مع الظروف، ومع الطبيعة القاسية الجاهلة. إنه لا بد أن يكون البشر أغبى، وأقل وعياً وتحضراً، لو لم يخترعوا الكذب. إن الطبيعة والكائنات الأخرى التي هي أقل منهم تطوراً، لا تستطيع أن تكذب بالأسلوب الذي يكذب به البشر..

الإنسان وحده هو الذي يكذب، لأنه هو الأذكى والأكثر تطوراً..

إن الكذب عمل من أعمال المقاومة السلبية لما في الطبيعة من تناقض وعجز.. إن الكذب

احتجاج يعلنه الإنسان ضد نظامه، ووجوده، وأربابه التي أثقلته بالتعاليم التي لا يمكن التزامها، لأنها ضده وضد الطبيعة.. ألست حينما تكذب إنما تريد أن تخفي ذنباً من ذنوبك، أو من ذنوب الطبيعة، أو من ذنوب من حولك، أو من ذنوب أربابك ومذاهبك.. وإلا فلماذا تكذب..؟

إنك حينما تكذب إنما تريد أن تعتذر عن نفسك وإلى نفسك، وإلى من حولك وعن من حولك..

إن من يكذب كأنما يعلن تكذيبه للآلهة والمعلمين الذين قالوا له إنك تستطيع أن تكون فاضلاً بدون أن تكون الطبيعة فاضلة، وأن تحافظ على التعاليم التي هي ضدك، والتي تخرقها قوانين الكون وشهوات العالم، بل وشهوات الأرباب وضروراتها..

لماذا نكذب.. هل نكذب وظروف الكذب والحاجة إليه غير موجودة.. وإذا كانت ظروف الكذب والحاجة إليه موجودة فهل نصدق..؟

وهل الصدق في غير ظروفه فضيلة.. هل يكون فاضلاً من يصدق والظروف والضرورة تقضي بأن يكذب..؟

ومن الذي يجعل الكذب ضرورة.. هل المذنب هو الذي يكذب، أم هو الذي يصنع ظروف الكذب ويجعله حاجة..؟

ما هو الصدق وما الكذب في فلسفة الدوافع الإنسانية..؟

إن الصدق ليس محاولة للتعبير عن الواقع. وإن الكذب ليس كذلك محاولة لإخفاء هذا الواقع. إن الذين يصدقون لا يصدقون لأنهم يحترمون الصدق أو يحتقرون الكذب، وإن الذين يكذبون لا يكذبون لأنهم يحترمون الكذب أو يحتقرون الصدق. إن الصدق والكذب محاولتان للتعبير عن الذات، بالتعبير عن اتجاه الإرادة والمصلحة.. إننا لا نحترم الصدق والكذب، ولا نحتقرهما؛ ولكن نتعامل بهما.

إنه ليس الذي يحرك الإنسان هو حبه للواقع كيفما كان ذلك الواقع. وإنما تحركه علاقته بذلك الواقع أو فائدته منه. فإذا تحدث وصدق فإنه لم يفعل إرادة للحديث أو للصدق؛ ولكن لأن له مصلحة أو هوى نفسياً في ذلك.. وهكذا حينما يتحدث فيكذب؛ لم يصنع لأنه يحب الحديث أو الكذب حباً إنسانياً أو صوفياً لا منفعة له فيه، أو لأنه يعادي الصدق عداوة خالصة لوجه الشيطان ـ فالشيطان نفسه لا يعادي ولا يحب إلا بثمن ـ وإنما يفعل لأن له غرضاً ذاتياً يريد بلوغه.

ولو فقد الإنسان الشعور الذاتي لما وجد ما يحفزه على الصدق أو الكذب، أو على أن يقول

أو يفعل شيئاً. فالفضيلة والرذيلة، والله والشيطان، وسائل في سلوك الإنسان، نمارسها بلا احترام أو رحمة، وبلا قداسة فينا أو فيها. إن الله لا يساوي ذاته أو عبقريته أو جماله؛ وإنما يساوي ممارستنا النفسية والفكرية له، أو حاجتنا إلى هذه الممارسة. وهذا هو ما يساويه أيضاً الشيطان، وما يساويه الصدق والكذب..

إن الصدق بلا مصلحة لا يساوي عند أعظم قديس أكثر مما يساوي الكذب، أي الكذب الذي ليس فيه مصلحة.

إن الناس لا يصدقون ولا يكذبون حين يصدقون ويكذبون؛ ولكنهم يعبرون عن شيء يريدونه. إن الصدق والكذب ليس في حسابهم.. إنهم يتعاملون بهما لحسابات أشياء أخرى.

إن الفرق بين الصدق والكذب فرق في الوسيلة لا في النية. وهما ـ أي الصدق والكذب ـ من وضع الناس وكذا الحكم عليهما. وهم لم يضعوهما أو يحكموا عليهما أحكامهم الاجتماعية إلا وهم يطلبون من وراء ذلك ربحاً ما. فالفوائد هي إذن الدافعة والحاكمة، وهي التي تتجه إليها الإرادة والعمل. وقد يكون الكذب في بعض حالاته عملية جنسية، وقد يكون الصدق كذلك.

ليس الفرق بين الناس أن منهم من يكذب ومنهم من لا يكذب؛ بل الفرق بينهم أن منهم من يكذب كذباً مفضوحاً وفي أمور تافهة، ومنهم من يكذب كذباً بارعاً محكم التدبير وفي شؤون جلى، وهؤلاء أخطر الكاذبين.. أو منهم من يحتاج إلى الكذب دائماً، ومنهم من يحتاج إليه أحياناً.. أو منهم من كذبه بأساليب مكشوفة، ومنهم من كذبه بأساليب تجعل اكتشافه صعباً. بل إن اجتناب الكذب نوع من الكذب، كما أن ترك النفاق أسلوب من أساليب النفاق، لأن تاركهما إنما يعني في نفسه معنى هو كذب ونفاق، لأن قصده أن يعرض نفسه عرضاً خادعاً أي كاذباً منافقاً. فالذي يجتنب الكذب والنفاق هو يكذب وينافق باجتنابهما؛ لأنه يريد بذلك أن يفهمه السوق فهماً مبالغاً فيه، أو فهماً يرضيه، أو لأنه يريد أن يفهم مبرأ من العيوب، أو من العيوب التي هي فيه.. إنه بذلك يخادع ويكذب.

إن الله لم يخلق حتى اليوم إنساناً لم يحتج إلى الكذب في جميع مواقفه، كما أنه لم يخلق أيضاً إنساناً واجه الحاجة إلى الكذب عاصياً لهذه الحاجة في كل مواقفه ومواقفها. ولو وجد مثل هذا الإنسان لما كان إنساناً، أو لكان في غاية الوقاحة أو الجنون. وقد قيل في مثل قديم: إنه لا يصدق إلا الأبله والطفل. أوليس أشد بلهاً من الأبله والطفل من يصدق أنه يوجد من يصدقون دائماً..؟

ويكون هذا القول سخيفاً جداً إذا كان يعني أن البله والأطفال لا يكذبون أبداً، فهذا لا

يقع.. إن الموتى وحدهم، هم الذين لا يكذبون؛ وإنما يراد بهذا القول أن الأذكياء والعقلاء هم أكثر الناس أخذاً بالكذب، لأنهم أكثر احتياجاً إليه، ولأنهم أعرف بطبائع الناس والمجتمعات، ولأنهم أقوى حساً أخلاقياً وإنسانياً. ومحتوم أن ذوي الإحساس الأخلاقي والإنساني العنيف هم أكثر الناس حاجة إلى الكذب لأنهم أكثرهم إحساساً بالآلام وبالتناقضات، وأحوجهم إلى المجاملة، وأكثرهم بكاءً وعجزاً عن مواجهة الأحزان.

إننا لا نؤمل أن نجد شرفاء وشجعاناً أو كرماء في جميع تصرفاتهم، كذلك لا نؤمل أن نجد صادقين دائماً. إن الصادق جداً هو الذي يصدق أحياناً، لا الذي يصدق دائماً.

يوجد مثل يقول: كل الرجال يشترون ولكن أسعارهم تختلف نوعاً ومقداراً. وهذا لأن البشر مهما حاولوا أن يكونوا فوق كل أرض، فهم لا بد أن يكونوا مريدين وطالبين. والطالب المريد مستعد دائماً أن يعطي ليأخذ.. إنه في حالة عرض دائم، يعرض ذاته ولكن قد تكون له شروط، وقد تكون شروطه سهلة، وقد تكون غالية. والمريد الطالب لا بد أن يكون تاجراً، فإذا رفض أن يبيع، فلأنه يرجو عرضاً أحسن، أو لأنه قد باع ما عنده، باع ما يمكن أن يشترى منه، إذ لا شيء في هذه الدنيا يرتفع عن البيع والمساومة.

إن أكثر الأشياء وقوعاً تحت عار البيع والمساومة هو الإنسان.. إنه لا شيء يباع ويشترى، ويعرض عرضاً دائماً، ويساوم عليه بكل الأثمان مثل الإنسان.. إن كل شيء في الإنسان يباع.. إن أكثر ما يباع في البشر هو أفضل ما فيهم، وأن أكثر من يباع من البشر هم أعظم من فيهم.. إن أقوى إنسان هو أكثر من يشتري، وأكثر من يبيع ويباع.

إن الذي لا يباع ولا يشترى من البشر هو الميت وحده.. جميع الأحياء موضوعون تحت عمليات العرض والتثمين.. والنفوس الإنسانية ـ وهي فيما يقولون أغلى ما في هذه الحياة ـ معروضة مبيعة دائماً لشيء ما، وهي لا تكون إلا كذلك. إن هذا الشيء الذي تباع له أو به النفوس قد يكون أدبياً.. قد يكون مالاً، وقد يكون مجداً، وقد يكون شعوراً أو فراراً من شعور، وقد يكون الآخرة والجنة.

والنفوس التي لا تباع، هي النفوس التي لا تشترى.. إنها هي النفوس الصغيرة الضعيفة.. إنها هي نفوس أولئك الذين لا يجدون من يشتري نفوسهم لأنها لا قيمة لها.. إنها مثل السلع الرديئة جداً، والتي لا ينتفع بها، أو النفيسة في أيدي الذين لا يعلمون.

وإذا كان الرجال يباعون مع اختلاف أثمانهم، فكذلك كل الرجال يكذبون متى وجدوا الثمن الذي يغري ويساوي ما يفعلون فيما يظنون. وما من إنسان وإن صعد أعلى درجات التقوى والشموخ، إلا ويقول أقوالاً تخالف الواقع الذي في نفسه، إما حياءً، وإما تأدباً، وإما

رغبة أو رهبة. والذي يجرؤ على الكذب في حديثه عن نفسه، لا بد أن يجرؤ على الكذب في أحاديثه الأخرى. والناس جميعاً يكذبون بأفعالهم، والكذب في الفعل أكذب من الكذب في القول. والحياة الاجتماعية ـ لا سيما المتحضرة منها ـ ليست إلا مجموعات منظمة من الأكاذيب تتعلمها الأجيال عن الأجيال والأبناء عن الآباء. والذين يحاولون أن يكونوا صادقين في علاقاتهم الاجتماعية بالآخرين، إنما يحاولون أن يرتدوا همجاً أو متوحشين، وأن يقطعوا جميع المراحل الحضارية، راجعين إلى الوراء، ليكونوا بلا حضارة ولا تهذيب ولا أخلاق.. ليكونوا صادقين حينما يحدثون الآخرين أو يعاملونهم.. ليكونوا همجاً لا يعرفون الكذب والنفاق.

إن أرقى الناس في أرقى المجتمعات هم أكذبهم أخلاقاً. إنه لا يوجد من ينكرون هذا من حيث السلوك.. إن الجميع يفعلونه، ويهذبون أنفسهم به، ويدعون إليه بسلوكهم. وإذا كان كل الناس يكذبون في أفعالهم بلا حرج ولا ملامة، فكيف نرجو أن يصدقوا إذا تحدثوا وحدثوا..؟

أين يوجد هذا الكائن الطريد المنبوذ المسمى صدقاً..؟

إن كل ما في الحياة، بل إن الحياة نفسها أكذوبة.. إنها لا تبدأ بصدق، ولا تنتهي بصدق، ولا تعلم أبناءها الصدق، ولا تحملهم عليه.. إنها هي المعلم الأول والأكبر للكذب.

حتى العبادات التي يشترط فيها أن تكون آية إخلاص وصدق، لأنها معاملة لمن لا يستطاع خداعه، هي مظهر فاضح من مظاهر الكذب.. إن المؤمن العابد يزعم وهكذا يعرض نفسه أنه لا يعبد إلا الله، مع أنه لا يعبد إلا نفسه.. إنه لا يعبد إلا رغباته وفكرته.. إنه يعبر عن ذاته فقط.. وإنه كذلك يدعي ويفترض أنه لا يعبر إلا عن احترام ومحبة، وهو كاذب في هذا.. إنه إنما يتعبد عن خوف، وطمع، وحاجة..

التشريع خادم الهوى

إن الناس لم يضعوا في شرائعهم وأخلاقهم قوانين العقاب والثواب للكاذبين والصادقين، ولم يسرفوا في مدح هؤلاء وذم هؤلاء، إلا بعد تجاربهم الطويلة الدالة على أن البشر محكوم عليهم بأن يكونوا كاذبين أكثر مما حكم عليهم بأن يكونوا صادقين.

إن قسوة الصدق ووقاحته هي التي علمت الفرار منه. إن الواقع أليم، وبينه وبين أماني الإنسان واحتياجاته هوة واسعة لا يملؤها شيء. والطبيعة لهذا تحاول أن تقرب بين هذين المتباعدين، وتحضّ على التقريب بينهما. وليست كل أفعال الإنسان، وإبداعه، ومخترعاته، سوى أساليب مختلفة من هذه المحاولات. والكذب هو أحد هذه الأساليب. وقد تفرق الإنسان

تحت تجاربه الحزينة بين الضرورات الداعية إلى الكذب، والضرورات والأماني الأخرى الموجبة للصدق؛ ولم يستطع أن يقف بينهما موقفاً محدداً فاصلاً. إن اهتماماته مصروفة دائماً إلى أن يلبي ضروراته وأمانيه، فأين تقع هذه الأماني والضرورات..؟

لعله وجدها حيث يكذب، أكثر مما وجدها حيث يصدق؛ فجاء كاذباً أكثر مما جاء صادقاً.

وقد شرع الصدق فضيلة، والكذب رذيلة في قوانينه وتعاليمه، لأن التشريع لا بد أن يجيء على نحو ما ضد الرغبات؛ لأن القصد من التشريع أن يحد من اندفاعات النفس. وإن النهي عن الشيء وتحريمه، فيهما معنى الاعتراف بشدة الرغبة فيه.

ومع هذا فلا بد أن يجيء ـ أي التشريع ـ مؤيداً لنوع من هذه الرغبات، لأن الشرائع ليست سوى رغبات؛ ولا يوجد تشريع بلا رغبة. فالتشريع مع أنه جاء مقوماً للهوى، فقد وجد بالهوى ولخدمة الهوى. إن التشريع يجيء محرماً لهوى من الأهواء، أو لرغبة من الرغبات بحثاً عن هوى أو رغبة أقوى؛ فالتشريع هو دائماً بحث عن الهوى، مهما جاء محرماً للهوى.

إن المشرع والخارج على الشرائع كلاهما يحكمه الهوى، والفرق في التوزيع. في أحد فصول هذا الكتاب أن فكرة الفضيلة كالصدق مثلاً إنما نبعت ولم تهبط.. أي إنما جاءت أملاً من آمال الضعفاء، ولم تهبط وحياً على قوة الأقوياء، فالقوي لا يحتاج إلى حماية الشرائع والفضائل، وإنما يحتاج إلى هذه الحماية الضعيف. فهنا إذن توزيع في الرغبات، بين مشرعة ومقاومة للتشريع، ولو في السلوك والاتجاه؛ لا في القانون.

ومع هذا فإن الذين شرعوا الصدق فضيلة، والكذب رذيلة، لم يستطيعوا أن يمضوا في تشريعهم من غير استثناء. لقد رأوا أن الواقع يتحدى هذا التشريع، فراحوا يستثنون ولكن بلا نظام. قالوا إن فعل هذه الرذيلة واجب أحياناً، وإن فعل هذه الفضيلة حرام أحياناً. وهنا تداخلت الحدود فضاعت، فلم تبق حدود معترف بها من حيث التشريع. أما من حيث السلوك فهو طليق دائماً بلا حدود سوى القدرة والرغبة، مهما كانت قوة الحدود ووضوحها، وتعددها من حيث التشريع.

إن فضيلة الصدق قد أصبحت كالخرافات الكبرى التي يتحدث عنها كل الناس ويؤكدون وجودها، ويؤكدون أنهم جميعاً قد رأوها ومارسوها بكل أعضائهم.

إن ما نجده في الحياة هو أقل دائماً مما نريده.. وإن ما نراه هو أقل دائماً مما نسمع عنه.. وإن ما نعلمه، ونؤمر به، ونتمناه، هو دائماً أكبر مما نستطيع.. وإن ما تحوج إليه الطبيعة، لهو أكبر دائماً مما تستطيع أن تهبه.

ليس هناك أبعد عن الحقائق من قوم يحرمون الحياة والفكر الإنساني، ويقيدون أنفسهم بل

ويقيدون الإله بروايات لا يعرفون عنها ولا عن رواتها إلا أنهم وجدوها في مخازن الوراقين، مفترضين أن كل الناس صادقون.. لقد اختلقوا لهؤلاء الرواة نسباً وصلوه بالله، بل حكموه في الله، بل جعلوه نسباً لله، لا يستطيع البراءة منه، ولا التفوق عليه، ولا الثورة ضده.. لقد أصبح الله معتقلاً في هذا النسب الذي صنعه له المحدثون.

إن الذين تعيش أبصارهم في السماء، سوف يرون الشموس، والنجوم، والمجرات الهائلة؛ أما الذين يعيشون في ظلام الكهوف فستمتلئ تصوراتهم بالتهاويل، والأشباح، وجثث الحشرات.

إن آلهة الإنسان ومخاوفه، ترد إليه من نفسه أكثر مما ترد إليه من خارجها.. أكثر ما ترد إليه موفدة من الشموس.

أيها المحدثون، إن أحاديثكم.. إن أسانيدكم في عقول المؤمنين بها، ليست شيئاً أقل وقاحة أو بذاءة من حبال المشانق في أعناق المشنوقين.

الصدق ضرب من الأنانية

الصدق حاجة لا فكرة، والحاجة متحركة لا ثبات لها.

إن الصدق ضرب من الأنانية، وليس فضيلة نفسية.. إنه حاجة من حاجات الصادق، لا تضحية منه في سبيل المجتمع. إن امتداح الصدق مثل امتداح التواضع والإحسان، والطاعة والكرم، وأشباه ذلك. وفكرة الامتداح لكل هذا ليست أكثر من فكرة الانتفاع به؛ ولهذا فإن الحافز في نفس من يدعو إلى الصدق ومن يلتزمه، هو الحافز ذاته في نفس الكاذب. ومعنى الخير في حساب الاثنين معنى ذاتي فردي، لا غيري ولا جماعي. والناس حين يصدقون أو يكذبون، إنما يسعون لتحقيق غرض معين لا لتحقيق فضيلة معينة. وهذا الغرض لا يتغير في حقيقته.. إنه هو المنفعة الخاصة.. إنه هو الاستجابة للذات.. إنه الاستجابة لأهوائها وظروفها، لمخاوفها أو لمطامعها، لحماسها أو لغرورها.

إن اختلاف الناس إلى صادقين وكاذبين في التعبير عن أغراضهم، هو كاختلافهم في سائر وجوه الحياة حينما يختلفون في وسائلهم وأساليبهم في تناولهم لها.. إنهم كمن يتكلمون لغتين مختلفتين للتعبير عن حقائق لا تختلف. فالصدق والكذب هما دائماً في خدمة الناس، وخدمة مصالحهم وأهوائهم، وليس العكس.

إن الفضيلة هي دائماً مستعبدة لأحقر ما في النفوس من شهوات، ومطامع، وأحقاد. ولهذا فليس للصادق أن يدعي الفضيلة أكثر مما يدعيها الكاذب.

إن الصدق والكذب أداتان من أدوات التعبير عن الذات المنفعلة، المتقلبة، الواقعة تحت أكثر

الظروف قسوة وتناقضاً، وليسا حقيقتين جامدتين. والصادقون والكاذبون يعلمون هذا أو على الأقل يعملون به، ولهذا جاؤوا كاذبين أكثر مما جاؤوا صادقين. إن الذين يرجون أن يجدوا قوماً لا يكذبون، هم كالذين يرجون أن يجدوا قوماً لا ينفعلون، ولا يحتاجون، ولا يحبون أو يبغضون. فالصدق وكذا الكذب صورتان من صور الانفعال والإرادة، والحب والبغض، وغير ذلك من الانفعالات الكثيرة. والمنفعل لا بد أن يكذب كما لا بد أن يصدق. إن الصدق والكذب جوابان متناقضان من أجوبة الإنسان المتناقضة التي يواجه بها تناقضه المحتوم مع الطبيعة والظروف، ومع الآخرين ومع نفسه.. إنهما ردان على التحديات يدفع إليهما ويصوغهما حافز واحد.. إنه لا يستغني عن الكذب إلا من يستطيع أن يستغني عن الصدق، أو يستغني عن الحياة. والذي يصدق إذا اعتقد الصدق خيراً له، كالذي يكذب إذا اعتقد الكذب خيراً له.

هل الذي يصدق حينما يكون الصدق نافعاً له، فاضل.. هل الذي يجتنب الكذب حينما يكون الكذب مسيئاً إليه، صادق.. وهل يوجد من يصدق أو من يكذب، وهو يعتقد أنهما شر له.. أو هل يوجد من لا يصدق، ومن لا يكذب، إذا اعتقد أنهما خير له..؟

وإذن لا يوجد صدق ولا كذب، وإنما توجد إرادة لها أدواتها المختلفة التي منها الصدق، ومنها الكذب.

إن الصدق والكذب صورتان لوجه واحد اختلفت تعبيراته.

إن التعاليم المقدسة التي تشتد كثيراً جداً في تحريم الكذب، تشتد نفس هذه الشدة في تحريم الصدق. إنها تحرم على من اعتقد في نفسه عقيدة أن يعبر عنها بصدق، إذا كانت تخالف ما تريد هذه التعاليم. وتوجب على صاحب مثل هذه العقيدة أن يكذب، وأن يقول غير ما في نفسه، وإلا أوقعت به العقاب، وأجلت له عقاباً آخر.. إنها إذن تأمر بالكذب وتجعله إلزاماً. والذي يلزم بالكذب هو كاذب مرتين.. هو ممارس للكذب، وملزم بالكذب.. هو كاذب ومعلم للكذب.

الكذب والنفاق احتجاج متحضر

إن كل مجتمع لا بد أن يمارس فيهما يمارس ثلاث حقائق دائمة:

الحقيقة الدائمة الأولى أنه لا مجتمع بدون كذب ونفاق..

وإن الحقيقة الثانية أن الكذب والنفاق فضيلتان اجتماعيتان من فضائل الإنسان التي هدته إليها تجاربه وضروراته، لأن الفضيلة ضرورة لا مثالية.

وإن الحقيقة الثالثة أن الكذب والنفاق ضرورتان في المجتمع لا ظاهرتان لآفات طارئة على

المجتمع. ولهذا فإنهما لا يزولان بتقدم المجتمع. ولو تصورنا مجتمعاً كله صدق وصراحة لذعرنا من هذا التصور، كما نذعر من تصور حياة لا حب فيها، ولا ذكاء، ولا ملابس، ولا سرور. إن من المستحيل أن ندرك الحاجة إلى الصدق والصراحة، ما لم ندرك الحاجة إلى الكذب والنفاق. فالبواعث والأهداف في الحالتين واحدة. وما الفرق بين الصدق والكذب إذا قصد بهما الخير أو الشر وأعطيا نتيجة واحدة.. أو ليس الكذب الفاضل أنبل من الصدق اللئيم..؟

إن أسباب كثير من الصدق والصراحة هي الوقاحة، أو التفاهة، أو الغباء، أو سوء الأدب، أو قصد الإهانة؛ وليس من أسبابهما حبّ الفضيلة. إن الذي يشتمنا وهو صادق لا يقصد أن يقول الحقيقة أو يرضي الآلهة والأنبياء.. إنه يقصد أن يشتمنا فقط. والشاتم الصادق شاتم لا صادق.

إن الكذب في كثير من الحالات، يبدو كالملابس التي تستر العورة والتشويه، وتقي من آلام الطبيعة ووقاحتها الكثيرة.

في أخلاق الناس جميعاً أنهم يذمون الكذب والنفاق، ولكنهم لا يقبلون الصدق والصراحة. إنهم يريدون من الآخرين أن يعاملوهم بهذا الذي يذمون، وقد يصلبون من يقولون الصدق والحقيقة.

إن أعظم الناس حظّاً في المجتمعات التي تلعن الكذب والنفاق هم المنافقون الكاذبون. إن القوانين والشرائع والأخلاق التي يضعها البشر ويحكمون بها، لهي أعظم معلم للكذب والنفاق. هل توجد حكومة، أو حاكم، أو عهد من العهود، مهما كان متديناً وصالحاً لا يعلم المجتمع والمتعاملين معه هاتين الفضيلتين.. هل يوجد قانون، أو نظام، أو زعيم مهما كان فاضلاً أو تقياً لا يحرم الصدق ويعاقب عليه..؟

الكذب والنفاق نوع من التمني، فالذي يكذب وينافق كأنه يقول أتمنى أن يكون الأمر كذا وكذا، ولا أريد أن يكون كما هو كائن.. الكذب والنفاق احتجاج مهذب، إنهما احتجاج متحضر.

إن الكاذب المنافق كأنما يقول: أيها الناس.. أيتها الطبيعة.. أيتها الظروف.. أنت غير صالحة وغير ملائمة. إني أحتج عليك، وأرفضك، وأنكرك، وأتألم منك ولك.. إني أحاول بمعاناة وبكاء أن أفرضك، وأعرضك، وأتمناك كما ينبغي أن تكوني.. إني أكذب، وأنافق اعتذاراً عنك، وتكفيراً عن أخطائك، وستراً لعيوبك..

هل الفضيلة أن أتحدث كما أعلم وأرى، أم كما ينبغي..؟

تأميم للعجز، احتكار للتفوق

والذين هجوا الكذب والنفاق بصدق وحرارة، لم يهجوهما كموضوعين مفهومين من موضوعات الحياة، ولا كنقيصتين من نقائص المجتمع؛ وإنما هجوهما لتجاربهم، ومواقفهم وظروفهم، ومشاعرهم الخاصة.

لقد وجدوا أنهم أحياناً عاجزون عن التفوق في هاتين الرذيلتين المنتصرتين، ووجدوا الآخرين قد انتصروا عليهم فيهما، فعالجوا هزيمتهم بذم النصر الذي أدركه الآخرون..

إنه من هذا الطريق قد جاءت كل الأخلاق والتعاليم الضعيفة التي تمجد الضعف. والناس ينتزعون حدود الخير والشر وصفاتهما من ظروفهم، وتجاربهم، وانفعالاتهم الخاصة. ودائماً المحرومون والعاجزون يجعلون من حرمانهم وعجزهم شرائع وأخلاقاً عامة يعلمونها الناس ويفرضونها عليهم. أما الأقوياء الظافرون فيعبرون عن ظفرهم وقوتهم تعبيراً آخر.. إنهم يعبرون تعبيراً قوياً يغني عن محاولة التشريع والتعميم. فالعاجز المحروم يعمم ويشرع، أما القادر الظافر فيفعل ويخصص، لأن المتعب العاجز يجد عزاء في أن يجعل من تعبه وعجزه شريعة عامة، أما السعيد المنتصر فما أكبر اغتباطه باختصاصه وتفرده، فهو إذن لن يحاول أن يجعل من فوائده الخاصة تشريعاً عاماً.

إن الحياة لم تحاول أن تخفي حقيقتها هذه على أحد، لهذا جعلت من جميع البشر منافقين وكاذبين مهما أسرفوا في هجاء الكذب والنفاق. لقد جعلت الحياة كل الناس ينافقون ويكذبون ولو في أكثر مواقفهم، بل لقد ذهبت تتأنق وتتفنن في التدليل على أخلاقها هذه، فكانت دائماً حيث توجد أكثر وأقوى وأفضل، تذهب تنافق وتكذب أكثر.

*

قد يرى هنا أن في هذا الذي أقوله دعوة إلى الكذب والنفاق، وترويجاً لهما..

ولكن، كيف..؟

فأنا أتحدث عن حقيقة موجودة وعن قانون. والحديث عن الحقائق والقوانين ليس دعوة ولا ترويجاً. إن الحديث عن الزلازل، والبراكين، والأوبئة، والفيضانات، ومناطق الجدب، وأخلاق الناس ونقائصهم البدنية والعقلية، وعن حقائق الحياة المؤلمة، ليس دعوة ولا تبشيراً. والبشر في سلوكهم ومشاعرهم نحو الأشياء لن يستأذنوني، ولن يستأذنوا أي ناهٍ، أو رافض، أو منكر.. إنهم لن يصدقوا إذا قيل لهم اصدقوا والصدق خير، ولن يكذبوا إذا قيل لهم اكذبوا والكذب خير.. إنهم يصدقون ويكذبون بقوانين من طبيعتهم، وطبيعة حياتهم، وأوضاعهم، وأعمالهم.

ليت الطبيعة البشرية تخضع لما يقال لها، وتتكون بالدعوة والتبشير.. إذن لصنع الإنسان نفسه على نحو آخر عظيم جداً. لقد جاء الأنبياء والمبشرون والمصلحون في كل الأزمان يدعون الناس إلى الصدق وكل الفضائل، وينهونهم عن الكذب وكل الأعمال الرديئة؛ فماذا كانت النتيجة.. هل ضعفت إرادتهم للعصيان.. هل ضعف خضوعهم لما يريدون..؟

وإذا كان الناس طيبين يطيعون ما يقال لهم، فهل يمكن أن يتركوا دعوات الأنبياء، وما تقوله لهم الكتب المنزلة، ليستمعوا إلى تفسيراتي أنا لأخلاق الإنسان نحو الصدق والكذب.. هل يخشى أن أنتصر على جميع رسالات السماء وتعاليم كل المعلمين.. هل يخشى أن يصبح الناس أكثر ممارسة للكذب، بعد أن يستمعوا إلى تفسيراتي لسلوك البشر صادقين وكاذبين.. هل يخشى أن تنتصر هذه التفسيرات على تعاليم الأنبياء، وكل المعلمين اللاعنين بكل قسوة وبلاغة وجهارة صوت، كل من لا يكونون أصدق من الموت في حتمية مجيئه، أو حتمية هزيمته..؟

إني أتمنى أن يبلغ البشر الطور الذي يجعلهم لا يحتاجون إلى الكذب أو لا يستطيعونه.. كما أتمنى أن تزول جميع الآلام والعيوب الموجودة في الأرض.. كما أتمنى أن تتحول الصحارى المجدبة إلى مروج يانعة، والبحار إلى مياه عذبة، والمناطق القطبية إلى مناطق آهلة عامرة بالإنسان والحياة. ولكن لقد تحدثت عما هو كائن لا عما أتمنى أن يكون..

إني أتمنى أن تزول أسباب الكذب والحاجة إليه، وحينئذٍ لن يوجد من يكذبون، بل لن يوجد حينئذٍ من يرغبون في الكذب. ولكني لا أتمنى أن تظل أسباب الكذب موجودة ثم يمتنع الناس عن الكذب، أي مع وجود أسبابه والحاجة إليه. إني لا أتمنى ذلك لأنه هو الوحشية والهمجية، والوقاحة والتعذيب.

لقد تقدم في صفحات ماضية أن أكذب الناس هم الصادقون، لأنهم حينما يصدقون لا يريدون أن يقولوا الصدق، بل أن يقولوا شيئاً آخر.. إنه الصدق الذي يراد به غير الصدق، وهذا أشنع أساليب الكذب. إن أكثر الناس يصدقون ليعرضوا أنفسهم عرضاً كاذباً.. إنهم يصدقون ليفهموا فهماً غير صادق، أي ليزوروا أنفسهم. وتوجد أيضاً أغراض أخرى، كلها ليست صادقة حتى ولا حين تكون صادقة. إن الصدق ليس دائماً خبراً، بل هو أكثر الأحيان حافز، ونية، ولهجة. إن نية الكذب لا تكون صدقاً مهما كان الخبر صادقاً.

*

يقول الرواة إنه يوجد حديث متواتر، وإن هذا النوع من الحديث مقطوع بثبوته، ولا يمكن أن يشك فيه، لا على احتمال الخطأ ولا احتمال الكذب. ولما سئلوا ما هو الحديث المتواتر قالوا

هو الذي يرويه قوم يستحيل أن يكذبوا أو يخطئوا، عن قوم آخرين مثلهم، وهكذا من بداية السند إلى نهايته.

وكم ينبغي أو يشترط أن يكون عدد هؤلاء القوم..؟

هذا شيء لا يستطاع تحديده ولا يشترط..

أيشترط أن يكونوا عدولاً..؟

كلا، بل ولا أن يكونوا مسلمين، إذ لا يشترط غير العدد الذي لم يفهم ولم يحدد..

نعم، وكيف يشترط شرط يشترط فيه ألا يكون معلوماً..؟

إن كان الأمر يرجع إلى العدد فهو غير معروف، وإن كان يرجع إلى اطمئنان النفس فهذا يختلف باختلاف الناس، واختلاف حالاتهم، وتقديراتهم. إن اطمئنان النفس لا حدود ولا شروط له.. إنه لا ذكاء له.. إنه لا يعني شيئاً.. إنه لا يمكن أن يكون ثقة أو موثوقاً به إلا بقدر ما تكون أهواء النفس ورغباتها كذلك.. إن كلمة «يستحيل» أن يكذبوا أو يخطئوا ليست قانوناً من قوانين الطبيعة.. إنها كلمة بشرية تقال وتعتقد تحت ظروف وتصورات بشرية أيضاً.

أنت حين تقول إن جماعة غير معينة من الناس لا تعلم عددها، مستحيل أن تجمع على نقل الخطأ لا كذباً ولا وهماً، لا تكون معبراً إلا عن ظروفك، وعقائدك، وحالتك النفسية تحت تأثير ظروفك الحسنة والسيئة، القوية والضعيفة؛ أي معبراً عن حالة من حالات الاستجابة فيك. وحالات الاستجابة ليست شيئاً متقرراً لا فيك ولا في الآخرين، وإنما هي كسائر المشاعر المتلقية متبدلة دائماً.. لأنها تعيش تحت ما يجعلها دائماً متلقية متبدلة..

إن حالات الاستجابة فيك تشبه حالات قبولك للزكام، والعدوى بأي مرض، ونجاتك منه. يحدث هذا وهذا بقدر استعدادك وتلقيك، لا على حساب قاعدة ثابتة مضمونة الحكم. إن هذا مثل استحسانك لوجه أو مكان أو قصيدة أو فعل.. إنه تعبيرك أنت، لا تعبير ما ترى أو تجد. وقد آمن هؤلاء بكل رواياتهم ولم يقبلوا فيها نقداً ولا شكاً، لأنهم كانوا يعيشون في ظروف نفسية وتاريخية واجتماعية، تجعل استجابتهم للغباء وتصديق ما لا صدق فيه شيئاً محتوماً

لقد كانوا يعيشون في ظروف لا تملك أن تهبهم القدرة على الرفض، أو الشك، أو الفهم، أو النقد.

الجماعية صانعة الحماقات التاريخية

إذا اشترك قوم في أمر كانوا أسرع وأجرأ عليه من الواحد. وكلما كثروا زادت سرعتهم، وجرأتهم اقتناعاً وممارسة. إن الناس مجتمعين يفعلون ويصدقون ما لا يستطيعون فعله أو تصديقه فرادى.. إنهم يجرؤون على قتل الملايين من البشر في الحروب، وتدمير المدن الكبيرة الجميلة، وعلى إتيان أبشع الفظائع، وتصديق أضخم الخرافات والأكاذيب.. إنهم يجرؤون على الاستمساك بالتقاليد السخيفة جداً بلا شعور مضاد، ولكنهم قد يجبنون عن هذا أفراداً. فالوحدانية خطر، ووقار، وتفكير. أما الاجتماع فطيش، وجنون، وغباء.

إن المرء يجبن عن ارتداء الملابس الشاذة، وعن التجرد من الملابس، وعن أن يصدق أو يحدث بأنه يرى الجن والملائكة والموتى يمشون فوق مناكب النجوم، ويتحدثون مع سكان السماء.. ولكنه يجرؤ على ذلك باعتزاز، وزهو، إذا شاركه فيه آخرون. إنه لولا هذه المشاركة لأحجم أكثر الناس عن أكثر ما يقولون، ويعتقدون، ويصنعون.. إنه لولا هذه المشاركة لتناقص الجنون العالمي، والغباء العالمي، والحماقات العالمية الرهيبة. بل إن هذه المشاركة قد جعلت هي الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة، وبين القانون والخروج على القانون. فالخروج على هذه المشاركة هو المقصود بالخروج على النظام، والشرائع، والأخلاق. إن الذي يؤمن به الأكثرون ويشتركون في فعله أو في تحسينه وقبوله، هو الفضيلة والقانون؛ والعكس صحيح كذلك. ولا حجة لهذا أو هذا غير المشاركة.

إن من أقوى الأسباب في بقاء الأديان والتقاليد والنظم الكبرى في العالم أطول الأزمان، هو هذا الاشتراك. المخطئون المشتركون لا يشعرون بخطئهم، لأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم. وأعاظم المستبدين المجانين في التاريخ وفي عصرنا الحاضر لم يستطيعوا، ولا يستطيعون الإقدام على مغامراتهم الحربية أو غيرها؛ إلا بعد أن يستشيروا وزراءهم، وأعوانهم، وقوادهم، ويظفروا بمشاركتهم أو مشاركة فريق منهم لهم في الرأي. فالإنسان جماعي في عقائده، وتقاليده، وانفعالاته، وسلوكه، وهو يؤدي هذه الجماعية بلا صعوبة، ولا تفكير، ولا معاناة، كما يؤدي طقوسه وصلواته، بل إنها لتكاد تعمل فيه كأنها الغريزة.

إن الجماعية هي أعلى مستويات الخروج على القانون، والأخلاق، والذكاء، والصدق..

لقد كانت فضائح التاريخ الكبرى فضائح جماعية..

إن التاريخ لم يستطع أن يلقي بكل وقاره، وذكائه، وملابسه إلا تحت جنون جماعة.

وإذا كان لا بد لهذا من أسباب، فلا بد أن نذكر من هذه الأسباب أن المشاركة تبطل

المسؤولية أو تخففها. بل إن الخروج على هذه المشاركة يوجب الاستنكار والعقوبة. وهذا يجعل الخروج مغامرة تحتاج إلى شجاعة ومعاناة.

ومن جهة أخرى فإن الانفراد يقوم على التفكير والتوتر، أما الاشتراك فإنه يعفي من ذلك، بل يتحول إلى حماس ونشوة. والتفكير يخلق التردد، والتهيب، والتقدير الطويل، الذي ينتهي أحياناً إلى الجبن. والذي يريد أن ينفرد باعتقاد شيء، أو بفعله، أو بقوله، لا بد أن يفكر فيه وفي عواقبه تفكيراً طويلاً.. أو على الأقل لا بد أن يفكر أطول من المشارك لغيره.

إن في الإنسان طبيعة القطيع، فهو في الجماعة يتحرك ويؤمن كأنه يتلقى الوحي دون أن يسأل عقله أو قدميه لماذا فعل هذا، ودون أن يحاسب نفسه.

وهذه الطبيعة في الإنسان تحكم الرواية كذلك. فالناس إذا كانوا جماعة لم يبالوا بما يروون. إنهم يروون، ويسمعون، ويصدقون، ويتتابعون، دون أن يفكروا أو يسألوا: أيمكن أن يكون ذلك صدقاً.. أليس ذلك مستحيلاً.. أليس به ما يجعل الناس يسخرون وينكرون؛ وإنما ينخرطون بجنون في مروياتهم، كأن روحاً شريرة تنفث في أرواحهم جميعاً الخرافة والأكذوبة والمحال.. كأن روحاً خفية تلقي في قلوبهم حب الغواية وتصديقها، وكأن أبصارهم وأسماعهم ووجداناتهم المتعددة تتركز كلها في قوة واحدة خارقة، فيرون ويسمعون ويجدون ما لا وجود له. إن الواحد من هؤلاء ليتخيل الشيء أو يتكره، أو يراه حلماً أو يتمناه، أو يظنه ظناً ضعيفاً، أو يحدث به على أنه كذب أو مزاح فيذهب يرويه أو يروي بعضه رواية واهنة لا يخفي تشككه فيها أو مزاحه أو كذبه، فتذهب هذه الرواية تكبر وتكبر، وتنتشر وتنتشر، وإذا بها تطول وتطول، وإذا برواتها يكثرون ويكثرون، وإذا بهم يحققون معنى التواتر، وإذا بالخرافة الضعيفة تصبح حقيقة كبيرة، ويصبح الشاكون فيها زنادقة تلعنهم كل المنابر.

بهذا الأسلوب جاءت الاعتقادات الكبرى وتأكدت. إن كثيراً من المتواترات لم تكن إلا أماني أو شتائم تحولت إلى روايات، ثم تحولت الروايات إلى تواتر.

حينما يجتمع الناس تختفي الحقائق وتظهر الخرافات والإشاعات والأكاذيب. إن الاجتماع يوحي بالإلهام الكاذب.. إن روح الجماعة روحٌ خرافية.. إن بعضهم يوحي إلى بعض بإشاراته وحركاته، وابتساماته وصيحاته، فينطلقون وكلهم يحدث بما رأى وبما سمع بما لم يكن إلا في وهمه وأمانيه وانفعالاته الضاجة، وإن كان قد رأى أو سمع شيئاً فقد اختلط بالضجيج، وضاعت معالمه وحدوده في عديد المعالم والحدود، وأصبحت محاولة تمييز ما قيل أو ما سمع، كمحاولة تمييز أنة يطلقها جريح واهن في قلب أضخم مدينة تنطلق منها كل الأصوات والانفجارات، منطلقة عن كل أجهزة التفجير في لحظة واحدة وقوة واحدة.

إن المفروض في المجتمعين أن يروا، ويسمعوا، ويقولوا، ويرووا. إن أذهانهم وحواسهم مهيأة للتلقي والإيحاء. والتهيؤ النفسي ظرف صالح لاستنبات التهاويل والأشباح الفكرية، ووعاء جيد لعملية التفريخ.. إنها مهيأة للرؤية بل مرئي، بل بلا بصر. فالمفروض إذن في أذهان المجتمعين وحواسهم، أن ترى وتسمع لتحفظ وتحدث، ومعنى هذا أن الاجتماعات تبتكر الروايات والأساطير حيثما وجدت.

والمفروض أيضاً أن أعصاب المجتمعين تكون مرهفة ومشدودة، وهذا يجعلها سهلة الانقياد والانخداع والإيمان بالكذب. والباحثون عن الأشباح في الظلام يجدونها.. إنهم يرونها كلما كان الظلام أشد، يرونها كلما كانت الرؤية مستحيلة..

إن الخطأ والكذب تفسيران من تفاسير الاجتماعات العامة، ومعنيان من معاني الرواة إذا كثروا.

والمقدر في الرواية المتواترة أنها هي التي تقال أو ترى في اجتماع عام، فيروحون يحدثون بها تحديثاً واسعاً يعطيها معنى التواتر. والمقدر على وجه آخر في الحديث المتواتر أن يراه القوم أو يسمعونه آحاداً فيحدث كل منهم بما رأى وسمع، إلى أن يصبح حديثاً متواتراً؛ ولكن هذا بعيد جداً لأن افتراضه يوجب افتراض أن موضوع الرواية يتكرر مرات كثيرة في مواطن كثيرة بمقدار يحقق معنى التواتر فيها. وإذا كان هناك احتمال بأن الرواة رووا ما رووا متفرقين فهناك احتمال آخر قد يكون أقرب إلى الصدق، وهو أن يفترض أن بعضهم قد روى عن بعضهم، ثم وحدوا المصدر الذي رووا عنه، إما لاطمئنانهم وإما لأسباب أخرى. وهذا معروف في عمل المحدثين، وتصرف جميع الناس في جميع الأزمان. وعلى هذا الافتراض لا يكون الخبر متواتراً. والذي يقول قال رسول الله أو قال عمر مثلاً، يجب عليه أن يطمئن إلى أن الرسول أو عمر قد قال، ويجب أن يسمع منه ذلك سماعاً؛ أو هذا هو الذي يعتقده الناس. فرواية الجماعة لا يصح إذن أن يرى بأن لها قيمة أرفع من رواية الواحد، إلا إذا فرض أن أخلاق الجماعة وأفكارها يجب لافتراضها أفضل من أخلاق الواحد وأفكاره. ولكن هذا لا يصح حتى ولا مجرد افتراض.

إننا جميعاً نطمئن إلى تصديق رواية يرويها إنسان واحد كبير نعرفه، أكثر من اطمئناننا إلى تصديق مثل هذه الرواية إذا روتها جماهير لا نستطيع أن نحصي أعدادها. وإذا اختلف مثل هذا الإنسان الكبير وهذه الجماهير في حديثهم فلن نتردد كثيراً في اختيار من نصدق.

إن رواية رجل كسقراط لأفضل وأقوى مما ترويه جميع جماهير «أثينا» لو شهدت بأنها قد رأت القمر جاثياً باكياً مصلياً تحت قدمي سقراط. إن الرواية في وعي الجماهير ليست شيئاً غير الرأي إذا كان الموضوع موضوعاً دينياً.. إنه لا بد هنا أن يفرق بين الرواية المتصلة بالدين،

والرواية عن الأشياء الأخرى. والحديث موضوع ديني، إذن لا بد أن يختلط فيه الرأي بالرواية في وعي الجماهير.

إن الأفراد وحدهم هم الذين جاؤوا بجميع الحقائق والتصحيحات، والإبداعات الكبرى التي صاغت الحضارة، ووهبت الإنسان كل ما يملك من قوة ومعرفة وفضيلة، والتي هدمت جميع متواترات الجماهير. وليس في الدنيا حقيقة واحدة عظيمة إلا وهي من عمل الآحاد المتفوقين. إن المجتمع لا يمكن أن يخترع أو يكتشف أو يفكر إلا بواسطة أفراد. إن الجماعة لا تستطيع أن تفعل ذلك مجتمعة، لا تستطيع أن تفعل ذلك كما تشترك في رفع الحجر ممسكة بكل أطرافه. إن الجماعة الكبيرة لتجتمع لتؤدي عملاً مادياً بالاشتراك مثل أن ترفع، أو تدفع، أو تحمل شيئاً كبيراً؛ ولكنها لا تستطيع أن تجتمع أو تجمع لتشترك في إبداع فكرة أو مذهب، أو في اكتشاف نظرية، كالذي تفعله حينما ترفع حجراً بكل أيديها.

إن تاريخ الإنسان وحياته في جميع مراحل وجوده لتدليل دائم على أن روايات الآحاد وآراءهم أصدق من روايات الجماهير وآرائها. ليست القضية أن الجماعات عاجزة عن التفكير إلا بعقول الأفراد، بل هي عاجزة عن الرؤية إلا بعيون الأفراد.

ولو كانت روايات الجماهير المتواترة تعني شيئاً لكان وجود الأشباح والأرواح والجان المالئين للهواء والفضاء ولكل مكان، هو أقوى وأصدق وجود في هذا العالم.. لكان أقوى وأصدق من وجود البشر، ولزال هذا الإنسان المغرور المسكين بضربة واحدة من ضربات هذه العوالم الخرافية المتواترة. إن رؤية البشر لهذه العوالم، وتعاملهم معها، وممارستهم إياها، ومشاهدتهم لألاعيبها وقواها الخارقة، متواترة. وكذلك لو كانت متواترات الجماهير تحمل معنى من معاني الحقيقة لأصبحت كل الأديان، وكتبها، وكل الخرافات والمعجزات من الحقائق المتواترة، التي يجب على البشر في جميع عصورهم أن يؤمنوا بها..

إن لكل أهل دين ومذهب وأمة متواترات لا يعرفها الآخرون بل ينكرونها. ولو صدقت كل هذه المتواترات لكان من المفروض علينا أن نؤمن بالشيء وبما ينفيه، ولكانت الحقائق خليطاً لا مثيل له من المتناقضات والأماني والأساطير. وإنه لو صدق بعضها وكذب بعضها لفقد التواتر المكانة التي يزعمونها له..

إنه لو كذب المتواتر في بعض حالاته، لكان كاذباً كله في معناه؛ ولكان صدقه حينما يصدق لا يرجع إلى أنه متواتر، بل إلى أسباب أخرى.

إن أغلب هذه المتواترات العالمية لم تكن في ميلادها سوى رغبة أو حاجة أو حلم أو رؤية كاذبة ولدت في أعصاب أحد المرضى من ذوي الإرادة والجيشان العاطفي، والخيال المفقر

الموجع بالألم والضيق والحسرة، ثم لم تزل تتكاثر كجرثومة المرض، حتى أصبحت ديناً عالمياً. إننا لم نزل نشاهد في عصرنا توالد المتواترات من الكذب والضعف، والرغبة المحرومة والخوف، ثم لم نزل نشاهد نموها السريع وفرضها لنفسها على السوق حتى تصبح قوة لا تمكن معارضتها أو الشك فيها. إن السوق لم تزل تنعم على كل الأكاذيب، والأوهام، والغباوات، بأعلى أوسمة التواتر.

إن تواتر الشيء دليل على أنه خرافة، فالخرافات هي التي تتواتر في الغالب.. إنها أكثر تواتراً من الحقائق، لأن الخرافات احتياج للجماهير، وهي لا تكلف شيئاً، ولا تحتاج إلى عبقرية أو تعب.. إنها مرضية لها لأنها تعبير عن أمانيها التي لم تتحقق، إذن فالسوق محتاجة إلى الخرافة، ومحتاجة إلى تحويل الخرافة إلى تواتر. وإذن فالتواتر دليل على مستوى التواتر.. دليل على أنه تعبير عن الاحتياج، وعن مستوى من يحولون الأكذوبة والغباوة إلى تواتر، إلى أديان وحقائق عظمى.

أما الحقيقة فهي لا تملك هذه المزايا، لهذا لا تلقى الترحيب الذي تلقاه عدوتها.. لهذا لا تنال شرف التواتر بالسرعة والحماس اللذين تنال بهما الخرافة هذا الشرف. إن التواتر هو المعنى الكبير للخرافة.. إنه الاحتلام الكبير تحتلمه الجماعات المحرومة من الممارسة المرئية. إن الحضارة كلها مناقضة بمتوترات، إنها هدم لمتواترات.

وإذا رأى أنصار الرواية المتواترة أنه لا بد من الإيمان بها، لأنها هي الوسيلة التي عرفنا بها التاريخ وأحداثه، وعرفنا بها الأمم، والرجال، والمدن، والمواقع؛ إذ لا وسيلة أخرى لمعرفة شيء من ذلك غير التواتر.. إذا رأى أنصار الرواية المتواترة ذلك، قيل لهم إذا كانت أحداث الحياة والتاريخ لم تعرف إلا بروايات يرويها قوم بالأسانيد والعنعنات فما الذي يمنع حينئذٍ من الشك في كل هذه الأحداث أو من إنكارها.. إذا أنكرها منكر، فهل نثبتها له بالرواية أو بشيء آخر..؟

إذا كانت الرواية هي الوسيلة الوحيدة لإثباتها، فإن الذي ينكرها لن يجد ما يجعله منكراً لحقيقة محتومة؛ وإذا أمكن إنكار شيء كان الإيمان به جنوناً أو غباء. إن الذي يمكن إنكاره ليس حقيقة.. إن الحقيقة ليست هي التي يمكن إنكارها.. إن الذين يؤمنون بما يستطيعون أن ينكروه ليسوا عقلاء.. إنه لا يجب بل لا يجوز أن نؤمن إلا حيث يكون الإيمان واجباً، لا حيث يكون جائزاً. إن الإيمان ليس خياراً.. إنه حتم، قهر، إكراه.. إن الإيمان ليس بحثاً عن الأفضل، بل خضوع للقوة.

وليس إيماننا بوجود إحدى الأمم الخالية، أو بأحد رجال التاريخ المشهورين، أو بإحدى المدائن

المشهودة مثل إيماننا بأن أحد القديسين كان يبصق الشموس من فمه، ويشير إلى الكواكب لتسجد بين يديه وتتوضأ ببصاقه، ويمد إصبعه إلى المقابر فتخرج مَن فيها من الموتى، ويأمر الآلهة فتخاف، فتطيع، وتتوقف عن عملها.

وإذا كان الإيمان بهذا يساوي الإيمان بذاك فمن الخير للإنسان وللتاريخ ألا نؤمن بشيء؛ بل من الواجب. إن هذه الدعوى لو صحت ليست دفاعاً عن الرواية ولا قوة لها، بل هدم للتاريخ وضعف فيه.

إن التواتر الذي هو موضوع كلامنا هنا يتعلق بأمور غير مرئية ولا موجودة أو حاضرة، بل ماضية لا تخضع للتجربة المادية ولا للامتحان.. إنها كلمة تقال ولا تعاد، أو معجزة يراها الإيمان والرغبة، دون أن تستطيع رؤيتها العين أو التجربة، وفعل ينقضي ولا يترك لنفسه صورة أو بصمة.. إنها مصارعة فوق النجوم بين الآلهة..

إذن فمن كذب أو أخطأ فسيذهب بخطئه وكذبه. والتاريخ ليس كذلك، وإذا كان كذلك فلا أسف على جحوده أو احتقاره.

إن التواتر في الأحاديث يتصل بالضمير الديني. والضمير الديني لم يكن حكماً صالحاً في أي عهد من العهود، ولا في أي رجل من الرجال. والفرق لا يخفى بين أن يشهد شعب حرباً، أو يبني مدينة، أو يسكنها ثم يأخذ يتحدث عنها؛ وبين أن يتحدث المؤمنون عن شخص خرافي يعيش مع الملائكة، أو مع الجن، أو فوق السحاب، ويعبث بالقوانين الكونية، وبأخلاق الآلهة ومشيئتها.

إن ذلك من عمل العين، والأذن، والحواس، وينتهي بالإدراك. وهذا من عمل الرغبة والرهبة وينتهي بالاعتقاد. والاعتقاد تعبير من تعبيرات النفس، وليس حقيقة خارج النفس. والحقيقة هي التي نجدها ثم نعتقدها، وليست التي نعتقدها ثم نجدها، أو ثم نظل نعتقدها دون أن نجدها. والذي نجد رغبة نفسية في اعتقاده، لا يكون في الغالب حقيقة؛ لأن الحقائق بطبيعتها تصدم الرغبات لأنها تضادها، وترهبها، وتتعبها، ولا تقنع بطموحها.

إن الشوق إلى اعتقاد شيء ما، قد يكون نوعاً من التشكيك فيه. إن الحقائق ليست شائعة كثيراً.. إنها لا تكون شهوة، ولكنها تكون إلزاماً، أو ضرورة، أو شهوة بالإلزام والضرورة. والتاريخ لا يمكن إنكاره لأننا نحن امتداده، وطرفه الأعلى.. نحن طبعته الأخيرة الجديدة، فلسنا نعرف التاريخ بأسانيده المتواترة، بل بجسمه الضخم الممتد فينا وفوقنا، والذي نعبر عليه كل حركاتنا. وأي جزء يمكن إخراجه من حساب التاريخ بدون أن يتغير هيكله أو مجراه، فليس من

الحتم أن يكون منه. وإذا بترنا من التاريخ أية قطعة من غير أن نتألم، ونشعر أننا نحن الذين بترنا، فتلك قطعة غير تاريخية.

إن إنكار التاريخ ليس شيئاً حزيناً. ليت البشر يستطيعون إنكاره. إن هذا لشيء سعيد.. إنه انتصار.

التاريخ هو ذلك الكائن الضخم الوقح الملوث الذي يقبض علينا بقسوة وإحاطة، دون أن يحتاج إلى أن نراه أو نؤمن به.. التاريخ هو ذلك النهر البذيء الذي يحولنا مجراه الملتهم إلى كائنات صغيرة مقهورة، لا إلى رواة له، وأسانيد عنه، ويصب فينا كل آلامه وأحزانه.. التاريخ هو ذلك التنين الهائل الباصق على كل بيت، وطريق، ومذهب، ونظام، وعلاقة بيننا. التاريخ هو تلك المقبرة الكونية التي تحتوينا أحياء وأمواتاً.. إن التاريخ ليس رواية. إنه كل هذا.

أما الروايات فما هي إلا آلام التاريخ وأمانيه العاجزة، تفجرت آهات في أخلاق الضعفاء الأوائل فصلى لها الضعفاء الأواخر، ووجدوا فيها الراحة والمبرر الأخلاقي للهرب من الحياة المكافحة الصعبة، ونقلوا حظهم من عالم الأحياء المتعب الدنس، إلى عالم الأموات المريح الطاهر. لقد استراحوا بهذا الحل الذي جمع لهم بين الرضا عن النفس والتخلي عن الأعمال الكبيرة، مع الاحتفاظ بالأمل الذي لا بد أن يكون إما هنا وإما هناك، وإما هنا وهناك..

ما أسهل الاقتناع بالفكرة التي تجعلنا فضلاء أمام أنفسنا وأمام مجتمعنا، وتجعلنا مع ذلك موعودين بأفضل الفرص والحظوظ، مع إعفائنا من تكاليف كينونتنا.

لقد ظل البشر في أكثر عصورهم يشترون الكذب بالحرية، ويشترون الراحة بالحقيقة، ويشترون الإيمان بالذكاء.

فرار، لا غزو خارجي

في روح الجماعة أشواق غير متوقرة إلى الحديث عن الموتى والاستماع إليه.

إن التحديد بالموتى هنا غير دقيق، فالجماعات يبهرها الحديث عن الغائب كيفما كان ذلك الغائب، بقدر ما يبهرها الاستماع إلى الخوارق. إنها تجد سروراً روحياً غامراً في أن تتحدث، وأن تسمع الحديث بالتهاويل والمعجزات عن الأموات، والأشباح، والآلهة، والقديسين، والأشرار.. عن الذين مضوا، وعن الذين لم يوجدوا، وعن الذين لن يوجدوا؛ لعلها تريد أن تخرج من حدودها الزمنية والوجودية والشعورية.. لعلها تريد أن تندمج في المطلقات، لأنها لا تطيق التحدد في صورة من صور الكينونة أو الزمان، أو من صور الشعور والتفكير.

والتحدث عن الكائنات الخارقة يغازل هذه الأشواق.. يخرج بها عن التحدد. إن رغبتها في

الخروج على نفسها، هي التي أنتجت لها الفنون والآداب والأديان، بكل ما فيها من أساليب التعبير الصوتية والحركية، والتصويرية والانفعالية.. إنها هي أيضاً التي علمتها العربدة والغيبوبة.

إن المعربد إنسان يريد أن يخرج على نفسه.. إن العربدة والغيبوبة والعبادة أساليب مختلفة تعني كلها الخروج على الذات والتجاوز لها.

إن أبشع أعدائنا هي ذواتنا، لهذا نحاول الخروج عليها ومنها.

إن الإنسان لا بد أن يكون محدثاً ومستمعاً.

إن الإنسان لا بد أن يكون هارباً مهروباً إليه، طارحاً على الآخرين مستقبلاً للآخرين.

إن اختراع اللغة، وكذلك جميع وسائل التعبير، سببه أن البشر محتوم عليهم أن يتحدثوا ويسمعوا، ويحيا بعضهم في بعض.. وكل وسيلة من وسائل التعبير سواء اللغات وغيرها، إنما أريد بها أن تكون أداة لكي يستطيع الإنسان أن يوزع نفسه ويستقبل الآخرين. إن الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون جهاز إرسال وجهاز استقبال. ومع أن الاستماع عملية استقبال فقط فيما يبدو، فإنه أيضاً عملية إرسال، فالذي يستمع إلى الحديث لا يستقبل الآخرين فحسب، بل ويتوزع عليهم. إنك إذا استقبلت إنساناً فقد توزعت عليه كذلك. وإذا واجهت مشاعر إنسان وأفكاره، فقد ألقيت عليه أيضاً بمشاعرك وأفكارك. أنت تحيا في الآخرين بقدر ما تستقبلهم ليحيوا فيك. والذي يتعامل مع الناس بعواطفه أو عقله، أو فنه أو آرائه، أو أعضائه بأية طريقة من طرق المعاملة سواء أكانت كلمة أم حركة، أم صورة أم صوتاً، لا يعني بذلك أن يهبهم الخير والاستقامة، أو السرور والحب؛ وإنما يقصد أن يتخلص من ذاته ويلقي بها عليهم. ويقصد كذلك أن ينتقلوا إليه بهذه الوسيلة، فهو يريد أن يحيا فيهم وأن يحيوا فيه.

إن الإنسان هنا مهما كان ظالماً فإنه ليس ظالماً.. إنه ظالم لأنه يلقي بنفسه على الآخرين ويتعمد هذا الإلقاء، ولكنه يتقبل بنفس الرغبة والحماس والمستوى أن يلقي الآخرون بأنفسهم عليه. إذن فهو ظالم مكفر عن ظلمه، أو ظالم مظلوم، أو فاعل فعل الظالم الذي يعطي نتائج فعل المحسن.

اختزان الجحيم

إن الاستماع إلى الرواية لا يعني أن سنداً أو قوماً من الموتى يتدخلون في حياة قوم من الأحياء ليفرضوا عليهم كينونتهم ووجودهم التاريخي الذي قد مات، أو يفرضوا عليهم مزاياهم ورذائلهم.. ليس في المسألة غزو خارجي. ولكن الاستماع إلى الرواية يعني أن قوماً من الأحياء يريدون أن يهربوا من أنفسهم بما فيها من أشواق ومتاعب، وأزمات وهموم.. يريدون أن يهربوا

من ظروفهم بما فيها من عجز، ونقص، وخوف.. يريدون أن يخرجوا مما يجدون إلى ما يمنون.. إنها عملية تسليم من الداخل..

الذي يذهب إلى السينما، أو يشاهد تمثيلية، أو يسمع الموسيقى، ماذا يريد أو ماذا يفعل..؟

اعتاد الناس أن يقولوا جواباً عن ذلك: إنه يريد أن يجلب لنفسه سروراً، أو يتخلص من اكتئاب.. حسنٌ، ولكن كيف يحدث ذلك..؟

إنه بهذه الوسيلة التعبيرية البسيطة ينتقل إلى الآخرين، وينتقل إليه الآخرون، تتغير انفعالاته وتتحرك تراكيبه النفسية.

لماذا نريد أن نتحدث إلى الآخرين، ويتحدث إلينا الآخرون..

لماذا لا نظل صامتين.. ولماذا لا نغلق آذاننا دون من يتحدثون..؟

أليس الصمت وقاراً، وراحة، وأمناً.. أليس الإغلاق دون من يتحدثون ابتعاداً عن البذاءات وعن الاحتمالات الأليمة..؟

إن الحديث والاستماع إليه، عملية مرهقة.. إنهما مخاطرة وخروج من الوقار، ولكننا مع ذلك نظل نتحدث ونتحدث، ونشتري الحديث بكل احتمالات الوقار، والحاجة، والأمن. إن التفسير لهذه الظاهرة المتناقضة، أننا بالحديث والاستماع إليه نلقي بحالتنا النفسية على الآخرين، ونختلط بهم شعورياً وفكرياً، وهذا يريحنا على نحو ما من وضعنا النفسي الباهظ. ولهذا فليس في البشر من لا يريد أن يتحدث وأن يسمع الحديث. إن البشر يرفضون أن يكونوا صامتين أكثر مما يرفضون أن يكونوا مجانين.. إنهم يقبلون كل احتمالات الخطر والعقاب، ولا يقبلون أن يصمتوا. إن الصمت يعني اختزان الجحيم داخل الذات.

إن قيمة الحديث ليست في موضوعه أو في جدواه، بل في الحديث نفسه. إن الناس يتحدثون وهم يعلمون أنه لا فائدة من حديثهم، وهم لا يريدون أن يكون لحديثهم فائدة؛ وإنما يريدون أن يتحدثوا وأن يظلوا يتحدثون.. إنهم لا يعنون ما يقولون في الغالب؛ ولكنهم يتحدثون كما يحزنون ويحقدون ويشتمون، بلا خطة موضوعة أو هدف معلوم.. إن الحديث استجابة لحاجة المتحدث لا لحاجة السامع.

والناس يؤدون عملية التحدث والاستماع إليه، بالشهوة والحماس والأسلوب الذي يؤدون به العملية الجنسية.. إنهم قد يستغنون عن الأعمال الجنسية دون الاستغناء من عمليات الحديث. إن الذين استغنوا عن الجنس ظلوا محتاجين بنهم أكثر إلى الكلام. إن نوبات الحاجة إلى ممارسة الحديث، أكثر جداً من نوبات الحاجة إلى ممارسة العمليات الجنسية. والحديث والعلاقة الجنسية كلاهما التقاء بالآخرين وممارسة لهم، أو ممارسة للنفس بواسطة الآخرين. ومهما كان رفضنا

لأن يكون الحديث نوعاً من العلاقات الجنسية، فإنه سيظل أسلوباً من أساليبها، أو شبيهاً بها، أو قريباً منها.. وأيهما أشد تعذيباً لنا: أن نحرم من الحديث والاستماع إليه، أم من الممارسة الجنسية..؟

وإذا كان الرجل والمرأة كل منهما يبحث عن الآخر بحافز الجنس، فإن الرجال أيضاً يبحثون عن الرجال، والنساء عن النساء بحوافز الحديث. إن الحديث غاية في ذاته، وليس وسيلة دائمة. وكما أن الممارسة الجنسية لا يقصد بها في الأكثر أو دائماً أن تهب الأولاد، أو أن تهب أي شيء غير اللذة والراحة، فكذلك الحديث أو الاستماع إليه لا يقصد به في الغالب أن تكون له نتائج.. لا يقصد به أن يتحول إلى نبوات، أو مذاهب تصلح الكون أو تعجب السماء.

ولو كان البشر لا يتحدثون إلا حين يكون الحديث يعني شيئاً أو وسيلة إلى شيء، لظلوا أكثر أوقاتهم صامتين، ولما وجد كل هذا التراث الهائل من الكتب والتعاليم والأديان.

إن من أشد العقوبات أن يمنع الناس من الحديث الذي لا يفيد.. إن من أشد العقوبات أن يمنعوا من الصراخ ومن الأنين المسموع والمكتوب. إنهم خليقون حينئذٍ أن يتعذبوا ويمرضوا ويجنوا.. إنه لجنون أن يحرم على الناس الثرثرة واللغو من القول. لقد وجدت أقسى الشرائع والقوانين وأغباها، ولكن لم يوجد قانون أو شريعة تحرم الكلام الفارغ، أو تحريم البكاء الذي يتحول إلى حديث؛ بل لقد أوجدت هذه القوانين والشرائع والوسائل الكثيرة التي تجعل الجماهير تتحدث وتبكي وتصرخ عالياً.. تصرخ عالياً وكثيراً باسم الإيمان والعبادة، أو الوطنية أو النضال ضد الأعداء والفساد.

إن الهتاف باسم الإله والبطل، تعبير عن الحاجة إلى الصراخ، لا عن الحاجة إلى الإيمان أو الإعجاب. وهذه الصداقات بين البشر، ليس الحافز عليها هو الحب، بل لأنها تعطيهم الفرصة لكي يتحدثوا ويتحدث إليهم الآخرون. إن أعظم أسباب الحاجة إلى الصداقة، هي الحاجة إلى الحديث وإلى الاستماع إليه.

إن الناس إذا لم يجدوا من يتحدثون إليه أو يتحدث إليهم، ذهبوا يحدثون أنفسهم، أو يحدثون الجمادات، والحيوانات، والفراغ.. ليست الكتابة والشعر، والغناء والصلوات في حوافزها الكبرى، إلا حديثاً للنفس. ولعل كل العبادات في كل صورها حديث نفسي..

لقد اخترعوا الآلهة ليتحدثوا إليها.. لقد تصوروا هذه الآلهة متحدثة، لأنهم يريدون أن تتحدث إليهم، لأنهم لا يتصورون عاقلاً مريداً بدون أن يتصوروه متحدثاً.. إن قيمة الآلهة في أن نتحدث إليها، لا في أن تستمع إلينا.. إن الناس يتحدثون إلى الأرباب كما يتحدثون إلى النجوم والأطلال. هي حاجة إلى الحديث لا إلى السماع.. إنهم يعلمون بالتجربة المملة أن

الآلهة لا ترد عليهم حديثاً، ولا تستجيب لطلب من طلباتهم، ولا لضراعة من ضراعاتهم.. إنهم لا ينتظرون هذا الرد، ولا هذه الاستجابة.. إن جميع حساباتهم قائمة على أنه لا رد ولا استجابة بل قائمة حساباتهم على أنه لا استماع إلى أحاديثهم وطلباتهم وضراعاتهم... كل حساباتهم قائمة على أن الآلهة لا تسمعهم، على أنها لا تسمع؛ ولكنهم بكل الحماس والتوتر يظلون يدعونها.. إنهم يتحدثون فقط.

إن القيمة النفسية للحديث، هي في أنه جهاز من أجهزة التصريف لانفعالاتنا الأليمة التي تجمع في داخلنا بسبب هذا التصادم المستمر بين إرادتنا وقدرتنا، أو بين قدرتنا وتعاليمنا. ولهذا فإنه كلما اشتدت آلامنا وتناقضاتنا مع ظروفنا، أصبحنا أكثر حاجة إلى الحديث. إن المرضى والمتعبين والعصبيين، هم أكثر الناس حديثاً لأنهم أكثرهم تناقضاً مع الحياة، وأكثرهم كذلك اختزاناً للانفعالات الحادة. ولهذا كان أصحاب الرسالات والمصلحون، والكتاب والفلاسفة، يخرجون في الغالب من بين أنقاض هؤلاء المتألمين القلقين، الذين يذهبون يبكون ويصرخون، فيتحولون إلى أنبياء وإنسانيين خالدين، مع أنهم ليسوا سوى أطفال يبكون من الخوف أو الحرمان.

إن حواسنا كلها وسائل جيدة للتخفيف من ضغط مشاعرنا علينا. إننا برؤية الأشياء وممارستها بأسلوب اللمس والشم والتذوق وغير ذلك، نخفف من حمولتنا الانفعالية. ولم يزل الناس يجدون في الأسفار وفي رؤية الأشياء الجديدة والأماكن البعيدة، وفي رؤية الآخرين والغرباء مسرة وعزاء نفسياً. إن سبب هذا هو تبديد مخزونهم من العواطف بتوزيعها على تلك الأشياء بالرؤية واللمس، والإشارة، والإعجاب، والاتصال. إن السفر ليس انتقالاً، بل توزيع ذات.

إن ذوات البشر تنتشر على الأشياء وتتوزع كما يفعل الضوء، والحرارة، والهواء. ولا بد أن الحيوانات والطيور نفسها تعمل بوحي من الغريزة على تشتيت انفعالاتها بالحديث غير المفهوم الذي تطلقه بأصواتها وأغانيها المختلفة، حتى كأنها تصلي أو تخطب أو تقرأ رسالة وصلتها من السماء، أو تكتب رسالة ودية إلى السماء، أو كأنها تتلاعن أو تتناقش في قيمة أحد المذاهب أو العقائد كما يفعل البشر.

لماذا تغني وتصوت الطيور والحيوانات.. هل تريد أن تخاطب أحداً.. هل تريد أن تعلم أحداً.. هل تريد أن تسمع أحداً.. هل تشكو الإله.. هل تدعو إلهاً.. هل تصلي لإله.. هل تطلب منه أن ينصرها على خصم.. هل هي تريد شيئاً أم هي تطلق انفعالاتها فقط..؟

وهؤلاء الذين جاؤوا الإنسانية بالكتب والأساطير الخالدة، هل كانوا يريدون أن يعلموها..

هل كانوا يعطفون عليها.. هل كان هداها وضلالها، وخيرها وشرها في حسابهم وتفكيرهم.. أم هم إنما كانوا أناساً يبكون ويتحدثون مع أنفهسم بأصوات عالية..؟

إن الحديث عملية صراخ تعبر عن الضيق والألم، والعصبية والهياج الجنسي. إن المحروم جنسياً يتحدث أكثر من المرتوي جنسياً.

كم هي مأساة أن تحول انعكاسات النفس واحتشاداتها الأليمة إلى آلهة وأديان، وثقافات يراد لها أن تفرض على جميع مستويات التاريخ.. كم هي مأساة أن تتجمع الآلام والتناقضات، والردود المنعكسة في أنفسنا، فنحاول التخلص منها بأن نصنع آلهة، وعقائد، ومذاهب لكي تشتت هذه التجمعات في داخلنا بالصلاة والهتاف لهذه الآلهة والعقائد والمذاهب، وبمشاتمة الآخرين ومخاصمتهم باسمها، دون أن نحمل لها أي احترام حقيقي.

مشاتمة لا مصافحة

والرجال الذين يبدون وكأنهم يريدون أن يقتلوا أنفسهم غيرة علينا، وحباً لنا، ومحاولة لإصلاحنا، والذين يبكون أو يصابون بالصرع وهم يمطروننا بالمواعظ والتعاليم، وعمليات التبشير الكبرى التي يرصدون لها حياتهم، ويلطمون بها مشاعر المجتمع وأخلاقه.. هؤلاء الرجال ليسوا وفداً من السماء جاء ليخلص أنفسنا من ذنوب التراب، وغبار الأرض؛ وإنما هم أناس معذبون هاربون يريدون أن يتخلصوا من ضيقهم وكآبتهم النفسية، ويلقوا بها علينا..

إنهم يريدون أن يتعالجوا بالسقوط فوقنا، والمستمعون إليهم يفعلون الشيء نفسه.. إنهم لا يستمعون إليهم لأنهم يحبونهم أو يحبون الحقيقة، ولكن لأنهم هاربون من حالتهم النفسية.

وما يفعله هؤلاء وهؤلاء ليس إلا عملية استفراغ يتبادلونها.. إن كل فريق يستفرغ على الفريق الآخر.. إن المعلمين يستفرغون على الجماهير التي يحاولون تعليمها.. وإن هذه الجماهير لتستفرغ على معلميها بالاستماع إليهم، وبالهتاف لهم والبكاء تأثراً بتعاليمهم.

إن الدعاة وأتباعهم لا يحب أي منهما الآخر، وإنما يغتسل كل منهما فوق الآخر..

إن أي داعية إنما يريد أن يغتسل فوق من يدعوهم إلى الإيمان، وإن أي مؤمن إنما يريد أن يغتسل فوق الداعية الذي يؤمن به..

إن كلاً منهما إنما يريد أن يلقي فوق الآخر بهمومه، وأضغانه، وبعرقه..

إن العلاقة بين التابع والمتبوع هي دائماً نوع من المشاتمة، وليست نوعاً من المصافحة.

إذا وجدت من يتحدث إليك بثورة وحماس، ينصحك ويرشدك ويمنحك خالص نفسه، فاعلم أنه إنسان محتاج إلى أن يتحدث ليشفي نفسه من آلامها وضيقها، وليس إنساناً غيوراً أو

طبيباً أو محباً للآخرين. وكذلك إذا وجدت من يستمع إلى أحاديثك الطيبة الهادية بإيمان ولهفة، فليس لك أن تراه إنساناً حكيماً فاضلاً، يتلقف الحكمة والفضيلة من فمك وقلبك، ولكنه إنسان ضائق بنفسه، يبحث عن الفرار منها، ويريد أن يهرب إليك ويعيش فيك، ولهذا فإن المفروض عليك أخلاقياً أن تهب محدثك والمستمع إليك هذه الفرصة..

ولكن واأسفاه، فأنت لست فاضلاً إلى المدى الذي تتطلبه حاجة الآخرين إليك. إنك لن تمنحه هذه الفرصة الهينة عليك إلا إذا كنت أيضاً هارباً من نفسك، وتريد أن تلقي بها على من تتحدث إليه ويتحدث إليك. إنك لا تتحدث ولا تستمع إلا بقدر ما تريد أنت، لا بقدر ما يريد من تتحدث إليهم، ويتحدثون إليك.. إنه لا يوجد إنسان واحد في هذه الدنيا ليس مقيداً ومحكوماً بذاته الخاصة.. إنه لا يوجد من يشعر شعوراً عاماً، أو يفكر تفكيراً عاماً، أو يملك أخلاقاً عامة؛ مهما كانت ممارسته عامة. فالممارسة العامة لا تصنع أخلاقاً عامة.

إن كل شيء في الإنسان خاص، ولا يمكن أن يكون غير خاص. ولكن هذا الشيء الخاص يعرض عرضاً عاماً، ويقع التعامل عليه كأنه عام. فإذا كنت زعيم أكبر دولة أو قائدها أو قائد الإنسانية كلها أو معلمها، وكنت تشعر وتفكر، وتعمل وتتعامل من خلال ذاتك الخاصة، فكم يكون ذلك سخيفاً ومخيفاً.. وأنت حينئذٍ لن تكون إلا ذلك الشيء السخيف المخيف.

إن البشر حتى اليوم لم يجدوا وسيلة يجعلون بها الإنسان العام في عمله، إنساناً عاماً في حوافزه وأهدافه ومستوياته.

إن أكبر زعيم لأكبر دولة لا يساوي أكثر مما يساويه أصغر عامل بسيط في أن كلاً منهما إنما يفكر ويتحرك ويشعر من خلال ذاته الخاصة، بأهداف وحوافز ومستويات الذات الخاصة. إن الفرق بينهما لا يعني أكثر من أن أحدهما ينظر إلى وجهه بمرآة صغيرة، وأن الآخر ينظر إلى نفسه بمرآة كبيرة جداً.. إن الفرق بينهما يساوي الفرق بين المرآتين؛ لا بين الرجلين.

محاولة تفوق على الذات

إن الإنسان في هذا العالم هو الكائن الفريد الذي لا يعيش وجوده فحسب.. إنه لا يعيش ذاته وظروفه فقط، بل هو دائماً يعيش لخارج وجوده.. إنه يعيش بعيداً بعيداً.

إنه كائن هارب.. كائن مفكر، متخيل، شاعر، حالم، حساس، متألم بتفكير؛ وليس سوى الإنسان من يتألم بالتفكير، كذلك ليس سوى الإنسان من يخاف بالتفكير.

هو مصور متصور، يتصور أشياء غير موجودة ويصورها. إنه لكائن يخاف أكثر من الكائنات الأخرى التي هي دونه.. إن خوفه الأكثر يجعله شيئاً أكثر وأكبر.. إنه بقدر كينونتنا تكون مخاطرنا.. إن تصرفنا إزاء الشيء متناسب مع شعورنا نحوه. وإن شعورنا نحوه، نحو

الشيء متناسب مع احتمالاتنا نحن، ومع قدرتنا وحاجاتنا لا مع قيمة ذلك الشيء.. إن شعورنا نحو الإله مساوٍ لنا نحن، وليس مساوياً لنفس الإله.

إننا نحلم بالشيء بقدر ما فينا من قدرة على الاحتلام، لا بقدر ما في ذلك الشيء من معاني أو موجبات الاحتلام.

والبشر هم وحدهم الذين يعيشون في التاريخ والمستقبل، وفي المحال والكذب، وفي الحقيقة أيضاً. وهم وحدهم الذين يتحدثون عما كان من الموتى والآلهة وبدء الخليقة. وعما لم يكن مما سوف يكون ومما لن يكون.. يتحدثون عن الأحلام، والحضارات، والغد المقبل القوي. هم دائماً يحيون ويتحركون في عمليات جذب متناقضة هائلة.. هم لهذا يتجهون أحياناً إلى الخرافة والتاريخ. إنهم يحاولون أن يعيشوا فيهما هاربين من أنفسهم إلى الوراء، وحينئذٍ يتخلفون ويعجزون عن الكينونة الكبرى. وأحياناً أخرى يتجهون إلى الحقيقة هاربين من أنفسهم إلى المستقبل، تعيش فيه أشواقهم وأفكارهم وأحلامهم، وحينئذٍ يتقدمون ويبدعون ويصنعون الحضارات القوية. فالحوافز التي تجعلنا نهرب إلى الوراء ونصنع الأحاديث والخرافات ونؤمن بها، هي نفس الحوافز التي تجعلنا نهرب إلى الأمام ونصنع الحضارة والمستقبل الكبير.

ولكن هل الهاربون إلى المستقبل هاربون من أنفسهم، أم هم هاربون من أنفسهم التي كانت إلى أنفسهم التي سوف تكون أو التي يجب أن تكون.. أم هم هاربون فقط، لا هاربون من شيء ولا إلى شيء..؟

هل نحن نتحرك لأننا نبحث عن شيء، أم لأننا لا بد أن نتحرك.. هل النهر يبحث عن شيء، أم أنه لا بد أن يتحرك..؟

وهل الإنسان غير النهر في قانون الحركة الذاتية العابثة..؟

إذن هل الحديث إلا محاولة للخروج من النفس والكينونة خارجها..؟

وهل الحضارة كذلك إلا محاولة مماثلة، ولكن اختلفت أساليب التعبير..؟

وهل الفرق بين هذا وهذا إلا كالفرق بين من يحولون احتياجاتهم وآلامهم إلى أحلام وبكاء، ومن يحولونها إلى تفكير وإبداع..؟

لقد ظل الحديث بمعناه العام، أي الكلام، يستنفد أكبر الطاقات من حياة الإنسان في جميع العصور. إن كل إنسان لا بد أن يخسر بعض حياته ونضاله، وأخلاقه ووقاره في سبيل الكلام والاستماع إليه.

إن المناضل والمخترع لا يريد إلا أن يكون غير نفسه، وأن يتخطاها بتفوق عليها. وإن

المتحدث والمستمع للحديث لا يريد أيضاً إلا أن يكون غير نفسه، وأن يتخطاها، ويتفوق عليها؛ ولكن بطريقة فرارية.

ممارسة لبعض الموت

والصانعون للأحاديث وللخرافات التاريخية، والمؤمنون بها، ليسوا فضلاء ولا باحثين عن الحق، ولا محترمين لأنبيائهم وشيوخهم، وأربابهم الذين يحدثون عنهم، ويؤمنون بهم؛ وكذلك المخترعون والصانعون للحياة والأعمال الكبيرة، ليسوا فضلاء. إن هؤلاء وهؤلاء يريدون أن يعيشوا خارج وجودهم وظروفهم؛ ولكن شتان بين وسائلهم في التعبير عما يريدون. قوم يريدون فيعجزون، فينامون لينسوا إرادتهم، لينسوا عجزهم.. وآخرون يريدون فيواجهون إرادتهم بقوة وذكاء.

ولعل من أسباب الإيمان بالأحاديث والأساطير أن المؤمنين بها يريدون أن يموتوا.. يريدون أن تموت بعض أشواقهم وتحركاتهم، وأفكارهم وحماسهم ومطالبهم.. إنهم لا يطيقون أن يحيوا كل الحياة بكل معاني الحياة وشهواتها.. إن ذلك يرهقهم ويقتلهم. فالحديث والأسطورة عملية تمويت ممتازة.

إنه لا يوجد من لا يريدون أن يموتوا بعض حياتهم، كما لا يوجد من يستطيعون أن يحيوا كل حياتهم.. إننا لا نطيق أن نحيا كل الحياة؛ إذن لا بد أن نموت بعض الموت..

إن حياة كل الحياة، بكل رغبات الحياة وحماسها، واحتمالاتها، لعذاب، لقتل، لمحال.. لهذا لم يكن بد من أن نحيا بعض الموت.. من أن نمارس بعض الموت؛ لكي نستطيع أن نحيا، لكي نستطيع أن نمارس بعض الحياة.

لقد كانت الرواية والأسطورة والاستماع إليهما، بحثاً عن بعض الموت.. تسويغاً لبعض الحياة، لأن كل الحياة لا يطاق، كما أن كل الموت لا يراد.

إن البشر محتاجون دائماً إلى إطفاء بعض الحرائق الكبرى التي تأكل ذواتهم..

إن في كل ذات.. إن في كل مجتمع حريقاً دائماً، وعمليات الإطفاء موجودة في جميع المجتمعات والذوات. ولولا هذه الاطفائيات لاحترق البشر..

ولم تكن التعاليم في كل صورها تعني عند الإنسان إلا أن تؤدي عملية إطفاء منظمة. لهذا لا بد من التعاليم مع أنه لا يمكن العمل بها.. كل المجتمعات صنعت التعاليم، وكلها عجزت عن إخضاع سلوكها أو أهدافها لهذه التعاليم.

إن أعظم الدعاة الذين جاؤوا بأقوى التعاليم وأصرمها، لم يكونوا أقدر ولا أكثر رغبة في احترام تعاليمهم من أفسق الفاسقين.

إن التعاليم مثل الآلهة، كل المؤمنين يهتفون باسمها، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا إلا إذا شنقوها.

إن قيمة الرسالة ـ كل رسالة، أية رسالة.. إن قيمة كل رسالة هي في الإيمان بها والخروج عليها.

إن كل إنسان لا بد أن تكون له رسالة، وإلا لكان بلا لغة، وبلا صيغة إنسانية..

وإن كل إنسان لا بد أن يخرج في أهدافه وحوافزه وأخلاقه على رسالته، وإلا لقتلته رسالته..

إن كل إنسان يستطيع أن يربط نفسه باسم إله أو مذهب، أو عقيدة أو نظام، ولكن لا يوجد إنسان واحد يستطيع أن يخضع حوافزه أو أهدافه، أو أخلاقه أو أمانيه، بل أو احتلامه لذلك الإله، أو المذهب، أو النظام، أو العقيدة.

إن المحدث هو إنسان يبصق الجثث على المجتمع..

إنه إنسان يبصق التاريخ..

إنه يبصق همومه وآلامه، وضعفه وتشوهاته، وغباءه وكذبه وجوعه على الآخرين..

إنه يشتم الناس، ويتهمهم، ويعاقبهم، ويخاصمهم بحجة تعليمهم وهدايتهم.

إلهك.. إرادتك

إن الناس جميعاً يعصون ويتلوثون فراراً من الألم لا تحدياً له، وبحثاً عن اللذة لا هرباً منها أو زهداً فيها.

إنه لا يوجد من يطيع الشيطان لو عرف أنه شيطان، إنه لا يوجد من يعصي النبي لو عرف أنه نبي.

إن الذي يموت تحت قدمي النبي أو البطل، إيماناً أو إعجاباً به أو دفاعاً عنه، ليس إلا إنساناً مستعبداً لإرادته، لا لفضيلته.. إنه مثل قاتل البطل أو النبي.

إن الذي يدافع عن النبي أو يغضب له، إنما يدافع عن إرادته هو، ويغضب لها.

إن النبي لا يساوي في تقدير من يموت دفاعاً عنه، أكثر من إرادته الدفاع عنه.

إن إرادة الدفاع عن النبي أو البطل، هي إرادة لموقف الدفاع.. لا للنبي أو البطل.

*

لا تسير الإرادة والمعرفة دائماً في طريق واحد.

إننا قد نعرف مثلاً أن هذا الأمر صالح ولكننا لا نريده، فنذهب نحاربه، ونزعم أنه فاسد، أو نحاول تضليل معرفتنا به وبمزاياه، وهذا لأن أغراضنا الخاصة لا تنال به، أو لأنه ينكر علينا هذه الأغراض.

وكذلك قد نعرف أن أمراً من الأمور، أو مذهباً من المذاهب أو عهداً من العهود، أو رجلاً من الرجال فاسد وشرير، ولكننا نظل نناصره، ونحافظ عليه ونكذب له الفضائل، ونزعم أنه صالح، وقد نراه صالحاً بالتعويد، لأننا نريده.

ونحن نريده لأنه طريقنا إلى أغراضنا، ولو توهماً وخطأ.

وليس هذا فقط، بل إن معرفتنا نفسها خاضعة لإرادتنا، فقد نعرف الشيء لأننا نريد معرفته، ونريد معرفته لأننا نكسب من هذه المعرفة شيئاً.. أو لأنه يتلاءم مع حالتنا النفسية، أو مع أفكارنا وعقائدنا الخاصة. وقد نجهل الشيء لأننا نريد جهله، لأن في جهله فائدة أو راحة لنا.

إننا لا نعرف أو نجهل لأننا نعرف أو نجهل، إننا نعرف ونجهل لأننا نريد أو لا نريد.

إن إرادتنا للشيء قد تتحول إلى معرفة به، إلى اقتناع به. وإن رفضنا للشيء، قد يتحول إلى جهل به، إلى عجز عن الاقتناع به، إلى عجز العقل عن الاقتناع به.

وتتناقض معرفتنا وإرادتنا لأنه يوجد دائماً تناقض بيننا وبين الكون، والآخرين وأنفسنا، فالمعرفة تتحدى الأشياء، والأشياء تتحدى المعرفة. والمعرفة كما سبق في مواضع من هذا الكتاب ليست هي المحرك الأول في حوافزنا، بل الإرادة.. أي الفائدة الخاصة التي تتعلق بها الإرادة. غير أن الإرادة ـ على أحد الوجوه ـ مسيرة بالمعرفة، فالإرادة تتعلق بالأشياء التي تناسبها تعلقاً عشوائياً فيما يبدو، والمعرفة أحياناً، هي التي تدلها أين يوجد ما يناسبها.

وهذا هو سبب اختلاف الناس في ممارساتهم ودروبهم وأديانهم ومذاهبهم. إن كلاً يسعى إلى ما يريد، ولكن أين يوجد هذا الذي يريد.. وما هو..؟

إن أصنام كل البشر هي إرادتهم.. ولكن أين توجد هذه الأصنام..؟

إن كل الآلهة.. كل المذاهب.. كل النظم.. كل الصلوات.. كل الشعارات.. إن كل ذلك ليس سوى أزياء مختلفة للإرادة، إن كل ذلك ليس سوى لغات تتحدث إلى الإرادة، وتتحدث بها الإرادة إلى نفسها.

إن إلهك العنيف المتوتر هو إرادتك العنيفة المتوترة، وإن إلهك المتسامح هو إرادتك المتسامحة.

إن البشر لا يختلفون في أنهم جميعاً يريدون اللذة ويطلبونها. أو على الأقل يريدون الاستجابة لذواتهم. إن اختلافهم يرجع إلى اختلافهم في الطرق التي تؤدي إلى اللذة. إن أشد الناس كسلاً مثل أشدهم مغامرة، إن كلاً منهما ينشد اللذة.

إن المعرفة خاضعة للإرادة، وإن الإرادة موجهة بالمعرفة، فكيف كان ذلك..؟

إن قصد الإنسان في جميع ممارساته هو تلبية إرادته لأنها غاية، لأنها قانون، لأنها ضرورة..

أما المعرفة فهي خادم ووسيط للإرادة، إن جميع معارف البشر المكسوبة لم يدفع إلى شيء منها سوى إرادتها. إن كل معارف البشر مسخرة للإرادة. إن المعرفة بلا إرادة لا تعني شيئاً، إنها

ليست قيمة ولا حاجة إنسانية. وإذا أردنا المعرفة فالقيمة لإرادتنا لها، وليست لنفس المعرفة.

وهل نريد المعرفة التي هي ليست قيمة أو ضرورة في حياتنا..؟

إننا قد نفعل ذلك.

هل الإنسان يريد لأنه يعرف، أم يعرف لأنه يريد.

إن الجواب بهذا أو بهذا على وجه التوكيد ودائماً لا يكون صواباً.

إن الصواب الإجابة على الشطرين معاً بالموافقة. إن الناس إنما يطلبون المعرفة والحق يوم يريدونهما، وحين تكون المعرفة ضد الإرادة فلن تجد حينئذٍ من يطلبها أو يرضى عنها. إن الشعوب والجماعات التي تطلب المعرفة والحق والعدالة، إنما تفعل ذلك لأنها قد أرادتها؛ لا لأنها قد احترمتها، أو عرفت منفعتها.

إن التدليل على الشيء بأنه حق أو عدل بالبراهين والمنطق، لا يمكن أن يكفي لاتباعه أو الموت في سبيله، بل ولا للاقتناع به. إنه لا بد من خلق الظروف التي تجعل إرادته أمراً محتوماً.

لقد أراد الناس ولا يزالون يريدون الجهل بالمعرفة، أكثر مما أرادوا العلم بها. إن كل مجتمع مهما أراد المعرفة، فإنه يريد أيضاً الجهل بها. بل إن كل مجتمع يقاوم المعرفة على نحو ما، وبأسلوب ما. إن معنى هذا أن جميع الحقائق الموجودة في الدنيا، لا تستطيع أن تجعل منا أصدقاء لها، ما لم توجد فينا إرادتها.

إنه من العبث أن نرجو من إنسان يجني من انحطاط قومه وجهلهم أضخم المغانم، أن يؤيد أو يبارك الدعوة إلى التغيير الشامل، أو حتى يهادن ذلك.

كما أن من العبث محاولة إخراج قوم من وضعهم الاجتماعي، أو الاعتقادي، أو الفكري، أو النفسي الذي طالما تشبثت به إرادتهم، واعتادته، بدون إيجاد حافز قوي من الرغبة يحرك فيهم إرادة الوضع الآخر الذي يراد نقلهم إليه.

إن هذه الحضارة بكل إغرائها وقوتها، لم تقدر على أن تجعل من بعض المجتمعات المتأخرة قابلين لها أو مؤمنين بها، لأن الحوافز التي كانت لدى هذه المجتمعات حوافز مخالفة لا موافقة. إن هذه الشعوب لم ترد هذه الحضارة فلم تؤمن بها، وسوف تظل غير مؤمنة بها ما لم تردها.. أي ما لم تر فيها أنها مفيدة لها، وملائمة، وقادرة عليها.

إن العجز عن الشيء يخلق الإرادة المضادة له أحياناً. إن هذه الحضارة تهديد وتعجيز لموهبة الضعفاء ولمشاعرهم نحو أنفسهم. إن مزاياها ـ ولا سيما مزاياها الأخلاقية والفكرية والديمقراطية ـ تحد وإحراج لأخلاق الضعفاء ولقدراتهم.. لهذا محكوم عليهم بألا يقدروا

عليها، وبألا يتلاءموا معها.. لهذا محكوم عليهم بألا يؤمنوا بها، لأنه محكوم عليهم بألا يريدوها، مهما مارسوها، مهما مارستهم.

ويوجد هنا قول قديم قاله سقراط وناقضه آخرون ولا تزال وجوه الخلاف فيه قائمة.

قال: «إن المعرفة هي الفضيلة».. ولكن كيف قال ذلك، وما تفسير هذا الذي قال..؟

لعله يعني أن المعرفة بالشيء توجب العمل بما تعني المعرفة، والعمل بما تعني المعرفة هو الفضيلة، لأن الفضيلة هي تحقيق أقصى ما يمكن من اللذة، ودفع أكبر ما يمكن من الألم من بين اللذات والآلام. إنه ليس من الممكن أن يعلم إنسان أن عملاً من الأعمال يجلب له أكبر اللذات، ويرد عنه أكبر الآلام، ثم يتركه مختاراً. وإذا تركه فلا بد أن يكون قد اعتقد في الترك لذة أكبر من لذة الفعل. كما لا يمكن أن يعلم إنسان أن عملاً معيناً يجلب عليه أكبر الآلام، ويحرمه من أعظم اللذات، ثم يفعله إذا استطاع أن يتركه، وإذا فعله فلا بد أن يكون قد اعتقد أن في الفعل دفعاً للألم أكثر مما في الترك.

وأنا أعني هنا باللذة الإرادة، وبالألم الخروج على الإرادة.

وهل يوجد احتمال أن سقراط يريد أن مجرد المعرفة فضيلة، أن مجرد معرفة الشيء، أي شيء فضيلة..؟

هل يريد أن مجرد معرفة حجم الإله وحجم الشمس أو حجم الكون فضيلة..؟

هل يريد أن مجرد معرفة ما بعد الموت فضيلة.. إذن ماذا يعني سقراط بالفضيلة..؟

والذين يعارضون هذا التفسير يعارضونه لأنهم يرون الناس يسرقون، ويقتلون، ويكذبون، ويخونون، ويفعلون أموراً كثيرة هم يعلمون أنها محرمة ورديئة، وتقود إلى الألم والشقاء، كما أنهم يتركون أشياء أخرى يعرفون أنها واجبة، وأن تركها يسبب الألم والخسران ويحرم من اللذات.. إذن لقد انفكت المعرفة عن الفضيلة..

ولكن هذه المعارضة لا تكون صحيحة، إلا متى وجد إنسان يعلم علماً متأكداً أن الزنى أو الكذب أو الغشّ يصيبه بألم أكبر من ألم العفة والصدق والنزاهة والأمانة، ويحرمه من لذة كبرى، ثم يزني أو يكذب أو يغش.

وإلا متى وجد إنسان يعرف معرفة متأكدة، أن في ترك الذهاب إلى المعبد، أو في ترك الإحسان إلى الآخرين، من الآلام وفقدان اللذائذ، أعظم مما في قصد المعبد وفعل الإحسان، ثم يدع المعابد والإحسان.. ولكن هل يحدث هذا..؟

إن الناس جميعاً يعصون ويتلوثون فراراً من الألم لا تحدياً له، وبحثاً عن السعادة لا هرباً منها

أو زهداً فيها. إنه لا يوجد من يطيع الشيطان لو عرف أنه شيطان، ولا من يعصي النبي لو عرف أنه نبي..

إن الأقوام الذين يفعلون ما يعد محرماً، ويتركون ما يعد واجباً، إنما لبوا ـ فاعلين تاركين ـ أوامر الإله العالمي الأكبر الذي لا تعصى أوامره.. إنما لبوا أوامر الإرادة التي هي المركز لمجموعة أعمال الإنسان.

غير أن الإرادة هنا موزعة.. إن إرادة الإنسان تستهلك دائماً على شتى المستويات والاتجاهات والأساليب، وتحت عديد الظروف والتناقضات، وتحت تجمعات هائلة متراكمة من الأوامر والنواهي والتعاليم المتزاحمة.

إذن كم هو صعب أن تعرف لنفسها طريقاً، وكم هو صعب أن تستطيع السير في الطريق الذي تعرفه.. كيف لا يقتلها الزحام عليها..؟

إن الناس يعلمون أن في فعل ما يعد محرماً لذّات ودفعاً للألم، ويعرفون أو يعتقدون أو يظنون أو يقال لهم، إن في هذا الفعل آلاماً وحرماناً من اللذات، وعكسه في الواجبات مفعولة ومتروكة.

لقد انقسمت هنا إرادتهم لانقسام معارفهم، فظفر بالمعركة الأقوى من الإرادات والمعارف. ولهذا فإن البشر يتفاوتون كثيراً في التفضيل بين هذا وهذا، فاعلين وتاركين، لأنهم متوزعون بين اتجاهات الإرادة المختلفة، لاختلاف توجيه المعرفة لها. إن كل الفضائل والرذائل، والبطولات والمغامرات، والجبن والاستقامة، والفسوق، خاضع لهذه المفاضلة.

إن القاتل الشرير، والفاضل الوديع.. إن النبي وقاتل النبي، ليدينان لحافز واحد، هو الإرادة التي ليس فيها خير ولا شرير من حيث الذات والطبيعة..

إن كل ما بين القاتل والفاضل المسالم من فروق، هو أن اتجاه إرادتيهما اتخذ مسلكين مختلفين..

إن قاتل النبي، ليس أكثر أو أشرس خضوعاً لإرادته من النبي..

إن من يموت تحت قدمي النبي أو البطل دفاعاً عنه وإيماناً به، ليس إلا إنساناً مستعبداً لإرادته، مثل قاتل البطل أو النبي.

إن الذي يدافع عن النبي أو يغضب له، إنما يدافع عن إرادته ويغضب لها.. إن النبي في تقديره، لا يساوي أكثر من إرادته للدفاع عنه.

لماذا لا يجسر الناس على مخالفة القوانين تحدياً لها..؟

لماذا يهابون اغتصاب الأعراض والأموال والقتل، حينما يعرفون أن سلطان القانون محيط بهم، ولكنهم يغامرون في الخروج على التعاليم الدينية والأخلاقية، وعلى القوانين الموضوعة، حيثما يظنون أنهم قادرون على الإفلات منها..؟

إنهم في الحالة الأولى يعلمون أن الألم الذي سوف يصيبهم أكبر من اللذة التي ينتظرون الظفر بها، فاختاروا إرادة الإحجام على إرادة الإقدام، والإرادة كما سبق تهتدي بالمعرفة..

أما في الحالة الثانية فإنهم أحياناً يقدرون تقديراً فكرياً هدت إليه التجربة، أن اللذة التي سوف يجنون من الإقدام، أعظم من اللذة التي ينتظرونها في الإحجام، وحينئذٍ يقدمون، وأحياناً أخرى يقدرون العكس، وحينئذٍ يحجمون.

ولو أن أي عاقل علم باليقين أن عملاً معيناً من الأعمال سيذهب به إلى نار الأنبياء الخالدة ليكون خالداً فيها، لكان من المستحيل أن يقارف ذلك العمل، ولكان في إرادته النجاة ما يزجره عن التردد بين أن يفعل وأن يترك. ولكنه يقارف ذلك العمل، وغيره من الأعمال لأنه لم يعلم أن ألماً سوف ينزل به لا محالة، وأن سعادة كبرى سوف تفوته كذلك.

إن الحقيقة النفسية الكبيرة هي أن الناس لا يؤمنون بأديانهم، ولا بالإله الذي يتحدثون عنه كثيراً.. إنهم يتحدثون عنه كما يتحدثون عن الأشباح الغريبة، وعن الأحلام والحظوظ، والمصادفات الشاذة.. ولكنهم لا يؤمنون به. إنهم لو كانوا يؤمنون به كما يؤمنون بلغم تحت أقدامهم، أو كما يؤمنون بأن الارتماء تحت القاطرة، أو في النهر يقتلهم، لكان تصرفهم في الحياة شيئاً آخر، شيئاً مغايراً جداً لتصرفهم الذي يحيونه ويتعاملون به في كل حياتهم.

إن خفقة حذاء الشرطي الذي يحمي الأمن والبنوك.. إن خفقة حذاء الشرطي يداعب به الأرض، وينذر به اللصوص والداعرين.. إن خفقة حذاء الشرطي يصافح بها الأرض لهي أقوى من طلعة ألف نبي في أيديهم ألف كتاب منزل..

وحذار أن تصدق تلك الخرافة الطيبة القائلة: بأن مخالفيك في الدين يعتقدون أن دينك هو الحق، ومع هذا يصرون على الاستمساك بدينهم، متحدين لما في الجنة والنار والسماء، من عذاب ونعيم واحتمالات كثيرة كبيرة..

إن أعظم طاغية فاجر في هذا العالم، لمستعد أن يقبل قدميك، ويحمل لك حذاءك فوق رأسه، لو علم أن إلهك هو الحق دون إلهه، وأن إلهك لن يقبله إلا إذا فعل لك ذلك.

حذار أن تصدق أن الشيطان يقبل أن يذهب إلى النار لو آمن بها.

مجرد عملية شعورية

لو كان البشر يؤمنون بالله، لكان إيمانهم خطراً على عقولهم، وعلى العلم والحضارة والقوة، بل على الحياة نفسها.

إنه ليس من المحتمل أن تؤمن بالله على النحو الذي تذكره الأديان والذي يذكره المؤمنون أنفسهم.

إنه ليس من المحتمل في علم النفس، أن تؤمن مثل هذا الإيمان، ثم تستطيع أن ترى شيئاً في هذا الكون حتى ولا الشمس أو القمر، أو أن تفعل أو تحب شيئاً. إنك حينئذٍ لن ترى غير الله ولن تفكر في شيء سواه، لن تفكر حينئذٍ في غير الخوف منه، وفي جنته وناره، وقوته العظيمة الرهيبة.

إنك حينئذٍ ستموت حتماً من الذهول والخوف والحب.

إن الإيمان بالله فقء لكل العيون عن رؤية أي شيء، وإغلاق لكل الآذان عن سماع أي شيء، وتعجيز لكل المشاعر والإرادات عن الإحساس بأي شيء وعن إرادة أي شيء.

إن الإيمان بالله قفل لكل المنافذ بين الإنسان والكون، بين الإنسان وبين أي شيء.

إن الإيمان بالله ـ لو حدث هذا ـ قتل لكل الحياة.

إن ما يظنونه إيماناً بالله ليس إلا عملية شعورية.

إن الإنسان يعيش في مجموعة هائلة من المشاعر الضائعة والعنيفة المتناقضة، وإنه لا بد من ترتيب هذه المشاعر وتحديدها في صورة من الصور، في صورة خارجية.. وقد تصورت هذه الصورة المبحوث عنها على مر التاريخ في شتى الصور. لقد جاءت إحدى هذه الصور التي أخرجها الإنسان لمشاعره، في صورة إله عظيم جداً.. إله قد جمع في صفاته كل أماني البشر وتاريخهم واحتلاماتهم. إن إيمان الإنسان بهذه الصورة الكبيرة التي أبدع في إخراجها، لم يكن يعني إيمانه بقوة خارجية.. لقد كان يعلم أنه يؤمن بنفسه، وأنه هو الذي صنع هذه الصورة، ولكنه كان محتاجاً إلى التزييف، كما يحتاج إلى الإيمان بأشياء كثيرة زائفة.

لقد وجدت كلمة الله في لغة الإنسان كما وجدت لفظة آه.

كان يعلم أن الله ليس إلا مشاعر إنسانية، قد تحولت إلى لغة كبيرة من الشعر.. إلى صورة هائلة إطارها الكون كله. ومع هذا يعلقها على جدار مكتبه، وفي غرفة نومه، ثم يتوجه إليها بالصلوات والإيمان، والأمل البعيد، كأنها كائن خارجي بعيد جداً يعيش من وراء هذا الكون كله.

إن الله بمعناه الديني، لم يكن موجوداً في حياة الإنسان أو سلوكه أو تفكيره، في أي وقت من الأوقات. وإنما كان يتحدث عنه ويناجيه ويخاطبه، كما يحدث ويناجي شياطين الشعر، وجنيات البحر، وبنات النجوم، بل كما يناجي نفسه ويدعوها ويهتف بها.

كان يدعو نفسه ويعبدها ويؤمن بها، حينما كان يرى أنه يدعو الله ويعبده ويؤمن به. إن جميع أساليب المناجاة والصلاة والتوجه إلى الآلهة، وإلى أي كائن خارجي، أو افتراض خارجي، ليست إلا أساليب مختلفة من توجه الذات إلى الذات، ومخاطبة الذات للذات.. إن كل البشر محكوم عليهم بأن يتوجهوا إلى ذواتهم، وأن يخاطبوها بأسلوب من يتوجهون إلى كائنات أخرى منفصلة، بأسلوب من يخاطبون آلهة حاضرة غائبة تسمع وتفهم، وتستطيع وتستجيب وتتأثر..

إن كل إنسان لا بد أن يتحول إلى إله وعبد، إلى مصلٍّ ومصلى له.. إن ذات الإنسان هي الوجه وهي القبلة.

إن الذين يستبشعون إنكار الله، ويثورون على من ينكرونه، أو يقاتلونهم، لا يعني عملهم هذا أنهم مؤمنون بوجود الله في الكون، وإنما يعني أنهم يدافعون عن أنفسهم. إن الله في تقديرهم هو حالتهم النفسية والشعورية التي قد تحولت إلى صورة خارجية.

إن الثورة على من ينكرون الله، إنما تعني الثورة على من يحاربون مشاعرنا وظروفنا المختارة، أو يحتقرونها أو ينافسونها..

إن ظروفنا ومشاعرنا قد تكررت وتراكمت، متشكلة على صورة إله، أو متجمعة لتكون منها صفات إله، أو متحدثين عنها بديمومة وتخويف وتقديس، كما نتحدث عن إله، وكما نتصور إلهاً.. إلى أن أصبحت إلهاً.. إلى أن أصبحنا نؤمن بها كما نؤمن بإله، ونخاف منها كما نخاف من إله، ونتعامل عليها كما نتعامل على إله.

إن إنكار الله، لا يعني في تصور المؤمن به الذي لا يبالي بتعاليمه، إلا الإنكار لحقه في أن يصور مشاعره كيف يشاء، وأن يختار لنفسه أفكاره واتجاهاته.

إن الذي يهاجم عقائدنا إنما يهاجمنا نحن، لهذا نغضب ونثور وندافع. إن رأينا هو نحن أنفسنا.. إن هذا هو سبب دفاع الناس عن آرائهم.. إنهم لا يريدون الدفاع عن الآراء والعقائد والمذاهب، ولكن الدفاع عن أنفسهم.. إنهم ليسوا حمقى إلى المستوى الذي يجعلهم يقاتلون الآخرين دفاعاً عن فكرة أو عن وضع.. إنه ليس في قدرتهم أو نيتهم أن يدافعوا عن غير أنفسهم، أو يغضبوا لشيء سواها.

وإنهم كذلك لا يؤمنون بالله، ولا يدافعون عنه؛ وإنما يؤمنون بذواتهم، وبما تختاره، أو تؤمن

به، أو تعمله من عقائد وأفكار، وصور ومشاعر، ويدافعون عن ذلك. إنه لا يوجد من يدافع عن الله كذات مجردة خارجة عنه، إنه لا وجود لله بمعناه الديني في سلوك أو تفكير أي إنسان، في أي عصر من العصور.

*

أشمسٌ داخل شمعة؟

إن أقوى وأعصى ضمير لو تعامل مع الله، وآمن بشخصيته المذكورة في الكتب المقدسة، وعلى ألسنة الأنبياء والمفسرين له لحظة واحدة، لذاب ذلك الضمير احتراقاً في جحيم الرهبة والدهشة والاحترام والحياء، والعبادة والإخلاص والتفكير.

إن الكون كله لا يستطيع أن يكون وعاء للإيمان بالإله.. لا يستطيع أن يحتوي ذات الله ـ ولو بالتصور والفكرة ـ دون أن يحترق.

إن الله هو الهول، هو الهول الذي لا يستطيع شيء أن يحتويه، أن يحتوي ذاته أو الإحساس به.

إن الله هو الهول الذي لا يستطيع شيء أن يشاهده، أو يمارسه، أو يعايشه، أو يتعامل معه..

إنه كبير، كبير، ذاتاً وتصوراً.. إنه كبير إلى المدى الذي يجعل تصوره، مجرد تصوره عقاباً، أقله الموت والجنون.

إن الصخر لو آمن بالله لذاب وتفتت، ولكننا نجد الذين يرون أنهم مؤمنون بالله جداً يحيون مثل الناس، وإنهم ليتناسلون، ويضحكون، ويستمتعون بكل لذات الحياة وحماقاتها، وإنهم أيضاً يظلمون، ويتشاتمون، ويفعلون كل أنواع العبث والفسوق، دون أن يحترقوا أو يذوبوا. وإنهم مع ذلك ليباشرون النساء بشراهة، وينسون في صولاتهم الجنسية كل الآلهة والتعاليم.

إن أقوى الآلهة وأشرسها لتذل وتتوارى.. إنها لتموت حياء وهواناً وانكساراً في نفوس المؤمنين.. في نفوس أعظم القديسين حينما تصول فيهم أعضاؤهم المحرمة، متعاملة مع الأعضاء الأخرى المحرمة. إن الآلهة والتعاليم هنا لتواجه أفظع الهوان والإذلال والانهزام.

هل يمكن أن تحيا الشمس داخل شمعة، أو أن تحيا شمعة داخل الشمس، ثم لا تحترق وتموت، أو تصاب بالجنون العظيم..؟

إن الفساد الخلقي والنفسي والاجتماعي في البلاد التي تتصافح بالآيات والأحاديث في أسواقها ومجالسها، أضعاف الفساد في بلاد أخرى لا تعرف إلا الشيطان، والمصانع، والمعامل، والنظريات.. فأين الله في سلوكهم..؟

إن الإرادة هي وحدها التي خلقت الآلهة والشياطين، وجميع المذاهب والنظم والفلسفات، وهي أيضاً التي أخضعتها وحددت تأثيرها. إن الإرادة هي التي خلقت الآلهة والشياطين والأخلاق والمذاهب، وهي التي هزمتها.

إن المعرفة هي الفضيلة، لأنك إذا عرفت الشيء فسوف تريده أو لا تريده، فتفعل ما تريد.

وإذا لم تفعله فلأنك أردت شيئاً آخر غلبت إرادته إرادة الفعل، وتترك ما لا تريده.

وإذا لم تتركه فلأن إرادة أخرى فيك قد انتصرت على إرادة الترك.

إن الطاعة كلها للإرادة، والمعرفة تكون أحياناً دليلها. والبينات المنطقية لا تساوي شيئاً لدى من يراد نقلهم من وضع إلى وضع، إن لم توجد إرادة الانتقال فيهم. وهذه الإرادة لن توجد فيهم، إلا إذا علموا، أو وجدوا أن مصالحهم توجد في الوضع الجديد، أكثر مما توجد في القديم، أو أنها لن توجد إلا في الجديد.

وليس العداء الذي يبديه مقاومو التغيير ضد التغيير راجعاً إلى الخوف على العقيدة والرأي، بل إلى الخوف على الوضع المتقرر، والمغنم المكسوب.

والأشقياء والسعداء يقاومون للدفاع عن إرادتهم. وقد يدافع الأشقياء عن شقائهم الطويل الذي ألفوا ورتبوا مشاعرهم عليه حتى أصبح إرادة فيهم. وقد يرضى البائسون أحياناً عن بؤسهم، أكثر من رضى السعداء عن سعادتهم..

إن إلف العذاب قد يتحول عادة مكينة، وتجربة فيها متعة. وهؤلاء وهؤلاء قد يقاومون كل تغيير، ذوداً عن شهوتين مختلفتين، أو ذوداً عن شهوة حقيقية، وشهوة وهمية.

ومع أن الإنسان يعمل لتحقيق إرادته، فإن هذه الإرادة ليست متحددة. إنه لا يعرف ماذا يريد، ولا لماذا يريد، ولا متى يريد، ولا ما المعنى في أن يريد.

هل يريد أن يكون حراً..؟ إننا نجده يهرب من الحرية.

هل يريد السلام..؟ إننا نجده يحارب ويصنع أسباب الحروب.. إن السلام يقتله أحياناً.. إنه أحياناً يقتل من يدعونه إلى السلام.. إنه أحياناً يؤمن بمن يدعونه إلى الحرب وبمن يصنعون له الحرب.. إنه يحولهم أحياناً إلى أبطال وأنبياء.. إن كل أبطال الإنسان وأنبيائه، هم دعاته إلى الحرب، أو إلى البغضاء، أو إلى أسباب الحرب.

هل يريد الصداقة..؟ إننا نجده يبحث عن العداوة وينمي ظروفها..

هل يريد القوة..؟ إننا نجده يضعف نفسه بكل الوسائل..

هل يريد الهدوء والاستقرار..؟ لكنه يعشق القلق والصخب والجيشان..

هل يريد الأمن والسرور.. أليس أيضاً يريد الخوف والاكتئاب.. أليس يصنع البكاء ويريده.. أليس يحول البكاء إلى عبادة وإيمان..؟

هل يريد أن يعرف..؟ إنه أكثر من ذلك يريد أن يجهل.. إنه يحاول أن يجهل أكثر مما يحاول أن يعلم..

هل يريد البقاء.. هل يريد الفناء..؟ إنه يموت جبناً وهواناً وخوفاً من الفناء، ولكنه يصنع كل أسباب الفناء..

هل يجبن ويستسلم لأنه يريد الفناء، لأنه يخاف منه.. هل الجبن والاستسلام بحث عن البقاء أم بحث عن الفناء..؟

هل يريد أن يصنع الآلهة والمذاهب والعقائد..؟ إنه دائماً يكفر بها ويحطمها..

هل يسعى لشيء أم يسعى فقط..؟

هل له طريق يعرفه أم له أشواط تبدده..؟

هل هو جسر أم نهر.. هل هو تخطيط وفكرة كالجسر، أم جزاف كالنهر..؟

هل ينتقل من مذهب وعقيدة إلى مذهب وعقيدة لأنه يبحث عن الأفضل، أم لأنه لا بد أن يتغير.. هل التغير هدف أم ضرورة.. هل نتغير لأننا نريد، أم لأننا لا نستطيع أن نتجمد..؟

هل يتحرك لأنه يريد أم لأنه لا بد أن يتحرك.. ولكن لماذا يتحرك..؟ إن الحركة مفسرة دائماً بالحركة.

إن الإنسان يتحرك بالضرورة. إن كل حركة توجد ظروف حركة أخرى وتؤدي إلى حركة أخرى. إن الإنسان يظل دائماً يتحرك دون هدف أو تفسير، ودون أن يعرف لماذا..

إن الحافز والهدف، والسبب والنتيجة، وأول الطريق وآخره، إن كل ذلك شيء واحد..

إن حل العقدة هو تعقيدها.. إن الذين يحلون اللغز هم الذين يعقدونه..

إن الإنسان يسير ويسير وأبداً يسير، ولكنه لا ينتقل. إنه يظل دائماً داخل نفسه لا يتجاوزها مهما سار..

إنه يظل أبداً يسير ويسير بلا طريق.. بلا هدف.. بلا شوق.. بلا راحة..

إنه يسير ويسير دون أن يدعوه أحد إلى اللقاء أو يلزمه أحد بالسير..

إن المثل والعقائد، والنظريات والحوافز، ليست أسباباً للحركة ولكنها تفسير لها.

إن الحركة تتحول إلى مبادئ، وإلى أخلاق وإلى منطق، ولكن المبادئ والمنطق والأخلاق لا تتحول إلى حركة.

إن الذين يظنون أن المنطق والمبادئ والأخلاق هي التي تحركهم، هم قوم لم يستطيعوا أن يفهموا أنفسهم، أو لم يجرؤوا على فهمها.

إن الكون كشيء متعدد ذي وحدات، قد يفسر ويعلل بعضه ببعض، ويدور بعضه حول بعض، ولكنه كوحدة لا تفسير له. إنه ليس علة ولا معلولاً. إنه ليس مركزاً لشيء ولا تابعاً لشيء.. إنه كتلة هائلة صماء متوحشة. تدور في فراغ رهيب متوحش، لا حدود ولا معنى له..

هل الكون من أجل ذاته..؟

إذن هل الكرسي، هل البيت من أجل ذاته..؟

إنه من أجل ذاته.. إذن، ذاته من أجل ماذا..؟

هل الكون من أجل غيره.. وهل يوجد غيره..؟

وغيره من أجل ماذا..؟

ولماذا يكون من أجل غيره.. ولماذا يكون من أجل غيره ولا يكون غيره من أجله..؟

وإذن هو وغيره من أجل ماذا.. وأي كائن هو الذي يكون الكون من أجله..؟

إن الإنسان كذلك. إن الإنسان كوحدات من الأفراد، والمشاعر، والأفكار، والضرورات، قد يبدو مفسراً. إنه قد يبدو مفسراً كواحد في هذا الكون. إنه قد يبدو أسباباً، ونتائج، وأفكاراً، وأهدافاً. أما إذا نظرنا إليه كمجموعة من الوحدات، والضرورات، والأفكار، والمشاعر، والأفعال، والعقائد.. أما إذا نظرنا إليه كذلك، إذا نظرنا إليه كلاً، أو وحدة فلا يعني شيئاً. إنه ليس له تفسير ولا هدف. ليس عللاً ولا معلولات..

إنه يذهب إلى المدرسة ليتعلم، ليعرف، ليتخرج، ليعمل ليعيش.

إنه يذهب إلى المصنع لينتج، ليأخذ أجراً، ليأكل، ليلبس.. ليعيش.

إنه يتزوج ليشيد بيتاً، ليعطي أولاداً، ليتعبوا، ليتعب، ليصنعوا مشاكل، ليصنع هو مشاكل.. ليعيشوا، ليعيش.

إنه يفكر، ويبتكر، ويخترع، ليقوى.. ليعيش.

إنه يغني، ويرقص، ويلهو، ويلعب، لينسى، ليفرح، ليطرب.. ليعيش.

إذن هو دائماً يعمل، ليعيش.

ولكن لماذا يريد أن يعيش..؟

إنه يبحث عن السرور لأنه يعيش، إنه لا يعيش ليبحث عن السرور.

الإنسان يشتهي ويحتاج لأنه يعيش.. وهل يعيش لأنه يشتهي ويحتاج؟

ولماذا يشتهي ويحتاج..؟

إذا كانت الحركة تفسر بالشهوة والحاجة، فبماذا تفسر الشهوة والحاجة..؟

إن الإنسان وجميع الأشياء، لا تفسير لها في مبدأ وجودها، ومبدأ بقائها.

إن كل عضو من أعضاء الجسم من أجل الجسم، ولكن الجسم.. من أجل ماذا..؟

إن الإنسان لا يسير في طريق، بل يتحرك إلى كل الجهات بلا خطة. ولهذا فإنه لا يوجد سلوك إنساني متحدد، بل سلوك متهافت متناقض.

إنه يفعل الشيء ونقيضه.. إنه يشيد المستشفيات لعلاج الجرحى، ويصنع الأسلحة بالملايين لقتل الملايين.. إنه يخترع الآلهة ويكفر بالآلهة.. إنه يهتف للطاغية ويقتل الطاغية.. إنه لا يبحث عن حالة اجتماعية أو أخلاقية معينة حينما يتغير أو يثور، إنه يتغير ويثور لأنه حركة محتومة، لأنه حركة بلا خطة، كما يشيخ ويمرض ويجيء.

إنه لمستعد دائماً أن يهدم ويبني أي وضع من الأوضاع.. أي مذهب من المذاهب.. أي اعتقاد من الاعتقادات. إنه في هدمه وبنائه ليس مضبوطاً بقانون من المنطق والأخلاق. إنه حينما يهب إيمانه وحماسه لمذهب أو نظام أو دين، إنما يعبر بذلك عن شوقه إلى الركوع لصنم جديد أو إله جديد أو طغيان جديد. ولهذا فإنه يضع إخلاصه وركوعه بالتعاقب والتوزيع تحت أقدام كل الأصنام والأرباب، والطغاة والمذاهب، والنظم المتحاربة المتناقضة المختلفة في مزاياها ورذائلها.

إنه يؤمن بكل شيء، ويعبد كل شيء، ويتعصب لكل شيء، متوزعاً متعاقباً، لأنه لا يبحث عن شيء.

إنه يتصرف تصرفاً عشوائياً. إنه يتصرف بالأسلوب الذي تهب به الرياح وتسقط النيازك. ولهذا فإنه لن تكون للإنسان أفكار ولا نظم ولا آلهة نهائية. إنه دائماً يهدم ويبني. إنه يتقدم ويتراجع. إن إيمانه بهذا أو بهذا أو هذا ليس منطقاً ولا فضيلة.. إنه حالة.

لا يتغير.. ولو تغير

إن ما نسميه تطوراً إنسانياً ليس إلا عملية تراكم. إنه تراكم فكر وشعور وعمل ذات. إنه تراكم كتراكم الأنهار والأتربة.

إن تراكم الطبيعة لا يغير خصائصها، وكذلك تراكم الإنسان.

إن التطور بمعنى تغير الخصائص لا وجود له. إن الإنسان لا يتغير مهما تغير. إن صيغته تتغير، ولكن تفسيره لا يتغير.

إن ذاته لا تتغير مهما تغيرت لغاته وحياته.

إن حضارة الإنسان وعلومه ونظمه وأفكاره وحياته في حركة دائمة.. إنها في حركة متعاظمة، ولكن لا تغير في الطبيعة.

إن التفكير يتغير، ولكن لا تتغير طبيعة التفكير.

إن الصور الأخلاقية والاجتماعية والإنتاجية والحكومية تتغير بدون أن يتغير معنى ذلك، أو تتغير أهدافه أو حوافزه. إن تراكم أي شيء يعطيه صيغاً وحدوداً وقيماً جديدة، من غير أن يعطيه معنى جديداً، أو فكرة جديدة.

إن البشر يتطورون بمعنى يتراكمون. إن حضارتهم، ومعارفهم، وتجاربهم، ومشاعرهم تتراكم. ولكن لا يتطورون بمعنى يتغيرون.

إنهم سيظلون يفكرون، ويشعرون، ويحيون، ويصوغون أخلاقهم ونظمهم، بقانون واحد لا يتغير. ويوم يغزون السماوات وكل فجاج الفضاء، ويمتلكون المشيئة المطلقة التي كان القدماء يتمنونها لآلهتهم، ويقضون على كل ألم وعوز وضعف، سوف يبقون أيضاً بطبيعتهم الخالدة. كما تبقى طبيعة الشمعة في الشمعة، حتى ولو أصبحت شمساً تملأ الكون.. وكما تبقى طبيعة قطرة الماء في قطرة الماء، حتى عندما تصبح ذرات ضائعة في أحد المحيطات.

إن الإنسان بعد أن أصبح إنساناً لا يزال يحمل كل خصائص أسلافه من الكائنات الدنيا، لأنه لا يتطور وإنما يتراكم. إن فيه خصائص السمك، والقرود، والكلاب، وكل الموجودات الحية التي هي أصله.

إن المشكلة الدائمة أن الكون لا يستطيع أن يكون غير الكون.. لا يستطيع أن يكون أفضل أو أقل. إن القانون الذي كان يحكمه حينما كان سديماً، هو القانون الذي يحكمه اليوم في صيغته الأخيرة الحاضرة. إن كل ما يحدث في الطبيعة هو تراكم الطبيعة هو تراكم لا تطور.

إن الإنسان كذلك لا يستطيع أن يكون غير الإنسان. إنه لا يستطيع أن يكون أعظم أو أردأ مهما اختلفت تعبيراته الفكرية أو الأخلاقية، أو الحضارية أو الاجتماعية. إن أعظم عبقري ليس إلا أحط إنسان بدائي. إن أضخم شجرة عملاقة ليست إلا أضعف شجرة من النوع نفسه.. إن الفرق بينهما في الصيغة والتعبير والتراكم.

إن طبائع الأشياء لن تتغير مهما تراكمت.

إن العبقري هو كل الإنسان التافه مصاباً بالعبقرية. وإن الإنسان التافه هو كل الإنسان العبقري معافًى من العبقرية.

إن الإنسان الجميل هو كل الإنسان بلا دمامة. وإن الإنسان الدميم هو كل الإنسان بلا جمال.

إن الإنسان القصير أو الأبيض هو كل الإنسان بلا طول وبلا سواد، أو هو كل الإنسان مضافاً إليه البياض أو القصر.

إن الإنسان المتحضر هو الإنسان الهمجي بأسلوب حضاري.

إنه بالأسلوب الذي تفعل به الطبيعة نفسها، وتفرض عليها احتمالاتها بلا حكمة ولا فضيلة، يفعل الإنسان نفسه، وتفرض عليه احتمالاته كذلك من غير حكمة ولا فضيلة.

وإنه بقدر ما تكرر الطبيعة أخطاءها وآلامها وعبثها، يكرر الإنسان ذلك لنفسه، في نفسه، وفي مجتمعه. إن الإنسان تكرار يتراكم، وهذا هو التطور والحضارة.

إنه لمحتمل دائماً أن يصنع الإنسان اليوم وغداً، ما كان يفعله منذ وجد، وحينما كان متخلفاً جداً.

إنه لمحتمل دائماً أن يفعل كل الطغيان والجهل والغباء، وأن يشيد الأصنام والألوهيات، ويبحث عن الفقر والألم والهوان، ويدمر نفسه ونظمه، ويسترجع أسوأ ما كان لديه.. يسترجع أسوأ فترات تاريخه.

إنه يتحرك فقط

إن الإنسان يتحرك بلا ضمير ولا هاد، إنه يتحرك بلا حراسة من الطبيعة أو من الغيب. إن حياته لا تملك جهاز ضبط.. إنه لا تعيش فيه مواهب إله ولا أخلاق نبي.. إنه جهاز تعيش فيه كل احتمالات التحطم والخطأ والخطر.. إن جميع ما لديه من ضمير وعقل وتدبير، ليس إلا تعبيراً عن هذه الحركة العشوائية التي تفسر بها الأشياء دون أن تفسر هي بالأشياء. حتى الإرادة نفسها خاضعة لهذه القوة العمياء.. حتى الإرادة خاضعة للحركة المفروضة، للحركة الاضطرارية، للحركة العشوائية.. حتى الإرادة مفروضة.

لقد قلنا: إن الإنسان يفعل بالإرادة، ولعل الصحيح أنه يعمل بالحركة، كما تفعل الحياة في النبات والحيوان، وكما تفعل الطبيعة في الجمادات.

إن الإرادة مظهر للحركة، إنها لغة من لغات الحركة، إنها أسلوب من أساليبها، إنها إحدى نشاطاتها.

إننا إذن لن ننتظر من الإنسان أن يكون فاضلاً أو حكيماً، مهما بلغ من القوة والعلم والعبقرية.

إننا لن ننتظر منه أن يسير في طريق. إنه سوف يظل يتحرك على كل الجهات، كما تتحرك الطبيعة نفسها بلا رسالة ولا رسول.. بلا هدف أو طريق.

إن الفرق بين الإنسان والطبيعة ليس إلا فرقاً في مستوى الوجود.. إنه ليس فرق رسالة أو فضيلة، أو تخصيص أو تمييز أو منطق.

عشق غير وقور

إن إدراكنا لعبث الوجود أو الحياة لن يقلل من إصرارنا على البقاء. إننا لا نبقى ولا نريد البقاء لأننا نعلم شرعية الوجود. إننا نبقى بالضرورة كما تبقى النجوم والكوارث. إننا نحيا بلا حكمة، ولا منطق كما نموت كذلك.

«لماذا نحيا» يساوي «لماذا نموت»..

نحن نحيا حيث لا نستطيع أن نموت.. نحن نموت حيث لا نستطيع أن نحيا. إننا نحيا بالجاذبية كما نموت بالجاذبية.

إننا نجهل لماذا نريد ما نريد، لماذا نفعل ما نفعل، لماذا جئنا كما جئنا، لماذا نذهب بالأسلوب الذي به نذهب.

إننا نجهل لماذا نريد، كما نجهل لماذا نحن.

ولو أن جميع الشرائع والأديان والتعاليم الأخلاقية فرضت علينا أن نتوقف عن فعل أسباب البقاء، أو فرضت علينا الانتحار الجماعي.. فرضته بالدين أو بالوطنية أو بالإنسانية..

لو أن جميع التعاليم والأخلاق والأديان، حرمت علينا أن نريد وجودنا.. لو أنها حرمت علينا أن نريد شيئاً، لما نقصت إرادتنا لأنفسنا ولتفاهاتنا، ولما نريد.. لما نقص تعلقنا بالبقاء عما نحن اليوم.

إننا محكوم علينا، إننا لا نستطيع التخلص من أنفسنا. إن وجودنا مفروض علينا بلا تدبير منا.. بلا تدبير من الخارج.

إنه قضاء لا تدبير فيه.. لا لمن قضاه، ولا لمن قضي عليه.

إن الذين يخشون على الحياة من كشف عبث الحياة.. إن الذين يظنون أن ذلك قد يضعف

من رغبة الإنسان فيها، أو يضعف إبداعه وعبقريته، وتضحيته للصعود بها، هم كالذين يخشون على حياة الذباب لو اكتشف أنه ذباب، ويخافون عليه أن يعاف الفضلات لو اكتشف أنها فضلات.. لو اكتشف رأينا في الفضلات، وفيمن يقتاتون بها..

إن الإنسان مصاب بالغرور.. إنه مهما اكتشف من تفاهة شأنه ومصيره ومطالبه، فإنه سوف يظل أيضاً مغروراً مغالياً في تقويم نفسه.

إنه في حالة إيمانه، يعتقد أن الآلهة لم توجد إلا لكي تهيىء له مضجعه.. لكي تخلق له السماوات والأرض.. لكي تزرع له الحقول وتجري له الأنهار والسحاب.. لكي تزين له النساء وتصوغ أجسامهن لكي يكون أكثر عشقاً، ثم تظل بلهفة تنتظر منه أن يرد عليها التحية ويعترف لها بالشكر والمنة، ويمنحها إيمانه وعبادته، لكي يخفق قلبها بالسرور والإعجاب، لكي ترضى عن نفسها.

أما في حالة كفره فيعتقد أنه قد تحول هو إلهاً.

إن الأتقياء الذين يتركون بعد كفرهم التحدث عن أمجاد السماء، ينتقلون إلى التحدث عن أمجاد الإنسان بنفس اللهفة والورع والحماس.. بنفس الرهبة ومشاعر اللاهوتية.

لقد كانت الآلهة في التصور المؤمن عمالاً عند المؤمنين، أكثر مما كان المؤمنون عمالاً عند الآلهة.

لقد قالت الأديان: إن البشر قد وجدوا ليعبدوا الله.

أما المؤمن فيرى أن الله قد وجد ليعبد البشر..

لقد تصور المؤمنون الإله كائناً مرهقاً ملهوفاً، لكي يعمل الإنسان، ولكي يعمل من أجله.. لكي يعمل حياته، ويصوغ ذاته.. لكي يعمل له الأشياء، لكي يعمل له الشمس والقمر، والليل والنهار، والحر والبرد، والضباب والصحو.. لكي يعمل له الأمطار والأنهار، والمرض والصحة، والشيخوخة والموت، والصحارى والحقول.. لكي يصنع له الأنبياء والهداة والمعلمين.. لكي ينزل له الكتب والتعاليم.. لكي ينزل عليه الملائكة المطهرين.. لكي يهدي قلبه ويملأه بالطمأنينة والإيمان والرضا والمسرات.. لكي يتعذب من أجله لو أصابته الغواية، لو رفض أن يستقبله، لو رفض أن يتقبل هداياه له، لو رفض أن يستمع إليه، إلى مناجاته الوالهة له.. لو رفض أن ينظر إليه، إلى وقوفه الدائم على أبواب قلبه ينتظر أن يفتح له، أن يقبل نزيلاً فيه، عاملاً فيه لحمايته وإصلاحه.

لقد تصور المؤمنون الإله كعامل عند البشر.. كعامل لا مثيل له بين العمال في تفانيه وإخلاصه، ودأبه وانقطاعه وخضوعه.

إنهم لم يعرفوا أو يتصوروا عاملاً في مستوى تصورهم للإله عاملاً.

إنه عامل يحزن كل الحزن، ويتعذب كل العذاب، من أجل من يعمل لهم، ويعمل عندهم، إذا لم يتقبلوا عمله لهم، وعمله فيهم..

إنه يعاني أهوال الغضب والأسى، إذا لم يكونوا كما يريد لهم، إذا هم شقوا أو ضلوا أو أخطؤوا..

وإن الكون كله ليتحول إلى موسيقى راقصة تعيش في قلبه، ويعيش فيها قلبه، إذا هم قبلوه عاملاً لا مثيل له بين العمال الذين يعرفون ويتصورون في التفاني والإخلاص، والطاعة والنشاط، والخضوع والحب.

إنه العامل الغاضب الحزين المكفور.. إنه العامل الذي لا مثيل له في نموذجيته، في حماسته.. إنه لا مثيل له في رداءة حظه.

إنه العامل الذي لا مثيل له في صبره، في تواضعه، في تقبله الإهانات، في عذابه النبيل، من أجل من يعمل بهم.

إنه العامل الذي لا مثيل لمن يعمل عندهم في كفرانهم، في سوء استقبالهم، في عجزهم عن الترحيب.. عن الشكر.. عن النبل.. عن الفهم.

لقد تصور المؤمنون الإله، وكأنه لم يوجد إلا لكي يكون عاملاً عند البشر، يعمل لهم صغائرهم وتفاهاتهم.. يعمل لهم الطعام.. يحرك أعضاءهم.. يضع فيها الشهوة والقدرة على الفسوق.. يخلق لهم الشيطان لكي يؤجج فيهم الحماس لتلويث أنفسهم، لكيلا يروا الأوحال التي يخوضون، لكي يستطيبوا هذه الأحوال، لكي يروا كل ما فيها من نظافة وجمال..

إنه العامل الغاضب الحزين المكفور.. إنه الإله في تصور المؤمنين.

إن الإله في تصور المؤمنين، هو أشقى الكائنات حظاً، وأقلها جمالاً، وأضلها منطقاً.

إن المؤمنين والكافرين معاً، لا يمجدون ولا يعبدون..

إنهم يكونون..

إن الإيمان والجحود، كلاهما غرور وعبادة.. لغير الآلهة..

إن الذي يبالغ في تمجيد الإنسان أو الإله، لا يقصد تمجيد هذا ولا هذا.. إنه يمجد وجوده.. إنه إنسان عاشق لذاته، عشقاً غير وقور.

كل وجودي تداوٍ من وجودي

إن الكون كشيء متعدد ذي وحدات.. قد يفسر ويعلل بعضه ببعض، ويدور بعضه حول بعض. ولكنه كوحدة لا تفسير له.

إنه ليس علة ولا معلولاً.. إنه ليس مركزاً لشيء، ولا تابعاً لشيء.

إنه كتلة هائلة، صماء، متوحشة، تدور في فراغ رهيب متوحش، لا حدود ولا معنى له.

*

مشكلة كل إنسان، أنه ليس حراً في أن يقبل حياته أو يرفضها.

إن الإنسان لا يستطيع أن يتوقف عن الحياة، حينما يصبح التوقف عنها شيئاً تفرضه الأخلاق أو الكرامة أو العقل. إنه لا يستطيع أن يريد هذا التوقف، حتى ولا حينما تتحول الحياة إلى عذاب لا يطاق، ويأس لا أمل فيه.

إن الحياة لا تمارس على أنها شروط ملائمة، ولكن على أنها التزام بلا شروط. إن الحياة ليست صفقة ملائمة يعقدها كائنان بشروط ما، أو على مستوى ما، لا يمكن التنازل عنه.

إن الحياة ليست عرضاً يقبل أو يرفض، لأنه ملائم أو غير ملائم.. ليست اتفاقاً بين متفاوضين.. ليست غرس زهور في منزل.

ليست الحياة عطاء جواد أو فنان أو كائن رحيم حكيم، يريد أن يحقق بها منطقاً أو حاجة، أو سعادة أو جمالاً، أو تلاؤماً، أو حباً، أو نفعاً لأحد.. إن الحياة سقوط، سقوط على الحي، سقوط حينما حدث.

ليست هي ما ينبغي بل هي ما يحدث. إن الحياة لا تقبل كما يقبل العقل المنطق أو الفكرة،

أو كما تقبل العين الصورة أو الجمال، بل كما يقبل الجبل الحجر، وتقبل الأرض الحشرات، والنباتات الضارة وغير النافعة، وكما تقبل الحياة الموت.

إن الحياة تسقط على الكائن الحي، كما يسقط عليه الموت، ويحياها بكل صيغها، كما يموت الموت بكل صيغه.

إن الناس جميعاً.. حتى أعظمهم كبرياء وعبقرية، يستطيعون ببساطة بل وبلذة أحياناً، أن يحيوا في مستوى الصراصير دون أن يستطيعوا رفض هذه الحياة، أو إرادة رفضها.

إنه لا يوجد حد أدنى، ولا شروط معينة من أي نوع، في سلوك أي إنسان مهما كانت كبرياؤه أو ذكاؤه، ليرفض الحياة إذا جاءت دون ذلك.

البشر لا يقبلون حياتهم أو يرفضونها، ولكنهم يحيونها.

إن الحجر لا يقبل وجوده أو يرفضه، ولكنه يوجد.. وهكذا البشر.

إن القبول كالرفض، حالة من حالات الاختيار الحرّ. ونحن كما لا نستطيع أن نرفض الحياة، كذلك لا نستطيع أن نقبلها. إننا نمارسها بلا قبول أو رفض، كما نمارس أنفسنا وآلامنا وتفاهاتنا.. كما نمارس الموت.

حتمية.. لا اقتناع

وإذا سألنا: لماذا نحن.. فلسنا نسأل عما يجب أو عما ينبغي، لنقبل ونرفض، لنكون أو لا نكون؛ وإنما سؤالنا أسلوب من أساليب السقوط والتحطم، مثلما يحدث حينما تسقط صخرة فتتحطم محدثة صوتاً أو ألماً. ولهذا فإننا مهما سألنا وأنكرنا، فسنظل مستمرين في السير، نخوض الأوحال والمذلات والعبث، بهوان وجبرية كهوان الحجر وجبريته، نغني لأنفسنا، ولأمجادنا، وآلهتنا، ونظافة وسمو وجودنا.. كما تفعل أية ضفدعة..

إن تساؤلنا عن مغزى وجودنا، ليس رفضاً للعبث أو للحقارة.. بل بكاء.

الإنسان لا يحيا لأن الحياة شيء واجب أو مقدس، ولا لأنه هو شيء عظيم أو نافع، ولكن لأنه لا يستطيع أن يموت.

إنه لا يحيا لأنه يؤمن بقيمة الحياة، أو لأنه يريد أن يجعل لها قيمة، ولا لأن له هو قيمة.. وإنما يحيا مثلما يموت، بالعجز، والخوف، والجبرية.

إن الإنسان لا يحيا بالاقتناع، بل بالحتمية.. كما يحيا النبات، وكما يسقط الحجر بقانون الجاذبية.

ليس في التزام الإنسان بالحياة من معنى، أكثر مما في التزام الحجر بالوجود، أو بكونه حجراً..

كم أتعجب حين أرى الناس يسيرون بجنون، دون أن يعلموا أو يسألوا إلى أين.. حينما أراهم يسيرون دون خطة، أو اختيار، أو رؤية، أو بحث عن شيء..

هل السير وسيلة.. إذن ما الغاية..؟

هل هو غاية.. إذن ما يعني، ولماذا يتوقف..؟

ماذا يعني أن أعيش اليوم لأعيش غداً.. لأعيش بعد غد.. لأكرر نفسي في عملية متشابهة لا تعني شيئاً.. لأنتهي النهاية العقيمة المحتومة.

ولأنها عملية لا تعني شيئاً.. تنتهي كما بدأت، ثم يبقى كل شيء في الكون كما هو، قبل أن تكون، وحينما كانت، وبعد ألا تكون.

ولو كانت تعني شيئاً لما توقفت، ولو توقفت لكان توقفها خطأً كونياً وعلمياً ودينياً.

وهل تجد الطبيعة في كلمة: ولد، معنى أفضل أو أذكى مما تجد في كلمة: مات..؟

ما أقل ما سأل الإنسان نفسه: إذا كان لحياتي معنى فلماذا أفنى، وإذا كان لفنائي معنى فلماذا أحيا، وإذا لم يكن لحياتي ولا لفنائي أي معنى، فلماذا أحيا وأفنى..؟

ما هو الشيء الذي يبرر بقائي.. ما هو الشيء الذي يستحق أن أفرح به.. ما هو الشيء الذي يساوي فرحتي..؟

بماذا أبرر بقائي أمام نفسي تبريراً عقلياً أو أخلاقياً..؟

ما الذي يجعل فرحي، إذا ظفرت به، فرحاً متوقراً محترماً..؟

متى أفرح ثم لا أكون نزقاً صغيراً..؟

هل يوجد فاصل بين ما يستحق فرحي وإعجابي، وما يستحق غضبي واحتجاجي..؟

لماذا أفرح.. إذن فهل أحزن.. وهل أفرح لأني يجب ألا أحزن..؟

ولماذا أحزن وأفرح.. لأني أحيا..؟

إن الحزن خسران وعذاب بلا ثمن؛ أما الفرح فنزق وتفاهة، وتقدير لما لا يستحق.. إنه افتضاح.

لماذا.. كل أعدائي

أنا أوجد لكي أتحول إلى مشكلة، لكي يصبح كل نضالي مقاومة لهذه المشكلة التي هي

وجودي، أو حلاً لها، أو محاولة لحلها.

أنا أوجد لكي تصبح كل عبقريتي أسلوباً من أساليب المقاومة لوجودي..

إن أعدائي جميعاً لا يساوون أكثر من وجودي..

أنا أوجد لكي أصبح أنا كل أعدائي.. إن كل أعدائي لم يستطيعوا أن يكونوا أعدائي إلا لأني موجود، لأني أحيا..

إذا صنعت الحضارة أو الحب، أو الفكر أو القوة، أو اللذة والسرور، فأنا إنما أقاوم وجودي.

إن وجودي كإنسان، ورطة فيها كل معاني العقاب والصدفة؛ وليس تمييزاً فيه شيء من معاني التفضيل أو التكريم. ولهذا فجميع أنواع نشاطاتي ليست إلا مواجهة لهذه الورطة، أو علاجاً لها..

إذن فكل أعمالي ليست إلا مداواة لحالة يصنعها وجودي.

ما أروعها حكمة.. أنا أوجد لكي أشغل بالتداوي من وجودي..

ما أعظم انتصاراتي.. إن كل انتصاراتي أن أخفف بعض آلامي التي صنعها كوني موجوداً..

كم في وجودي من المنطق، من المحاباة لي.. أليس كل نضالي تداوياً من وجودي..؟

كم في وجودي من الانتصارات.. ألست أخفف بعض الآلام التي صنعها وجودي..؟

إن الحياة تشبه أن تضع قدميك في قيد ذي عقد كثيرة، ليكون كل عملك واهتماماتك أن تحاول حلّ هذه العقد. وكلما حللت عقدة لتقوم مكانها عقدة أو عقد أخرى، شعرت باللذة، وبأنك قد انتصرت.. وأية لذة وأي انتصار..؟ إن كل لذة وكل انتصار لا يعنيان سوى زوال ألم، وزوال مضايقة.. أي زوال وجود.

إن اللذة والانتصار هما دائماً وفي جميع مستوياتهما وأساليبهما، ليسا إلا زوال وجود ما.. ولهذا فهما دائماً مسبوقان بنقيضهما.

أنا حي، إذن أنا ملزم بتوزيع حياتي بكل الأساليب والاتجاهات، لأني لا أستطيع تجميد حياتي داخل ذاتي، أو مواجهتها كما هي، أنا وحدي.

مجرد تعبير عن ورطة

إن الحياة مواجهة لشيء ليس من المستطاع العيش معه بسلام أو ثقة أو صداقة، فلا بد من تحويله إلى تعبيرات لا هدف لها.. لا بد من صرفه إلى عملات لا تعني شيئاً سوى التخلص منه في حوافز المحول والمتخلص.

إن جميع ما نفعله ونفكر فيه، ليس بحثاً عن هدف أو فكرة، أو قوة أو حضارة.. بل ولا حتى عن لذة؛ وإنما هي عملية طرد وتحويل لهذا الوحش القادم إلينا من الغابة المجهولة، بلا أية دعوة وجهناها إليه، وبلا لذة له في أن يقدم.

إنه ليس شيء مما نفعله واجباً ونبلاً أو بطولة، إنه تعبير عن ورطة.. حتى الحب، والابتسام، والتضحية، والذكاء، هو تعبير فقط عن هذه الورطة.

إننا لا نفعل ما نفعله لأننا محتاجون إليه.. لأننا نفهمه، أو نحترمه، أو نريده.. إننا نفعل ما نفعله لنتعالج به من أنفسنا، ولنحول إليه حياتنا لنشغلها به عنا.

إن احتياجنا إلى الشيء وإرادتنا له، لا يعنيان شيئاً غير التبرير للعمل الذي لا يعني شيئاً.

لماذا نريد ونحتاج..؟ لكي نستمر نلهث ركضاً ونتساقط تلوثاً.

إن البشر في جميع كينوناتهم لا يساوون أكثر من وجودهم، ثم مقاومتهم لوجودهم بما يسمونه حضارة ونشاطاً متعدد الكينونات والأساليب.

إنهم لو لم يوجدوا لما احتاجوا.. أي لما قاوموا. إنهم لا يقاومون شيئاً غير وجودهم. إن المقاومة هي دائماً نتيجة الاحتياج، وإن الاحتياج نتيجة الوجود، ولكن الوجود من أجل ماذا..؟

أنا أقاوم، وأحاول، لأني موجود.. ولكن لماذا أنا موجود..؟

إنه سؤال نطرحه في وجه الطبيعة. ولكن الطبيعة ترد إلينا سؤالنا بوقاحة وبرود، وقسوة، وصمت، لا تهذيب ولا مجاملة فيه، ولا أمل في الخروج منه.

ما أقسى هذه القسوة.. ما أقسى صمت الطبيعة الرهيب أمام تساؤل الإنسان المرتجف.

إن الأهداف والاحتياجات واللذات التي نعمل تحتها، ليست سوى الأسلحة التبريرية التي نؤدي بها هذه المقاومة.. مقاومة وجودنا. إن ما نحسبه مباهج لوجودنا، لا يعني في الحقيقة سوى تخلصنا من المتاعب والأزمات التي يصنعها وجودنا، إن الإصرار على العمل ليس إحساساً بالمسؤولية.. بل بالورطة.

إن وجود الكائن الحي، لا يعني قبل أن يوجد، شيئاً.. وبعد أن يوجد، لا يعني غير أن يصبح احتياجاً فيه.. لا يعني أيضاً شيئاً.

قبل أن يوجد الإنسان أو الصرصار، ما هو المنطق الذي يسعى لوجوده، أو من هو المستفيد منه..؟

وبعد أن يوجد، ما هو المنطق في أن يصبح محتاجاً إلى وجوده.. ومن الرابح من هذا الاحتياج..؟

لا يوجد الإنسان لأنه رسالة كونية تنتظرها السماوات لتصنع منها نظامها، أو ذكاءها، أو مجدها، أو خلودها..

إنه يوجد ليكون مجرد محتاج، مجرد موجود محكوم عليه بما لا معنى له من الاحتياجات والالتزامات..

إن كل عبقرية الإنسان لا تعني أكثر من تسديد احتياجات وجوده، ووجوده لا يعني سوى وجوده.. فماذا تعني عبقريته إذن..؟

إذا كانت عبقرية الإنسان من أجل وجوده.. فوجوده من أجل ماذا..؟

وإذا كان وجوده من أجل عبقريته.. فعبقريته من أجل ماذا..؟

إن المشكلة أنه لا يوجد هنا أحد ليكون مسؤولاً، وليكون من الممكن أن توجه إليه الأسئلة. إنه لقدر على الإنسان أن يسأل حيث لا مجيب، حيث لا أمل في الجواب.

إن أي إنسان لا يستطيع أن يكون فوق ذاته، فوق آلامه واحتياجاته، مهما طالبته الآداب المختلفة بأن يكون فوقها، بل مهما حاول أن يكون كذلك.

كل التعاليم تطالب البشر بأن يكونوا فوق ذواتهم، فوق آلامهم واحتياجاتهم، لكن ليس فيهم من يريد أو يستطيع ذلك.

البحث عن صورة كاذبة

لا يوجد من يستطيع أن يعيش خارج ذاته، ولا من يساوي أكثر من ذاته، ولا من يستطيع أيضاً أن يستغني عن حياته الخاصة، أو شهواته الخاصة، احتراماً للحياة العامة أو للشهوات العامة.

إن أتفه إنسان ليرفع أضخم الشعارات والرايات فوق أحقر الغايات والنيات.

إن الرايات والشعارات ليست مساوية لمن يرفعونها، ولا للأهداف والحوافز والأعمال التي تختبئ تحتها، ولا لجهارة الأصوات التي تنادي بها، ولا لعلو المستوى الذي ترتفع إليه، ولا لارتفاع المكان الذي تنتصب فوقه. إن الإنسان لا يريد أن يبدو كما يساوي، إنه يريد أن يبدو أكثر وأكبر، إنه لا يريد أن تكون صورته مثل ذاته.

إن الإنسان يبحث دائماً لنفسه عن صورة كاذبة، إن الصورة الصادقة تشتمه وتحاصره.

إنه لا يوجد أي فرق أخلاقي بين أصحاب أية شعارات متضادة.

ليس في البشر من يستطيع أن يكون في إرادته أو في سلوكه فوق كل الصغائر.

إن جميع الناس يخضعون لقانون الجوع، والألم، والبكاء، والخوف، ويقتاتون بالصغائر.. جميعهم يركعون أمام ظروفهم القاسية، واحتياجاتهم غير الجيدة، ويأكلون بشهية متفتحة جميع الأطعمة التي يأكل منها الذباب.

ليس فيهم من يستطيع أن يترفع عن الانهيار والسقوط على الأرض باكياً، لأن هذا الترفع رجولة محمودة في تعاليمه، ولا من يستطيع أن ينسى آلامه الخاصة فداء لآلام الكون، أو لآلام الإنسانية، أو لآلام الآلهة.

إن أعظم إنسان لا يساوي أكثر من أحزانه، ودموعه، وخوفه، وضعفه.. إنه لا يساوي إلى ذلك أحزان، أو آلام، أو دموع، أو خوف، أو ضعف أي برغوث.

الحياة خصم للنزاهة

إننا لا نستطيع أن نرى الأشياء إلا من خلال ذواتنا، ولا أن نتعامل معها إلا بواسطة رغباتنا. وإن ذواتنا ورغباتنا لا تصوغها أو تحددها أخلاقنا وأفكارنا؛ إنما يصوغها الوجود بكل ما فيه من وحشية وغباء. ليست أفكارنا مسؤولة عن أخطائنا؛ ولكن نحن المسؤولون عن أخطاء أفكارنا.

إن رغباتنا هي التي تصوغ أخلاقنا وأفكارنا، ولكن أخلاقنا وأفكارنا لا تصوغ رغباتنا. إننا بلا رغبات لا يمكن أن نعمل شيئاً، ومع الرغبات لا يمكن أن نكون أخلاقيين في أعمالنا أو رغباتنا أو أفكارنا..

إننا نعمل بالرغبة، بضغط ذواتنا علينا، إذن لا يمكن أن نكون أخلاقيين.

إننا لكي نسلك سلوك الفضلاء لا بد أن نكون غير فضلاء، فالفضيلة لا تنتج عن فضيلة. إن الفضيلة الخالصة ليست شيئاً بل لا توجد فضيلة، وإنما توجد تعبيرات فاضلة. إن أبعد الناس عن الإحساس بالفضائل واحترامها هم أكثرهم عطاء لها. إن العطاء ليس مساوياً للنية.. إن العطاء هو دائماً قوة، خروج على الحوافز.

نحن نحيا، إذن نحن فاقدون لحريتنا، وشجاعتنا، وشرفنا.. إذن نحن عاجزون عن التزام ما نتحدث عنه من عقائد، ومثل، وموت في سبيل الكرامة.

نحن نحيا، إذن نحن فاقدون لكل القيم الأدبية التي نثمن بها أنفسنا.. إن وجود الإنسان يعني حتماً سقوطه أخلاقياً ونفسياً.. إن وجود الإنسان يعني حتماً تلوث ملابسه الداخلية والخارجية.

إنه لمستحيل أن تسير في طريق الحياة ـ مهما كانت مسيرتك قصيرة ـ دون أن تغوص قدماك، وتتلوث ثيابك في حقول المستنقعات التي لم تستطع عبقرية الآلهة، ولا دموعها الغزيرة

المنروفة حزناً على خطايا البشر وتلوثهم، أن تجففها أو تطهرها.. إن الحياة خصم دائم للنزاهة والنظافة..

نحن نتحدث دائماً بمبالغة عن الشرف والكرامة، وكأننا نحاول بذلك أن نعوض عن فقدنا المحتوم للشرف والكرامة.. إن من يفقدون الشيء لا يصمتون عنه.. إن هذا من أفضل أخلاق الإنسان، إن هذا من أسوأ أخلاق الإنسان..

إن معنى كوننا أحياء هو معنى كوننا ضعفاء.. إن أكثرنا قوة هو أكثرنا ضعفاً..

إننا بقدر ما نكون أقوياء، نكون محتاجين إلى أن نضعف ونتطامن، ونتلاشى أمام الأحداث.. إننا بقدر ما نكون أقوياء، نكون محتاجين إلى أن نخرج عن المثل والنظريات التي نعاني في وضعها، ومحتاجين إلى أن نفرط في الكرامة التي ننادي بالموت دفاعاً عنها.

إن الأحداث تتحدى الأقوياء أكثر مما تتحدى الضعفاء. إن الضعفاء يمارسون الحياة أقل، إذن هم يتعرضون للتحديات بنسبة دنيا، لهذا قد يمارسون حريتهم وكرامتهم بنسبة عليا..

إن اتساع حدودك يعني تعرضك للتلوث والأعاصير أكثر.

الإنسانية بعض مني

أنا أشتهي ما تنكر مثلي، لأني لا أستطيع إلا أن أشتهي..

وأبتكر مثلاً لا أستطيع ولا أريد الاستمساك بها، لأني لا أستطيع إلا أن أبتكر..

وأفعل ما أحتقر وما أخجل منه، لأني لا أستطيع إلا أن أفعل.. وأريده لأني لا أستطيع أن أكرهه.

وأحيا لأني لا أستطيع أن أموت.. وأموت لأني لا أستطيع أن أحيا.

وأحزن لأني لا أستطيع أن أفرح.. وأفرح لأني لا أستطيع أن أحزن.

وأكره لأني لا أستطيع أن أحب.. وأحب لأني لا أستطيع أن أكره.

وأحابي نفسي أكثر مما أستطيع أن أحابي كل ما في الكون من جمال وحقائق، واتساع مملوء بالشموس، والخيال والخوف.. إني أحابي نفسي، وأتعصب لها ضد وجود الآخرين بلا منطق، بلا أخلاق.

إني أعبد شهواتي.. إني لا أعبد سواها، ثم أصعد أعلى المنابر لألعن أمثالي الذين يعبدون شهواتهم.

إنه لو كان لا بد من التضحية بذاتي، أو بالإنسانية كلها، لاخترت بلا تفكير التضحية بكل الإنسانية.

إن الإنسانية، في جميع حساباتي، لا تساوي أكثر من ذاتي.

إن قيمة الإنسانية بعض قيمة ذاتي.. إن تقويمي للإنسانية بعض تقويمي لذاتي..

ما أعظم احترامي إذن للإنسانية..

سؤال يظل سؤالاً

ولكن لماذا أكون كذلك..؟ لأني لا أستطيع ألا أكون..

ولماذا لا أستطيع..؟ لأني لا أستطيع أن أختار نفسي، لا أستطيع أن أختار بين الأنا واللا أنا، بين أنا وأنت.. لا أستطيع أن أختار بين أن أكون وألا أكون. فإذا كنت، فلن أستطيع ولن أريد ألا أكون.. وإذا لم أكن فلن أستطيع، ولن أريد أن أكون.

إني مفروض على ذاتي، بقدر ما ذاتي مفروضة عليّ، بقدر ما الشمس مفروضة على الشمس.

إذن فأنا لا أوجد ولا أحيا على مثال، على أي مثال، لا عقلي ولا فني ولا أخلاقي، أنا أوجد وأحيا فقط. كيف جئت هكذا دون أي شيء آخر، دون أية كينونة أخرى..؟ سؤال يظل سؤالاً.

إني لو وجدت أو حييت على أي نموذج آخر، أو لم أوجد أو أحي على أي نحو، لما غضب المنطق ولا المستويات الأخلاقية أو الفنية، كما لم يرض عن نفسه أي منطق أو أي مستوى فني أو أخلاقي، لوجودي وحياتي كما أنا.

هكذا العالم.. هكذا كل الكون.. هكذا كل البشر..

كل شيء يساوي أي شيء.. كل صيغة تساوي أية صيغة.. كل شيء، كل صيغة يساويان لا شيء.. لا صيغة.

إنه لو لم توجد جميع حضارات الإنسان وعباقرته.. إنه لو لم توجد المجموعة الشمسية، أو أية مجموعة كونية أخرى، لما تغيرت النظرية المنطقية، أو الأخلاقية، أو الفنية المحكوم بها على الكون، ولو أضيف إلى الكون ملايين الأكوان الأخرى أمثاله، لما تغير الحكم المنطقي أو الأخلاقي أو الفني عليه.

إننا لا نحكم على الكون بأنه طيب لأنه طيب، بل لأنه موجود.. إن أية صيغة في وجوده تساوي في حكمنا عليه، كل صيغة أخرى.. إن الكون لم يجئ على قياس منطقنا، وإنما جاء

منطقنا على قياس الكون.. لقد فرض الكون على منطقنا، ولو فرض بأي أسلوب آخر لكان الأمر سواء، ولو أن أي كائن غاضب، أو محارب، أو مضارب، أو مخرّب، ألقى بكتلة الكون إلقاء لما جاء أسوأ، أو أقل منطقية أو أخلاقية مما جاء.

لا نراه.. كما نراه

إن الإشياء التي لا يتغير الحكم عليها مهما تغير وجودها أو صفاتها، لا يمكن أن تكون أخلاقية، ولا معقولة، ولا خاضعة لأي حكم.

إن الشيء الذي يكون معقولاً وطيباً في جميع حالاته، لا يمكن أن يكون معقولاً أو طيباً في أية حالة. إن الوجود العقلي والأخلاقي ليس وجوداً فقط، إنه وجود خاص، إنه وجود على مستوى معين. ليس كل وجود معقولاً أو أخلاقياً، وإلا لبطل معنى الأخلاقية والمعقولية.

إن الذين يرون الكون معقولاً وعظيماً، هم يرونه في جميع احتمالاته.. إنه لو جاء الكون يحمل مزيداً من الغباء والعبث والتشويه.. إنه لو جاء بكل احتمالات التعذيب لهم، والتناقض معهم، والخروج على تفاسيرهم وأمانيهم واحتياجاتهم، لما نقص إعجابهم به، وبالموهبة التي أبدعته. إنهم في الحقيقة لا يرونه شيئاً، إنهم كالذين يرون أي بناء عملاً هندسياً عظيماً كيفما كان. إن منطق الإنسان إزاء الكون هو منطق من يرى أي وجود يساوي كل العبقرية، هو منطق من يرى أن أحقر وأصغر موجود يساوي كل عبقرية الإله وأخلاقه.

ولو أن الإنسان جاء في صورة أحقر حشرة، ثم استطاع أن يؤلف لنفسه منطقاً، لرأى أنه في صورته هذه قد جاء موهوباً كل ما في الآلهة من عبقرية، ومن احتمالات عقلية وأخلاقية، وأن القدر قد أشرف بكل خبرته، وموهبته، وتجاربه، على إخراج هذا الكائن المحظوظ المدلل، ليجيء في أحسن تقويم.. ليجيء أقوى إعلان عن عبقرية الإله.. أقوى ثناء على مواهبه الفنية والأخلاقية.. ليجيء أقوى عرض لذاته.. أقوى ترضية ومجاملة تقدمها ذاته إلى ذاته.. ليجيء صورة له.. نموذجاً لوجهه، لجمال وجهه، لجمال صورته، لمزاياه الذاتية والنفسية، لنظافته السلوكية والجسدية. لقد خلقه في ليلة عرس.. لقد خلقه بعد أن اكتملت فيه كل أدوات الخلق.. لقد خلق الإنسان بكل هذا الجمال، ليكون على صورته.. لقد خلقه ليكون الصورة المرئية منه، المنقولة عنه.. لقد خلقه في أحسن تقويم.

إن الإله نفسه لو جاء نقيض ما هو في تصورنا، لما اختلف رأينا فيه. إننا نرى الإله ونحكم عليه مفصولاً عما نرى ونواجه، مفصولاً عن عمله، مفصولاً عن الكون الذي هو كل عمله. إننا لا نراه بعمله، لا نراه من خلال الكون.. إننا نراه كما نريد، أو نستطيع أن نراه.. إننا لا نراه كما نراه. إنه إذا وهب الموت أو الحياة، الفقر أو الترف، الصحة أو المرض.. أنزل علينا المطر أو

الصواعق.. عاقب المظلوم وحابى الظالم.. فعل الشيء ونقيضه، فهو في الحالتين وفي كل الحالات بالغ كل الكمال والعدل، والحب والرحمة.

إنه مهما اختلفت صور الإله في أذهاننا، أو سلوكه ضدنا، أو في الكون، فإن حكمنا عليه ورؤيتنا له، لن يتغيرا..

إذن فالله نفسه، ليس عقلاً.. ولا أخلاقاً في تصورنا.. إنه وجود بلا مستوى.

إننا نحكم على الله برؤيتنا له، أو بمستوياته أو بصوره في أذهاننا.. بل حكمنا عليه، ضد هذه المستويات، والصور، والرؤية.

إن العقل والأخلاق ليسا غير الإنسان.

فإذا قيل العالم أو الكون ليس عقلاً.. ولا أخلاقاً، كان المعنى أنه ليس إنساناً.

وهو حتماً، ليس شيء آخر.. غير الإنسان.

إنه هو نفسه.. إنه هو القصة التي ليس لها مؤلف، ولا نموذج، ولا مقاييس نقدية..

إنه القصة التي لم يقصد أن يكون لها قراء..

إنه الكائن الذي ليس له نموذج، ومع هذا فهو كل النموذج.

وليس له مؤلف، ومع هذا فجميع المؤلفين يتعلمون منه.

وليس له مقاييس نقدية، ومع هذا فكل مقاييس النقد خاضعة له، موجودة فيه، مأخوذة عنه..

•

لو كنا خارج أنفسنا

ما أصغر الكون في حسابنا، إذا كان لا يعني سوى حاجتنا إليه، وتقويمنا له.

وما أصغرنا نحن، إذا كنا لا نعني سوى وجودنا.

وما أصغر وجودنا، إذا لم يكن يعني سوى وجودنا.

كم هو صغير وقبيح هذا الإنسان، حينما يبدو متخاصماً، متباغضاً، متلاعناً، باكياً، حزيناً، خائفاً، لاهثاً، راكضاً وراء احتياجاته ومطالبه الصغيرة.

كم يبدو صغيراً وقبيحاً، حينما يولد.. حينما يموت.. حينما يشيخ.. حينما يمرض.. حينما يحب.. حينما يبغض.. حينما يبكي.. حينما يخاف.. حينما يجوع.. حينما يشبع.. حينما يُقهر.. حينما ينتصر.

كم يبدو صغيراً وقبيحاً، حينما يصبح حاكماً متألهاً يمدح نفسه، ويمدحه كل الضعفاء.. أو يصبح رعية مستعبدة.

ما أصغر كل موجود إذا كان لا يعني سوى كونه موجوداً.

ما أسخف العبقرية التي لا تجد فرقاً بين أن تفعل الشيء ونقيضه، والتي تمدح نفسها بكونها قاتلة، بقدر ما تمدحها بكونها خالقة.

ما أسخف هذه العبقرية التي توجد كوناً لا يساوي إيجاده إلا ما يساويه إفناؤه. ما أسخف وأصغر كل شيء إذا رأيته كما يبدو، بلا تعاليم، بلا تهاويل.. إذا رأيته كما تراه، لا كما تريد أن تراه.

إن معنى كل شيء هو في العجز عن التخلي عنه.

إن معنى الكون هو في عجزنا عن التخلي عنه، وفي عجزه عن التخلي عن نفسه.

إن معنى وجودنا هو في عجزنا عن التخلي عن وجودنا.. إننا لا نساوي أكثر من كوننا لا نستطيع أن نتخلى عن وجودنا.. عن أنفسنا.

إن الكون.. إن كل شيء لا يساوي أكثر من عجزنا عن رفضه، ومن عجزه عن رفضه لنفسه.

إننا لو أبصرنا الطابور من خارجه.. طابور الحياة والطابور البشري، يعاني رحلته المجهولة المصير، أو المعروفة بتفاهة المصير وقسوته، تحدو له الأوهام المتكررة المتأهلة؛ لكان من المشكوك فيه أن نرغب في الانضمام إليه.. كما أن من المشكوك فيه، أن تكون أصغر الكائنات الدنيا، راغبة في الالتحاق بطوابيرنا، حينما ترانا صفوفاً نصلي أو نتقاتل، تحت أقدام الآلهة البدوية، أو تحت رايات القادة والزعماء القتلة، أو تحت أي جنون مذهبي لا نعرف عن قيمته، إلا مثلما نعرف عن القيمة المنطقية أو الأخلاقية في أن نوهب الحياة لكي نموت.. هاتفين بأناشيد العبادة، أو بأناشيد المجد والحرب، بحماس وإيمان فيهما كل معاني الجنون وتعبيراته، وكل صلوات الهوان ودموعه.

من الذي وضعنا في الطابور الضال..؟

ماذا يعني..؟

ماذا يريد..؟

عماذا يتعالج..؟

إن قيمة أي شيء فقط في كونه هو نفسه، وفي أنه لا يستطيع أن يكون شيئاً آخر غير نفسه، أن يكون شيئاً أفضل أو أردأ.

إن القيمة هي دائماً نفس الضرورة.. إنه لولا الضرورة لما كان لأي شيء أية قيمة.

ليست الضرورة نتاج القيمة، ولكن القيمة هي نتاج الضرورة.. إن وجود الضرورة يعني حتماً وجود القيمة، ووجود الشيء هو نفس قانونه ونفس مزيته.

كل شيء يقول أنا موجود، إذن أنا ذو قيمة، إذن أنا قانون.. يقولها الإنسان كما يقولها الحجر والبرغوث.

هل للإنسان من قيمة أو قانونية أكثر من كونه موجوداً.. ووجوده هل يعني إلا نفسه، مثل الحجر أو البرغوث..؟

العبث يتقدم

إن الإنسان يتقدم، أي تزداد معارفه وقوته وسرعة حركته في الكون، وعمله في الطبيعة.. إنه يكبر كقوة، كإبداع، كرؤية، كانطلاق بعيد المدى.

ولكن كل ذلك يظل بلا معنى، بلا معنى من أي نوع، بالنسبة لأي شيء.

سيبقى الإنسان مهما تطور بلا معنى.

إن الإنسان يظل في جميع حالاته ينتقل من ذاته إلى ذاته، ينتقل من العبث إلى العبث. والعبث يظل عبثاً مهما تعاظم واتسعت خطواته.

إن العبث العظيم، ليس إلا عبثاً عظيماً.. وأسوأ العبث هو أكبر العبث، فإذا كانت الشمس عبثاً أصبحت أسوأ من القمر إذا كان عبثاً.

إن كل تقدم يبلغه الإنسان لا يعني إلا الاستجابة لاحتياجاته، أو لقدرية ذاتية فيه غير مفهومة.

إن احتياجاته لا معنى لها، وإن الاستجابة لما لا معنى له لا معنى لها.

إن منطق التقدم هو نفس منطق التأخر. إن الغاية من التقدم والتأخر واحدة، وإن حوافزهما واحدة، وإن دلالتهما واحدة، وإن الذاتية فيهما واحدة.

إن تحول الشمعة إلى شمس.. إن تحول النملة إلى فيل، لا يعطيهما معنى جديداً، أو قيمة عقلية، أو أخلاقية أو غائية جديدة.

إن تطور الإنسان من كائن يعيش في ضمير الغابة، إلى إنسان ذري كوني يركب السفن

الذرية الكونية، لينتقل بها بين سرر الآلهة وعروشها.. لينتقل بها في أرجاء الكون.. ليعيش فوق الكواكب، مزاحماً الآلهة والأوهام العريقة النسب والمجد، ممارساً لتفاهاته وآلامه وأحزانه فوق النجوم بدل الأرض.. ليقول للشيء كن فيكون، لن يرتفع به عن أن يبقى كائناً ذاتياً، لا يعني غير وجوده الذاتي، ويخضع لهذا الوجود، ولاحتياجاته، وأوهامه غير المفسرة أو الذكية، في تعصب وحماقة، وطفولة غوغائية.

إن العبقرية ليست سوى طفولة مثيرة متفوقة.. إن العبقري في حوافزه، وأهدافه، واحتياجاته، وشخصيته، لا يساوي أكثر من طفل عادي.. إنه يبكي ويخاف، ويجوع ويضعف، كما يفعل الآخرون، كما يفعل الصغار جداً.. إن العبقرية التي هي فوق الإنسان، لا تعيش إلا في ضعف الإنسان..

وحينما يبلغ الإنسان مرحلة الكائن الخالد، يكون المعنى أن العبث قد بلغ مرحلة الخلود، والعبث الضخم الخالد لا يساوي في معناه العقلي، أو الكوني، أو الإنساني، فوق ما يساوي العبث الصغير الزائل. وما أفظع أن يصبح العبث خالداً.

إن الإنسان قد يتحمل عبث مائة عام يعيشها، فهل يتحمل العبث الخالد..؟

رثائي لك أيتها الأرباب الخالدة، كم تعانين من التفاهة والعبث.. كم تعانين من الخلود التافه العابث..؟

رثائي لك أيتها الأرباب الخالدة الحزينة..

مستوى صحة

إن الناس في الغالب متفائلون.. متفائلون بالقدرة والحاجة، لا بالتفكير.

إن التفاؤل ضرورة، إنه خوف وفرار من التشاؤم.

إن تعليم التشاؤم مثل تعليم التفاؤل كلاهما لا خوف منه ولا جدوى فيه، لأن البشر لا يتشاءمون أو يتفاءلون بالتعليم.

إنه لو بعث الله جميع الأنبياء متشائمين، أو جميعهم متفائلين، لما نقص أو زاد تشاؤم أو تفاؤل المؤمنين.. أي لما زاد أو نقص تلاؤمهم أو تنافرهم مع الأشياء.

المعلم المتشائم المبدع لمنطق التشاؤم، من علمه التشاؤم..؟ لقد جاء متشائماً، كما يجيء طويل القامة، أو قصيرها.

إذن لن يخشى من نبي متعب، يلهمه تعبه أن يدرك بالتفكير صدق التشاؤم وأخلاقيته

وصنعه، ليصنع من تعبه نبوة متشائمة، معجزاتها البكاء والأنين الأليم المنتزع من آلام الحياة ومظالمها، وعبثها المثير.. ومن آلامه هو.

ولن يجدي أيضاً في تغيير الموقف، وفي إعطاء الحياة غير ما تستطيع من التفاؤل والابتهاج، في أمر مرح يحوله مرحه الذاتي إلى ديانة متفائلة، يعلمها الناس.

إن التشاؤم والتفاؤل ليسا ذكاء أو غباء.. ليسا نظرية أو أخلاقية.. ليسا ضد الأخلاقية.. ليسا انتصاراً أو انهزاماً.. ليسا تجارب سعيدة أو مريرة.. إنهما عملية كيميائية عضوية تتحول إلى بهجة أو كآبة، لتتحول هذه البهجة أو الكآبة إلى تفكير، وإلى لعنات تارة، وإلى غناء تارة أخرى.

إن التشاؤم والتفاؤل كما أنهما ليسا حالة فكرية، فهما كذلك ليسا حالة نفسية.. إنهما حالة جسم.. إنهما مستوى صحة.

والحالة النفسية من صانعها..؟

إنه الجسم.. إنه ليس شيئاً آخر، ومهما بدا أن أشياء أخرى هي الصانعة لها.

ما هي الحالة النفسية..؟

هي ما تساوي استجابتنا للظروف المختلفة.. هي حالتنا التصورية والانفعالية الناتجة عن مواجهاتنا الكثيرة. ولكن المواجهات والاستجابات إنما تؤديها حالتنا العضوية والكيميائية.

إن الذي يتحدث بالتشاؤم أو التفاؤل لا يدعو إلى أي منهما، وإنما يتحدث فقط.. يتحدث عن ذاته بلذاته.. إنه كالذي يضحك أو يبكي، لا يقصد ولا يستطيع أن يعلم الآخرين الضحك أو البكاء.. إنه في حالتيه لا ينطوي على معنى النبي ولا على معنى الدجال..

إن كل صاحب رسالة، ليس إلا ضاحكاً أو باكياً.. ليس إلا معبراً عن نفسه، والآخرون بالنسبة له ليسوا إلا أدوات التعبير ومجاله.. ليسوا إلا أدوات الضحك والبكاء.

إن رسالة أي رسول أو معلم، لا تساوي إلا أساليبه في التعبير عن حاجته إلى الدموع، أو إلى المسرات..

إن كل منطق في هذه الدنيا، لا يستطيع أن يغير من شعورنا نحو الأشياء، ولا أن يضعف من استمساكنا بها.

إن على كل من يمكن أن يقرؤوا هذا الكتاب ألا يخشوا من أن يفسد عليهم هذا الذي أقوله استمساكهم بالعبث الذي يمارسون، أو أن يضعف من إعجابهم غير الذكي ولا المتوقر بأنفسهم، وبأربابهم، وعبقرياتهم.. من إعجابهم بأبنائهم غير العباقرة.. بزوجاتهم غير الفقيرات

من الدمامة.. بأثاث منازلهم العاجة بالعناكب والحشرات.

إن الإعجاب حالة فيمن يقع منه الإعجاب، لا قيمة فيمن يقع عليه الإعجاب.. حتى حينما توجد هذه القيمة، ليست هي سبب الإعجاب.. إن الإعجاب حاجة، وليس قيمة.

إنه لا يوجد شيء له قيمة، وإنما يوجد شيء به حاجة إلى شيء، وهذا هو معنى الإعجاب في جميع حالاته.

إن الفرق بين ما نعجب به وما لا نعجب به، يساوي الفرق بين ما يتحول إلى حاجة من نوع ما وبأسلوب ما، وبين ما لا يتحول إلى حاجة.

إننا نعجب بالأسد دون الأرنب، لأن الأسد شجاع.. والشجاعة حاجة من حاجاتنا.

إن استمساكي بهذا الذي أراه أسخف العبث، أو على الأقل إرادتي له وخضوعي لأوامره، لا يقل عن استمساك أو خضوع أو إرادة أقوى المؤمنين إيماناً بالمنطق، والحكمة، والرحمة المبثوثة في هذا الكون، على مستوى كرم الآلهة، وقدرتها، وذكائها.

إن اختلاف المنطق والرأي بين الناس لا يساوي بل لا يعني اختلافهم في الإرادة، والاستمساك، والخضوع لما اختلفوا فيه.

إن البشر متشابهون كتشابه الحشرات في تلوثهم، وحاجتهم إلى السقوط، وفي شهواتهم، وجوعهم، وفي خضوعهم لجوعهم وشهواتهم، مهما ارتفعوا إلى مستوى البشر في تفكيرهم، وفي تفاوتهم، أو اختلافهم في تفكيرهم.

ليس رفضاً.. بل اشتراط أقسى

النقد احتجاج، والاحتجاج رغبة محتجة.. لا رفض للرغبة.

فالنقد نوع من الرغبة المشترطة.. النقد اشتراط لا رفض. إذن فنقد الحياة والكون، إنما يعني في الغالب مزيداً من الرغبة فيهما، والتلمس لهما، بنوع من الاشتراط العقلي، دون التزام سلوكي بهذا الاشتراط.

فالناقد ليس كارهاً كرهاً مطلقاً، بل راغب على قياس غير عادي، على مستوى أكثر أو أفضل من الموجود.

والناقد لنفسه، ليس إلا باحثاً عنها، مريداً لها أكثر، ولكنه يطالب لها بشروط ملائمة لم توجد، ولعلها لن توجد أبداً.

الناقدون للأشياء.. للآلهة.. أو للنظم والمذاهب.. أو للحياة، هم قوم يطالبون بها أكثر.. يريدونها على مستوى أفضل مما يجدونها.

إن الناقدين لغباء الكون والحياة، هم أكثر الناس رؤية لهما، وإحساساً بهما، وتطلعاً إليهما.. إنهم يمارسونهما بأحساسيسهم، ورؤيتهم، وتفكيرهم، وتطلعاتهم، أكثر من الراضين عنهما.. أكثر ممن لا ينقدونهما، وممن لا ينقدون شيئاً.

إن الراضين عن ذكاء النجوم وعن حكمتها العظيمة، لن يكونوا أول من يكتشفونها أو يكونها.

إن المؤمن بقيمة الصنم المصنوع من الحجر، سيكون أقل جرأة على تدميره ليشيد بيته من أطلاله.. إن المعتقدين بالإله سيكونون أخوف من يجرؤون على النظر إلى وجهه.. سيكونون آخر من يعرفونه أو يرونه.

إنه محتوم على الإنسان أن يخطو الخطوات التي تجعله في المكان الذي يستطيع أن يرى منه الإله ويعرفه..

إننا لا بد أن نرى الإله.. لا بد أن نعرف من هو..

إن ذلك قدر مكتوب على خطواتنا المقودة بلا رؤية.. المقودة إلى غير مكان إننا لا بد أن نرى الإله.. أن نعرفه.. أن نحاسبه.. أن نفسره.. أن نصارعه.

إننا لا نستطيع الهرب من ذلك.. إن كل الطرق تلقي بنا إلى ذلك.. إلى هذا التصادم.

الغباء خبز عالمي

الغباء غذاء يومي للجماعات لا تستطيع أن تعيش بدونه، فهو الذي يهبها القدرة على التلاؤم مع كل التناقضات الأليمة التي تحياها أو تراها.. حتى الذكاء لا يستطيع أن يعيش إلا في ضجيج ومواكب من الغباء.

إن الذكاء المطلق هرب مطلق، ورفض مطلق.. بل وموت مطلق. لهذا لايمكن أن يوجد ذكاء مطلق..

إننا قد نهتف للزعماء والآلهة، أو نموت تحت أقدامهم في نفس الظروف التي قد نشنقهم بها. لقد هتف الناس في كل التاريخ للزعماء والآلهة بمثل جهارة الأصوات التي هتفوا بها لسقوطهم. إن على الزعماء أن يحذروا.. إن عليهم أن يحذروا كثيراً فقد يكون الهتاف لهم هتافاً ضدهم، أو مقترناً مختلطاً به.. قد يكون هتافاً بصلبهم إنه لا فاصل بين الهتافين.

*

أغلق عينيك تؤمن

كان المقرر دائماً أن معرفتنا هي التي تصنع قدرتنا. ولكن يجب أيضاً أن يكون مقرراً أن قدرتنا تصنع معرفتنا. ويستحيل أن تكون معرفتنا ثابتة، إذا كانت قدرتنا متغيرة. والقدرة تتغير بلا معرفة.. إن القدرة تتغير بالقدرة. والعاجز والقادر لا يتفقان في فهم الأشياء ولا في تفسيرها.

وموقفنا من الكون متغير لتغير وعينا له. ووعينا له متغير لتغير قدرتنا عليه. ولا يمكن أن تتغير حركتنا نحو الشيء، ثم لا يتغير تفسيرنا له.

إن كل عقائد الناس ونظرياتهم ناشئة عن علاقاتهم بالوجود الآخر الذي يتعاملون معه. ودائماً تتغير هذه النظريات والعقائد لتغير هذه العلاقات. وأفكارهم لا تنطلق من داخلهم، وإنما

تعبر عن علاقاتهم الخارجية.. هي حاصل موقفهم من الأشياء. ولو افترضنا قوماً بلا علاقات ولا مواقف خارجية، لافترضناهم بلا أية عمليات ذهنية.

إن محاولتنا التوافق مع عالمنا هي التي أبدعت جميع معارفنا ومثلنا ولاهوتياتنا. ليست قيمنا الأدبية نابعة من داخلنا، ولا قادمة من خارجنا.

والارتباط بالشيء يتحول إلى إحساس ثم إلى فكرة. وهذا هو الذي يصنع كل نشاطنا العقلي. والإيمان هو حاصل التناقض بين إرادتنا ووجودنا. والإله حالة لا وجود، فنحن لانجده كقوة فاعلة في الكون، بل كحالة وكإرادة للمجتمع.

لقد ظل التاريخ في عملية نشاط دائمة لتغيير أفهام الناس للوجود وتفسيرهم له. وكان هذا يعني وجود الأديان والمذاهب المختلفة التي لم يكن ممكناً أن تتحدد. ولم تكن عملية التاريخ هذه إلا تعبيراً عن وضع الإنسان المتحرك إزاء نفسه وإزاء كونه. والذين لا تتطور عقائدهم مع تطور أوضاع حياتهم المتحركة، هم قوم قد ماتت عقائدهم، فهي لا تتحرك مع الأحداث ولا تتأثر بها. إن حياتنا وأساليبها تتغير، إذن لا بد أن تتغير عقائدنا. إن علاقاتنا بالكون وبالآخرين تتغير، إذن لا بد أن تتغير تفاسيرنا لأنفسنا وللكون وللآخرين. إنه لا توجد عقائدية أو تفاسير ثابتة لأنه لا يوجد إنسان ثابت.

والعقيدة العاملة المتصادمة لا يمكن أن تبقى ثابتة. والذي لا يغير عقيدته هو إنسان يحيا بلا عقيدة. لقد أبعد عقائده عن طريقه.. ألقى بها في متحف مهجور من نفسه. إن العقيدة غير المتغيرة ميتة، لأن الحياة تغير دائم. والذين يفاخرون بأن عقائدهم غير متغيرة إنما يفاخرون بأن عقائدهم ميتة. والوسيلة المجدية لإقناع أصحاب العقائد الثابتة باستحالة ما يعتقدون، هي تركهم يجربون تلك العقائد على الحياة، مع إعطائهم كل التسهيلات القانونية. والله هو التعبير التاريخي الذي لا يعني به كل مجتمع إلا مجموعة أوضاعه ونظمه وتصوراته، وكل ظروف حياته المتبدلة. فالذي يقول أقاتلك دفاعاً عن الله، أو عن الحرية، أو عن النظام والعدل؛ إنما يعني الدفاع عن أسلوب من الحياة قد رتب مصالحه عليه. فالشيخ الذي يقاتل - في زعمه - دفاعاً عن الله، هو كالطاغية الذي يقاتل خصومه.. كلاهما إنما يدافع عن نفسه، وعن كينونته، وظروفه. ولهذا فإن هذا الشيخ مستعد أن يقاتل المؤمن الأقوى منه إيماناً، دفاعاً عن الله أيضاً.

وعقائد الإنسان ومثله التي آمن بها حينما كان يروعه خسوف القمر، لا يمكن أن تظل هي عقائده ومثله، بعد أن أصبح يصنع الأقمار ويغزو الفضاء الذي كان يهاب التحديق فيه.

•

بماذا يمكن أن يجيب الفلاسفة ورجال اللاهوت القدماء لو سئلوا: هل يمكن أن يتصرف

الإنسان في نظام الكون، فيضيف إلى المجموعة الشمسية أعداداً أخرى من النجوم الصناعية، تدور في أفلاكها، أو يدمر بعضها، أو يغير مداراتها..؟

من المحتوم ألا يسخروا ممن يسأل هذا السؤال، بل لا بد أن يرثوا له وأن يذهلوا.

وما أظنهم سيحكمون عليه بالزندقة، لأن الزنديق هو الذي يخالف في أمور لا دليل على اليقين فيها.. أو هو الذي يرفض الإيمان بما لا دليل عليه، وبما الدليل على نقيضه.. أو هو الذي يحاول أن يفهم أكثر، أو أن يفهم قبل أن يؤمن.. أو هو الذي يرفض أن يتعلم الإيمان بالتلقين كما يتعلم اللغة. والزندقة احتمال لا جنون.. والزنديق هو الذي يعقل أكثر، وليس هو الذي يجن أكثر.. هو الذي يثير الغضب لا الشفقة.

كانت الفلسفة والثقافة القديمتان تريان النظام الكوني نظاماً غيبياً لا يخضع للتفاسير العقلية؛ ولا بضبط القوانين، كما لا يمكن إحداثه أو تغييره أو محاكاته. وكل ما تقدر عليه عبقرية الإنسان أن تشاهد وتذهل وتصلي، وأن تؤمن برهبة وتواضع. فالكون بالنسبة للإنسان ليس إلا مصدر إيمان وتأمل، وانبهار وخوف، وعبادة وفرار من النفس ومن الكون نفسه.

إن من لا يفر من الكون، من رؤيته وقراءته، ومحاسبته على أخلاقه وذكائه، فلن يستطيع أن يؤمن. فالكون ليس إلا رفضاً وتحدياً دائما للإيمان. ولكي تؤمن أو تظل مؤمناً يجمل بك أن تغلق عينيك عن رؤيته؛ أما إغلاق عقلك دونه، لكي تؤمن أو تظل مؤمناً، فمحتوم. وعليك على كل حال، لكي تؤمن أو تظل مؤمناً ألا تحاسبه على شيء يفعله، أو شيء يقع فيه.

لم يكونوا يتصورون الكون قائماً من داخله، فهو ليس مجموعة قوانين ذاتية تدرك وتفسر وتسخر؛ وإنما هو إعجاز خارجي.. هو مشيئة وليس ضرورة والمصنوع المحكوم من فوق التفكير والتفسير، كيف تمكن القدرة عليه..؟

ولكن لقد تطور الإنسان فأصبح الكون في وعيه إنسانياً.. لقد صار موضوعاً من موضوعات تفكيره وقدرته. وأفكار العاجزين لا يمكن أن تبقى أفكاراً للقادرين. فالتفكير ليس انعكاس ذاته، بل انعكاس حالتي القدرة والعجز. ولا يوجد من يفكر لأنه خلق هكذا مفكراً بالذات، وإنما يفكر الناس خاضعين لعوامل غير فكرية.

كل شيء قائم على طبيعة تتحول قانوناً، أي تتحول التزاماً غير أخلاقي. وهذه الطبيعة المتحولة قانوناً بلا أخلاق، هي نوع واحد في كل وحدات الوجود المتماثلة. وتوجد طبيعة أو قانون مشترك بين أصغر ذرة وبين الشموس والأقمار، والفرق ليس إلا في المقدار.

وإذا كنا نستطيع أن نرفع حجراً، أو نحركه أو نفتته بجهد ما، فإننا بهذا القانون نستطيع أن نرفع قمراً أو نسقطه؛ ولكن بجهد أعظم.

وإذا كان الكون كله ليس إلا مجموعة قوانين، فإن من المستطاع السيطرة عليه والتصرف فيه بمعرفة هذه القوانين والقدرة على تسخيرها. وبقدر ما نعرف من هذه القوانين نصبح أحراراً في القدرة على التسخير والتغيير، وإن كانت القدرة طوراً أصعب من المعرفة.

وعقدة اللغز في عجز الإنسان إزاء الكون، كامنة كلها في مقدار الفرق بينهما. فالإنسان عاجز لأن الكون أكبر منه، لا لأنه فوقه في طبيعته أو منطقه.

وإذا استطاع الإنسان أن يعرف قانوناً واحداً من قوانين الكون، أو يحدث أي تغيير في أية وحدة من وحداته؛ استطاع من حيث المثال والفكرة أن يعرف كل قوانينه، وأن يغير كل أوضاعه في كل آحاده، لأن سبب العجز ذاتي لا طبيعي.. وعلى الأصح هو عجز زمني لا قانوني.

والعجز الذاتي أو الزمني يتغير بتغير الذات والظروف. وإنتاج الكواكب الصناعية ودورانها في الفضاء، كما تدور الكواكب الآتية من الغيب، من الآلهة المختفية في عقائد الإنسان، يثبت أن طاقات الكون وقوانينه وآلهته فيه، وأن هذه الطاقات والقوانين والآلهة ليست أسراراً محجوبة، بل هي كالقوانين الموجودة في أية آلة نصنعها ونتحكم فيها.

ويثبت أيضاً أن الكون يصوغ بعضه بعضاً.. فالإنسان، وهو من الأسرة الكونية، يصوغ الكون ويغيره، كما أن الكون قد صاغ الإنسان ولا يزال يصوغه ويغيره.

ثم يثبت أن الإنسان يستطيع أن يعلم كل الموجودات، وأن يغيرها ويسيطر عليها، إذا هو طوّر علومه ووسائله. وإن قدرته على تطوير وسائله ومعارفه لا حدود لها.. لا حدود لها من حيث الطبيعة مهما كانت حدودها من حيث الذات والزمان. لقد صنع كوكباً وقذف به إلى فلك يسير فيه، كما صنعت الآلهة القديمة الرهيبة.. إذن هو يستطيع أن يصنع ما هو أكبر، أو يدمره إذا شاء.. وإذن لقد سقطت الأسرار.

إنه لو كان الكون خاضعاً لغير ذاته، أو لو كانت قوانينه موجودة في غير ذاته؛ لما استطعنا أن نصنعه بمعرفتنا له. إننا حينئذٍ لن نستطيع أن نفعل ذلك، إلا إذا وافق ذلك «الغير» بعد أن نتفق معه بأن نرضيه، بأن نناقشه أو نرشوه.

الهرب من المعرفة

كان الإنسان القديم يصوغ أفكاره عن الحياة وعن الكون متلقياً لها من خارج الحياة وخارج الكون. كان خائفاً وعاجزاً، فكان لذلك يفر إلى الأوهام محتمياً بها من مشاعره الخائفة العاجزة. والوهم مهرب ممتاز يخترعه العجز والخوف.

والبشر إذا خافوا وعجزوا، عالجوا خوفهم وعجزهم بالأخطاء العقلية. والعاجز لا بد أن يكون مخطئاً نفسياً. والخطأ النفسي يتحول إلى خطأ ذهني.

والخطأ العقلي هو الرشوة النفسية التي يرشو بها الإنسان حيرته واحتجاجاته وتساؤلاته الضائعة.. ونحن في الأكثر لا نخطئ لأننا عاجزون بتفكيرنا، بل لأننا خائفون من الحقيقة، أو عاجزون عن امتلاكها.. ومن يعلم ولا يستطيع، يتعذب أكثر ممن لا يعلم ولا يستطيع. ولهذا يهرب العاجزون من المعرفة إلى الجهل. فالإنسان لا يريد المعرفة التي تعذب إرادته، وهو يفضل أن يكون مغفلاً سعيداً على أن يكون ذكياً معذباً.

وأسباب الإيمان بالخرافة موجودة في أنفسنا لا في الخرافة نفسها. والجماهير محتاجة دائماً إلى أن تؤمن، وتصلي، وتهتف، وتبغض.. لقد حولت آهاتها وهمومها إلى آلهة وشياطين لتعبدها وتلعنها. فالإنسان عندما يعبد ويلعن، إنما يعبد ويلعن نفسه. إنه حينما يعبد إنما يعبد تصوراً أو رغبة في تصوراته أو رغباته. وكذلك حينما يلعن.. إنه لا يعبد أو يلعن الآلهة أو الكون، بل نفسه، بل رغباته، بل تصوراته الملائمة أو المناقضة.

وحينما كان الإنسان القديم عاجزاً، كان محتوماً عليه أن يبحث عن مسببات الإيمان بالأخطاء الاعتقادية والذهنية، ليخفف عن نفسه الشعور بالعذاب. لقد كان محتوماً أن نؤمن بالخرافات لنبرر بها نقائصنا وعيوبنا، لنتهمها بأنها هي المسؤولة عن تخلفنا وأخطائنا. إن الخرافة تجعلنا نحول رذائلنا إلى مزايا.. إن الخرافة تبرئنا من ذنوبنا وعجزنا.. إنها تجعلنا غير مسؤولين عن أنفسنا.. إنك قد تؤمن بالعقيدة، أو بالمذهب، أو بالإله، أو بالزعيم لتجعله المسؤول عن عاهاتك وذنوبك..

إن الذين آمنوا بالآلهة والأنبياء لم يؤمنوا بهم ليحترموهم أو ليعبدوهم. لقد آمنوا بهم ليلقوا عليهم بنقائصهم وعاهاتهم، فهم أكثر كفراً من الكافرين.. لقد كان الذين آمنوا بالأسباب العليا الفاعلة يريدون أن يدافعوا عن أنفسهم بالإيمان.. لقد كانت الآلهة والعقائد دائمة التغير، لأنها لم تكن سوى الإنسان، وسوى محاولاته الدفاع عن نفسه.

إن المؤمنين قوم يلوثون ويتهمون ما أو من يؤمنون به، بحجة تقديسه.

لقد اضطر الإنسان الأول إلى الإيمان بأن الكون محكوم بالطلاسم المقدسة الخالدة، لكي يقبل وضعه الأليم فيه كقضاء محتوم، ليتقبله كفضيلة من فضائل النفس والعقل. إنه بهذا يحاول أن يقضي على الصراع الذي لا بد أن يثور في نفسه بين إرادته وقدرته. وكانت فلسفته الذكية قائمة على أن الذي لا يستطيع أن يفعل، فإن من المريح له أن يجهل، بل ومن الذكاء أن

إن انتصار الإنسان على عقائده ونظرياته، وعلى تواضعه القديم، يعني أن علينا اجتناب المبالغة في تقديرنا لما لدينا من حقائق ومسلمات. وأن نعلم أن الحقائق كالأشخاص، ليس فيها ما هو خالد، ولا ما هو المثل الأعلى، وأن الخلود للنوع لا للفرد.

إنه يعني أيضاً أن نحذر، فلا تخدعنا معارفنا الضئيلة المتقررة، فلا تعتقلنا في طور واحد من أطوار التاريخ. ولكن هل يستطيع شيء أن يعتقلنا.. هل تستطيع عقيدة ما أن تعتقل الشمس أو النهر..؟

إذن هل تستطيع عقيدة ما، أن تعتقل الإنسان..؟

إن عجز الإنسان هو الذي يعتقل عقائده، ولكن عقائده لا تستطيع أن تعتقله، أو أن تعتقل عجزه..

إن الإنسان يعتقل عقائده؛ ولكن عقائده لا تعتقله.

*

ليست الخرافة مجرد عجز عقلي أو خطأ في تفسير الأشياء.. إن من أخطأ في عملية حسابية أو في رؤية الأشياء، لم يعد مؤمناً بالخرافة؛ ولكن الذي يؤمن بأن قوس قزح إشارة تفاهم بين السماء والأرض، يعد من المؤمنين بالخرافات.

إن الخرافة عمل من أعمال الإرادة، لا من أعمال العقل.. إنها حالة نفسية لا فكرية. إن في الإنسان شوقاً إلى أن يكون خرافياً.. إن الحقيقة وحدها كئيبة، غبية، دميمة.

إن المعبد ليس هو وحده الخرافة.. إن جميع الفنون والآداب، والتعاليم والتقاليد، والالتزامات الاجتماعية والنفسية، وكل أساليب الحياة خرافة كالمعبد أو أشد.

أرادوا فآمنوا

إنه يوجد دائماً خطآن.. إنه يوجد دائماً خطأ عقلي، وخطأ نفسي..

إن المخطئ خطأ عقلياً لا يصعب أن يدرك خطأه بسهولة، وأن يتراجع عنه أيضاً بنفس هذه السهولة. إن الذي يخطئ في عبور الطريق أو في أسماء الأشياء أو الأشخاص أو في مسألة رياضية أو لغوية، لا يجد صعوبة نفسية أو أخلاقية أو اجتماعية في أن يغير موقفه؛ ولكن المؤمن بأحد الآلهة أو بأحد المذاهب والأديان أو النظم، هل يستطيع أن يغير موقفه، أو يدرك حقيقة موقفه بمثل هذه السهولة..؟

إن المحتاج إلى الإيمان لا يرفض المنطق فحسب، إنه يفر منه.. إنه يعادي من يدلونه عليه.

إنك تقتل من يدلك على المنطق.. إنك لتدعوه زنديقاً، ومنحرفاً، وضالاً، وخطراً، لأنه يدلك على المنطق الذي لا يلائمك..

ليس في الناس من يبحثون عن المنطق.. إنهم جميعاً يبحثون عن التلاؤم مع الأشياء، وحتى حينما يبحثون عن المنطق، إنهم لا يقصدون احترامه.. إنهم يقصدون استغلاله أو الانتصار عليه، فالبحث عنه حرب له. إن البحث عن المنطق كالبحث عن نقيض المنطق أو عن رفض المنطق، كلاهما بحث عن الموقف الملائم لا عن المنطق؛ لهذا كان عسيراً دائماً التمييز بين إرادة المنطق وإرادة رفضه.

لم يختلف الناس أو يتعادوا في علم الفلك، كما اختلفوا وتعادوا على المذهب والعقائد. إن البشر لا يختلفون أو يتعادون لأنهم مختلفون على العقائد، ولكن لأنهم مختلفون على المصالح والظروف، والأوضاع والخصائص، والتاريخ والمستوى. فالناس لا يحيون المذاهب أو الآلهة إلى المدى الذي يجعلهم يتقاتلون أو يتباغضون من أجلها، ولكنهم يصنعون ذلك من أجل أهواء أنفسهم، ومن أجل ظروفهم المتقررة.

إن العقيدة تصبح التزاماً يدافع عنه المعتقِد كما يدافع عن بيته ونفسه، وليست كذلك الحقيقة المحايدة. وإذا لم يتعصب الناس لمذاهبهم وعقائدهم، كان معنى ذلك أن تلك العقائد والمذاهب قد فقدت قيمتها وعملها في حياتهم، إنها قد أصبحت نوعاً من التاريخ المحفوظ الذي لا يثيره شهوة من الشهوات أو يتعامل معها.

إن العقيدة شهوة لا معاناة. وإدراك الحقيقة عمل من أعمال الشعور الأناني، لا من أعمال الحقيقة نفسها، ولا من أعمال الفكر المنزه. إن الحقيقة لا ترى نفسها ولا تخضع لها.

إن الاحتياج إلى الشيء هو الذي يرينا إياه، ويجعلنا نؤمن به، ونقدره، ونراه حقيقة.. لا قوته ولا وضوحه.

إن الأشياء جميلة وقوية ومقنعة، بقدر ما تستطيع إرادتنا لها أن تجعلها كذلك..

ليس في البشر منزهون.. إنهم جميعاً يعيشون بالخبز والإرادة، ليس فيهم من يعيش بالمعرفة، أو بالحقيقة، أو بالروح، مهما صلوا بها.

إن الفضيلة والرذيلة هما نائج عمليات التناقض بين مشاعرنا.. إن الحق والباطل حكمان من أحكامنا، لا وجودان متغايران في حياتنا.

وإذا كان الناس في اعتقاداتهم لا يبحثون عن الصواب، بل عن التوافق بين أنفسهم

واحتياجاتهم؛ فإنهم في إيمانهم لم يجدوا نوراً، لم يسمعوا صوتاً، لم يكلمهم القمر، لم يسجد لهم السحاب، لم ينفلق لهم البحر، وإنما أرادوا فآمنوا..

لقد آمنوا كما حزنوا. إنهم محتاجون إلى أن يؤمنوا، ويغنوا ويصلوا، وينتظروا؛ لا أن يجدوا آلهة تستمع إليهم وتستجيب لهم. ما أعظم الهول لو وجدوا آلهة تمارسهم ويمارسونها، تحدق فيهم ويحدقون فيها، يتحولون إلى أحاسيس فيها كما تتحول هي إلى أحاسيس فيهم.. ما أفدح الهول لو حدث هذا.

إن في طبيعة الحياة أن توجد نوعاً من التناسق الفكري بين الاحتياج والواقع، مهما كان الواقع سيئاً وأليماً. والإنسان امتداد، وليس حالة أو مسافة.. ليس ماضياً، أو حاضراً، أو مستقبلاً؛ بل هو ذلك كله..

إنه لا يحيا في وجوده فقط؛ بل وفي خياله، وشعوره، وفكرته.. إن موضوعات الشعور والخيال والفكرة موضوعات غير زمنية.. إنها لا تضع حدوداً بين ما قد كان، وما لن يكون، وما هو كائن.. إنها تتلقى المستحيل وتتعامل عليه، بالحماس الذي تتلقى به الواقع وتتعامل عليه.. إن المستحيل البهيج قد يثير أكثر من الواقع الأصم.

إن البشر يحيون بالتطلع.. إنهم يحيون خارج الوجود كما يحيون بالوجود.. إنهم هم وحدهم دون كل الكائنات يحيون في كل الامتدادات.

إن امتدادات الإنسان هي أكبر من كل احتمالات وجوده، بل أكبر من كل وجود. أما سائر الأحياء فيحيون بالوجود فقط، أي بالواقع.. إنه ليس لهم امتداد فكري أو شعوري أو خيالي وراء حدود الحاضر.. إنهم لهذا لم يحتاجوا إلى الإيمان والعقائد، كما احتاج الإنسان. إن امتداد الإنسان في كل الجهات هو الذي صنع عقائده وأصنامه، هو الذي صنع كل أوهامه.

ليست العقائد والإيمان والأوهام في جميع مستوياتها، سوى تعبير عن الامتداد الإنساني الذي لا حدود ولا عقل له.. إن جميع المعتقدات والآلهة ليست سوى انطلاق خارج الحدود..

ليس بين الموجودات كلها من يصنع الخرافة ويصدقها أو يعيشها، غير الإنسان الذي هو وحده صانع الحضارة، وصانع العبقرية، وهادم الخرافة.. كذلك أن الإنسان يصنع الخرافة، لأنه محتوم أن ينطلق خارج وجوده، والوجود الذي يعيشه.

نوع من الموسيقى الذهنية

إنه لن تزول الخرافة ما بقيت الحقيقة.. إن أسباب الإيمان بهما واحدة.. إن الإنسان الذي اخترع الإيمان بهذه هو وحده الذي اخترع الإيمان بتلك.. إن الإيمان بالخرافة كالإيمان بالحقيقة،

كلاهما صادر عن أقوى وأخلد ما فينا.. إنهما معاً من تدبير الحياة بنفسها.. إن فراغاتها محتاجة إلى امتلاء.

والحياة البارعة ليست هي التي ترفض الخرافات أو ترفض الحقائق، إنها هي التي تحسن الانتفاع بهما معاً، والتنقل بقوة بينهما.. إن قيمة كل منهما بما تهبه لا بما تعرفه.. إن القدرة على الإيمان ليست تفوقاً أو تخلفاً عقلياً، بل ظروف. إن الأذكياء والأغبياء قد يؤمنون بالخرافات، وقد يرفضونها.. إنهم يتأثرون في الحالتين بظروفهم، أو بمزاجهم النفسي؛ لا بذكائهم أو غبائهم، لا بفضيلتهم أو رذيلتهم.

إن إنتاج الأوهام قد يكون نوعاً من نشاط الحياة، فالحياة الكبيرة قد تصنع أوهاماً كبيرة كما تصنع حقائق كبيرة. أما الحياة التافهة فإنها تعجز عن إنتاج الأوهام كما تعجز عن إنتاج الحقائق.. ما أصغر وأضأل الأوهام التي تعطيها الحياة الصغيرة.. ما أعظم وأكبر الأوهام التي تعطيها الحياة الكبيرة.

ولكن المبدعين قادرون على التغيير وعلى إرادته، أما العاجزون فإنهم يؤمنون بلا إرادة تغيير، ويتغيرون بالإكراه؛ وحتى أوهامهم إنها مستوردة وبطيئة الحركة طويلة العمر.

إن التصادم بين الخرافة والخرافة، وبين الخرافة والحقيقة، وبين الحماس لهذه والحماس لتلك، هو الذي يصنع كل نشاطاتنا الكبرى.

إن الجمود على الخرافة مثل الجمود على الحقيقة، كلاهما يعطل نمو الحياة ويضعف طاقاتها ومسراتها وأحاسيسها المنتشرة. إن الجمود موت وهوان حتى ولو على الحقيقة.

إن خرافات المتأخرين ليست أقوى من خرافات المتقدمين وإنما هي أخلد وأبقى، وأقل جمالاً وحماساً.

إن الإنسان بطبيعة تركيبه وتركيب ظروفه متناقض. إن من الخير له أن يتناقض.. إنه يستحيل قيام الحياة أو المجتمع من غير تناقض؛ إذن لا بد أن يؤمن بالنقيضين، بالحقيقة والخرافة.

إنها لم تزل الأكاذيب الفكرية الذكية تحرك الموكب الإنساني نحو النشاط العظيم.

إن المجتمعات القوية تخترع أوهاماً ذكية، تبارك الإبداع والقوة؛ أما العاجزون عن الإبداع فإن أوهامهم مثبطة جاهلة.. إنها أوهام تبارك العجز والضعف والاستسلام.

إن الأوهام كالفنون.. إنها فنون.. إن منها الجيد ومنها الرديء.. إن منها ما يزكي الحياة ويصورها نشاطاً وأملاً وتوهجاً، وإن منها ما يحولها إلى خوف ودمامة، وبغض ورماد.

إن حياة الناس في جميع العهود قائمة على أن يقاوموا أوهاماً ليتخلصوا منها، كي يقعوا في قبضة أوهام أخرى.. إنهم يتنقلون بين مواكب الأوهام الخالدة.

إنهم يقاومون أوهاماً قديمة قد فقدت الحياة، ليستقبلوا أوهاماً جديدة، تحمل أغراض حياة مقبلة. إن الأوهام نوع من الموسيقى الذهنية..

إن الإنسان كائن موسيقي.. إنه موسيقي بسمعه، وخياله، وتفكيره.. إن جميع البشر يحبون الموسيقى.. إنهم جميعاً يؤمنون بالأوهام.. إنه ليس الفرق بين الناس والمجتمعات أن منهم من يؤمنون بالحقيقة، ومنهم من يؤمنون بالخرافة.

وهل توجد حقيقة وخرافة.. أليست أضخم حقيقة هي أضخم خرافة.. أليس في الحقيقة كل معاني ونتائج الخرافة.. ماذا في الحقيقة من معان ونتائج ليست في الخرافة.. وماذا تفقد الخرافة من مزايا الحقيقة..؟

إن كل مجتمع ينتج من الأوهام، أو يقبل ما يلائم مزاجه وقدرته، وما يشتهي أن يكونه. إن المجتمعات تصوغ أوهامها؛ إن أوهامها لا تصوغها.. لقد وجد الإنسان، ولا يزال يوجد قبل أوهامه. إن الإنسان هو الخالق لكل الأوهام، إذن هو قبلها دائماً.

إنه كثيراً ما يفسر المفكرون والمصلحون تأخر الشعوب وتقدمها بمعتقداتها الباطلة أو الصحيحة، القوية أو الضعيفة.. إنه لا يوجد أي احتمال لصحة هذا التفسير.. إن المعتقدات دليل على حالة الشعوب وظروفها، ولكنها لا تكون خالقة لها.

إنه لا يمكن أن يبتدع شعب عقائد ترفضها طبيعته، ولا أن يستمسك بها لو فرضت عليه. وإذا كان يتناسب مع إحدى المعتقدات لم يكن ممكناً أن يصنع أفضل منها، مهما حرمت عليه وزجر عنها؛ كما لا يمكن أن يتطهر منها. وإذا تفوق عليها طوّرها، أو تناساها، أو صلبها بعد محاكمات صاخبة.

إن قوماً يخلقون عقيدة، وإن قوماً يحاربونها، وإن قوماً يرفضونها، وإن الآخرين يخلقون عقيدة مضادة؛ فلماذا..؟

إنهم هم القتلة والخالقون لعقائدهم، لا العكس. إنهم يخلقون ما يلائمهم من العقائد.. إنهم يحاربون أو يرفضون ما لا يلائمهم.. إنهم هم المذنبون والأغبياء، لا العقائد.

إن الذين يعتقدون عقائد تبارك الكسل أو التعصب أو الحقد أو الفقر أو الجهل أو الفرار من الحياة، هم قوم يريدون تبرير تلك النقائص لأنهم يتناسبون معها، وإنهم لا بد أن يكونوا كذلك، حتى ولو لم يعرفوا هذه العقائد.. إن احتياجات البشر ومواهبهم هي المسؤولة عن عقائدهم، وليست عقائدهم مسؤولة عن شيء.

إن الكاهن لا يستطيع أن يقيم بيننا أو في قلوبنا، إلا يوم ندعوه إلى ذلك، لأننا لا نجد أو لا نعرف سواه. ولهذا فإننا نصلبه أو نعلمه الخروج على نفسه حين نصبح أكبر منه. إننا نتعلم من الكاهن حين نكون أصغر منه، فإذا أصبحنا أكبر منه شنقناه أو طردناه، ولم نرحمه أو نحترم تعاليمه أو أربابه. والعاجزون يعبرون عن عجزهم شتى التعابير، فإذا لم يعبروا عنه تعبيراً دينياً عبروا عنه تعبيراً آخر. إن الضعيف المحروم المتألم لا بد أن يصلي ويدعو، ويعبد الموتى والآلهة الكثيرين، وأن يتحسس للإيمان بالقدر، وأن يلقي عليه كل أثقاله وأخطائه إذا كان متديناً، وإذا لم يكن متديناً حول عجزه وألمه إلى بكاء وانفعالات هدامة، وإلى عتاب للظروف والأيام، والحظوظ والآخرين، وإلى شكوى وصراخ، ولعنات هائمة.

أما الأقوياء فإنهم يعبرون عن أنفسهم تعبيراً قوياً، سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين. ولكنهم سوف يرفضون أو يدمرون كل ما يعوق انطلاقهم وتعبيرهم القوي عن أنفسهم.. إنه لا بدّ من توزيع النفس بين ضروب التعابير. إن الضعفاء يبتكرون العقائد الضعيفة ويبحثون عنها، لأنهم ضعفاء، ولكنهم لا يخضعون لها.

العاجزون يكتشفون مزايا الوقوف

إن الناس لا ينقسمون إلى ضعفاء لأنهم مؤمنون بالأوهام، وإلى أقوياء لأنهم مؤمنون بالحقائق.. إنهم ينقسمون إلى أقوياء لأنهم أقوياء، وإلى ضعفاء لأنهم ضعفاء.. إن العقيدة هي اللغة التي يتكلم بها ضعفهم أو قوتهم.

إن العقيدة هي الصورة لا جهاز التصوير.. إنها هي الكلمة التي نعبر بها عما نريد وعما نستطيع. إنه إذا تغيرت الإرادة والقدرة، تغيرت الكلمة.

إن الأوهام بيوت ننشئها بقدر طاقتنا ومعرفتنا لنسكنها.. إنها مستراح نبحث عنه لأننا لا نجد سواه.. إنها محطة انتظار. إن سكننا في الكوخ المتهدم لن يمنعنا من الانتقال إلى البيت الجميل الحديث إذا وجدناه، أو استطعنا إنشاءه. وإذا أخرجنا سكان الأكواخ من أكواخهم فإنهم سيبحثون عن أكواخ أخرى، أو يقيمون تحت الأشجار أو في الكهوف والخرائب، أو في العراء. فالقادرون يتحركون دون أن يبحثوا عن مزايا الحركة، ودون أن يعرفوا لها مزية، ودون أن يدعوا إليها. أما العاجزون فيكتشفون مزايا الوقوف. إن الإرادة لا تخضع للعقيدة؛ إن العقيدة تخضع للإرادة. إن الإرادة تخلق العقيدة.. إنها تلغيها وتغيرها.. إنهما لا تتعارضان بل تسيران كتابع ومتبوع. نحن دائماً نتبع إرادتنا، ونفسر أو نرفض من أجلها عقيدتنا.

إن الحياة تعمل بالموهبة والمستوى لا بالاعتقاد.. إنها تفعل ما تستطيع أن تفعل لا ما ينبغي

أن تفعل، حتى العلم والحضارة إنهما نتاج الموهبة.. إن الموهبة توجد نفسها.. إنه لا يوجد ما يوجدها.. إنها هي التي تصنع ظروفها، ومجالاتها، ومسبباتها.

إن مذاهبنا لا تشكل أخلاقنا ولا خصائصنا، ولكن هذه هي التي تجعلنا نبتكر المذاهب أو نختارها أو نكيفها. فنحن نختار هذا المذهب أو لا نختاره، أو على الأقل نصوغه بما لا بد أن نكون.

إن المذاهب قد تنقل إلينا بالإكراه أو بالإرث؛ وهذا هو الأكثر وأحياناً الدائم، ولكن تكييفها أو التناسق معها أو العجز عن هذا التناسق، إنما تصنعه أخلاقنا وخصائصنا. ونوع الإيمان والأرباب لا تأثير له على حياتنا.. إن كل التأثير للظروف والخصائص التي توحي بذلك الإيمان وتلك الأرباب..

ليس سبب تعصب المؤمن بمذهب من المذاهب هو إيمانه بذلك المذهب، بل سببه ظروفه وحالته النفسية. فالمتعصب القاسي يختار المذهب الملائم، أو يحول مذهبه إلى تعصب وقسوة، والمتسامح يفعل نفس الشيء. إنه لهذا يختلف أهل العقيدة الواحدة والمذهب الواحد اختلافاً كبيراً في سلوكهم وصفاتهم النفسية، ويختلفون أكثر إذا اختلفت العصور والأوضاع، والحضارات التي يعيشون فيها.

إنه لو كانت العقائد والمذاهب والنظم هي التي تصنع خصائصنا النفسية والتعبيرية، لما اختلف أهل أي مذهب أو عقيدة أو نظام أو إله في ذلك أي مستوى من مستويات الاختلاف..

هل وحدة العقيدة أو الإله أو المذهب تصنع وحدة في الذكاء، أو في القدرة، أو في قوة الجسم وجماله..؟

إذن كيف ينتظر أن تصنع هذه الوحدة المذهبية وحدة في أي شيء..؟

إن أصحاب الخصائص القوية يبدعون تحت جميع الظروف والنظم. أما ذوو الخصائص الضعيفة فلن يكونوا مبدعين تحت أي عهد أو نظام أو ظرف.. إنه لا يتغير المجتمع بتغير التعاليم أو الأديان أو القوانين.. إن خصائصنا تحول كل شيء إلى طبيعتها، إلى مستواها، إلى موهبتها..

•

لا إنسان بلا خرافة

هل يمكن أن يحيا الإنسان بلا خرافة..؟

سبق أن الخرافة موقف نفسي، فالإيمان بها يشبه انفعالات الحقد والغيرة، والبغض والحب،

والخوف والشوق. ونحن في هذه العواطف لا نفكر بل نتخذ مواقف نفسية. والبشر جميعاً محتاجون إلى أن يقرروا وضعاً أدبياً لأنفسهم إزاء الكون، ووضعاً مماثلاً للكون إزاء أنفسهم، لا لأنهم يعرفون، بل لأنهم محتاجون.

إن الإنسان يهاب التيه والفراغ.. إنه يخترع لنفسه المنازل والملابس والكهوف، ليقاوم بها إحساسه بنفسه وإحساسه بالطبيعة، ليقاوم بها نفسه رائياً مرئياً. إنه ينام ويجلس ويقف فوق الأرض والكراسي والسرر، لأنه لا يستطيع أن يعيش واقفاً في الفضاء، ولا أن يتحرك حركة دائمة. وإنه كذلك لا بد أن يخترع لنفسه بيوتاً وكهوفاً، وملابس وأرضاً، وكراسي وسرراً من الخرافات لتستقر فوقها نفسه التي تهاب أن تعيش هائمة بلا مكان، والتي لا تستطيع أن تعيش عارية في الصحراء، ولا أن تتعلق في الفضاء، أو أن تتحرك حركة دائمة.. إنه لا يتطهر من خرافاته.. إنه لا يستطيع ذلك ولا يريده، ولكنه يبدل ويغير.. إنه لا يترك خرافة، إلا ليأخذ بخرافة أخرى.. ليأخذ بخرافة هي أحدث وأقوى جنوناً.. إنه قد يطلق الرصاص على إلهه القديم، ولكنه يظل يقاتل بحماس أشد، تحت راية إله آخر قد يكون أعظم عدواناً عليه وعلى جيرانه.

إن الغباء مثل الخبز.. إنه غذاء يومي للجماعات لا تستطيع أن تعيش بدونه.. إنه هو الذي يجعلها تقدر على أن تتلاءم مع كل التناقضات الأليمة التي تحياها أو تراها. حتى الذكاء لا يعيش إلا في ضجيج من الغباء. كيف تستطيع أن تعيش نفسك أو جيرانك، أو مذاهبك أو هذا الكون، لو لم تعش كل فنون البلادة والصمت الفكري والنفسي عن أقبح الأشياء؛ كيف..؟

الإنسان والمجتمع الذكيان لا بد لهما من الغباء.. العقل الذكي لا بد له من حياة وسلوك غبيين.. إنه لا بد له من أفكار وعقائد غبية.. إن الذكاء المطلق هرب مطلق، ورفض مطلق، بل وموت مطلق.. لهذا لا يوجد ذكاء مطلق.

وماذا يعني الذكاء المطلق.. وهل يمكن تصور الذكاء المطلق..؟

إن الخرافة هي تفسير الأشياء تفسيراً هو أكثر من مجرد وجودها. ولما كان مجرد الوجود أقل من الإنسان كفكرة وخيال، وحاجة وإرادة ومستقبل، أصبح محتوماً عليه أن يؤمن بالخرافة، ليعوض على وجوده الذي هو أقل دائماً من طموحه الخرافي.. لكي يعوض على تفاهة الأشياء ونقصها، بإعطائها قيماً عليا، بافتراض تفسيرات غيبية لها.. ولكي يغطي عاهاتها وذنوبها بافتراض هذه القيم والتفاسير.

إن الخرافة هي محاولة الإيمان بشرعية الوجود والحياة والإنسان، وبأن الإنسان هو التفسير

الأخلاقي للكون. إن الخرافة هي المبرر الأدبي لكي نظل دائماً مجانين نتقاتل، ونتعذب، وننتحر دفاعاً عن أخطائنا وآلامنا، وطغاتنا وآلهتنا الحمقى.

ستبقى الخرافة ما بقي الشعر، والموسيقى، والخيال، واللذة، والألم.. ستبقى الخرافة ما دمنا نواجه ما لا نعقل وما لا نستسيغ.. وسنظل نواجه ما لا نستسيغ وما لا نعقل ما دمنا نواجه كل هذا الكون.. وسنظل نواجه هذا الكون ما دمنا نحيا.

إذن سنبقى الخرافة ما دمنا نحيا.. إذن لا إنسان بلا خرافة. وبقدر ما يستحيل أن نوجد بلا مكان، كذلك يستحيل بمثل هذه القوة أن نحيا بلا خرافة.

إن الخرافة في كل تفاسيرها، قائمة على تقدير الأشياء تقديراً نفسياً.. وهل يوجد من لا يقدرون الأشياء تقديراً نفسياً..؟

والتقدير النفسي لا يمكن أن يكون عادلاً، ولا منطقاً، ولا صواباً.. إنه يتحول إلى إيمان، وضعف، وعبودية، ومخاصمة للاعتدال والنواهة والمعرفة، لأنه احتياج. والاحتياج لا يكون منطقاً ولا تسامحاً. وإن إله كل قوم يساوي ظروف حياتهم. إن العلاقة بين الإنسان وكونه، يجب أن تكون علاقة معاملة، كالعلاقة التي بين الوجود والوجود؛ فإذا أصبحت علاقة إيمان أصبحت خرافة، فالإيمان ليس معاملة حرة بين وجودين.

ومن أجل أن الخرافة موقف نفسي لم يوجد من يمكن أن يستغنوا عنها، إذ لا يوجد من يمكن أن يحيوا بلا مواقف نفسية.

إن احتياج أرقى الناس إلى الخرافات أعظم من احتياج أدناهم.. إن أكثر الشعوب تطوراً هي أكثر الشعوب آلهة، وأقواها آلهة، لأنها أكثرها مواقف نفسية.. إن الدولة العظيمة تحرسها دائماً خرافات عظيمة، أما الدولة المنهارة فلن تكون خرافاتها وآلهتها أفضل أو أقوى منها.. إنه إذا ماتت خرافات شعب من الشعوب أو فقدت حماسها، كان محتوماً أن ذلك الشعب قد مات، قد مات حماسه، قد ماتت حوافزه.

إن الإنسان ليس حقيقة وليس خرافة، بل هو الاثنتان معاً.. إنه لن يكون إلا كذلك في مستقبله.

لماذا ذاته لذاته..؟

يشعر الإنسان أن حياته في ذاتها أو لذاتها، لا يمكن أن تكون معقولة ولا محتملة.. لماذا ذاته لذاته.. ما معنى ذلك.. ما فكرته.. ما تفسيره..؟

لماذا الشيء من أجل ذات الشيء.. أليس كل شيء من أجل شيء آخر..؟

أليس الكون من أجل الإنسان.. أليس الإله من أجل الإنسان، والإنسان من أجل الإله، ومن أجل أن يموت في سبيل أي شيء..؟

لهذا كان محتوماً أن يحتاج الإنسان إلى الأوهام والمعارك.. إلى الآلهة والمذاهب، والأكاذيب والمبالغات.. إلى الخصومات.. إلى القوميات والوطنيات.. إلى ما يبرر ويفسر به حياته؛ ليهب حياته لهذه الأوهام والمعارك لأنه لا بد أن يكون من أجل شيء ما؛ فالبشر لا يمكن أن يقبلوا وجودهم أو يفهموا له معنى إذا فسروه بغيره، إلا إذا أنفقوه باسم شيء آخر كاذب.

إذن فالأوهام والحروب ضد الآخرين هي التثمين الكاذب لحياة الإنسان، لوجود الإنسان. إن كل شيء في تقديرنا نحن البشر لا قيمة له إذا لم تكن له غاية غير مجرد وجوده، أكبر من مجرد وجوده. إن الأوهام وحدها هي التي تجعل لوجودنا غاية.. إنه من أجل أن نؤمن بقيمة أنفسنا، وبأن وجودنا وبقاءنا معقولان لا بد لنا من الإيمان بالأوهام.

كيف نستطيع أن نعقل بأننا موجودون بلا معنى آخر..؟

وكيف نستطيع أن نعقل بأننا موجودون لمعنى آخر..؟

إذن كيف نستطيع أن نعقل بأن وجودنا، أو وجود أي موجود شيء معقول..؟

إذن لا بد من الخرافة لتخرج بنا من هذه الورطة العقلية.

لا يعبدون إلا أنفسهم

إن المذاهب والآلهة والأديان ليست غير من جاؤوا بها وفسروها. إن إله أي قوم أو مذهبهم أو دينهم ليس أكثر أو أقل من تفسيرهم له. وتفسيرهم له ليس أكثر أو أقل من تصورهم له. وتصورهم له ليس شيئاً أكثر أو أقل من حالتهم النفسية والفكرية والمادية.

إن مجموع آلهتنا ومذاهبنا، هي مجموع حالتنا المادية والفكرية والنفسية، جاءت بتعبير ما.. جاءت بصيغة ما.

إن من آمنوا بالآلهة، أو بالمذاهب أو بالأديان التي جاء بها القدماء، فإنما يؤمنون بأولئك القدماء.. إن من كفروا بها فإنما يكفرون بأولئك القدماء أيضاً.. إن تلك الآلهة والأديان والمذاهب، هي نفس أولئك القدماء. فالذين يدعوننا إلى الإيمان بعقيدة ما، هم في الحقيقة يدعوننا إلى الإيمان بقوم ما. والذين يعيبون علينا كفرنا بعقيدة ما، هم يعيبون علينا كفرنا بقوم ما.. إنه إذا دعانا الشيخ أو القسيس إلى أن نؤمن بمذهب أو بإله قد ارتبط هو به، فهو لا يدعونا إلى أن نؤمن به هو، أي أن نؤمن بتفكيره، وظروفه، ومصالحه، وحالته النفسية.. أن نؤمن بزيه،

وغبائه، ونفاقه، واستغلاله لنا.

إن الناس لا يعبدون آلهة ولا أدياناً، ولا مذاهب ولا حقائق أو أوهاماً، مهما بدا أنهم يفعلون ذلك.. إنهم إنما يعبدون أناساً مثلهم كانوا قبلهم.. إنهم يعبدون ظروف أولئك الناس، واحتياجاتهم، ونقائصهم، وأمانيهم، وآلامهم.. إنهم يعبدون التاريخ الذي كان يوماً من الأيام إنساناً أو مجتمعاً. إن من أطاع إنساناً دعاه لعبادة إله فعبده، فهو إنما عبد نفس ذلك الإنسان.. إنما عبد ظروفه التاريخية والنفسية التي تحولت إلى فكرة إله.

ولكن لماذا يعبد الناس الآخرين.. إنهم لا يعبدون إلا أنفسهم..

إن كل شيء في الإنسان يعبر عن ذات الإنسان، حتى أفكاره عن الأشياء.

إننا إذا علمنا الآخرين، أو تحدثنا معهم، أو صادقناهم، أو عطفنا عليهم، فإننا بذلك إنما نعامل أنفسنا لا أولئك الآخرين.. إن أولئك الآخرين ليسوا إلا وسائل مواصلات لنا..إننا نريد أن نصل بهم إلى أنفسنا.. إنه ليس في حسابنا أن يسعدوا، أو أن يأخذوا شيئاً.. إننا لا نشعر بهم، وإنما نشعر بعلاقاتنا بهم.. إننا إذا عبدنا الآلهة، أو احترمنا الأخلاق أو متنا في سبيل أوطاننا، فإننا أيضاً لا نريد بذلك إلا توزيع أنفسنا والتعبير عنها.. إننا لا نبالي بالآلهة أو بالأوطان أو الأخلاق.. إننا لا نبالي بمن نموت في سبيلهم، ولا بمن نعبد ونحترم.

إن الذي يموت تحت قدمي إله أو زعيم لا يحمل في نفسه أي احترام أو حب لذلك الزعيم أو الإله. إن البشر لا بد أن يوزعوا ذواتهم.. إن كل أعمالهم وعقائدهم ومذاهبهم، أساليب مختلفة لعمليات التوزيع.

ولهذا فإننا نقتل زعماءنا وآلهتنا، أو نسقطهم، بالحماس الذي ندافع به عنهم أو نهتف لهم. وإذا قتلنا الزعيم أو الإله أو هتفنا له شعرنا بنشوة من نوع واحد، لأننا نفعل هذا أو هذا لإرضاء أنفسنا، لا لأننا نتبع مثلاً أعلى. لقد هتف الناس في كل التاريخ لسقوط الزعماء والآلهة، بمثل الأصوات التي هتفوا بها لحياتهم مصلين أو مستقبلين. وسيظلون دائماً يفعلون ذلك. ولا توجد أية حدود بين الظروف التي نسقط بها الزعماء والآلهة، والظروف التي نهتف لهم بها.. إننا قد نهتف لهم ونموت تحت أقدامهم، في نفس الظروف التي قد نشنقهم بها؛ فعلى الزعماء إذن أن يحذروا.. أن يحذروا بفزع، وكثيراً؛ فقد يكون الهتاف لهم هتافاً ضدهم، قد يكون هتافاً بصلبهم.

إن الناس لا يفكرون أو يعملون لأنهم يعتقدون أن شيئاً يستحق أن يفكروا فيه أو يعملوه.. إنهم يفكرون ويعملون لأنهم لا بد أن يفعلوا ذلك.. إني كإنسان لا أتخذ موقفاً فكرياً لأني أهوى الفكر، أو أهوى الحق؛ بل لأني أريد أن أجعل من هذا الموقف الفكري مبرراً أو مشرعاً

للأسلوب الذي أختاره في توزيع نفسي، وتوزيع طاقاتي، وفي التعبير عن مشاعري المتراكمة.. إني إذا آمنت بإله أو بمذهب أو بنظام، فقد فعلت ذلك لأني أريد أن أحول ذاتي إلى سلوك وإلى تعبير بالصوت والحركة والصورة، وأريد أن أبرر ما أريد فعله بالآلهة والمذاهب والنظم التي آمنت بها.

إن الإيمـان هو نتيجة السلوك، وليس السلوك نتيجة الإيمان.. إن السلوك هو نتيجة نفسه.

والذات الإنسانية لا بد أن تحوّل إلى شيء. إن جميع آلهة البشر وعقائدهم وأعمالهم إنما أرادوا بها التعبير عن أنفسهم، لا التعبير بأنفسهم عنها. إن الذي يهتف باسم إله من الآلهة أو يصلي له، إنه لا يريد هذا الإله ولا يريد الإيمان به، ولا أن يستجيب له، ولا يعتقد أنه يفعل ذلك؛ ولكنه يؤمن به، ويهتف باسمه، ويصلي له، لأنه محتاج إلى العبادة، أي إلى التعبير، وإن لم يكن محتاجاً إلى نفس الإله الذي يعبد.

إنه لا بد أن يهتف وإن كان لا يجد الآلهة التي يوجّه إليها هتافه.. إنه لهذا يذهب يفترض هذه الآلهة.. لقد خلقت لنا حاجتنا إلى الصلاة والهتاف، الآلهة والزعماء.. إن الآلهة والزعماء لا يساوون في تقديرنا أكثر من حاجتنا إلى الصلاة والهتاف.. إن الآلهة والزعماء لا يساوون أكثر من حاجتنا إلى الجنون الهاتف المصلي، دون وقار أو ذكاء.. إننا لا نريد منهم أن يزينوا القمر، أو يهبوا الشمس المزيد من الحرارة أو من الظل، أو أن يزيلوا الفروق الكونية بيننا.. إننا لا نريد منهم شيئاً عظيماً..

تصرف ذاتي، لا عقائدي

إن الذي يقاتل ويقتل في سبيل وطن أو فكرة أو عقيدة، إنه يصنع ذلك لأنه محتاج إلى أن يعبر عن نفسه بهذا الأسلوب.. إنه يعيش في ظروف نفسية أو اجتماعية أو إكراهية تجعل ذلك بالنسبة له محتوماً.. إن الوطن والفكرة والعقيدة ليست في حساب من يضحون في سبيلها إلا تبريراً وتشريعاً لما لا بد أن يحدث تحت إلحاح الحالة النفسية أو المادية.

إذا قتل إنسان إنساناً آخر باسم عقيدة دينية، أو باسم مبدأ أو وطن، فإنه لم يقتله بحافز من الاحترام أو الحب للملك الذي يقتل باسمه.. إنه إنما قتله بتحريض من انفعالاته، وظروفه النفسية الخاصة.. لقد تحولت انفعالاته الداخلية إلى سلوك خارجي.

إن الذي يضرب بسلاحه كالمجنون من الانفعال والغيبوبة في معركة وطنية أو مذهبية، لا يمكن أن تكون أفكاره أو مشاعره، وهو يضرب في تلك الحالة، مشغولة بذلك الوطن أو ذلك المذهب أو ذاكرة لهما.. إنه ليس وطنياً ولا مذهبياً ولا متديناً، وهو يقتل ويدمر.. إنما هو

وحش، ليست مشاعره في تلك الحالة مشاعر إنسان يدافع بقداسة وذكاء، عن شيء محتوم مفهوم؛ إنما هي مشاعر وحش غاضب، خائف، جاهل.

ولهذا فإن الذين يقتلون باسم الدين والفضيلة، يقتلون أيضاً من غير دين ومن غير فضيلة.. إنهم يقتلون لأنهم قتلة.

والذين يقتلون لأسباب صغيرة أو تافهة من هذه الأسباب العادية اليومية، هم الذين يقتلون باسم الغضب لله، والغيرة على الفضيلة والحق.

إن قتل إنسان مخالف في الدين أو المذهب، مساوٍ لقتله في النزاع على معاملة مالية صغيرة جداً، أو غضباً لكلمة طائشة مثيرة. ولو أني كنت قاضياً لما وجدت فرقاً بين من قتل ملحداً دفاعاً عن الإيمان، ومن قتل إنساناً للخلاف على قليل من المال، أو طمعاً في السرقة مثل هذا المال القليل. إن القتل في الحالتين تصرف ذاتي لا عقائدي. إن جميع هؤلاء يتصرفون ويقتلون استجابة لحالتهم النفسية، لا احتراماً لمن يفعلون باسمهم ومن أجلهم.. لقد بلغوا حالة الغليان الوجداني، فهم فاعلون على كل حال تحت أي سبب، أي تحت أي اسم.

إن القاتل باسم الدين أو الوطن أو المذهب، هو قاتل فقط، ولهذا فإن القاتل تحت أحد هذه الأسماء ليس هو أكثر الناس تديناً أو وطنية أو مذهبية؛ ولكنه أكثرهم وحشية أو غباء أو توتراً، أو طاعة للآمرين بالقتل، أو جسارة على القتل واحترافاً له.. وقد يكون أقل الناس احتراماً لما يقتل باسمه..

والإنسان يوزع حالته النفسية بصور مختلفة، فالذهاب إلى المعبد وإلى الملهى والنادي، والهتاف بدعاء الآلهة وبالشعائر الدينية، والصراخ بالشكوى والأنين وبلعن الحظ ولعن الآخرين، والقتل في سبيل الدين أو المبدأ أو الوطن والقتل للسرقة.. إن كل ذلك تعبيرات مختلفة لحقيقة واحدة.. إن كل ذلك استنفاد للشحنة النفسية. إنه ليس العمل للفضيلة، أو العمل للحقيقة أو ضدها، في حساب أحد ممن يفعلون ذلك. وحتماً كثير من الناس يجهلون ذلك، يجهلون حوافزهم. لعلهم يرفضون أن يفسروا أنفسهم أو أن يروها.. لعلهم لا يصدقون ما يرون.. لعلهم لا يستطيعون أن يروا ما يرون.

إن أبلغ صور العبادة في معناها النفسي، ليست إلا حركة تعبيرية.. إنها ضرب من الحركة العصبية والنفسية والاجتماعية.. إنها في أحسن حالاتها نوع من الرقص والغناء، والدوران حول الذات، وشد شعرات اللحية بغباء. ولهذا فإن الذين يتركون العبادة والصلوات للآلهة، يحتاجون إلى الرقص والملاهي الضاجة، والهتاف للزعماء، وزيارة قبورهم أكثر. ما أكثر زوار قبر لينين.. إن زواره لو أنهم مارسوا أسلوباً من العبادات العنيفة، لقلت رغبتهم في هذه الزيارة.

الذي يؤمن بأربابه ويصلي لها، ويدعوها بحماس وجنون، ماذا يريد.. ولماذا يفعل..؟

هل لأنه مؤمن.. هل لأنه فاضل.. هل لأنه ذكي.. هل لأنه مخصوص من الآلهة بالاستقامة، والحظوظ السعيدة..؟

ولماذا تخصه الآلهة دون غيره بحبها له، وحبه لها، وإيمانه بها، وإيمانها به..؟

وهل خصته ففعل، ولماذا خصته حينئذٍ.. أم فعل فخصته، ولماذا فعل حينئذٍ..؟

هل خصته بسبب أم من غير سبب.. وإذا كان بسبب، فهذا السبب ما سببه..؟

كيف يجعل إنساناً فاضلاً ثم يجزي على جعله فاضلاً..؟

لقد حوبي مرتين..

كيف يجعل إنساناً آخر سيئاً، ثم يعاقب على جعله سيئاً..؟

لقد ظلم مرتين..

إن هذا يعني أن تسلب إنساناً بصره ثم تعاقبه إذا لم يرَ، وأن تعطي آخر بصراً قوياً ثم تكافئه لأن بصره قوي.

ولكن كلا.

فالذي يلتفت إلى الأرباب لا يصنع ذلك لأنه مخصوص بمزية.. إنما هو إنسان يحاول أن يستفرغ فضلاته الانفعالية.. يستفرغها على الآخرين، يستفرغها على الآلهة، يستفرغها بلا آخرين، بلا آلهة. وما مثله إلا كمثل من يتقيأ، أو يبكي، أو يغني بهياج. وهل المتعبدون إلا قوم يتقيؤون..؟

إنه ليس في المسألة خطأ فكري ولا صواب فكري، إنما فيها تعبير له حافز ونتيجة. لهذا اختلفت آلهة الناس وعقائدهم وعباداتهم، بدون أن يسألوا أنفسهم، أو يبالوا هل أخطؤوا أم أصابوا؛ لأنهم لا يبحثون عن الخطأ أو الصواب.. إنهم إنما يعبرون عن ذواتهم بأي أسلوب، تحت أية عقيدة، باسم أي إله. إن الغرض هو التعبير لا صيغة التعبير.. إنه لا بد من الغناء، وليكن مؤلف الأغنية أي مؤلف.

إنه ليس مضمون العبادة أو الأغنية هو المطلوب، بل نفس أدائها. لقد عبد كل مؤمن إلهه بكل حماقاته وجهره، دون أن ينظر ليرى في وجه ذلك الإله الذي يعبد أي قدر من القسامة أو البراعة أو النزاهة. بل لقد كان يبحث عن أقبح الآلهة وجهاً ليعبد؛ لأن مثل ذلك الإله أكثر إثارة وتحريضاً على الجنون.

جريمة فوق كل عقوبة

لقد جرب البشر آلهتهم منذ أقدم العصور.. لقد جربوا عقائدهم، لقد وجدوها بعد تجاربهم الطويلة لها لا تستجيب لهم.. وجدوها لا تفهمهم، ولا تغير من حالهم شيئاً.. لقد وجدوها صامتة ولاهية.. وجدوها ميتة؛ ولكن مع هذا ظلوا يؤمنون بها، ويرجونها، ويصلون لها؛ فلماذا..؟

نعم، إنهم لا يجربونها، أو يصلون لها لأنهم ينتظرون منها أن تفعل لهم.. لقد علموا أنها لا تفعل شيئاً، ولعلها لو كانت تفعل، لكان هربهم منها وخطبهم بها أعظم. إن مزايا الآلهة في أنها لا تفعل.. إن هذا هو سبب إيمان المؤمنين بها، ورضاهم عنها، وتنزيههم لها.. إن الآلهة لا تفعل، لهذا ظلت رحيمة، وجميلة، ومنزهة.

ماذا يكون الوضع لو كان لكل إنسان، أو لكل قوم إله أو آلهة تفعل لهم جميع ما يطلبون، أو جميع ما يريدون، أو جميع ما يحتاجون إليه.. أو تفعل جزافاً بلا قانون، بلا حساب.. أو تفعل ما تستطيع هي، أو ما يجب عليها، أو ما ينبغي فعله..؟

ولكن ما الذي ينبغي فعله في حساب الآلهة..؟

إنه شيء لا يمكن تحديده.. إنه شيء لا يمكن تصوره ولا وجوده. إن أي فاعل إنما يتحدد فعله بالشهوة والحاجة، والضرورة والعجز. إنه لو وجد مثل هذا الإله، أو مثل هذه الآلهة، لما وجد أسوأ من ذلك الوضع ولا من تلك الآلهة، ولأصبح محتوماً أن يصاب المؤمنون بالجنون. إن هذا الافتراض يعني الشيء وعدم الشيء.. إنه يعني الاستحالة..

إن وجود الإله ينافي وجود أي شيء غيره، لأن وجوده يعني ملء كل فراغ من أي نوع.. إنه لا مكان حينئذٍ لما سواه.. إنه من المستحيل أن تبقى حياً أو عاقلاً تحت حكم الآلهة.. إنه لو وجد من يمكن أن توجه إليه تهمة أنه خالق، لما وجدت عقوبة تتكافأ مع ذنبه. إن الخالقية جريمة فوق كل عقوبة.

لقد تحدث الناس عن الخالق، تحدثوا عنه، تحدثوا كثيراً، ولكنهم لم يؤمنوا به خالقاً.. لهذا ظلوا يملكون بعض العقل.. ظلوا يمارسون حياتهم بكل وحشية، لأنهم لم يؤمنوا به خالقاً، مهما تحدثوا عنه خالقاً.

يصلون لم يؤمنون

إن المؤمنين محتاجون إلى أن يجربوا ويصلوا.. إنهم لا يفعلون ذلك لأنهم مؤمنون أو عارفون بما يفعلون.. إنهم يصنعون الصلاة والتجربة، كما يصنعون الخطيئة، والغواية، والألم..

إنهم لا يفعلون ذلك طاعة ولا غواية.. إنهم لا يفعلونه إيماناً ولا كفراً.. إنهم يفعلونه تعبيراً عن الذات.. إنهم كالذين يبكون ويشكون، ويصرخون ويشتمون.. إنهم لا يعنون شيئاً..

إن الحياة هي دائماً فرار.. هي دائماً تعبير لا يعني شيئاً سوى نفس التعبير.

ولو أن المؤمنين الأتقياء فهموا هذا، لكان مفروضاً أن يخفضوا من كبريائهم، وتعصبهم، وغرورهم. ولكن كلا، إن الناس يتكبرون ويتعصبون، بقدر حاجتهم إلى ذلك لا بقدر جهلهم بسبب تعصبهم وكبريائهم.

إن البشر يفعلون لأنهم يجهلون ما يفعلون، أكثر مما يفعلون لأنهم يعلمون. إن النهر يفعل نفسه وهو يجهل، وقد يكون ذلك لأنه يجهل.. إن الإنسان يفعل نفسه وهو يجهل، وقد يكون ذلك لأنه يجهل.. إنه كالنهر في أنه يفعل نفسه دون أن يعلم لماذا يفعلها، دون أن يسأل لماذا يفعلها.

*

الإنسان وجود، والوجود يتحول إلى مشاكل وآلام. والآلام والمشاكل تتحول إلى أفكار ومذاهب، وعقائد وأرباب. إن جميع المذاهب والأرباب، والعقائد والعبادات والتنظيمات، ليست إلا أساليب تعبيرية عن مشكلة أو ألم أو احتياج.

إن الإنسان لا ينتقل مباشرة من الشعور بالحاجة، إلى الحاجة. لا يحاول أن يمارس حاجته بلا عبور إليها في طريق ما، بأسلوب ما؛ بل هو محتاج إلى أن يفترض فراغاً كبيراً بين الاحتياج والتعبير عنه، ليملأ هذا الفراغ بالأفكار والمثل، والفلسفات والآلهة. إن هذه ليست شيئاً في ذاتها.. إنها لا قيمة لها كمنطق وفكرة؛ إنما قيمتها في أنها تبرر، وتشرع الأساليب التعبيرية، وتنظمها.

البشر محتاجون دائماً إلى أن يصرخوا، إلى أن يتحركوا، وإلى أن يخضعوا صراخهم وحركتهم لنظام ما.. إنهم محتاجون إلى أن يحولوا صرخاتهم وتحركاتهم، إلى عقائد ومذاهب، وطقوس وقيود. لقد ظلوا في جميع مراحل وجودهم مفروضاً عليهم أن يصرخوا ويتحركوا في دوائر مغلقة إلى غير ما غاية.. لقد ظلوا مفروضاً عليهم أن يضعوا صراخهم وحركاتهم، في صيغ مذهبية أو دينية أو فكرية.. أن يضعوها في قيود.

إن الذين ينحرفون عن الذهاب إلى المعابد، أو إلى البيوت المحجوبة المقدسة ليصلوا ويهتفوا، ويذلوا ويتحركوا، ويطوفوا ويقبلوا، ويبكوا ويخشعوا.. إن الذين يكفرون بالكتب المنزلة المقروءة بابتهال ودموع وشهقات.. إن الذين ينكرون الأنبياء وينكرون التحدث عنهم، وعن معجزاتهم وفضائلهم، بصراخ ورجفان وانسحاق.. إن هؤلاء جميعاً لا بد أن يهتفوا ويصرخوا، ويصلوا

ويخشعوا، ويطوفوا ويبكوا في أماكن أخرى، وتحت أقدام رجال آخرون، ليسوا بأنبياء ولكنهم أقوى منهم.. إنهم لا بد أيضاً أن يقرؤوا برهبة وسكون، وإيمان وهوان عقلي، كتباً ليست منزلة ولا مقدسة، ولكنها أقوى قداسة من الكتب المنزلة المقدسة.. إنه لا بد من أصنام ونصوص، ودعاة وعبيد في كل العصور، في كل المجتمعات. إنه ليس الذين كفروا بالآلهة والأنبياء أقل صلاة أو طوافاً، أو حجاً، أو نصوصاً، أو أصناماً، أو دعاة، أو عبيداً، أو انسحاقاً نفسياً وفكرياً من المؤمنين بأشرس الآلهة وأغبى الأنبياء..

إن الذين يصلون في معبد أو يهتفون باسم إله أو نبي، أو يلعنون الكفرة والملحدين وينادون بسقوطهم وهلاكهم.. إن الذين يهتفون للزعماء، والمذاهب، والنظريات، ويتعصبون لها وينادون بانتصارها.. إن هؤلاء وهؤلاء لا يريدون إلا أن يعبروا عن أنفسهم، عن شعورهم بالورطة، عن احتجاجهم على ورطتهم، بالصورة والصوت والحركة، كالذين يبكون أو يشتمون بغضب. إن هؤلاء ليسوا فضلاء، وإن أولئك ليسوا أشراراً، فالحوافز والنتائج، والنيات والأداة شيء واحد. والاختلاف في الاتجاه إلى التعبير بهذا أو هذا يرجع إلى اختلاف ظروفهم ومستوياتهم الذاتية والفكرية والنفسية.

إن هذا الإنسان التقي الطاهر، هذا الذي يتغذى بالأحزان والبكاء بين يدي الله، تالياً كلامه، متوسلاً إليه بأسمائه الحسنى وبأنبيائه ورجاله المقدسين.. إن هذا الإنسان كان من الممكن جداً أن يتغير أسلوبه في التعبير عن نفسه، عن هموم نفسه.. أن يختار أسلوباً آخر مضاداً تماماً لأسلوبه في المعبد، وأمام الله، لو أنه استطاع أن يجد الظروف الأخرى للتعبير المضاد.. كان من الممكن أن يستبدل بالمسجد وبمناداة أسماء الله وأسماء أنبيائه، أماكن وهتافات وشعارات أخرى. إن الحواجز بين بيوت العبادة وبيوت الخطيئة حواجز ضعيفة متحركة متداخلة. إن الذي يذهب إلى هذه كان يريد تلك، ولكنه أخطأ الطريق أو عجز عن عبوره. إن المسافة بين الله والشيطان مسافة قريبة جداً.. إنه لا يعجز أي إنسان عن اقتحامها. وهل توجد مسافة بين الله والشيطان.. أليس الله في حسابك هو الشيطان في حساب جارك أو مخالفك.. أليس الشيطان في حساب جارك أو مخالفك، هو الله في حسابك.. هل الله غير الشيطان في حساب كل البشر..؟

إن الإيمان وفقد الإيمان ليس برهاناً أو فقد برهان، ولا قدرة على وعي البرهان أو عجزاً عنه، ولا فضيلة أو رذيلة، ولا تقى أو خروجاً على التقى؛ ولكنه رغبة في التعبير بما يبرره ذلك الإيمان، أو رغبة عنه.

لقد كان المتقرر في أذهان الكثير من الباحثين أن الناس يؤمنون ثم يعملون، أما الحقيقة فهي

أن الناس يرغبون في العمل، أو يعملون، أو يضطرون إلى العمل، فيؤمنون. فالإيمان من أجل العمل، والعمل ليس استجابة للإيمان ولا احتراماً للإيمان. إن الناس يعملون بلا إيمان، إن الإيمان ليس حافزاً ولا هدفاً ولا تعبيراً.. إنه لا يعني أكثر من لغة، «فآمنت بكذا» لا يعني إلا أردت كذا؛ وإن كان الإنسان لم يستطع أن يحول جميع إراداته إلى إيمان، كما أنه لم يستطع أن يحول كل أحاديثه إلى كذب. فالإرادة لا تتحول إلى إيمان إلا تحت ظروف معينة، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يكذب دائماً.. أن يكذب تحت كل الظروف. إن الكذب يحتاج إلى الظروف الملائمة، كالصدق. وإذا لم يكن الإيمان حافزاً ولا هدفاً ولا تعبيراً، فإن الحركة والصوت والصورة هي هدف الحياة وتعبيرها وعملها.. إنها كذلك في كل الكائنات الحية، حتى الإنسان، وإنها أيضاً لكذلك في الكائنات غير الحية.

مجرد إفراز نفسي

وقد يبدو لنا صحيحاً جداً أن الذي يذهب إلى المعبد ليصلي إنما يقصد أن ينال الثواب والحظوة لدى الإله. وإن الذي يؤم ضريحاً مقدساً أو مكاناً مسكوناً بالأرواح، أو يؤم حفلة زار لا يريد إلا أن يأخذ شيئاً، أو أن تشفيه تلك الأرواح من مرضه أو من ألمه بإحدى معجزاتها. إن هذا احتمال ظاهر ولا خلاف. أما التفسير الكبير البعيد لهذا، فهو أن ذلك الإنسان لا يفعل ما يفعل لطلب شيء أو دفع خطر ما، ولكنه يختار أسلوباً من أساليب التعبير بالصورة، والحركة، والصوت.. إن هذه الأماكن وسائل جيدة للتعبير عن ذلك. إن الذي يذهب إلى المعبد أو المزار، إنما يريد أن يعبر، أن يبكي، أو يصرخ، أو يحزن، أو يتحرك بأسلوب ما؛ وليس في نيته أن يأخذ أو يعطي شيئاً.. إنه يعلم أنه لا أخذ ولا عطاء هناك.. لقد جرب ذلك طويلاً.

إن الإيمان عملية وليس فكرة.. إنه عملية مثل العملية الجنسية وغيرها من عمليات القذف والإفراز. إنه لا يوجد من يريد أن يؤمن إذا لم يوجد من يريد أن يعبر.. إنه لن يوجد من يؤمن إذا لم يوجد من يريد أن يقذف ويفرز. إننا لا نعلم أنه قد وجد إيمان بدون تعبير.. لقد كان لكل دين ومذهب، طقوس ومحاريب، وصلوات ومبكى. إن من يرفع صوته متغنياً بأية أغنية ليجد الراحة التي يجدها من يصلي بحرارة، لأن الغناء تعبير مثل الصلاة والدعاء. لهذا كانت المجتمعات دائماً محتاجة إلى الصلاة وإلى الغناء معاً، ولم تكن مكانة الكاهن فيها أرفع من مكانة المغني، حتى ولا في أكثر المجتمعات تديناً. بل لقد كانت العبادات والأناشيد الدينية نوعاً منظماً من الغناء. إن الذين يصلون هم يغنون. والذين يغنون هم قوم يصلون. إن وظيفة المغني في المجتمع وظيفة نفسية مثل وظيفة الشيخ الذي يصلي بالناس، ويخطب ويعظ صارخاً مهدداً،

لاعناً كل الأبالسة والكفرة والمفكرين. أما التعبير فهو الموجود دائماً، فهو الموجود دائماً بلا إيمان، والموجود أيضاً مع الإيمان.

إن التعبير عملية إفراز وقذف، لهذا كان عملية الحياة الكبرى. ولو أن البشر لم يؤمنوا بشيء، لا بآلهة ولا بمثل، ولا بمذاهب، ولا بقيم من أي نوع، حتى ولا بزعامات لما كانوا أقل تعبيراً، كالطبيعة وكالحشرات التي تعبر كل تعبيراتها دون إيمان، دون مذاهب أو آلهة أو زعامات..

لقد لوحظ دائماً أن الشبان هم أشد الناس حماساً للإيمان بالمذاهب والمثل، والآلهة والزعماء، والدعاة الغاضبين اللاعنين. وإنهم أيضاً أشدهم تعبيراً عن إيمانهم بالموت والاقتحام، والهتاف، والهوس، والتعصب، والشوق إلى سحق المخالفين وبغضهم واتهامهم. إن تفسير هذا أن الطاقة المختزنة المحتاجة إلى التحويل قوية جداً في الشبان، كما لوحظ أيضاً أن الشيوخ والمستذلين والضعفاء، يكونون في العادة أميل إلى العبادة والتزلف إلى الأرباب ومناجاتهم، وهذا لأن هؤلاء أقل قدرة على التعبير عن أنفسهم تعبيراً آخر مضاداً، تعبيراً فيه معصية ولذة وإثم أكثر إثارة وتشويقاً.

إنه لا يحتمل أن الشبان أو الشيوخ يفعلون ذلك أكثر من سواهم، لأنهم أكثر منهم فضيلة أو معرفة بالحق، أو حرصاً على الخير ومصلحة النفس. إن هؤلاء وهؤلاء ليسوا أكثر من سواهم معرفة لمزايا الآلهة والمذاهب والقادة، ولا اقتناعاً بصدقهم أو ببراهين وجودهم. إنهم لا يعبرون عن قوة إيمانهم أو معرفتهم، بل عن قوة تعبيرهم.

إن الشبان المراهقين الذين تروعنا حماستهم للأديان، وإيمانهم بالآلهة والزعماء، وفداؤهم في سبيل المبادئ والأوطان.. إنهم لو وجدوا متنفساً جنسياً أو عاطفياً أو مادياً كافياً، لفقدوا كثيراً من حماسهم وإيمانهم، وفدائهم العدواني القتال. لقد كانت حظوظاً ملائمة لأبالسة الحروب والشرور، إن هؤلاء المراهقين يكونون أقل من غيرهم امتلاكاً للوسائل التعبيرية، المعوضة عن التعبير بالقتل في الحروب.

لقد كان هؤلاء الشبان المراهقون هم دائماً الحطب الجيد الذي أشعل منه الأرباب والمغامرون، والمجانين الطامحون حرائق التاريخ الكبرى. كان الشبان في جميع العصور هم الغذاء الغبي للبطولات والحماقات، والأديان والحروب والمذاهب، والخروج على القانون والأخلاق، لا يملك الطغاة والآلهة قوة عدوانية غبية أفضل من المراهقين الذين يحولونهم إلى أفضل وقود لحماقاتهم التي لا حدود لها.

إن من الخير للجنود في أية معركة لكي يكسبوها، ألا يكون معهم نساء ليكون احتياجهم

إلى التعبير عن طاقاتهم وانفعالاتهم بقتل الأعداء وكراهتهم أقوى وأكثر جنوناً وعنفاً.. إنه إذا ارتوى المحاربون جنسياً ضعفت فيهم إرادة القتل والعداوة للآخرين. إن المحرومين جنسياً هم دائماً أصلب عداوة وحقداً، وأعنف تعبيراً عن هذه العداوة وهذا الحقد.

ولو أن قادة العالم من الشيوخ ملكوا قدرة جنسية، ثم عبروا عن هذه القدرة تعبيراً جنسياً، لتضاءلت الأخطار التي تهدد البشر بالفناء. وإن الأمر كذلك لو أنهم عبروا عن انفعالاتهم المضغوطة والمصدومة، تعبيراً آخر يطلق صراخهم ويستخرج ما في أنفسهم من تجمعات خبيثة. إنهم لو استطاعوا مثلاً أن يذهبوا إلى المعابد ليصلي بعضهم ضد بعض، ويدعو بعضهم على بعض، ويشتم كل فريق الفريق الآخر، داعياً عليه بالدمار هاتفاً لنفسه بالنصر والقوة.. إنهم لو استطاعوا أن يفعلوا ذلك، ولكن على ألا يعلم كل منهم ما يصنعه خصمه ضده؛ لكان مفروضاً أن تقل احتمالات الاشتباك بينهم، لأن التعبير عن الحالة النفسية بأي أسلوب يخفف من ضغطها. وما بين زعماء العالم من احتمالات شرور هو حالة نفسية مهما كان ما بينهم من اختلاف في المذاهب والنظم، أو تناقض في المصالح أو في الظروف التاريخية.

والحالة النفسية تصرف على احتمالات كثيرة. لقد أدى الشيطان للبشر خدمة عظيمة. لقد كانوا يلعنونه، فكان لعنه راحة لأحقادهم، كان لعنه تعويضاً لهم عن التعبيرات الأخرى الضارة.. لقد أنقذ الشيطان الإنسان من آلام كثيرة لأنه كان يمتص انفعالاته بإطلاقها عليه سباباً، واتهاماً.. لقد كان الشيطان رسولاً طيباً.. لقد كانت له رسالة.. لقد ضحى في أداء رسالته تضحيات نبيلة عظيمة.. إنه لا يزال يفعل ذلك.

والذين صرخوا في العالم ومنحوه العداوات، أو الأحقاد، أو الحروب، أو الفلسفات، أو الأديان، أو التعاليم العنيفة الحزينة؛ إنما كانوا رجالاً عاجزين أو محرومين جنسياً أو اجتماعياً، أو عاطفياً أو مادياً، وكانوا عاجزين عن التعبير بوسائل أخرى. ولو أنهم ملكوا التعبيرات الجيدة الكافية، لاستغنوا بها عن تعاليمهم المخاصمة العنيفة العدوانية.

إن التدين عملية قذف ذاتي.. إن الذين يؤدون أعمالاً دينية يشعرون بالراحة والارتواء.. إنهم يظفرون بنوع من الطمأنينة السعيدة، وهم يفسرون بأنها راحة الضمير المستقيم، بأنها لذة العبادة.. ولكن ليس ذلك سوى الاسترخاء الذي يعقب كل عملية إفرازية. إن الإفراز والقذف راحة، لهذا كانت العبادات راحة ما.

إن الإيمان من غير تعبير يشبه الاحتقان.. إنه قاتل وأليم. إن القيمة النفسية لأية عقيدة هي في أن تؤدي طقوسها لا في أن نصدقها.. إن القيمة للتعبير لا للتصديق.

إنه لا توجد أية قيمة لأي شيء سوى القيمة التعبيرية.

•

لقد وجد الكون بلا إيمان، لقد كان يؤدي عمله بلا إيمان إلى أن وجد الإنسان. ولقد ظل الإنسان كذلك يؤدي عمله بلا إيمان أيضاً؛ وأخيراً وجد الإيمان. إننا جميعاً نصل إلى هذه الدنيا بلا إيمان، وإننا نظل نؤدي أعمالنا كذلك بلا إيمان.

إن الإيمان هو عمل الحركة والتعبير.. إنه بعدهما.. إنه ليس سببهما ولا هدفهما.. إنه ليس قبلهما. لقد خلق الكون الإيمان، ولم يخلق الإيمان شيئاً من الكون. لقد خلق الإنسان الإيمان، ولم يخلق الإيمان شيئاً من الإنسان، أو شيئاً له.

وكما أن البشر قد صنعوا القوانين والتعاليم الأخلاقية من وجودهم هم، لا من وجود هذه القوانين والتعاليم نفسها، فكذلك قد صنعوا الإيمان والآلهة والأديان.

إنه في الحالتين ليست هذه ولا هذه إلا البشر أنفسهم. إن وجودها ليس سوى وجودهم.. إنها لا تساوي نفسها.. إنها تساوي من أوجدوها.

إنه تهويل فقط

إننا لا نهاب الخروج على الإيمان أو على النظرية لأنهما ليسا شيئاً.. إننا نهاب الخروج على الواقع.. إننا إذا استطعنا الخروج على الواقع خرجنا عليه، ولم نحترم إيماننا ولا نظرياتنا المضادة مهما كانت قوتها، مهما كانت قداستها.

إن الإيمان والنظرية ليسا شيئاً، ولكنهما تعبير عن إحساسنا بالواقع وعلاقتنا به.. إنهما ـ أي الإيمان والنظرية ـ لا يهبانا قوة ولا ضعفاً، لا حماساً للأشياء ولا حماساً ضدها؛ إنما تفعل ذلك قدرتنا أو عجزنا. فلا خطر إذن في الإيمان الغبي أو النظرية الغبية؛ ولكن الخطر كل الخطر في العجز. حتى الشعور بالعجز لا خطر فيه، بل الخطر في نفس العجز. إنه لو أراد القادر أن يكون عاجزاً لما استطاع.. إن النهر الكبير الجاري لا يستطيع أن يكون صغيراً ولا ساكناً، حتى ولو أراد ذلك واستطاع أن يريده. إنه لو اعتقد القادر أنه ضعيف لما أضعف اعتقاده من قدرته شيئاً، كما أن العاجز لو اعتقد أنه قادر لما أصبح قادراً. إن أي إنسان أو شعب يصبح قوياً أو ضعيفاً، فإنه لم يمكن هذا أو هذا لأنه أراده، ولا لأنه آمن بقوته أو بضعفه؛ كما أن قوة قلب أي إنسان أو ضعف قلبه أو جهازه العصبي، ليس لأنه أراد هذا أو هذا، وليس لأنه آمن بهذا أو بهذا. إن قوة فعله موهوبة وذاتية، كقوة قلبه وجسمه.

والمفكرون والمصلحون يظنون أنهم يصنعون شيئاً مفيداً حينما يدعون الناس إلى أن يريدوا القوة أو يؤمنوا بقوتهم.. إنهم يرون أنهم بهذه الإرادة للقوة، وبإيمانهم بقوتهم، يصبحون أقوياء.. كم هم متواضعون جداً في فهم العلاقات بين الإنسان وذاته. إن إرادة القوة لا تصنع القوة، وكذلك الإيمان بالقوة؛ ولكن القوة هي التي تصنع القوة.

ولماذا نريد القوة أو الضعف.. ولماذا نؤمن بأننا أقوياء أو ضعفاء..؟

إن كل هذا هو انعكاس قوتنا وضعفنا، لا سببهما. حتى إرادة القوة والإيمان بها، هما هبة قوتنا لا واهبان لها.

إن أي هجوم على النظريات والعقائد الضعيفة لا يجدي شيئاً.. إن الدعوة إلى العقائد والنظريات القوية لا تجدي كذلك أية جدوى. ولو أن أي إنسان قد لقن جميع المعتقدات والأديان الغبية التي تحرم كل قوة وذكاء فآمن بها، وكان في احتمالاته يحمل القوة والعبقرية، ثم وُجد في ظروف تبيح له أن يكون قوياً عبقرياً؛ لما استطاعت تلك الأديان والمعتقدات أن تنقص من عبقريته وقوته شيئاً، إلا بقدر ما تستطيع الدعوات أو الخرافات أن تنقص من جريان النهر، أو من مقادير مياهه، لو أُلقيت فيه تلك الخرافات والدعوات مكتوبة على بطاقات مزخرفة بالصلوات والصدق.

إن التهويل من شأن النظرية والعقيدة كالتهويل من شأن الأشباح. إنه تهويل فقط.

لعل البشر يظنون أنهم يعظمون أنفسهم، أو يدافعون عنها حينما يقتنعون أنهم خاضعون في سلوكهم لعقائد ونظريات ذكية وشاملة وخالدة.. حينما يقتنعون أنهم ليسوا خاضعين للرغبة أو للضرورة، أو للمصلحة، أو لقانون القدرة والعجز، كالطبيعة، كالكائنات الأخرى الحية.. إن في هذا هجاء وتحقيراً لهم فيما يظنون.

إنهم يرون أن افتراضهم لأنفسهم كعقيدة ونظرية، وأخلاق إله، أفضل من افتراضهم لأنفسهم كطبيعة، كضرورة، كمصلحة، كإرادة، كغريزة.. إنهم دائماً لا بد أن يكونوا أفضل من الافتراضين، أو أفضل الافتراضات في تقديرهم لأنفسهم.

أيها العقل، مَن رآك

«أيها العقل هل أنت الشيء ونقيضه.. هل أنت الشيء أم نقيضه.. هل أنت لا الشيء ولا نقيضه..؟

هل أنت هذا الوجود.. هل أنت فقد هذا الوجود.. هل أنت هذا الوجود وفقده.. هل أنت لا هذا الوجود ولا فقده..؟

هل أنت إلا لغة نتحدث بها، يتحدث بها الجميع، يتحدث بها الشيء ونقيضه، عن الشيء ونقيضه دون أن يكون لها تفسير أو موضوع، ودون أن يفترض أو يشترط أحد بأن يكون لها تفسير أو موضوع»..؟

*

أيها الكون.. أيها الإنسان.

أنت عقل.. أنت كل العقل، كل مستويات العقل.. أنت توجد بالعقل، وتبقى بالعقل، وتعاني وجودك بالعقل، وتريد بالعقل، وتفكر بالعقل، ثم تموت بالعقل.

إن وجودك، أسلوب وجودك، صيغة وجودك، وقت وجودك.. إن ذهابك، أسلوب ذهابك، وقت ذهابك.. إن حدود ذاتك، قوة ذاتك، صفات ذاتك، احتمالات ذاتك.

إن كل ذلك عقل.. إن كل ذلك قد دبره، قد أخرجه، قد صاغه العقل، قد انتهى عنده العقل.

إن كل الاحتمالات الأخرى رفض للعقل، رفض لكل العقل.. إنها كلها خروج عليه، على كل مستوياته واشتراطاته وقدراته واحتمالاته.. إنها زندقة.. إنها غباء.. إنها محال.

إنها زندقة وغباء ومحال، في أخلاق العقل وفي ذكائه وفي قدرته.

إن كل الاحتمالات الأخرى زندقة، غباء، محال.

أيها الكون.. أيها الإنسان.

أنت تحقد، تحسد، تكره، تعادي، تخاصم، تشاتم.. أنت تجوع، تمرض، تشيخ، تبكي، تضعف، تعجز، تهزم، تهون، تخاف، تحزن، تحتلم، تؤثر الشيخوخة المريضة المشوهة الميؤوس منها على الموت النظيف، تؤثر الموت المؤجل على الموت المسدد، على الموت المدفوعة حساباته، تؤثر الموت المقطع وبكل معاناة، على الموت بضربة واحدة وبلا معاناة.

أيها الكون.. أيها الإنسان.

أنت تفعل كل ذلك، أو يفعلك كل ذلك بالعقل.

أنت تتناسل، تتكاثر.. أنت تحب ذاتك تحب أبناءك، تحب حياتك، وجودك.. أنت تتمسك بتفاهاتك، بآلامك، بعاهاتك، بعارك، بفضائحك، بهوانك.. أنت تتمسك بوجودك، تعشق وجودك، تدافع عن وجودك، تفسر مزايا وجودك؛ مهما كانت آلامك وتفاهاتك وأحزانك، مهما كان عارك وهوانك، مهما كان وجودك تعذيباً وإذلالاً وتحقيراً لك وللآخرين وللحياة، مهما كان هجاء للإله الذي تؤمن به، وفسوقاً بعينيه، وعقاباً لضميره الذي تعاقبه كل آلام العالم.

أيها الكون.. أيها الإنسان.

أنت تفعل كل ذلك بالعقل.. أنت لا تفعل شيئاً من ذلك إلا بالعقل. إنك لن تفعل شيئاً من ذلك، لن تقبل شيئاً من ذلك لو لم يحتمه العقل، لو لم يفسره العقل.. أنت تعيش كل وجودك لأنه عقل.. لقد جاء وجودك بهذه الصيغة دون غيرها بالعقل، فأنت لم تعش إلا بالعقل، وأنت لم تجئ إلا بالعقل. إن العقل هو الذي صاغك.. إنه هو الذي يقودك.

إن سلوك تفكيرك، قدرتك على التفكير، عجزك عن التفكير.. إن ذكاءك.. إن غباءك.. إن إيمانك بأربابك، بمذاهبك، بعقائدك، بطغاتك، بمعلميك.. إن تعصبك لهم.. إن طاعتك لهم.. إن خروجك عليهم.. إن إسقاطك لهم.. إن انتقالك إلى الإيمان بخصومهم، بنقيضهم.. إن قتالك تحت أعلام أولئك الخصوم، تحت أعلام ذلك النقيض.. إن موتك تحت أقدامهم، تحت أقدامه.

إن كل إيمانك، كل اتباعك، كل كفرك، كل رفضك، أيها الكون، أيها الإنسان، إن كل ذلك ليس إلا إرادة كل العقل، إلا صيغة كل العقل لأنك أيها الكون، أيها الإنسان لست إلا إرادة عقلية، إلا صيغة عقلية؛ لأنك أيها الكون، أيها الإنسان لست إلا كل الصيغة العقلية كل الإرادة العقلية.

أيها الإنسان.

إن العقل الذي أبدعك، والذي يحركك، والذي يحكمك، والذي يلقنك، والذي يصنع منطقك وكينونتك؛ هو الذي وضع لك عدد مذاهبك وأربابك وطغاتك، هو الذي صاغ أوصافهم.. صاغ رذائلهم ومزاياهم، ودبر الاختلافات بينهم، دبر العداوات والحروب التي يمارسونها بك.. إنه هو الذي أنبت أظفارهم وأنيابهم ليفترسوك.. إنه هو الذي وهبهم القدرة عليك، ووهبك الضعف والاستسلام لطغيانهم.. إنه هو الذي ركب فيهم الشراسة، ورعب الضعف والاستسلام لطغيانهم.. إنه هو الذي ركب فيهم الشراسة، وركب فيك الهوان والهزيمة.. إنه هو الذي دبر لك الإيمان بهم، وجعلك ترى مزاياهم، وتهتف لجنونهم، وتحارب حياتك وذكاءك وجيرانك، دفاعاً عن ذنوبهم وعاهاتهم.

إن العقل هو الذي دبر لطغاتك وأربابك بأن يكونوا منتصرين عليك، وخادعين وكاذبين أبداً، ودبر لك بأن تكون مهزوماً ومخدوعاً بهم، ومصدقاً لأكاذيبهم أبداً.. إنه هو الذي دبر لمذاهبك ولطغاتك وأربابك بأن يكونوا أكثر شراسة وافتراساً من مذاهب جيرانك ومن أربابهم وطغاتهم، ودبر لك بأن تكون أكثر من جيرانك تنازلاً عن ذكائك وكبريائك.. إنه هو الذي دبر بأن يكون لك أبذأ وأكذب وأجهل وأقسى الزعماء والمعلمين والأرباب.. إنه هو الذي اختار لك أربابك وزعماءك ومعلميك وتاريخك، واختار لتاريخك، وأربابك ومعلميك وزعمائك صفاتهم.. إنه هو الذي اختار لهم أوقح الصفات، واختار لك أضعف الصفات ليكونوا الانتصار الدائم وتكون الهزيمة الدائمة.

أيها الكون..

إن عدد نجومك، انطفاء شموسك، بزوغ شموسك.. إن موت أقمارك.. إن اتساع بحارك وصحاريك.. إن فوضى بحارك وصحاريك.. إن عدد حبات الرمل فيك.. إن عدد الصخور في جبالك.. إن امتداد جبالك.. إن وقاحة جبالك.. إن حشراتك.. إن تنوع السلالات في حشراتك.. إن عشوائية امتداداتك.. إنك في كل ذواتك لست إلا كل العقل، في كل مستوياته، في كل احتمالاته، في كل تعبيراته.

أيها الإنسان..

إن التواء أنفك، ارتفاع أنفك.. إن بدانة شفتيك، دقة شفتيك.. إن ضمور إحدى قدميك، قصر إحدى قدميك.. إن كثافة شعرك.. إن ضآلة شعرك.. إن ضيق عينيك، اتساع عينيك.

أيها الإنسان..

إن كل عاهاتك، كل استواءاتك ليست إلا كل العقل، في كل إبداعاته، في كل أشواطه، في كل لغاته، في كل مغامراته، في كل صدقه وحماسه.

أيها الكون.. أيها الإنسان.

أنتما في كل صيغكما، في كل تفسيراتكما.. أنتما كل العقل، في كل صيغه، في كل تفسيراته.

*

أيها العقل..

ما أنت.. من رآك.. ما صيغتك.. ما نقيضك.. ما شروطك.. ما صفاتك..؟

أين توجد.. متى توجد.. من امتلكك.. من عاشك.. من تعامل بك.. من تعامل عليك..؟

هل أنت الشيء ونقيضه.. هل أنت الشيء أم نقيضه.. هل أنت لا الشيء ولا نقيضه..؟

هل أنت هذا الوجود.. هل أنت فقد هذا الوجود.. هل أنت هذا الوجود وفقده.. هل أنت لا هذا الوجود ولا فقده..؟

هل أنت الحرب.. هل أنت السلام.. هل أنت العداوة.. هل أنت الصداقة..؟

هل أنت هذه الحشرة.. هل أنت آكلة هذه الحشرة.. هل أنت هذه الحشرة وآكلتها.. هل أنت لا هذه الحشرة ولا آكلتها..

هل أنت هذا الحب.. هل أنت هذا البغض.. هل أنت هذا البغض وهذا الحب.. هل أنت لا هذا الحب ولا هذا البغض..؟

هل أنت هذا المذهب، هذا الإله، هذا الزعيم، هذا المعلم، هل أنت خصمه.. هل أنت لا هذا ولا خصمه..؟

هل أنت كل الأشياء.. هل أنت بعض الأشياء، هل أنت خارج كل الأشياء..؟

هل أنت أن أكون بحجمي.. أو أن أكون أكبر من حجمي، أو أن أكون أصغر من حجمي..؟

هل أنت أن أكون كما أنا، أو أن أكون غير ما أنا..؟

هل أنت أنا، أم أنت جاري، أم خصمي، أم مخالفي..؟

هل أنت أن أكون موافقاً لجاري، صديقاً، محباً له.. أم أن أكون مخالفاً معادياً له.. أم أن أكون هذا وهذا.. أم ألا أكون لا هذا ولا هذا..؟

هل أنت أن تكون الشمس موجودة، وأن تكون واحدة، وأن تكون بهذا الحجم، بهذا البعد، بهذه البلاهة، بهذه الدمامة، بهذه الوقاحة.. أم أنت أن تكون الشمس غير موجودة أو أن

تكون أكثر من واحدة، وأن تكون بغير هذا الأسلوب، بغير هذه الأخلاق والصفات..؟

هل أنت أن يكون العالم إله، وأن يكون إلهاً واحداً، وأن يكون بهذه الصفات، بهذه المستويات من الذكاء، والقدرة، والنظام، والحب، والصداقة، والمواهب الفنية والشعرية.. أم أن يكون العالم بلا إله.. أم أن تكون له آلهة عديدة.. أم أن يكون إلهه على مستويات أخلاقية وفكرية وفنية أفضل أو أردأ..؟

هل أنت أن يجيء الإله كما جاء.. أم يجيء غير ما جاء.. أم ألا يجيء كيفما يجيء..؟

أيها العقل..

هل أنت الوجود.. هل أنت الخروج على الوجود..؟

هل أنت سبب الوجود، فكرة الوجود، مبدأ الوجود.. هل أنت تفسير الوجود، صورة الوجود، لغة الوجود.. هل أنت الاحتجاج على الوجود، الصراخ ضد الوجود، الاحتماء من الوجود، الهرب من الوجود، السباب للوجود، تعديد العيوب في الوجود، تعديد الذنوب في الوجود..؟

كل الآلهة، كل المذاهب، كل النظم، كل الناس، على كل الجبهات المتناقضة، يتحدثون ويسرقون، ويقتلون، ويفسقون، ويكذبون، ويعادون، ويسفهون، ويعيشون كل الجنون، ويتلوثون، ويصلون لكل الأبالسة، والآثام، والحماقات، والجرائم باسمك أيها العقل.

أيها العقل، الذي هو كل الناس.. الذي هو كل الوجود.. الذي هو ليس شيئاً من الناس ولا شيئاً من الوجود.. الذي هو ليس شيئاً غير الناس، غير الوجود.

أيها العقل..

هل أنت كل الناس، كل الوجود..؟

إذن لماذا يتقاتل ويتصادم ويتلاعن كل الناس، كل الوجود باسمك، ودفاعاً عنك وشوقاً إليك..؟

هل أنت بعض الناس، بعض الوجود..؟

إذن لماذا يدعيك كل الناس، كل الوجود.. لماذا يشتبه الوجود والناس الذين هم أنت، بالوجود والناس الذين هم ليسوا أنت.. لماذا كنت الوجود والناس الذين كنتهم، ولم تكن الوجود والناس الذين لم تكنهم..؟

لماذا تكون الحشرة ولا تكون الإنسان.. لماذا تكون الإنسان ولا تكون الحشرة.. وكيف أمكن أن تكون الإنسان وتكون الحشرة.. وإذا كنتهما معاً، فكيف يقتل أحدهما الآخر.. كيف

تقتل أنت نفسك.. كيف تقتل الحشرة التي هي أنت، الإنسان الذي هو أنت.. كيف تقتل أنت نفسك باسم الدفاع عن نفسك، تحت شعار الغضب لنفسك..؟

كيف يقتل العقل العقل دفاعاً عن العقل..؟

أيها العقل..

أية صيغة هي أنت، إذا لم تكن كل صيغة هي أنت.. أي إنسان يمكن أن يكون أنت، إذا لم يكن كل إنسان هو أنت.. أنت إما أن تكون كل شيء، وإلا فلست شيئاً. وإذا كنت كل شيء، فكيف يمكن أن تكون شيئاً..؟

أيها العقل..

كيف يمكن أن نتحدث إليك.. أن نتوجه بالحديث إليك..؟

هل أنت شيء غير التحدث إليك..؟

هل أنت شيء غير ارتباطنا بأنفسنا وبالأشياء، غير محاولتنا الارتباط بأنفسنا وبالأشياء..؟

هل أنت شيء غير رؤيتنا للآخرين، لما حولنا، لما ليس حولنا..؟

هل أنت غير عجزنا عن الرؤية، عن محاولتنا الرؤية..؟

هل أنت غير تنافرنا مع الكون.. هل أنت غير شعورنا بهذا التنافر، واحتجاجنا عليه..؟

هل أنت غير تلاؤمنا مع الكون.. هل أنت غير شعورنا بهذا التلاؤم وتعبدنا له وحاجتنا إليه، وتحدثنا عنه..؟

هل أنت موجود أيها العقل.. من رآك.. من تعامل عليك.. من تعامل بك..؟

هل رآتك الآلهة.. هل تعاملت بك.. هل تعاملت عليك..؟

هل رأتك الطبيعة.. هل تعاملت بك.. هل تعاملت عليك..؟

هل رآك الإنسان.. هل تعامل بك.. هل تعامل عليك..؟

هل رأيت نفسك.. هل تعاملت بنفسك.. هل تعاملت عليها؟

من رآك.. من تعامل بك.. من تعامل عليك..؟

أيها العقل..؟

هل أنت غير لغة نتحدث بها، يتحدث بها الشيء ونقيضه، عن الشيء ونقيضه..؟

هل أنت إلا لغة عالمية يتحدث بها كل الناس، ليعني كل فريق نقيض ما يعنيه الفريق الآخر، دون أن يخجلوا من أنفسهم، دون أن يصيبهم الاندهاش، دون أن يجتمعوا ليتفقوا على ما

يعنون، لأنهم لا يعنون شيئاً سوى أن يعبروا عن وجودهم وظروفهم وأمانيهم، وما لُقنوا بأسلوب ما، أو بكلمة أو بكلمات، أو بلغة ليس فيها معنى اللغة، كما لا يطلب أن يكون فيها معنى اللغة؛ كما يعبرون عن كل ذلك بالحزن والبكاء وبالحريات العصبية.

•

إن كل عبقرية الإنسان العقلية، لا تعني إلا الدفاع عن مستويات لوجوده غير عقلية، أو ابتكار مستويات غير عقلية، أو تطوير مستويات غير عقلية، أو ممارسة مستويات غير عقلية، بحوافز غير عقلية، للوصول إلى نتائج غير عقلية.

إن كل عبقرية الكون العقلية، لا تعني أكثر من أنه لا يستطيع أن يكون غير ذاته، غير ما قد كان، غير ما هو كائن، غير صيغه المحتومة المتكررة، أو صيغه المتغيرة بآلية حتمية.

إن عبقرية الكون العقلية، ليست أكثر من أنه يكون أو لا يكون، من أنه يمارس ضرباته ومهادناته، مناقضاته وملاءماته؛ بلا نية شريرة، وبلا نية صالحة، بلا حب وبلا بغض.. ومن أنه لا يستطيع أن يكون أفضل أو أردأ من نفسه.. ومن أنه لا يستطيع الكف عن ممارساته التي لا يجد فيها لذة ولا عذاباً، والتي لا يريد بها أن يكون خسيساً ولا نبيلاً.

إن الكون يمارس ذاته بآلية لا عقلية.. إن هذه هي كل عبقريته العقلية. وإن الإنسان يستخدم عقله خاضعاً لوجوده غير العقلي، ولضبروراته وحوافزه غير العقلية، في كون غير عقلي.. إن هذه هي كل عبقريته العقلية.

إن كل عقل لدى الإنسان أو في الكون، لا يعني إلا أن يعطي ما ليس عقلاً.. أو أن يحافظ على ما ليس عقلاً.. أو أن يستمر في ما ليس عقلاً.. أو أن يسوغ ما ليس عقلاً.

إن كل عقل ينطلق عما ليس عقلاً، وينتهي إلى ما ليس عقلاً، ويعيش ما ليس عقلاً، بأسلوب ليس عقلاً.

أيها العقل..

هل أنت الإنسان أكثر مما أنت الحجر.. هل أنت العقل أكثر مما أنت الجنون..؟

هل أنت أن نبحث عنك.. هل أنت أن نهرب منك.. هل أنت أن نجدك.. هل أنت أن نفقدك.. هل أنت أن نؤمن بوجودك، أم أن ننكر وجودك..؟

أيها العقل..

هل توجد في شيء أكثر مما توجد في شيء آخر..؟

هل أنت موجود في العبقرية أكثر مما أنت موجود في أعلى مستويات البلادة..؟

أي عقل دبر أن توجد العبقرية في هذا الإنسان دون ذاك الإنسان.. بل أي عقل دبر لوجود العبقرية، ودبر لوجود الظروف التي تخلق العبقرية والتي تجعلها احتياجاً.. وأي عقل في الاحتياج إلى العبقرية.. وأي عقل تعيشه العبقرية.. وأي عقل في النتائج، في كل النتائج التي توصل إليها العبقرية.. أي عقل في وجود العبقرية، أو في أسلوب وجودها، أو في خلق الحاجة إلى وجودها، أو في ممارستها أو في نتائجها، أو في ممارسة نتائجها أو في وجود الإنسان الذي تسكنه، أو في وجود الحياة التي تصنعها وتعيشها..؟

أي عقل في العقل.. في وجوده، أو في صيغته، أو في نتائجه، أو في حوافزه، أو في ظروفه، أو في ممارسته لنفسه..؟

أي عقل فيك أيها العقل.. أي عقل..؟

أيها العقل الكوني.. أيها العقل الكائن فوق الكون، وقبل الكون، وبعد الكون.

أيها العقل..

كم قد رأيت، وآمنت بك، وامتلكتك، وصليت لك، وقبضتك بيدي، ومارستك، وخاصمت بك، وخاصمت دونك، وخاصمت عليك.

كم قد رأيت من يرونك، ويؤمنون بك ويمتلكونك، ويصلون لك، ويقبضون عليك بأيديهم، ويمارسونك، ويخاصمون بك، ويخاصمون دونك، عليك.

كم قد رأيتك في أحزاني وضياعي، وجهلي، وعجزي، وحرماني، ومرضي وخوفي.

كم قد رأيتك في تعاليمي، في قبور آبائي، في تاريخهم، في نقائصهم، في عداواتهم، في خصوماتهم، في عدوانهم، في حروبهم.

كم قد رأيتك في آلامهم، في أحزانهم، في تفاهاتهم، في غباواتهم، في صلواتهم، في أربابهم، في معابدهم.

كم قد رأيتك في خطوات الشيخ الفاني، وفي دموع الأيتام والأرامل، وفي دموع كل المعذبين والمحزونين.

كم قد رأيتك في العيون الخائفة، في العيون البائسة، في العيون الجائعة، المحرومة، وفي العيون المظلومة المقهورة، في العيون المشتومة، المحقرة، المهزومة.

كم قد رأيتك في الدمامة، في التشوهات، في كل العاهات، في كل الحقارات.

أيها العقل..

كم قد رأيتك في طغيان الطاغية، وفي جهالة المعلم، وفي نفاق الواعظ وكذبه.

كم قد رأيتك في نزق اللذة وافتضاحها، في عذاب الألم وهوله، في وقاحة الانتصار، في هوان الهزيمة، في قتل المسرة وتخطيها بممارستها، في استدامة الكآبة بفعل أسبابها، بالبحث عن أسبابها، برفض التخلي عن مكانها. نحن نمارس اللذة، أي نقتلها، نتخلص منها.. نحن لا نطيق إطالة الوقوف أمام اللذات. إن كل لذة لا تعني إلا الهرب منها، لا تعني إلا أسلوبنا في الهرب منها.

كم قد رأيتك في النعش وفي الولادة، في الأنين وفي الضحكات البلهاء التي هي أقوى وأقسى لغات الأنين.. التي هي أحد أساليب التعبير عن الأنين، عن الخوف منه، عن الهرب منه، عن الاحتجاج عليه، عن السب له، عن الإعلان عنه، عن التداوي منه، عن البحث عنه، عن الشوق إليه. نحن نضحك بصراخ، بعنف، أي نحن نحاول أن نستر البكاء، أن نغالطه، أن نخفى عليه، أن نؤجل أوان مجيئه، انفجاره.

أيها العقل..

كم قد رأيتك بلا حدود، بلا شروط، بلا تنزيه، بلا افتراض مستويات لك.

كم قد حقرتك، وهجوتك حينما رأيتك، حينما تحدثت باسمك، حينما قاتلت تحت رايتك، حينما خاصمت بك، عليك، دونك.. حينما كرهت، وشتمت، وعاديت من أجلك، غضباً لك، حباً لك، احتراماً لك.

والآن، أيها العقل..

أعتذر إليك، أستغفرك، أتوب عن تحقيرك وهجائك، عن تحقيري وهجائي لك.

الآن لا أراك، لا أجدك، لا أؤمن بك.

بهذا أعتذر إليك، أستغفرك، أتوب عن تحقيري، عن هجائي لك.

الآن، سوف أمارس نفسي وتفاهاتي، وضروراتي وأكاذيبي، وهمومي ونقائصي، وأحقادي وظروفي باسمي لا باسمك.

إني أريد أن أبرئك.. إني لا أجرؤ على الاستمرار في ظلمي لك، في كذبي عليك، في إلقائي بنفسي فوقك.

الآن، أريد أن أعتذر، أن أتوب، أن أترفع عن الاستمرار في الكذب عليك.

أنت لست موجوداً، أنا الموجود فقط، نقائصي وضروراتي، مخاوفي ومجاعاتي، مشاكلي، وأحزاني، هي فقط الموجودة، هي المحاربة، والمخاصمة، والمفكرة، والمتحدثة، والمقتنعة، والرافضة.. هي فقط، هي فقط..

أنت لست موجوداً، لست موجوداً.

بهذا أحترمك، أنزهك، أنصفك، أعتذر إليك، بنفيك.

لقد كان إثباتك هجاء.

إن الوجود بلا شروط هو أقسى ضروب الهجاء والتحقير، هو أقسى أساليب التعذيب والتشويه.

لو كنت موجوداً بكل مستويات الوجود لكنت أقبح وأشقى موجود.

إن الوجود ليس دائماً بطولة أو ربحاً أو انتصاراً.

لا تستطيع أن تمسك به. فهو صراخ يقول كل شيء ولا يقول شيئاً.. يخاطب الجميع، ولا يخاطب أحداً إنه الوجه والقفا.. ثائرٌ ومتلائم.. ملتزم وغير ملتزم.. بريءٌ وفتّاك.. مسكونٌ بشحنة الاحتجاج.. متناقض ومنطقي.. شعري وعقلاني.. معتمٌ وصاف، كأنه الرمل وقطرة المطر.

إنّه صرخة خلاص من الأقنعة وسفر إلى الأطراف القصوى. هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة: من هراقليطس حتى العبثية المعاصرة مروراً بنيتشه وماركس. لكنه يبقى عربياً، أصيل النبرة والبعد، نفاذ الحضور، حتى ليصعب أن يوصف العربي الذي لا يقرؤه بأنه مثقف أو بأنه يحيا على هذه الأرض العربية الرائعة المضطربة في هذه الحقبة الرائعة المضطربة.

عبد الله القصيمي، في الفكر العربي، حدث ومجيء..

حدثٌ لأن صوت هذا البدوي الآتي من تحت سماء المدينة ومكة، صوت هائل فريد..

ومجيءٌ لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوة.

أدونيس

أيها العقل من رآك

لا تستطيع أن تمسك به.

فهو صراخ يقول كل شيء ولا يقول

شيئاً .. يخاطب الجميع، ولا يخاطب أحداً

إنه الوجه والقفا .. ثائر ومتلائم ..

ملتزم وغير ملتزم .. بريء وفتاك ..

مسكون بشحنة الاحتجاج .. متناقض ومنطقي .. شعري وعقلاني .. معتم وصاف، كأنه الرمل وقطرة المطر.

إنه صرخة خلاص من الأقنعة وسفر إلى الأطراف القصوى. هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة : من هراقليطس حتى العبثية المعاصرة مروراً بنتشه وماركس. لكنه يبقى عربياً، أصيل النبرة والبعد، نفاذ الحصور، حتى ليصعب أن يوصف العربي الذي لا يقرؤه بأنه مثقف أو بأنه يحيا على هذه الأرض العربية الرائعة المضطربة في هذه الحقبة الرائعة المضطربة.

عبدالله القصيمي، في الفكر العربي، حدث ومجيء..

حدث لأن صوت هذا البدوي الآتي من تحت سماء المدينة ومكة، صوت هائل فريد ..

ومجيءٌ لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوة.

أدونيس


ISBN 978-614-404-568-8
9 786144 045688